بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

دفرسوار

للدكتور إبراهيم أنيس



الاسم « دفرسوار » فجأة فى أثناء معركة رمضان ، وأصبح على كل لسان فى تلك الأيام المريرة ، مرتبطا – ويالسخرية القدر – باسم البحيرات المرة ! !

وجذبنى الاسم بوصفى لغويا جذبا قويا ، لغرابته أولا ، ولما يوحى به جرسه من صلة وثيقة باللغة الفرنسية ، لغة « ديليسبس » المهندس الفرنسى الذى خطط لمشروع قناة السويس ، وتولى تنفيذها مستغلا فى ذلك عرق العمال المصريين ودماءهم ! !

وشرعت أتساءل عن تأصيل الاسم « دفرسوار » الذى ظل وحده بين أسماء منطقة القنال ، يحتفظ بتلك المسحة أو السحنة الأجنبية عنا ! !

وبرغم ما كنت أعرفه عن الطريق الشائك الذى تحفّ به كل دراسة تعرض تفاصيل الأسماء أو الأعلام ، فهى دراسة جذابة جدا ، شائقة جدا ، تشد نحوها كثيرا من الباحثين فى اللغة شدا عنيفا فكأنها قوة مغناطيسية لا يستطيع معها فكاكا ، ولكنها مع ذلك محفوفة بالمزالق ومواضع الزلل .

وتذكرت ما قام به أحد علماء العربية فى أوائل القرن الرابع من الهجرة هو ابن دريد فى كتاب له مشهور سمّاه « الاشتقاق » ، وحاول فيه تأصيل الأعلام فى شبه الجزيرة العربية من أسماء القبائل والأمكنة ، فأسرف على نفسه وعلينا ، وجاءنا بقدر كبير من الحدس والتخمين ، وبأصول ما أنزل الله بها من سلطان ، أصول لا يملك الباحث الحديث إزاءها إلا أن يبتسم أو يسخر لسذاجتها وما فيها من تكلف وتعنت ! !

وتذكرت كذلك تجربة سرت أمامى فى أثناء دراستى بلندن ، حين وفد إلى أستاذنا هناك طالب يابانى ، وقد بلغ به الحماس مبلغه إلى البحث فيما أسماه : الكشف عن الكلمات الإنجليزية التى دخلت اللغة اليابانية ! !

وظل يعمل شهورا عسى أن يعود بتلك الكلمات إلى أصولها من حيث الأصوات أى « فوناتيكيا » ، ومن حيث الدلالة أى « سمانتيكيا » ، ثم ظهر بعد الجهد المضنى أن الكلمات التى حسبها إنجليزية الأصل ليست إلا كلمات يابانية التقطها بعض البحارة الإنجليز فى سنين طويلة من شواطئ اليابان ، ثم « جلنزوها » أى خلعوا عليها صبغة إنجليزية أفقدتها كثيرا من معالمها الأصلية ،فلما عادت تلك الكلمات إلى اليابان فى أفواه البحارة الإنجليز ، وفى صورتها الجديدة ، أنكرها أهلها ، ولم يتعرفوا عليها ،وظنها الطالب اليابانى إنجليزية الأصل . وهكذا ردّت إلى اليابان بضاعتها .

وكان أستاذنا حينئذ يحذرنا من عملية تأصيل الأعلام ، وينصحنا بأن نلتمس طريقنا معها على مهل ، ومع قدر كبير من الحيطة والتريث ، وطول التأمل والتفكير .

أقول : برغم كل ذلك وجدتنى لا أستطيع الفكاك من أسر الاسم « دفرسوار » وسحره ، وبدأت أفكر فى محاولة لتأصيله .

وكان علىّ فى هذه المحاولة أن ألجأ إلى بعض المشهور من المعاجم التاريخية للغة الفرنسية ، وإلى وثائق التاريخ الحديث ، ثم ربما فوق هذا وذاك ، إلى بعض من كتبوا عن جغرافيه هذه المنطقة . فشهدت عجبا ! !

فقد ظهر أولا من الخرائط التى رسمها « ديليسبس » للمنطقة قبل حفر القناة ، وهى الخرائط المحفوظة بمكتبة جامعة القاهرة ، والمنشورة تحت عنوان :
Percement de l'isthme de Suez

أن « ديليسبس » نفسه قد كتب فى مكان جنوبى « السرابيوم » ، الكلمة الفرنسية Réservoir ، وهو المكان المعروف الآن بالاسم « دفرسوار » ! !

وظهر كذلك من كتاب ألفه المهندس فؤاد فرج عن منطقة القنال ومدنها[1] ما نصه :

« وكانت البحيرات المرة قبل حفر القناة عبارة عن مستنقع منخفض حول قاعه غابة كثيفة من شجر الأثل اسمها العَمْبَق » .

وبالرجوع إلى المعجم العربى المشهور لسان العرب ، اتضح لنا مع الدهشة والاستغراب أن « العمبق » فى أغلب الظن من الكلمة العربية « العنبقة » بمعنى مجتمع الماء والطين ! ! ولا حاجة بنا هنا إلى التذكير بأن النون الساكنة التى بعدها « باء » تسمع فى آذاننا نحن أبناء العربية « ميا » .

نحن إذن إزاء منطقة عرفت قبل حفر القنال ، بأنها منطقة مستنقعات وبرك ، واستغلت فى فتح القنال كمستودع يملأ بالمياه وقت المدّ فيساعد على الملاحة ، أو كما يعبر المهندس فؤاد فرج فى كتابه بما نصه[2] :

«ووجود البحيرات المرة فى طريق المشروع يجعل منها حوضا طبيعيا مساحته ٢٨٠ مليون متر مربع اتسع عند ارتفاع المدّ بمقدار مترين فى البحر الأحمر ٥٦٠ مليون متر مكعب من الماء . وهذه تساعد الملاحة بشكل واضح لارتفاعها فوق منسوب مياه البحر الأبيض المتوسط » .

---

(١) المجلد الثانى ص ٢٥ . (٢) ص ٢٠٦ .

ثم رجعنا إلى المعجم التاريخى الفرنسى (معجم روبير) للبحث عن دلالة كلمتين هما :

(١) Réservoir وهى التى وجدت فى خرائط « ديليسببس » .

(٢) Déversoir وهى الكلمة التى قفزت إلى الذهن لأول وهلة ، وتبين لنا أن هذا المعجم يذكر بين معانى الكلمة الأولى معنى « بركة أو مستنقع » ، ويذكر أن من معانى الكلمة الأخرى « منفذ تنصب من كمية ضخمة من المياه التى فى قناة أو بركة » .

ويشير المعجم إلى أن بدء استعمال الأولى فىاللغة الفرنسية هو منتصف القرن السادس عشر ، وأما الكلمة الأخرى فلم تعرف فى الفرنسية إلا فى منتصف القرن الثامن عشر ! !

ووقفنا إزاء كل هذه المعلومات حائرين نتساءل : أى الكلمتين هو الأصل الأصيل للاسم دفرسوار ؟ ! ولم نجد مناصا من أن نفترض أحد فرضين :

أولهما : أن نختصر طريق البحث فنقول إن الكلمة Déversoir هى الأصل ، ولم يتغير منها إلا حرف ال (V) الذى لا تعرفه العربية ، فأصبح فاء ، وإلا تعديل طفيف فى نظام المقاطع ، لأن المقطع (Vers) لا يقع أبدا فى وسط الكلمة العربية . فلما عدلت المقاطع إلى ما يتفق مع مقاطع لغتنا العربية أصبح المقطع الأول « دِفْ » ، والثانى « رِسْ » ! ! غير أنا ترددنا قليلا فى قبول هذا الفرض ، لما شاهدناه فى الخرائط من أن موقع مدينة الإسماعيلية يشبه تمام الشبه موقع المكان المعروف باسم « دفرسوار » ، فالأولى فى الطرف الشمالى الغربى من بحيرة التمساح ، والدفرسوار فى الطرف الشمالى الغربى من البحيرات المرة . ومع ذلك لم يطلق الاسم « دفرسوار » إلا على المكان الخالى ! ! هذا إلى أن المعجم الفرنسى لم يشر بين أمثلته — على غير ما كان متوقعا — إلى الكلمة Déversoir كمكان محدّد فى القنال ، مع أن الكلمة قد عرفت فى اللغة الفرنسية قبل فتح القنال بنحو قرن من الزمان ! !

ثانيهما : وأما الفرض الثانى ففى رأيى أنه أكثر احتمالا ، لأنه يعتمد أساساً على ما يشاهد فى خرائط «ديليسبس» ، ثم على ما وصفت به الطبيعة الجغرافية لهذه المنطقة قبل فتح القنال وبعد فتحها من أنها منطقة مستنقعات وبرك .

ويتحتم لذلك أن نقول إن الموضع الذى كتب عليه فى خرائط ديليسبس كلمة Réservoir قد ظهر لمهندسيه ومساعديه فى أثناء الحفر أنه موقع فيه بعض البرك والمستنقعات ، فاتخذوها بمثابة مستودعات للمياه ، وأطلقوا عليها التعبير الفرنسى Des Réservoirs (دِرِسِرْفْوار) ! ! ومن هنا جاء الاسم المألوف لنا الآن ! !

وعلى أساس هذا الفرض يمكن أن نوضح كيف أن « دِرِسِرْفْوار » قد صارت « دِفِرْسْوار » . وهنا أقرر مطمئنا أن الناطق العربى يعمد عادة إلى اختزال بعض مقاطع الكلمات المسرفة الطول ، فيسقط منها ما لا يخلّ بالمعالم الأصلية ، وكان ذلك بحذف المقطع الرائى الأول . فأصبحت الكلمة (دِسِرْفْوار) ثم حدث تعديل طفيف فى المقاطع وأصبح لدينا جذر رباعى فى أول الكلمة و « دِسْرِفْ » . وعن طريق تلك الظاهرة التى عرفت قديما باسم القلب المكانى ، ولدى الأوربيين باسم metathesis تغير ترتيب الحروف وأصبح الجذر الرباعى « دِسْرِف » على صورة « دفْرِس » وبقى المقطع الأخير للكلمة الأصلية وهو « وَارْ » كما هو فى كل الحالات!

وأما السرّ فى حدوث ذلك القلب المكانى فى ترتيب الحروف فنعزوه فى دراستنا الحديثة إلى اختلاف نسبة الشيوع بين السلاسل الصوتية فى جذور لغتنا العربية . وقد دلتنا على ذلك إحصاءات الحاسب الإلكترونى فى دراسة إحصائية حديثة لجذور لغتنا العربية مؤسسة على أشهر المعاجم العربية القديمة . ونتخذ نحن اللغويين هذه الإحصاءات الآن بمثابة المسطرة الحاسبة للمهندسين ! !

وبالرجوع إلى هذه الإحصاءات تبين لنا أن السلسلة الصوتية « دِسْرِف » أقل شيوعا ، وبشكل واضح من السلسلة الصوتية (دِفْرِس » .

ولا عجب إذن أن السلسلة الصوتية الثابتة تسبق إلى اللسان العربى حين يحاول النطق بالسلسلة الأولى ، ومن هنا جاء الاسم « دِفِرْسْوار » ! !

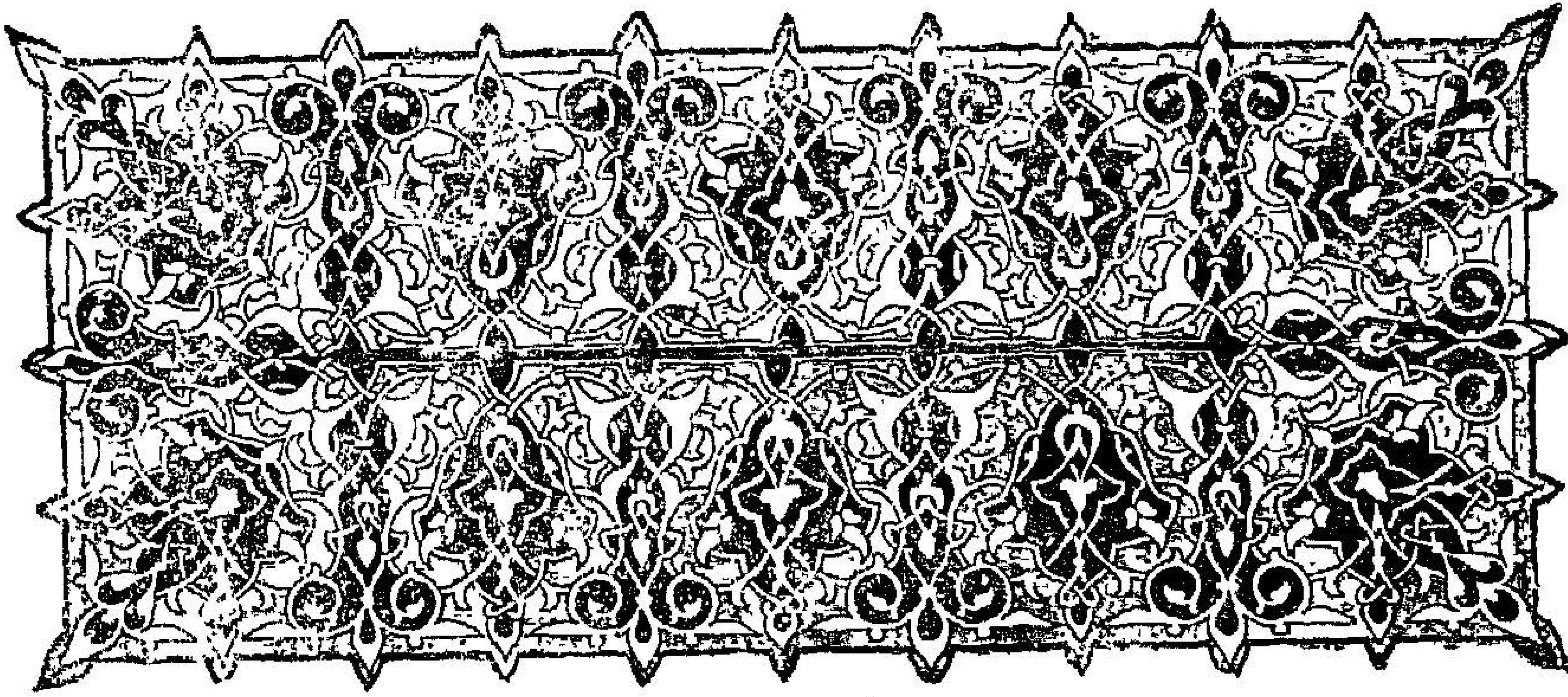
وليس مثل هذا الفرض بأكثر غرابة حين يقارن بما نعرفه عن المراحل المعقدة التى مرت بها بعض الأسماء والأعلام على ألسنة الجماهير فيما مضى . ويكفى هنا أن نتذكر أن مدينة « حلب » قد أصبحت فى ألسنة الأوربيين « أَلِبّو » ! ! وأننا كنا فى عهد قريب نسمع القاهريين يتحدثون عن « الأُورْنُسْ » فى العباسية ويريدون به الكلمة الإنجليزية ordnanc ! ! وربما من ذلك أيضا أن التعبير الإنجليزى Work - shop قد أصبح فى ألسنة المصريين « ورشة » .

وبعد : فلست أهدف من وراء هذا التأصيل إلا إلى تفجير المشكلة ؛ لعلّ هناك من يهدينا إلى ما لم يكن قد اهتدينا إليه ،

مايو ١٩٧٤ وبالله التوفيق

المشرف على المجلة

ابراهيم أنيس



العربية لغة العلم والتكنولوجيا



للدكتور ابراهيم مدكور



ظن لأول وهلة أن هذا العنوان دعوى ، وكل دعوى لم يقم عليها دليل فأهلها أدعياء . والواقع أن هذا الدليل قد قام فى الماضى والحاضر ، فكانت العربية قديما لغة العلم يوم أن لم تكن له لغة سواها ، وها هى ذى تؤدى اليوم الرسالة نفسها ، وإن بدا فيها قصور ما ، فذلك عيب الناطقين بها ، ولاتسأل هى عنه فى شىء . وتعريب التعليم الجامعى من القضايا المثارة ، والمثارة بعنف فى العشرينات الأخيرة . ونخطىء إن زعمنا أننا لم نخط فى هذا السبيل خطوات وأستطيع أن أقرر أنها خطوات فسيحة ، إذا ماقيست بالزمن الذى قطعت فيه .

ويكفى أن أشير إلى جامعة الكويت الحديثة النشأة ، فقد أفادت من تجربة الجامعات العربية ودرست العلوم الإنسانية كلها بلسان عربى مبين ، من تاريخ وجغرافيا ، وتجارة واقتصاد ، وحقوق وتشريع ، وعلم نفس وتربية ، واجتماع وفلسفة .

فلم نتردد فى ذلك ، كما صنعت جامعات عربية أخرى ، بين العربية وبعض اللغات الأجنبية من فرنسية أو إنجليزية ، وأقامت الدليل العملى على أن لغتنا كفيلة بذلك على خير وجه . وقدر لها أن تحظى بزمرة صالحة من الأساتذة الأجلاء ذوى الخبرة الطويلة ، فحملوا الرسالة وأدوا الأمانة أصدق أداء . وليس فى هذه الجامعة إلا كلية واحدة تدرس موادها باللغة الإنجليزية وهى : كلية العلوم . وتعد العدة لإنشاء كليتين إحداهما للطب والأخرى للهندسة ، وأتوقع أن يوضع سؤال لغة التدريس موضع البحث . ويقينى أن هذه الكليات الثلاث سائرة نحو ماانتهت إليه الدراسات الإنسانية .

وكم تذكرنى قضية تعريب التعليم بمشكلة أخرى أثيرت فى العشرينات الأولى من هذا القرن ، وهى مشكلة الثنائية بين العامية والفصحى ، والرغبة فى التخلص منها . فذهب فريق إلى الأخذ بالعامية ليسرها وانتشارها ، ويظهر أنه نظر إلى

(*) كلمة ألقيت بجامعة الكويت فى الربيع الماضى .

الموضوع من زاويته الخاصة ، ونسى أن هناك عاميات لا عامية واحدة ، فكيف يجمعها ويؤلف بينها ؟ ورأى فريق آخر ألا بد من الاستمساك بالفصحى ، تقديسا للماضى ، وحرصا على جمع العروبة على بساط واحد ، وإبقاء على تراث من الخرق تبديده دون التأكد من بديل يحل محله .
وعندى أن هذا الحوار وهذه الخصومة لم تخل من خير وبركة ، فقد قادت إلى فصحى جديدة هينة لينة ، تعنى بالجلاء والوضوح . وتنفر من الشاذ والغريب ، وتمقت الصنعة اللفظية ، وتأخذ عن العامية كلما كان اللفظ عربى الأصل . وبذا ضاقت مسافة الخلف بين الطرفين ، وأصبحنا لا نحس بتلك الثنائية إحساسنا بها بالأمس . وتوفرت لدينا فصحى جديدة كتبت بلغة العصر وروحه ، وسلمت من العبارات الضخمة والجمل الطنانة التى شاعت فى أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن . ويقينى أن نشر التعليم والثقافة الشعبية ، والنهوض بوسائل الإعلام من صحافة وإذاعة سيقضى ذلك كله بتاتا على هذه المشكلة . وسبق أن لاحظت أن صوت أم كلثوم وغناءها قربا المسافة بين لغة تونس ولغة القاهرة ، وألاحظ اليوم أن الإذاعة الكويتية قربت كثيرا لهجة أهل الكويت من لهجة القاهريين . ومن العبث أن نعود مرة أخرى إلى الحديث عن هذه الثنائية ، فقد انقضى زمنها ، أصبحت غير ذات موضوع .

وهناك عبث آخر شبيه بهذا ، ويحمل رايته بعض إخواننا اللبنانيين الذين يتحدثون عما سموه اللغة الأساسية ، وهى فى تقديرهم مزيج من العامية والفصحى ، ولست أدرى فى أى معمل أو صيدلية يتم هذا التركيب . وهل من سبيل لأن تصنع لغة ما صنعا ، وأن تفرض على الناس فرضا؟ إن الواقع والتاريخ يشهدان باستحالة ذلك ، وإن قوانين المجتمع تعارض هذا وترفضه . وهل فات أصحاب هذه « الروشتة » أن هذا المزج يتم عفوا وبطريقة طبيعية وفى لغتنا الدارجة عامية وعربية ، بل ألفاظ وتعبيرات أجنبية أيضا . والذى لا شك فيه أن هذه اللغة الدارجة أصبحت اليوم أسمى مما كانت عليه فى أوائل هذا القرن ، وتضيق مسافة الخلف بينها وبين الفصحى باطراد ، وتلك سنة التطور اللغوى فى كل المجتمعات .

وأملى كبير فى أن يقطع تعريب التعليم الجامعى الطريق على هذا النحو ، وقد قطع فيه شوطا غير قصير . والمهم أن يتمكن العلماء من لغتهم القومية ، وإذا ما أجادوها ، ففى وسعهم أن يؤدوا بها كل ما يصادفون من معنى ، وكل ما يجول فى أذهانهم من فكرة .

للعلم لغة يؤدى بها ، ولا حياة له بدونها ، بها يشرح ويعلم ، وبها يكتب وينشر بين الناس . وتحيا اللغة العلمية بحياة العلم نفسه ، وتسير بسيره ، ولا سبيل لأن توجد فى

مجتمع لايغذيها ولاينميها : والنهوض العلمى مقترن دائما بالنهوض الحضارى ، هكذا كان ، وهكذا يكون . فالعلم اليونانى وليد نهضة أثينا فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، والعلم الإسلامى ثمرة من ثمار العصر العباسى الأول ، وهو قمة الحضارة الإسلامية . والعلوم الأوربية امتداد للنهضة الحديثة ، وصدى لما قام به الأوربيون من كشوف ورحلات . وحركاتنا العلمية المعاصرة أثر من آثار يقظة القرن الماضى ، ونتيجة من نتائج ذلك الوعى الذى ينشد النهوض والتقدم .

ولغة العلم صنيع أهله ، فالعالم الذى يكشف الظاهرة أو يخترع الفكرة هو وحده الذى يحس بها ، ويحسن التعبير عنها ، ويحكم أداءها ، ومن الخطأ أن نفرض عليه لفظا ، أو نلزمه بصيغة معينة . وكلما كان متمكنا من لغته القومية ، استطاع أن يختار منها اللفظ الملائم والصيغة الدقيقة . ولغة العلم فى تطور مستمر شبيه بتطور اللغة الوطنية نفسها ، تتقدم بتقدم البحث ، وتنمو بنمو المادة العلمية .. وتاريخ علم يكاد يتلخص فى تاريخ مصطلحاته ، ولكل عالم قدر من الألفاظ ابتكره والتزم به ، وكثيرا مايرجع خلاف العلماء إلى اختلاف على مدلول ألفاظ تباينوا فى فهمها وشرح المقصود منها : .وهناك مصطلحات تبدو قلقة عند نشأتها ، ثم لاتلبث أن تركز وتستقر ، وأخرى تموت فى مهدها ولا يقدر لها حياة .

ومن اليسير توضيح هذه القضايا فى ضوء الماضى والحاضر ، فلم تنشأ لغة العلم فى الإسلام دفعة واحدة ، بل نمت على مر الزمن . بذرت بذورها فى القرن الأول الهجرى ، وفيه ظهرت مصطلحات فى الفقه والتشريع ، والتفسير والحديث ، والفرق وعلم الكلام . وتلتها فى القرن الثانى مصطلحات فى الأدب واللغة ، فى التاريخ والسياسة ، فى الأخلاق والاجتماع . فى الطب والكيمياء ، فى الفلك والهندسة . ولم تر هـــذه العلوم غضاضة فى أن يأخذ بعضها عن بعض ، وأن يستعين لاحقها بسابقها ، وهناك ألفاظ استعملت فى عدة علوم ، ولكن بمدلولات مختلفة . وفى القرن الثالث الهجرى استكملت العلوم الإسلامية لغتها وانتشرت هذه اللغة فى العالم الإســلامى بأسره ، فرددت فى قرطبة والقيروان ، كما رددت فى الفسطاط ودمشق ، وأخذ بها فى البصرة والكوفة ، كما أخذ بها فى الرى وأصبهان ، وفى القرن الرابع الهجرى أصبحنا أمام علم إسلامى مكتمل له آراؤه ونظرياته ، وله لغته ومصطلحاته . وقد سجلت هذه المصطلحات فى مفردات ومعاجم مختلفة ، مثل : « كتاب الحروف للفارابى » ، « ومفاتيح العلوم للخوارزمى » منذ عهد مبكر ، وتلاهما

كتاب التعريفات للجرجانى » ، « وكشاف اصطلاحات العلوم للتهانوى » . واستطاعت هذه المصطلحات أن تغذى لغات أخرى ، فانتقل قدر منها إلى الفارسية والتركية ، واستمسك ببعضها من ترجموا عن العربية إلى اللاتينية ، وامتد صداها إلى بعض اللغات الأوربية الحديثة .

واستعان المسلمون على وضع هذه المصطلحات بوسيلتين هامتين : أولاهما النقل ، وهو منهج مألوف فى اللغات جميعها ، فتنقل الكلمة من مدلولها الأصلى إلى مدلول جديد له به صلة ، وتستقر فيه . بحيث تصبح حقيقة عرفية ، وقد ينسى المدلول القديم ، ويحل محله المدلول الجديد وحده . والأمثلة على ذلك كثيرة ، نذكر من بينها الصلاة والصيام والزكاة فى الفقه ، والتمييز والاستثناء فى النحو ، والجامد والمشتق فى علم الصرف .

والفرق بين الدلالة اللفظية والدلالة الاصطلاحية لهذه الكلمات واضح ومعروف . والوسيلة الثانية من وسائل تكوين المصطلح العلمى هى الوضع ، ويراد به خلق لفظ جديد لأداء معنى خاص بالنحت والاختراع أو التركيب والجمع ، وأوضح صوره الاشتقاق . والعربية ولاشك لغة اشتقاقية ، يمكن أن يؤخذ فيها من مادة واحدة عدة ألفاظ لدلالات مختلفة ، كالفاعلية والمفعولية والصفة المشبهة وصيغة المبالغة ، واسم الزمان والمكان واسم الآلة والمصدر الصناعى . واستطاعت الصيغة الأخيرة أن تسعفنا فى مواقف متعددة ، وبخاصة فيما يتعلق بالدلالة على المذاهب والنظريات ، كالقدرية والجبرية ، والمادية والمثالية .

لم يقف علماء العربية عند النقل والوضع ، بل سلكوا سبيل التعريب عند الحاجة ، فعربوا عن الفارسية والهندية ، كما عربوا عن السريانية واليونانية . والأمثلة على ذلك كثيرة أيضا ، واستطاع الخوارزمى أن يقدم منها فى كتابه « مفاتيح العلوم » نماذج لابأس بها . ويمكن أن يلاحظ بوجه عام أن الفارسية كثيرة الورود فى المستحدثات الحضارية والنظم الإدارية ، مثل « الرزمانة » وهى مسك حساب الخراج ، والدفتر والفهرست من مستلزمات الديوان ، والبريد الذى كان فى الأصل دابة تحمل الرسائل ثم أصبح الآن قطارا أو طيارة ، والدستور الذى نسى معناه القديم وأصبح لايراد به إلا دلالته القانونية الخاصة . ويلاحظ أيضا أن الألفاظ اليونانية والسريانية كثيرة الورود فى العلوم والفلسفة . فعن اليونانية أخذ لفظ « الناموس » و « السفسطة » فى الفلسفة ، و«الأرثماطيقى» و «الأسطرلاب» فى الرياضة والفلك ، و «القولون» وهو المعى الغليظ ، و«الترياق» وهو دواء السم فى الطب . وعن السريانية أخذ «الكيان» وهو الطبيعة فى الفلسفة ، و « البحران » فى الطب

وللعلوم الإسلامية تاريخ طويل يشرح نشأتها وتطورها ، ويبين مناهجها ونظرياتها ويشير إلى كبار رجالها وما وضعوا فيها من بحوث ومؤلفات . ولا سبيل لأن نستعرضها هنا ، ونكتفي بأن نقف قليلا عند علمين منها كان لهما شأنهما في القرون الوسطى لدى العرب واللاتين على السواء ، وهما : الكيمياء والفلك .

وقد عني المسلمون بالكيمياء عناية خاصة منذ عهد مبكر ، فشغل بها في أخريات القرن الأول الهجري خالد بن يزيد ، وهو من بيت الملك . وتفرغ لها في القرن الثاني جابر ابن حيان ، وكون مدرسة خاصة عرفت في الشرق والغرب . وقامت بتجارب عالجت فيها بعض الفلزات والقلاويات ، وفرقت بين الترشيح والتقطير ، ووصلت إلى البلورة والتصعيد ، واستخدمت بعض الآلات كالكور والأنبيق ، والميزان ، وسمى علم الكيمياء جملة « علم الميزان » . وكان لهذه المدرسة شأن وتأثير على البحث الكيميائي لدي المسيحيين في القرون الوسطى والتاريخ الحديث .

وفي أخريات القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري توسع أبو بكر الرازي في الدراسات الكيميائية ، وصبغها بصبغة علمية دقيقة وهو دون نزاع أكبر كيميائي في الإسلام ، عرف كيف يربط الكيمياء بالطب ، واستطاع أن يجعلها علما تجريبيا دقيقا ، فسبق بذلك التاريخ الحديث . عني بتحليل العقاقير وهي عنده متنوعة : نباتية وحيوانية ، أحجار وأملاح غازية ومعدنية ، وصف الآلات المستخدمة في الكيمياء وصفا دقيقا ، كالمنفاخ ، والبوتقة والقدح والقنينة . وقام بتجارب شبيهة بالتجارب الحديثة في التقطير والتصعيد ، في التكليس والاحتراق ، وحضر بعض الأحماض بالتسخين كما حضر الكبريت وبعض الكحول بالتقطير ؛

ثم تلاه كيميائيون إسلاميون آخرون ، ويطول بنا الحديث إن وقفنا عندهم . والمهم أن هؤلاء الكيميائيين كانت لهم مصطلحاتهم الكيميائية ، فعرفوا الكبريت والزرنيخ ، والزئبق والنوشادر ، والراتنج والمغنيسيا ، والمغناطيس والأسفيداج . ولم يجدوا غضاضة مطلقا في أن يستعملوا بعض الكلمات الأجنبية المأخوذة عن الفارسية ، أو عن السريانية واليونانية . ولا تزال هذه مستعملة بيننا ، وأخذ اللاتين والأوربيون منها قدرا أقروه واحتفظوا به .

أما الفلك فهو أحد علوم ثلاثة عني بها المسلمون عناية خاصة ، وهي : الطب ، والكيمياء ، والفلك . ولا شك في أنه كان للعرب في الجاهلية بعض ملاحظات فلكية ، تتصل بالأنواء والعواصف ، وتقيس الزمن بطلوع الشمس وغروبها . ونرجح أنهم أفادوا شيئا من فلك البابليين والكلدانيين . وقد بدأت دراسة الفلك الإسلامي في أوائل العهد العباسي ، ولعلها كانت مرتبطة بالعرافة والتنجيم . وأولع بها خاصة رجلان من كبار الخلفاء العباسيين أولهما : المنصور الذي اتجه نحو الفلك الهندي ودعا إلى ترجمة كتاب « السندهند » وكلف بذلك إبراهيم الفزاري أكبر الفلكيين في عصره ؛

وثانيهما : المأمون الذي اتجه نحو الفلك اليوناني ، وشجع على ترجمة كتبه ، وله أبحاث فلكية متعددة ، من أهمها : محاولته قياس محيط الأرض وقد وصل فيه إلى نتائج مدهشة بالنسبة لعصره .

وفي الإسلام فلكيون كثيرون ، تعاصروا وتنافسوا ، وتلاحقوا جيلا بعد جيل ، وكانت لهم أعمال فلكية عرفت بهم . فظهر منهم في القرن الثالث الهجري : الكندي وأبو معشر البلخي ، وفي القرن الرابع : البتاني وابن يونس المصري ، وفي القرن الخامس ابن الهيثم ، والبيروني : وفي القرن السادس ابن ماجة والبتروجي ، وفي القرن السابع الطوسي والقزويني .

وأقام المسلمون ما أقاموا من مراصد ، ومن أشهرها : مرصد بغداد ، ومرصد الحاكم بالمقطم ومرصد المراغة وزودوها بآلات رصد خاصة ، فاستخدموا الأسطرلاب وذات الأوتار ، ودورة الرياح والبوصلة . واستطاعوا أن يتنبأوا في دقة بالكسوف والخسوف ، ورصدوا الاعتدالين الربيعي والخريفي ، وضبطوا حساب السنة الشمسية بما لا يقل عما انتهى إليه العلم اليوم إلا بنحو دقيقة وثلاث وعشرين ثانية ، وقدروا محيط الأرض عن طريق قياس مساحة كبيرة بما لا يبعد عن الواقع كثيرا . وهنا أيضا عولوا في لغتهم الفلكية على الألفاظ العربية أولا ، فإن لم تف بحاجتهم استعاروا بعض المصطلحات والألفاظ الأجنبية . وكان للفلك العربي شأن في العالم اللاتيني ، قدره اللاتين حق قدره وأعجبوا برجاله ، ورغبوا فيه وترجموا معظم كتبه .

وفي ضوء ما تقدم نستطيع أن نقرر أنه كان للعرب علوم أولعوا بها ، وأنه ازدهرت لديهم حركة علمية لها منزلتها بين الحركات العلمية العالمية الكبرى ، ومما يؤسف له أن هذه الحركة لم تدرس بعد الدرس اللائق بها ، ولم تجمع مصادرها ، ولم تخرج إلى النور في صورة مقبولة . فكان في القرون الوسطى علم عربي مزدهر ، تعهده المسلمون ، وغذوه طوال عدة قرون . وأنشأوا له لغة خاصة به ، وقامت هذه اللغة على أساس متين من العربية ، وما أخذته عن اللغات الأخرى تبنته ، وأصبح جزءا منها . ويمكننا أن نقرر أن هذه اللغة كانت في ذلك التاريخ لغة العلم الوحيدة في العالم بأسره ، فيما بين القرنين الثامن والثالث عشر الميلادي . ثم انضمت إليها اللاتينية بعد ذلك ، أخذت عن العربية ، وأفادت منها . فترجم اللاتين قدرا من كيمياء جابر بن حيان وأبي بكر الرازي ، وعنوا برياضيات الخوارزمي وبصريات ابن الهيثم ، وفلك الميتاني والبتروجي وطب ابن زهر ، وعلي بن رضوان . شغلوا بالترجمة عن العربية نحو قرنين ، الثاني عشر والثالث عشر الميلادي ، واستعاروا بعض الألفاظ العربية كما استعار المسلمون من قبل بعض الألفاظ الأجنبية . ولا تزال الألفاظ العربية المستعارة باقية إلى اليوم في اللاتينية ومن بعدها في بعض اللغات الأوربية المعاصرة

أدت العربية رسالتها نحو العلم فى الماضى ، ولا يعز عليها أن تؤديها فى الحاضر ، وهى متهيئة لذلك تهيؤ اللغات العالمية الكبرى .

* * *

وشاء القدر أن تركد حركة البحث العلمى فى العالم العربى فيما بعد القرن الثالث عشر الميلادى ، وبقيت على ذلك نحو خمسة قرون ولم تستيقظ إلا فى أخريات القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذى تلاه ، استيقظت فى مصر أولا بدافع من الحملة الفرنسية ، وبغذاء لم يستمر طويلا فى عهد محمد على ومن جاء بعده من خلفائه الأقربين . فأنشئت فى عهده مدارس للطب والصيدلة والهندسة ، ودرست فيها هذه العلوم بالفرنسية ومعها ترجمتها العربية ، ولا تزال بين أيدينا صور من هذه الترجمات التى حاولت أن تحل العربية محل الفرنسية . ولو قدر لهذه المدارس أن تبقى وتستمر فى أداء رسالتها لكان لتاريخ الحركة العلمية المصرية الحديثة شأن آخر . ولا يكاد يختلف الأمر فى الأقطار العربية الأخرى عن ذلك كثيراً اللهم إلا فى لبنان الذى أنشىء فيه منذ أكثر من مائة سنة جامعتان ، إحداهما أمريكية والأخرى يسوعية ، وكانت لها معاً شبه رسالة دينية ، وحملا باطراد الطابع العربى ، ولم يعبرا فى الحقيقة عن علم عربى .

ولم تبدأ الحركة العلمية فى العالم العربى إلا فى القرن العشرين . فأنشئت الجامعة المصرية القديمة فى أوله ، وهى مدينة بنصيب ملحوظ لحركة الاستشراق . وتلتها فى مصر جامعات متعددة ، يبلغ عددها الآن سبعاً ، وازديادها مطرد . وتدرس فيها العلوم المختلفة ، من طب وصيدلة ، وكيمياء ، وفسيولوجيا ، نبات وحيوان ، جيولوجيا وزراعة ، رياضة وفلك : ويقدم قدر من هذه المواد حالياً باللغة العربية ولايزال قدر آخر يدرس باللغة الإنجليزية . وعلى غرار مصر سارت الأقطار العربية الأخرى . ولكل بلد عربى تقريباً جامعته أو جامعاته الخاصــة ، وتدريس العلوم فيها على نحو ماجرى فى مصر ، فيعطى فى الأغلب بالإنجليزية أو الفرنسية ، اللهم إلا جامعة دمشق التى أخذت نفسها منذ عهد بعيد بتدريس الطب باللغة العربية .

ومن هنا نشأت مشكلة تعريب التعليم الجامعى ، ولها ما يحمل عليها ، لأنه لا سبيل لقيام حركة علمية حقيقية فى بلد إلا إن اعتمدت على اللغة الوطنية : وبودنا أن يعرب العلم والتكنولوجيا فى الدرس والمحاضرة ، فى قاعة البحث والمعمل ، فى المصنع والمزرعة . وقد خطونا فى ذلك خطوات ملحوظة أسهم فيها الجامعيون بما ألفوا من كتب ، وبما ألقوا من دروس ، وقد عربت بالفعل بعض المواد فى كليات العلوم والهندسة ، وربما كان الأمر أيسر فى كليات الزراعة والطب البيطرى . وتبذل جهود فى سبيل تعريب التعليم فى كليات الطب والصيدلة ، والموقف هنا دون نزاع أدق وأعسر :

وإلى جانب هذه الجهود الجامعية لتعريب التعليم ، ينبغى أن نشير إلى ما تضطلع به

هيئات أخرى فى هذا المضمار . فأنشئت المجامع اللغوية والعلمية منذ نصف قرن أو يزيد ، ورأت ضرورة مسايرة العربية لمقتضيات العلم ومتطلبات الحضارة، وأسهمت فى ذلك ما وسعها . ويبدو أن مجمع القاهرة قد منح مشكلة اللغة العلمية عناية خاصة ، وشغل بها إلى درجة لعلها لم تتوفر لدي مجمع آخر ، فوقف عليها عدة لجان ، وتوسع فى النقل والوضع . ويسر قواعدهما . وأقر التعريب كما أقره الأقدمون ، ونظمه وأحاطه بشيء من القيود والضوابط ، فاستساغه بوجه خاص فى المصطلحات ذات الطابع الدولى ، وفى أسماء أعلام الجنس ، وفى الألفاظ التى تعبر عن فصائل من النبات أو الحيوان. وأقر عشرات الآلاف من المصطلحات وأخرجها فى مجموعات معينة ، أو فى بعض المعجمات المتخصصة . ويسعده أن يلاحظ أن العلماء والمتخصصين يقبلون على مقرراته ، ويستعينون بها فيما يكتبون ويؤلفون .

وفى العالم العربى أيضاً هيئات علمية متعددة ، من جمعيات واتحادات ، ومراكز بحث ومجالس علمية ، بل عمدت بلاد إلى إنشاء وزارات للبحث العلمى والتكنولوجيا . وتعنى هذه الهيئات كلها بالشكل والموضوع ، فتحاول أن تدفع البحث العلمى العربى دفعة قوية ، وترى أن من أهم وسائل هذا الدفع أن تطاوع اللغة العربية الباحثين والدارسين ، وأن تمكنهم من أن يعبروا عن كل مايدرسون ويكشفون . ولا بد للغة العلمية من أن تستقر وتتمكن ، وأن تنتشر وتتداول ، وأن يتلاقى عندها الباحثون العرب أجمعون. لهذا أخذت الهيئات العلمية نفسها بنشر صحف ومجلات تقدم بحوثها فى لغة عربية سهلة ، ونظمت ما استطاعت الندوات والمؤتمرات التى تجمع المتخصصين فى صعيد واحد ، وتربط جهودهم بعضها ببعض ، إن فى البحث والدرس ، أو فى تكوين لغة العلم ومصطلحاته . وأصبح لدينا من هذا كله زاد كفيل بأن يسد الحاجة ، وبأن يسمح بمتابعة السير .

* * *

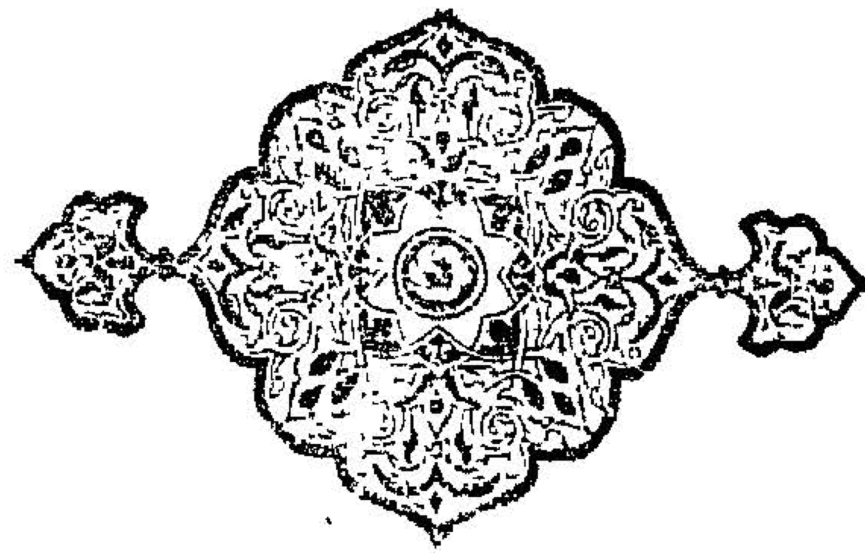
فبرهنت العربية إذن فى الماضى والحاضر على أنها ليست أقل استعدادا من اللغات العالمية الكبرى لمواجهة متطلبات العلوم والتكنولوجيا . أدت هذه الرسالة بالأمس فى أمانة ، يوم أن كان أبناؤها حريصين على أدائها . وعجزت عن أدائها حينا يوم أن انصرف العرب عن ذلك . ولا شك فى أنهم راغبون اليوم كل الرغبة فى استعادة مجدهم ، والإسهام بنصيبهم فى نهضة العلم وتقدمه : ومتى تمكن الباحث والعالم من لغته وجد فيها وفاء لأداء كل ما يجول بخاطره . وتعريب التعليم الجامعى يستلزم لا محالة أن يعرّب الباحثون والعلماء أولا ، فيدرسوا لغتهم درساً كافياً يمكنهم من أن يكتبوا فيها ويتحدثوا بها فى يسر وطلاقة . ومنهم من يؤثر التأليف بالإنجليزية أو الفرنسية ، لأن عربيته لا تطاوعه على أن يكتب على نحو ما يحب ويهوى : ويوم أن تتوفر فى اللغة الوطنية مكتبة شاملة

فى مادة من المواد ، يحس أهلها بأنهم ملكوا هذه المادة وأحسنوا التصرف فيها ، وهذا شرط آخر من شرائط تعريب التعليم الجامعى؟

على أننا أصبحنا نعيش فى عصر لا يستطيع باحث أو دارس أن يقنع فيه باللغة الوطنية وحدها ، بل لا بد له أن يضيف إليها لغة أو أكثر من اللغات الأجنبية . وتستمسك الجامعات الكبرى بذلك ، وتطبقه فى دقة . وقد كان العلم ولا يزال لا وطن له ، والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها . ويعول العلماء فى لقاءاتهم الدورية على أن يتبادلوا فيما بينهم ما كشفوه وما اهتدوا إليه ، وأن يربطوا خيوط البحث العلمى بعضها ببعض ؟ وبين العرب علماء يلدون لغتين أجنبيتين أو أكثر ، وعلى أمثال هؤلاء يعول فى دعم حركة التعريب والنهوض بها . بيد أنه يجدر بنا أن نصارح أنفسنا بما نحس به من نقص ، إن كنا نريد تداركه . ولا أظننا نختلف فى أنا نتزلج فى منحدر بغيض فى تعليم اللغات وتعلمها ، وأصبحت الغالبية العظمى من الشباب لا تجيد العربية ولا أية لغة أجنبية . لنبدأ من هنا إذن إن كنا نريد إصلاحاً على أساس متين ، ولا سبيل بدونه ، لا إلى تعليم ولا إلى تعريب .

ابراهيم مدكور

رئيس المجمع



من الدراسات اللغوية في بعض الآيات القرآنية

للدكتور الشيخ عبد الرحمن تاج

بسم الله الرحمن الرحيم :

آية من القرآن الكريم قد يقنع الإنسان فى التلاوة العابرة بما يلوح له فيها من معنى إجمالى ، يمكن أن يجرى سهلا مع بعض الأحكام العامة ، التى رسخت فى النفوس ، واستقرت فى الأذهان ، وكانت من القضايا البدهية التى يعرفها الخاصة والمثقفون ، ولا يجهلها العامة ولا الأميون ، من مثل أنه لايستوى العالم والجاهل ، والعامل والخامل ، كما لا يستوى الطيب والخبيث ، والجيد والردئ ، وكما لايستوى المؤمن والكافر ، ولا البر والفاجر

لكن القارئ المتبصر ، الذى يقرأ هذه الآية بتمهل وتدبر ، لابد – فى غالب الأمر – أن يستوقفه منها ما اشتملت عليه عباراتها وجملها من إجمال وتفصيل وإطلاق وتقييد وما إلى ذلك ، مما قضت حكمة الله تعالى أن يقيم عليه آيات كتابه العزيز .

فهذا القارئ المتبصر يقف عند ذلك ليبحث ويفكر ، ويتأمل ويتفهم ، يجمع لذلك وعيه ، ويعمل فيه فكره ، كى يقف على شيء من السر فى تصريف القول على الوجه الذى وردت به الآية الكريمة .

ولعله فى ذلك تدركه عناية الله تعالى ؛ فيدرك الغاية أو يقع قريبًا منها .

هذه الآية هى التى جعلناها موضوع الدراسة فى هذا البحث وهى قوله تعالى : «لا يَسْتَوِى القَاعِدُونَ مِنَ المؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ والمجاهِدُون فى سَبِيلِ اللهِ بأَموالهم وأَنفسهم ، فَضَّلَ الله الْمجَاهِدِينَ بأَموالهم وأَنْفُسِهم عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحُسْنى . وفَضَّلَ اللهُ

المجاهِدِينَ عَلَى القَـاعِدِينَ أجرًا عَظِيمًا ؛ دَرَجاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً ورَحْمَةً ، وكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا » . « النساء ٩٥ » .

قد ذكر المجاهدون فى هذه الآية ثلاث مرات بعبارات ثلاث متفاوتة ، بعضها أطول من بعض .

١ ـ ففى العبارة الأولى قيل : « والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » .

٢ ـ وفى العبارة الثانية قيل : « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » من غير كلمة فى سبيل الله .

٣ ـ وفى العبارة الثالثة قيل : « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما » مقتصرًا فيها على كلمة « المجاهدين » فلم تذكر معها صلة « فى سبيل الله » ولا صلة « الأموال والأنفس » .

فهل هذه المغايرة فى التعبير لها تأثير فى المراد بالمجاهدين فى تلك العبارات الثلاث ؟

والجواب : أنه لاتأثير لها فى ذلك ، فإن المراد؛ المجاهدون فى سبيل الله بالأموال والأنفس فى كل من العبارات الثلاث ؛ غير أنه لكراهة التكرار مع العلم بالمحذوف والتصريح به أولا ، اقتصرت العبارة فى المرتين : الثانية والثالثة على الوجه الذى وردت به الآية .

وقد ذكر « القاعدون » فى الآية ثلاث مرات أيضا : ففى المرة الأولى قد وصفوا بأنهم غير أُولى الضرر . أما فى المرتين الأُخريين فلم يذكر هذا الوصف ، فهل الأمر فيهم على نحو ماقلنا فى المجاهدين ، فيكون المراد بهم شيئا واحدا فى العبارات الثلاث ؟

والجواب : أن جمهور المفسرين على أن الأمر فى « القاعدين » ليس كذلك ، فإنه لايمكن أن يكون المراد بهم فى كل من العبارتين « الثانية والثالثة » نفس القاعدين غير أُولى الضرر ، كما أريد بهم ذلك وصرح به فى العبارة الأولى .

نعم لا يمكن أن يكونوا هم الذين فضل الله المجاهدين عليهم درجة واحدة وأن يكونوا هم أنفسهم الذين فضل المجاهدين عليهم درجات كثيرة .

ومن هنا اختلف العلماء فى تأويل هذه الآية :

فقال « الجلال السيوطى » – كما قال « ابن جرير الطبرى » – إن كلمة « القاعدون » فى الجملة الأولى : « لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » مراد بها المعنى الظاهر من اللفظ ، أى الذين لم يخرجوا للجهاد وليسوا من أولى الضرر ، فتكون الآية قد ذكرت هؤلاء بهذه الصفة الخاصة وأرشدت إجمالا إلى حكمهم وأنهم ليسوا مساوين للمجاهدين بأموالهم وأنفسهم .

إن حمل الكلمة فى الجملة الأولى من الآية على مايعطيه ظاهر اللفظ من غير تقييده بشىء غيرماورد فى الآية من أنهم غير أولى الضرر هو تفسير مقبول ومعقول .

لكنه قد يقال : إن عدم مساواة القاعدين الذين لايشتركون فى الجهاد بنفس أو مال للمجاهدين الذين يبذلون فى ذلك أنفسهم وأموالهم أمر ضرورى ومعلوم لايحتاج إلى نص عليه .

والجواب : أن النص على عدم المساواة بين فريقى القاعدين والمجاهدين ليس المقصود به أصل الإخبار بعدم هذه المساواة بينهما ، وإنما المقصود به استنهاض القاعدين ورفع همتهم عن الركون إلى تلك المنزلة الضعيفة التى ليس فيها صلاح دنيا ولا عزة دين .

ثم إن كلا من « الطبرى » و « السيوطى » يفسر كلمة « القاعدين » الواردة فى الجملة الثانية من الآية – وهى قوله تعالى : « فَضَّلَ اللهُ المُجَاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعَدَ الله الحُسْنَى » – بأن المراد بها القاعدون أولو الضرر ، فهم الذين فضّل الله المجاهدين عليهم درجة واحدة ، كما روى ذلك عن ابن عباس والبراء وغيرهما .

أما فى الجملة الأخيرة – وهى قوله سبحانه (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما) فإنه المراد بهؤلاء القاعدين هم غير أولى الضرر ، وهم الذين صرحت الجملة الأولى إجمالا بعدم مساواتهم للمجاهدين ، فهؤلاء قد شرحت الآية فى الجملة الأخيرة حكمهم بطريق البيان التفصيلى ، وقررت مبلغ التفاوت بينهم وبين المجاهدين فى الأجر والثواب .

هذه طريقة « ابن جرير والطبرى والجلال السيوطى » فى تفسير الآية .

وقد يقال : إن تفسير القاعدين فى الجملة الثانية بأنهم القاعدون أولو الضرر؛ تفسير غريب يؤدى إلى أن تنحرف الجملة عما هو الشأن الذى عهد فى نظائرها ، وهو الذى يقضى به الأسلوب الجيد فى فصيح اللغة العربية .

ذلك أن الشأن فى مثل الأسلوب الذى وردت به الآية الكريمة من نفى المساواة إجمالاً بين أمرين ثم إتباع ذلك بتفصيل يرتبط بذلك النفى – أن يكون هذا التفصيل بيانا لحكم التفاوت بين الأمرين وإرشاداً إلى سر عدم التساوى بينهما؛ كما أنه لابد أن يكون الأمران اللذان قد بين حالهما فى التفصيل هما بعينهما الأمرين اللذين قد نفى التساوى بينهما أولا فى الإجمال .

١ – وذلك كما فى قوله تعالى : (لايستوى أصحابُ النارِ وأصْحَابُ الجنَّةِ ، أصحابُ الجَنَّةِ هُمُ الفائِزُونَ)الحشر – ٢٠

فالجملة الأولى من هذه الآية قد نفى بها إجمالاً الاستواءُ بين أصحاب النارِ وأصحاب الجنة ، والجملة الثانية بيّن بها تفصيلا حال الفريقين وأن الفوز فى الآخرة مقصور على أصحاب الجنة وليس لأصحاب النار حظ فيه .

٢ – و كذلك قوله تعالى : « لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكُلاًّ وعد اللهُ الحُسْنى »الحديد (١٠).

فإن الجملة الأولى من الآية قد نفى بها الاستواءُ بين مَنْ أنفق من قبل فتح مكة وقاتل ، ومن أنفق وقاتل بعد الفتح . وقد أضمر فى الآية هذا المقابل الثانى وهم من أنفق وقاتل بعد الفتح . للعلم به والدلالة عليه فى البيان التالى .

وهذا البيان التالى هو التفصيل المرتبط بالجملة الأُولى ؛ التى نفيت فيها المساواة بين الفريقين . وقد أرشد هذا التفصيل إلى مبلغ التفاوت بينهما فى الأجر والثواب .

٣ – ومثل ذلك أيضا قوله تعالى : « أَفَمَنْ كَانَ مؤمنا كمن كَانَ فَاسِقًا ، لا يستوون » (السجدة ١٨) فقد نفيت المساواة بهذه الآية إجمالا بين المؤمن والفاسق ثم أتبع ذلك بالتفصيل الذى بين به حالة كل منهما وما آل إليه أمرهما بسبب اختلافهما بالفسق والإيمان ، وذلك فى قوله تعالى : « أَمَّا الَّذِينَ آمنوا

وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نُزُلاً بما كانوا يعملون » وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيلَ لَهُم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون » . (١٩ ، ٢٠ السجدة) .

هذا هو الشأن فى استعمالات اللغة العربية الفصيحة وأساليبها الجيدة : إنه إذا حكم بنفى المساواة بين أمرين ، ثم أتبع ذلك بتفصيل يبين سرَّ عدم المساواةِ بينهما ، ويُرشد إلى أصل ذلك وما يؤول إليه أمر عد القبيلين المختلفين غير المتساويين ، فإنه لابد أن يكون الأمران المتقابلان فى ذلك البيان التفصيلى هما عين المتقابلين فى الحكم الذى قرر عد، المساواة بينهما بطريق الإجمال .

ومن هذا يعلم أن تفسير الآية على الوجه الذى اختاره «الطبرى» و «الجلال» لايتمشى مع الاستعمالات الجيدة فى فصيح اللغة ، ولا يحقق ما يقضى به الأسلوب الذى أشرنا إليه آنفا .

ذلك أنه يجعل « القاعدين » فى الجملة الثانية من الآية مرادا بهم «القاعدون أولو الضرر» ، على خلاف ما أُريد بهم فى الجملة الأولى ، وعلى خلاف مايفيده نظام الجملتين اللتين رتبت فيهما الثانية على الأولى بغير العطف ، ذلك الترتيب الذى هو ظاهر فى أن الجملة الثانية قد وردت بيانا تفصيليا لما أُجمل فى الجملة الأولى على نحو ماجاءت به الآيات الكريمة التى قد مناها .

وخلاصة القول أن طريقةَ « الجلال » و «الطبرى» فى تفسير هذه الآية قد جعلتها مخالفة للمعهود فى نظائرها ، ولما هو الشأن الذى يقضى به الأسلوب القويم فى فصيح اللغة العربية وفقاً للأصول البلاغية المقررة فى باب الفصل والوصل ، من علم المعانى .

رأى الزمخشرى صاحب الكشاف

ج ١ ص ٣٨٢

وقال الزمخشرى فى تفسير الآية مانصه :

« فضل الله المجاهدين » جملة موضحة لما نفى من استواء القاعدين والمجاهدين ، كأنه قيل : مالهم لايستوون ؟ فأجيب بذلك ، والمعنى : « على القاعدين غير أُولى الضررَ » لكون الجملة بيانا للجملة

الأُولى المتضمنة هذا الوصف . «وكلا» كل فريق من القاعدين والمجاهدين (وعد الله الحسنى) أى المثوبة الحسنى وهى الجنة ، وإن كان المجاهدون مفضلين على القاعدين درجة .

ثم قال : وعن النبى صلى الله عليه وسلم : «لقد خلفتم بالمدينة أقواما ماسرتم مسيرا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم ، وهم الذين صحت نياتهم ونصحت جيوبهم[1] وكانت أفئدتهم تهوى إلى الجهاد ، وبهم مايمنعهم من المسير من ضرر أو غيره» .

ثم أتبع ذلك بقوله :

فإن قلت «قد ذكر الله تعالى مفضلين درجة ، ومفضلين درجات فمن هم» ؟ قلت . أما المفضلون درجة واحدة فهم الذين فضلوا عن القاعدين الأضراء . وأما المفضلون درجات فالذين فضلوا على القاعدين الذين أذن لهم فى التخلف اكتفاءً بغيرهم ، لأن الغزو فرض كفاية »اهـ .

ومن هذا يعلم مبلغ مافى رأى الزمخشرى من الاضطراب :

(أ) فهو يقرر أولا : أن المراد بالقاعدين فى الجملة الثانية من الآية – وهى قوله تعالى : «فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة» – هم القاعدون المذكورون فى الجمله الأُولى ، وهم القاعدون غير أُولى الضرر ، لأن الثانية جاءت بيانا للجملة الأُولى المتضمنة هذا الوصف .

هذا صريح كلامه عن الجملتين الأولى والثانية .

(ب) ثم يقرر صراحة أيضاً فى موضوع التفضيل درجة والتفضيل درجات ، أن المفضلين درجة واحدة . هم المفضلون على القاعدين الأَضراء ، أما المفضلون درجات فهم الذين فضلوا على القاعدين الذين أذن لهم فى القعود اكتفاءً بغيرهم ، لأن الغزو لم يكن حينئذ فرض عين ، وإنما هو فرض كفاية .

فهو يقرر فى آخر كلامه أن المفضل عليهم درجة واحدة هم

---

(١) نصحت جيوبهم ، أى صفت صدورهم وطهرت قلوبهم من الفسق والخداع . والجيوب جمع جيب وهو فتحة القميص على النحر ، وذلك كناية عن نقاء السريرة وطيب القلب .

القاعدون أصحاب الأضرار على حين أنه فى أول الكلام - يقول إن المراد بالقاعدين فى الجملة الثانية التى جاءت بيانا للجملة الأولى هم القاعدون غير أُولى الضرر . وهذا تضارب فاحش لاندرى كيف صدر من العلامة الزمخشرى .

(ج) ثم يلاحظ أخيرا أنه فيما بين الكلامين : الأول والأخير قدأورد الزمخشرى حديث : « لقدخلفتم بالمدينه أقواما . » إلى آخره ، وظاهر أن هذا الحديث إنما يحسن إيراده حيث يكون الكلام عن القعود عن الجهاد بسبب الأضرار والأعذار ، ولكن المفسر قد أورده عقب قوله : إن المراد بالقاعدين هم القاعدون غير أُولى الضرر ، وليس هناك ذكر لقاعدين أُولى أضرار أوأصحاب أعذار .

وهذا شئ يضاعف حالة الاضطراب والتضارب التى وقعت فى كلام العلامة « الزمخشرى » .

تفسير النسفى ج ١ ص ١٩٠، ١٩١

وقد وقع النسفى « فى الاضطراب والتضارب مثل ماوقع « الزمخشرى » نقد تابعه فى طريقته وكبا كبوته إذ قال فى تفسير قوله تعالى : « فَضَّلَ اللهُ المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » مانصه : « ذكر هذه الجملة بيانا للجملة الأولى موضحة لما نفى من استواء القاعدين والمجاهدين ، كأنه قيل مالهم لا يستوون ؟ فأُجيب بذلك » ، ثم قال : « وفضل الله المجاهدين على القاعدين بغير عذر أجرا عظيما » درجات منه ومغفرة ورحمة ، ثم ختم المفسر كلامه بقوله : « وحاصله أن الله تعالى فضل المجاهدين على القاعدين بعذر درجة واحدة ، وعلى القاعدين بغير عذر - بأمر النبى عليه السلام - اكتفاء بغيرهم درجات ، لأن الجهاد فرض كفاية » . اهـ .

فهو يقرر أولا أن القاعدين الذين فضل الله عليهم المجاهدين درجة واحدة هم القاعدون غير أُولى الضرر ، وهم الذين ورد ذكرهم فى الجملة الأُولى التى نفى فيها الاستواء بين القاعدين والمجاهدين ،

لأن الجملة الثانية جاءت بيانا للأولى ، موضحه لما أجمل فيها من عدم الاستواء

ثم يقرر أخيرا أن القاعدين الذين فضل الله عليهم المجاهدين درجة واحدة هم القاعدون أولو الضرر . أما الذين فضل الله المجاهدين عليهم درجات فهم القاعدون ، بغير عذر بأمر النبي صلى الله عليه وسلم اكتفاء بغيرهم . وهذا هو التضارب والاضطراب .

طريقة أبي السعود فى تفسير الآية

[قد أراد العلامة أبو السعود أن يتفادى من ذلك الاضطراب وينجو بكلامه مما وقع فيه « الزمخشرى والنسفى » فقال [ما خلاصته إن المراد بالقاعدين فى الجمل الثلاث فريق واحد هم القاعدون غير أولى الضرر وقد أذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى القعود اكتفاء بغيرهم :

فهم فى الجملة الأولى قد حكم بأنهم لايساوون المجاهدين وجاءت الجملة الثانية بحكم تفصيلى لما أجمل فى الجملة الأولى من عدم المساواة ؛ فبينت أن المجاهدين مفضلون على القاعدين درجة وأن هؤلاء القاعدين غير محرومين من الأجر والثواب ، إذ أن الله تعالى قد وعد كلا من الفريقين الحسنى وهى الجنة .

« قال أبو السعود » وليس المراد بالدرجة التى فضّل الله بها المجاهدين على أولئك القاعدين أنها درجة واحدة بالشخص ولكنها جنس واسع يشتمل على درجات ومراتب كثيرة من الأجر والثواب . وبذلك لايتعارض ماتضمنته هذه الجملة الثانية من التفضيل درجة وماجاءت به الجملة الأخيرة التى تقول : « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما ».[وقد بين ذلك الأجر العظيم بقوله تعالى « درجات منه ومغفرة ورحمة » .

وعلى هذا يكون التفضيل درجة هو[التفضيل درجات ، وتكون الدرجة والدرجات شيئا واحدا فى الحقيقة ، ولكنه يختلف بالإجمال والتفصيل . هذا ملخص ماقاله أبو السعود فى تفسير الآية (١) .

ونحن نرى أن هذا تأويل بعيد لا يتبادر إلى الذهن ، ولا يستقيم جيدا فى الفهم ، ولا ينبغى أن يسار عليه فى تفسير الآية الكريمة .

(١) يراجع فى ذلك تفسير أبي السعود المطبوع على هامش تفسير الفخر الرازى ج ٣ ص ٢٤٥ - ٢٥١ .

ثم يقول أبو السعود : « إنه يحتمل أن يكون التفضيل درجة والتفضيل درجات أمرين مختلفين بالحقيقة ، وأن المراد بالدرجة درجةٌ واحدة هى ما يرجع إلى النعم الدنيوية ، أما الدرجات الكثيرة فهى أنواع نعيم الآخرة وثوابها .

وهذا أيضًا تأويل بعيد ، ومحاولة للتوصل إلى جعل التفضيلين : تفضيل الدرجة وتفضيل الدرجات جميعا على فريق واحد هم القاعدون الذين ذكروا فى الجمل الثلاث ، وهم الذين يقول « أبو السعود » : إن المراد بهم جميعا القاعدون غير أولى الضرر، وقد أذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى القعود اكتفاءً بغيرهم .

إن ذلك تكلف غير مقبول ، ولا سيما إذا لوحظ ما فى الجملة الثانية التى تقرر التفضيل درجة ، وهى قوله تعالى « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى » فإن المراد « بالحسنى » المثوبة الجميلة وهى نعيم الجنة . وبذلك يكون التفضيل درجة والتفضيل درجات جميعه فى الآخرة ونعيمها .

وبعد ، فإنه إذا كان أبو السعود قد استطاع أن يتفادى ما وقع فيه « الزمخشرى والنسفى » من الاضطراب والتضارب ، فإنه اضطر فى سبيل ذلك أن يلجأ إلى تلك المحاولات والتكلفات غير المقبولة .

أما ماجاء فى تفسير الفخر الرازى والنيسابورى وتفسير الألوسى ؛ فإنه لا يبعد عما أوردناه من تفسير أبى السعود ، وإذًا لا داعى إلى الإطالة بذكر ما قالوه فى ذلك .

وهناك رأى آخر فى تفسير الآية يشبه إلى حد ما ما قاله أبو السعود : يشبهه فى أصله وأساس مبناه ، ولكنه يخالفه فى حقيقته وجوهر معناه ، ولعله يكون أحق منه بالقبول .

وحاصله أن يحمل « القاعدون » فى الجمل الثلاث على غير أولى الضرر لكنهم فريقان :

فريق أذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى القعود وعدم الخروج مع المجاهدين فى تلك « الغزوة » ، غزوة بدر ، لأن الخروج إليها كان فرض

كفاية ، وقد رأى عليه الصلاة والسلام فيمن خرج إليها الكفاية ، ثم أنه صلى الله عليه وسلم ، لابد أن يكون قد رأى الحكمة فى عدم خروج هؤلاء الذين أذن لهم فى القعود ، لأنهم – وإن لم يكونوا أولى ضرر فى أنفسهم – قد تكون هناك حاجات مهمة تدعوهم إلى القعود .

وذلك كما تخلف « عثمان بن عفان » رضى الله عنه بإذنه عليه الصلاة والسلام ، لقيامه بتمريض زوجته السيدة « رقية » بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد بقى معها حتى توفيت رضى الله عنها .

وكذلك رد عليه الصلاة والسلام « أبا لبابة بشير بن عبد المنذر » من الروحاء لما بلغه خروج النفير من « مكة » واستعمله على المدينة .

والفريق الآخر من القاعدين غير أولى الضرر هم الذين لم يسبق لهم إذن من الرسول صلى الله عليه وسلم بالقعود ، ولكنهم قعدوا لعلمهم بأن الخروج ليس فرض عين ، وهم مع ذلك مخلصون صادقو الإيمان ، ويتمنون فى قرارة أفئدتهم أن ينصر الله المسلمين على أعدائهم الكافرين .

وعلى هذا يكون نظم الآية فى جملها الثلاث متسقا هكذا غاية الاتساق :

فالجملة الأولى نفت المساواة بين القاعدين غير أولى الضرر والمجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وهذا الحكم بعدم المساواة يشمل فريقى القاعدين ؛ أى الذين أذن لهم فى القعود والذين لم يسبق لهم مثل هذا الإذن .

ثم جاءت الجملة الثانية بطريق الفصل من غير أن تعطف على ما قبلها ، لأنها بيان تفصيلى لما أجمل فى الجملة الأولى من الحكم بعدم المساواة ؛ وهذا هو ما تقضى به البلاغة فى شأن الجملة التى تقع بيانا لما تضمنته جملة قبلها .

هذه الجملة الثانية : « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » قد بينت فضل المجاهدين على الفريق الأول من القاعدين غير أولى ، وهم الذين قعدوا بإذن من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأفادت

(١) يراجع فى ذلك كتاب البداية والنهاية ج٣ ص ٣٢٧ .

أن المجاهدين مفضلون عليهم درجة واحدة ، إذ أن حال هؤلاء القاعدين قريب جدا من حال أولئك المجاهدين حيث إنهم كانوا يودون الخروج معهم للجهاد بأنفسهم ، ولكن رأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن من الحكمة أن يبقوا فى المدينة للحاجات المهمة التى تقتضى هذا البقاء كما قدمنا الإشارة إلى ذلك .

ومع أن المجاهدين فضلوا عليهم درجة قد وعدهم الله الحسنى وهى الجنة ، كما وعد المجاهدين بقوله سبحانه : « وكلا وعد الله الحسنى » .

أما الذين لم يسبق لهم إذن من الرسول صلى الله عليه وسلم فى القعود ، فهم الذين بنيت الجملة الأخيرة حالهم وإن المجاهدين مفضلون عليهم درجات كثيرة ، وذلك قوله تعالى :

« وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرًا عظيمًا . درجات منه ومغفرة ورحمة ».

وبذلك علم حال القاعدين غير أولى الضرر : المأذون لهم والآخرين .

أما أولو الضرر فى أنفسهم كالهرم والزمنى والمرضى وذوى العاهات التى تعجز بها أصحابها عن إمكان الخروج مع المجاهدين ، وكذلك من ليس لهم من المدة ما يمكنهم من الاشتراك فى الجهاد ؛ فإن الآية لم تصرح فى جانبهم بحكم ، ولم تبين حالهم بالنسبة إلى المجاهدين كما صنعت فى جانب غير أولى الضرر فما هو حكمهم ؟ وما جزاؤهم ؟ وهل يمكن أن يقال بوجه ما من القول : إنهم يساوون فى الأجر والثواب أولئك المجاهدين ؟

إن جواب هذا هو من المواطن التى اختلفت فيها أنظار المجتهدين ، وذلك أن الآية التى حكمت بنفى المساواة بين المجاهدين والقاعدين ، قد وصفت هؤلاء القاعدين بأنهم غير أولى الضرر ؛ فهل لهذه الصفة مفهوم مخالفة يقتضى ثبوت نقيض الحكم المنطوق الذى هو عدم المساواة فى حال زوال تلك الصفة ، وحينئذ تثبت المساواة ؟ أو أن ذلك المفهوم مسكوت عنه ، فهو فى مقام الاحتمال ؟ يجوز أن يثبت له نقيض

الحكم المنطوق ويجوز أن يكون الثابت له خلافه ؟

من المجتهدين من سار على الطريقة الأولى ، وحكم بأن القاعدين أولى الضرر يساوون فى الأجر والثـــواب أولئك المجاهدين .

وقد يستند هذا الفريق من المجتهدين فى ذلك أيضا إلى ما ورد من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد خلفتم بالمدينة أقواما ، ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، وهم الذين صحت نياتهم ونصحت جيوبهم وكانت أفئدتهم تهوى إلى الجهاد ، وبهم ما يمنعم من المسير من ضرر أو غيره » .

أما الفريق الآخر من المجتهدين فإنه يرى أنه ليس فى الآية ولا فى الحديث ما يفيد الجزم بمساواة القاعدين أولى الضرر للذين خرجوا بالفعل مجاهدين فى إخلاص وصدق إيمان ، فإنه لا يستوى العاملون وغير العاملين ، وإن كان هؤلاء الذين لم يعملوا لم تتوافر لهم وسائل العمل وضروراته ، أى أنهم غير مفرطين. فحكم أولى الضرر عند هذا الفريق من المجتهدين أنهم بالنظر إلى النصوص التى ذكرناها آنفا – فى محل الاحتمال : يجوز أن يكونوا مساوين للمجاهدين فى الأجر والثواب .

ويجوز أن يكونوا أقل منهم فى هذا الجزاء . . .

ورأينا أن وجهة نظر هذا الفريق من المجتهدين أدق وأحكم وأولى بالاتباع . والله أعلم .

عبد الرحمن تاج
عضو المجمع

الفارسيّ في الإغفال

للأستاذ علي النجدي ناصف



ألّف أبو إسحاق الزجاج — فيما ألف — كتابا في معاني القرآن ، يعرض فيه بالبيان والإعراب لآيات الكتاب العزيز التي يتطلب فهم معانيها وإعراب أساليبها فضلا من التأمل وإنعام النظر ، ثم جاء أبو علي الفارسي أبعد تلاميذ الزجاج شهرة ، وأعمقهم في العربية فلسفة ، فألف كتابا يعرف بالإغفال ، ينقد فيه كتاب شيخه في معاني القرآن ، ويستدرك عليه ما شاء الله أن يستدرك من فوت .

ويبين أبو علي في مقدمة الإغفال سبب تأليفه ، ويذكر منهجه فيه على العهد به من الإيجاز في مقدمة كتابه الحجة في علل القراءات السبع ، فيقول :

« هذه مسائل من كتاب أبي إسحاق إبراهيم بن السري في إعراب القرآن ، ذكرناها لما اقتضت عندنا من الإيضاح منها للإغفال الواقع فيها . ونحن ننقل كلامه في كل مسألة من هذه المسائل بلفظه على وجهته من النسخة التي سمعناها منه فيها ثم نتبعه بما عندنا ، وبالله التوفيق » .

وهمزة « الإغفال » يحتمل أن تكون للتعدية ، وأن تكون للمصادفة ، كالتي في قوله تعالى : (ولا تُطع من أغفلْنا قلبه عن ذكرنا) ، على بعض التفاسير[1] ، أي من وجدناه غافلا عن ذكرنا . والتسمية بالإغفال على الحالين — ملحوظ فيها مضاف محذوف وتأويلها على التعدية : تدارك إغفال الزجاج وعلى المصادفة : تدارك ما وجدنا عند الزجاج من إغفال :

والفرق بين التأويلين يسير ، وهو يتعلق بوصف الوقوع على الإغفال كيف كان ؟ فعلى التعدية كان الإغفال ميسرا قريب المتناول ، لا يكلف مئونة ، ولا يحمل على طلب ، وعلى المصادفة يتطلب الوقوع عليه تعقبا واقتفاء .

---

(١) انظر كشاف الزمخشري : ١ : ٥٦٧ ، والمحتسب : ٢ : ٢٨ .

ولا على الفارسى أن ينقد شيخه ، ويلبه على الإغفال الذى رآه فى كتاب معانى القرآن وفى كل كتاب من كتبه إذا بدا ذلك له ، ووجد السبيل إليه : بل إن الأمانة العلمية ، والغيرة على الحقيقة أن يتحيفها نقص ، أو تشوبها شائبة غموض لتوجبان عليه أن ينبرى للنقد والإيضاح والاستدراك وجوبا لاهوادة فيه ولاتوقف دونه . وفى ذلك من بعد خير للعلم وتمحيص لمعدنه . ولكن الذى كنانود لو أن أبا على نزه عنه نقده ، ومنع منه قلمه ألا يأخذ شيخه هكذا أخذ شديدا لارفق فيــــه ، ولابقيا معه،فهو لايتحرج أن يرميه بالخطأ الصراح ، وبالتحامل وتناقض الأقوال .

وإذا أمكن أن يغضى مغض عن هذا العنف إذا كان من عدو يناكر الزجاج ويحقد عليه ، أومن قرن يطاوله ويحاول فى زحام الحياة وتدافعها أن يؤخره ليتقدم هو عليه — فما أظن أن أحدا يمكن أن يغضى عنه بل عن شىء منه إذا كان من تلميذ لهجلس إليه وسمع منه .

وإذا ساغت التخطئة فيا يناقض القوانين الرياضية ، أو البرهانات المنطقية — فإنها غير سائغة،ولاهى من الحكمة فى شىء إذا كانت فى المسائل اللغوية ، فإن هذه المسائل إنما تقوم أصلا على رواية النص وفهم معناه ، إلى قرائن وملابسات من الظنون والافتراضات : والرواية عمل مشترك بين اللغويين ، لكل منهم نصيبه المقسوم منه. ومهما اتسعت رواية أحدهم فلن تكون محيطة شاملة، لاتند عنها صغيرةولاكبيرة . واختلاف الفهم سمة من سمات العقول فى تعددها وتفاوت أصحابها فى الخصائص والمزايا . والظنون والافتراضات كثيرا ما تبطلها قرائن غير القرائن وملابسات غير الملابسات .

فليس عجيبا أن نرى لغويات عدت خطأ ، فأزرى بها ، ونُهى عنها ، وأن نرى أخرى وصفت بالاطراد والعموم الذى لااستثناء منه ولاخروج عليه . ثم قيض الله للخطأ المزعوم من صوبه ورد اعتباره إليه ، وقيض للعام المطرد من قيده وحد من شموله الموصوف .

فهذا ثعلب — يرحمه الله — يقول عن (ولاسيا) : من استعمله على خلاف ماجاء فى قوله : ولاسيا يوم فهو مخطىء، يريد أن من الخطأ ألا تذكر الواو ولاقبل سيا ، لتكون كما وردت فى قول امرىء القيس :

ألارب يوم كان منهن صالح

ولاسيما يوم بدارة جلجل

ثم جاء الرضى فتوسع فى أوجه استعمالها ماشاء[1]، ولم يسلم كتاب (ليس فى كلام

(١) انظر شرح الأشمونى وحاشية الصبان فى آخر باب الاستثناء.

العرب) لابن خالويه ، ولا كتاب درة الغواص للحريرى من النقد والتعقيب مما ينقض بعض ماجاء فيهما من قضايا وأحكام .

وينطلق أبو على هنا على العهدبه فى الحجة ، فلا يتابع القول على وتيرة واحدة ولايأخذ بالقارىء إلى الغاية التى يريد من وجه واحد ولا من طريق قاصدة ، ولكنه ينهج به إليها مناهج شتى ، ويعبر له عنها بأساليب متنوعة ، فبينا هو ماض به قدما — إذا هو يميل به ذات اليمين مرة وذات الشمال أخرى ، وبينا هو معه فى سهل مؤنس إذا هو ينحو به إلى صعب موحش أو يعلو به شرفاثم يهبط غورا .

ولايزال فى أثناء ذلك يتنقل به من علة فلسفية ، إلى قياس منطقى ، إلى سرمكنون من أسرار العربية ، إلى طرفة نادرة من النحو أو الصرف أو الأصوات حتى يدركه البهر ، ويمسه اللغوب ، ولايجد بدا من الإمساك عن المتابعة والانقياد ، إما إلى عودة قريبة أو بعيدة ، وإما لتعجل النهاية والنظر إلى مكانه منها ، وسيتبين فى كثير من الأحيان أنه لا يزال بعرض المزيد من الصبر والاحتمال .

وهو يستكثر من الاستشهاد بالقرآن مالا يستكثر من غيره إلا كتاب سيبويه ، حتى مايكاد القارىء يرتاب فى أنه كان يحفظه كما يحفظ القرآن : وأبو على إذ يحفظ الكتاب لايكون بدعا من العلماء ولا آتيا بما لم يسبقه إليه أو يشاركه أحد فيه ، فقد مر بالناس زمان كاد كثير من طلاب العلم يجمعون فيه بين حفظ القرآن وحفظ الكتاب ، وخاصة فى بلاد الأندلس [1] ، ولكن الذى يثير العجب حقا أن يكون الرجل على هذه الدرجة من الاستحضار له ، وإحكام الاستشهاد به على هذا النحو النادر المثال . ويزيد من العجب والاستغراب أن كثيرا مما ينقله عن كتاب سيبويه ليس مما يذكر فى بابه الذى عقد له ، ولكن مما يذكر عرضا فيه أو استطرادا إليه .

وبعد ، فسأورد هنا فقارا متفرقة من المسألة الثامنة والأربعين من الإغفال ، وأرجو أن تكون كافية فى تصوير شخصية الفارسى وتبيين منهجه فى الكتاب على نحو إلا يكن كاملا فمقارب ، إن شاء الله .

يستهل الفارسى المسألة الثامنة والأربعين على عادته بنقل كلام شيخه فيها ، فيقول :

« قال فى قوله عز وجل : (وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا) : أى يده ممسكة عن الإنفاق ، ومثل ذلك قوله تعالى : (ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك) أى لاتمسكها عن

(١) انظر سيبويه إمام النحاة لكاتب المقال : ١٨٨ .

الإنفاق . وقال بعضهم : يد الله مغاولة : نعمته مقبوضة عنا ، وهذا القول خطأ . ينقضه (بل يداه مبسوطتان) ، فيكون المعنى : بل نعمتاه مبسوطتان ، ونعم الله أكثر من أن تحصى ... »

وقال أبو علي بعد كلام له : وقوله — عز وجل (بل يداه مبسوطتان) لايدل على تقليل النعمة ، وعلى أن نعمته نعمتان ثنتان ليس غيرهما ، ولكنه يدل على الكثرة والمبالغة ، وقد جاءت التثنية يرادبها الكثرة والمبالغة ، وتعداد المثنى ، لاالمعنى الذى يشفع الواحد المفرد .

[ألا ترى أن قولهم : لبيك إنما هو إقامة على طاعتك بعد إقامة ، وكذلك سعديك ، إنما هو مساعدة بعد مساعدة ، وليس المراد بذلك طاعتين ثنتين ، ولامساعدتين فكذلك الآية ، المعنى فيها أن نعمه ظاهرة متتابعة ، ليست كما ادّعى من أنها مقبوضة ممتنعة . وهذا الذى ذكرناه فى لبيك وسعديك] وأن المراد به الكثرة — قول الخليل وسيبويه ومن وراءهما ، فهذا وجه .

وإن شئت حملت الآية على وجه آخر قريب من هذا فى أن التثنية يرادبها الكثرة وهو أن تجعل المثنى تثنية جنس لا واحد مفرد ، ويكون أحد جنسى النعمة نعمة الدنيا ، والآخرة نعمة الآخرة ، أو نعمة الدين ، فلا تكون التثنية على هذا مرادا بها اثنين .

فإن قلت : كيف جاز أن يثنى اسم الجنس ، وهل جاء لهذا نظير فى كلامهم ؟ قيل : نعم قد جاء هذا فى كلامهم مطردا ألا ترى أن النحويين لايجيزون إعمال نعم وبئس فى فاعل مخصوص ، ولا يسندونها إلا إلى أسماء الأجناس المعرفة بالألف واللام ، أو المضافة إلى الألف واللام ، وأجازوا نعم الرجلان أخواك ونعم الفتيان صاحباك ، فثنوا اسم الجنس ؟ فكذلك يثنى هذا الاسم فى الآية تثنية الجنس وإن لم تكن فيه لام التعريف . ألا ترى أنهم قالوا : هما خير اثنين فى الناس ، وأوقعوا التثنية على العموم ، وعلى غير ضم مفرد إلى مفرد ؟ وعلى هذا قول الفرزدق :

وكل رفيقى كل رحل وإن هما
تعاطى القنا قوماهما أخوان

فتأويل الرفيقين فى البيت العموم والإشاعة ألا ترى . أنه لايجوز أن يكون رفيقان اثنان لكل رجل ؟

ثم قال : فأما كون اليد بمعنى النعمة فليس بمنكر ولامدفوع ، ومما يدلك على ذلك ماأنشده أبو زيد :

فلن أذكر النعمان إلا بصالح
فإن له عندى يـَدِيًّا وأنعما[1]

جمع يد اعلى يـَدِىّ كالكليب . والعبيد . فقوله : « يديا وأنعما » ، فاليدى هى الأنعم

(١) نسبه فى اللسان (يدى) إلى الأعشى وذكر ابن برى أنه لضمرة بن ضمرة النهشلى ، وانظر سر صناعة الإعراب : ١ : ٢٤٥ .

فى المعنى ، وحسن التكرير لاختلاف اللفظتين كقوله :

أقوى وأقفر بعد أم الهيثم [1]

وكقوله — تعالى —: (شديد القوى ذو مرة) ؛ ونحو ذلك . واليد قد تستعمل فى القوة ، وتعنى بها . وعلى هذا ما أنشده الأصمعى لعلى بن الغدير الغنوى :

اعمد لما تعلو فما لك بالـــــذى
لا تستطيع من الأمـــور يدان

يريد : ليس لك قوة . ألا ترى أنه لا يذهب للجارحة ولا للنعمة هنا ؟ وعلى هذا ماذكره سيبويه من قوله : لا يدين لك ، فمعنى هذه التثنية عندى المبالغة أيضا فى نفى الاقتدار والقوة على الشىء ، كأنه يصف الشىء الذى قد اعتاص عليه واشتد امتناعه بأنه يبالغ فى انتفاء اقتداره عليه . فليس المراد بالتثنية الاثنين الناقص عن ثلاثة ، إنما هو الكثرة وتجمع يد النعمة على أيد فى العدد القليل ، وفى الكثير أياد، مثل كلب وأكلب وأكالب .

ثم قال : واعلم أن يدا كلمة نادرة وزنها فَعْل، يدل على ذلك قولهم : أيد، وجمعهم لها على أفعل ، فدل ذلك على أنه فعل ، كما دل آباء وآخاء على أن وزن أب وأخ : فَعَل واللام منه ياء. فهو من باب ساس وقاق [2] ، ولا نعلم لذلك فى الكلام نظيرا . والذى يدل على ذلك قولهم : يديت إليه يدا ، وهو ينبغى أن يكون مثل : شَعر [3] الجنين ، واستحجر الطين . . . ألا ترى أنه لم يجئ مثل وعوت وقد جاء عندى فى الأسماء ذلك ، وهو قولهم واو ثم قال : وقول ذى الرمة :

فيا لك من دار تحمل أهلها
أيادى سبا بعدى فطال احتيالها [4]

فقال أبو العباس : من قال : أيادى سبا ، فأضاف أيادى إلى سبا كان واضعا الكلمة فى غير موضعها . والقول فى ذلك لما قال ، لأنه فى موضع حال . ألا ترى أن قولك : ذهبوا أيادى سبا كقولك : ذهبوا متفرقين ؟ فاذا كان كذلك لم تصلح إضافته ، لأنك إذا أضفت إلى سبا — وهو معرفة — كان المضاف معرفة ، وإذا كان المضاف معرفة وجب ألا يكون حالا .

(١) البيت بتمامه : حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم . وهو من معلقة عنترة .

(٢) كل من سلس وقلق فاؤه ولامه من جنس واحد ، ويد مثلهما ، إلا أن الفاء واللام ياءان ، ولا نظير لذلك فيما يعلم من الأفعال .

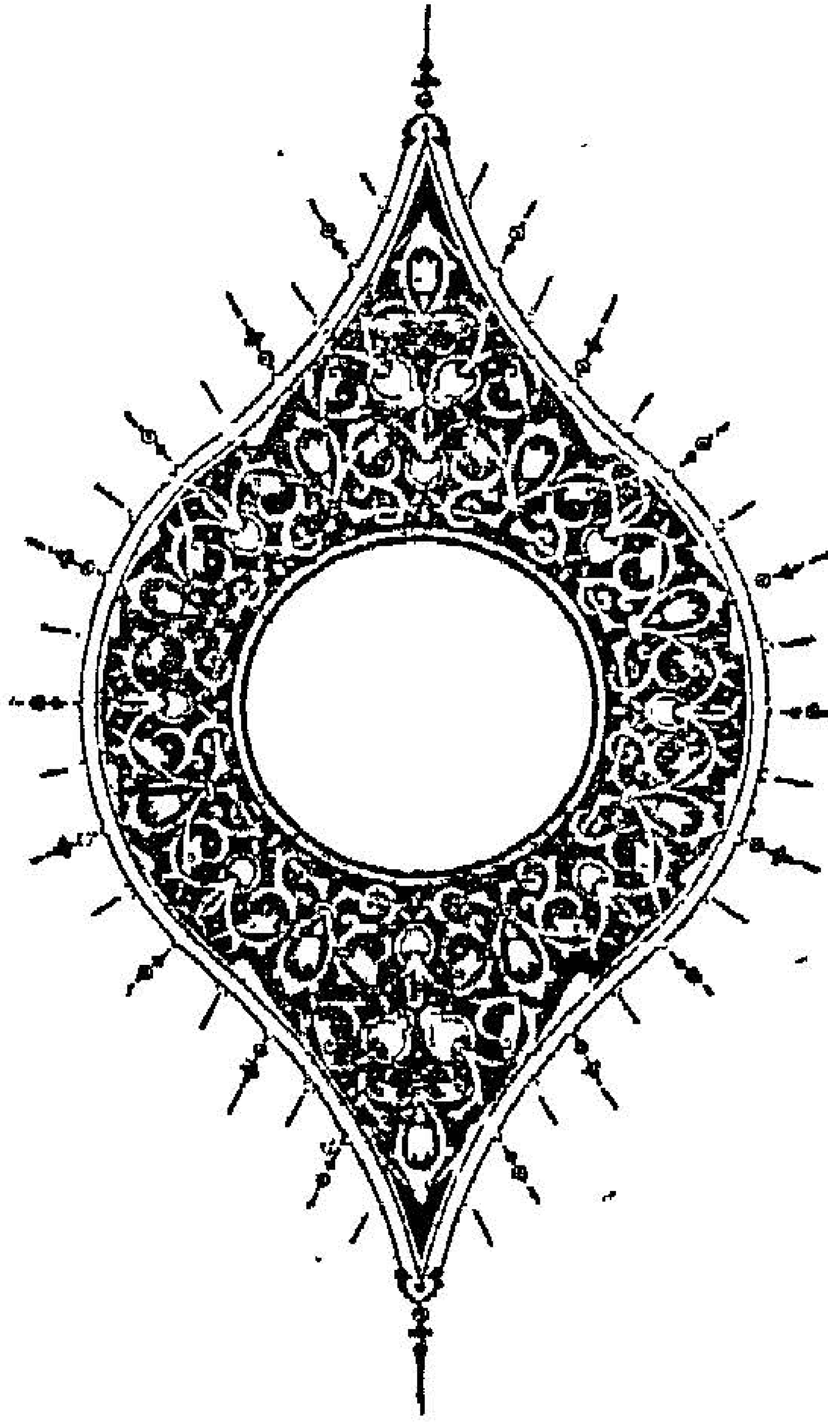
(٣) شعر الجنين كثر شعره ، يريد أن يديت من اليد ، وهى اسم ذات كشعر من الشعر ، واستحجر من الحجر .

(٤) احتيالها : خلوها من أهلها حولا ، وأنها لم يصبها المطر . يقال : أرض محتالة : إذا لم يصبها المطر .

وحكم الكلمة فى قول من أضافه ، فجعل أيادى مضافا إلى سبا — أن يكون سبا قد زال عن تعريفه ، فصارت الكلمة لكثرة استعمالها جارية مجرى ما ذكرنا من النكرة ، فيكون بمنزلة علم نُكِّر بعد تعريفه . والوجه فيها عندى ألاتقدر فيها الإضافة ، ولكن تجعل اسمين بمنزلة اسم واحد ، مثل حضرموت فيمن لم يضف وجعل نكرة .

فإن قلت : فلم لا تجعل سبا معرفة وتقدر فيه الانفصال كما تقدر فيها ، فتنصب على الحال إذا كان مضافا إلى معرفة ، كقيدالأوابد وعبْر[1] الهواجر ،وضارب زيد ونحوه؟ فإن هذا التقدير لا يصح فى أيادى. ألا ترى أنه ليس بصفة كما ذكرت من الصفات ، فيسوغ تقدير الانفصال فيه كما جاز فى الصفة ؟ .

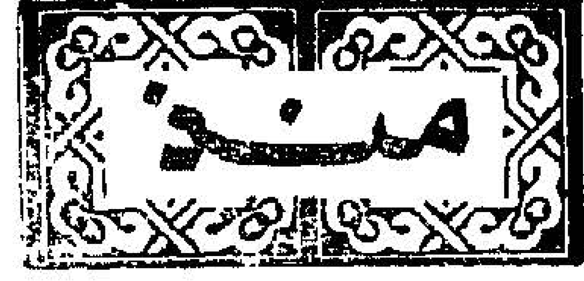
على النجدى ناصف
عضو المجمع



(١) يقال : هو عبر أسفار : أى قوى عليها مطيق لها .

خصائص اللغة العربية في التعبير العلمي

للدكتور عبد الحليم منتصر



أكثر من أحد عشر قرنا من الزمان وفى عهد الخليفة المأمون على التحديد تقاطر المترجمون على بيت الحكمة فى بغداد ، ينقلون الذخائر العلمية التى تركها الإغريق والفرس والهنود والسريان والقبط وغيرهم إلى اللغة العربية وشجع الخليفة العالم هذه الحركة العلمية العارمة ،فكان يولى العلماء عطفه ورعايته كما فتح لهم خزائن المال ، يغدق عليهم منها ، استحثاثا منه لهم على نقل هذا التراث إلى اللغة العربية. وكذلك تم نقل هذا التراث فى الطب والفلسفة والمنطق والأخلاق والسياسة والفلك والرياضيات والتشريح والنبات والحيوان وما إليها من علوم لم يكن للعرب بها عهد .

وليس من شك فى أن تلك كانت نقطة بدء رائعة للانطلاق وغدت بغداد مركز إشعاع علمى حضارى تاهت به على حواضر ذلك العصر ودانت الحضارة الانسانية لبغداد المأمون وغدا الخليفة المأمون رمزا للملك العالم وجمع حوله جمهرة من العلماء علّى بهم بلاطه وزين ملكه نقلوا روائع أبقراط وفيثاغورس وأفلاطون وأرسطو وبطليموس وجالينوس وديسقوريدوس وإقليدس وأ. شميدس وغيرهم من علماء أثينا والإسكندرية .

وعرفت الأمة العربية طب أبقراط وفلك بطليموس وهندسة إقليدس وقرأوا مجسطى بطليموس ، وأصول إقليدس وجامع أوريباسوس ومئات بل ألوف من كتب أرسطو وجالينوس وثاون وهيرون وغيرهم من رواد العلم العصرين الإغريقى والإسكندرى ووسعت العربية الجومطريا والاسطرونوميا والميتافيزيقا والأريثماطيقا والماثيماطيقا ومصطلحات التشريح والهندسة والفلك والطب والرياضيات وما إليها ، واستمرت الحركة العلمية فى النمو والازدهار وشملت الحواضر العربية كلها من بغداد إلى دمشق إلى القاهرة إلى مراكش إلى الأندلس فى الجامع المنصور والجامع الأموى والجامع الأزهرى وجامع القيروان وجامع قرطبة وفى بيت الحكمة ودار الحكمة ودار العلم فكانت هذه ، وتلك تؤدى ماتؤديه الجامعات ومعاهد العلم فى الوقت الحاضر ؛ وكانت منازل العلماء

وقصور الخلفاء والأمراء والمساجد ودور الكتب تزدان بمجالس العلم والأدب . وامتدت الامبراطورية العربية الإسلامية من حدود الصين شرقا إلى حدود فرنسا غربا وأكب علماء المسلمين على التأليف بلغة عربية سليمة حتى كانت أعمال العالم منهم تعد لا بالآحاد ولا بالعشرات ولكن بالمئات ، وتاه هذا العصر بعشرات ومئات من العلماء العرب يقرنون إلى أعاظم العلماء فى كل عصر وآن . وهاهى ذى تآليفهم ومخطوطاتهم تزدان بها دور الكتب والمتاحف ، مما يعد بمئات الألوف مما يحتاج تحقيقه وعرضه إلى جهود عصبة من أولى العزم من العلماء يعكفون على دراستها وتحقيقها وعرضها ملخصة ومخاصة . وقد أنصفنا بعض مؤرخى العلم حين قالوا : إن الحضارة الانسانية مدينة للعلماء العرب فى كل فروع المعرفة وأنه كان لابد من ظهور ابن الهيثم والصوفى والبيرونى والكندى لكى يتسنى ظهور جاليلاو وكيلر وكوبرنيق ، وأنه لولا أعمال العلماء العرب لا ضطر علماء النهضة الأوروبية أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ولتأخر سير المدنية عدة قرون ، وأنه لولم يعوقنا المغول والتتار والترك والاستعمار لكانت هذه النهضة التى تفاخر بها أوروبا تكون من نصيب الأمة العربية وتكون لغتها هى العربية وتتقدم عليها فى التاريخ عدة قرون .

ولاشك أن القارئ لمؤلفات ابن سينا وابن الهيثم والبيرونى وجابر والخوارزمى والرازى وابن النفيس والزهراوى والصوفى وابن يونس وابن العوام وغيرهم ليتماكه الإعجاب والإكبار بأسلوبهم العلمى الأخاذ ولغتهم العربية السليمة التى كتبوا بها فى الفلك والرياضات والضوء والهندسة والجبر والطب والكيمياء . لقد طوعوا العربية لمصطلحات هذه العلوم الطبيعية المختلفة حتى قال المنصفون إن الينبوع الأول للعلوم الطبيعية إنما تفجر فى العصر العربى الإسلامى الذى ازدان بأمثال من ذكرنا .

ولكن الأيام دول كمايقولون ، فضعف أمر الأمة العربية بعد أن قدمت لأوروبا زاد نهضتها العلمية عن طريق الأندلس التى سطعت فيها الحضارة العربية الإسلامية عدة قرون ، وعن طريق صقلية التى دانت لحكم العرب بضعة قرون وعن طريق الحروب الصليبية ثم عن طريق الامبراطورية العثمانية فى شرق أوربا. وظلت كتب من ذكرنا من العلماء العرب هى المراجع المعتمدة فى جامعات أوروبا طيلة قرون وأنشئت الجامعات الأوروبية على غرار جامعة الأزهر العتيدة وترجمت الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية واللغات الأجنبية الأخرى وسطعت شمس الحضارة العلمية على أوروبا فى حين انحسرت عن الأمة العربية .

وفى أوائل القرن الماضى بدأت الاتصالات بين بعض الدول الأوروبية وبعض البلدان العربية كان هدفها الأول حربيا استعماريا لم يكتب لها فيها نصر ولم تحقق أغراضها منه ، ولكنما تحققت اتصالات

علمية كان من نتائجها نقل العلوم الحديثة إلى البلدان العربية، وإنشاء بعض المدارس وإرسال البعثات العلمية إلى أوربا . وعاد هؤلاء المبعوثون ليقودوا نهضة علمية حديثة . ومنذ أوائل القرن التاسع عشر أنشئت فى مصر مدارس الطب والهندسة والمعلمين وغيرها من مدارس . وشارك علماء من أساتذة هذه المدارس من الأجانب والمصريين فى ترجمة الكتب العلمية إلى اللغة العربية، إن فى الطب أو الهندسة أو الزراعة أو الصيدلة أو الكيمياء وما إليها من علوم وفنون. وكان الحكام يلزمون طلاب البعثات بنقل هذه العلوم إلى اللغة العربية وأن تكون اللغة العربية لغة التدريس فى هذه المعاهد .

وفى أخريات القرن الماضى عاد الاحتلال ينشر ظله الثقيل مرة أخرى، وشيئاً فشيئاً جعل لغة التدريس هى الأجنبية ولم يكتف بأن يكون ذلك فى المعاهد العليا وحدها ولكن عمم ذلك فى المدارس الابتدائية والثانوية فاستقر فى أذهان الكثيرين أن هذه العلوم مستوردة هى الأخرى من الخارج وأنه لم يكن لنا بها عهد، وتناسى الكثيرون أنها بضاعتنا ترد إلينا، وأن العلماء العرب هم واضعو أسس هذه العلوم وهم مبتكرو كثير من أجهزتها وأدواتها بل ومصطلحاتها أيضا .

ومنذ أوائل القرن العشرين عادت للغة العربية مكانتها فى التدريس فى المدارس الابتدائية والثانوية ، كما أنشئت فى مصر الجامعة الأهلية وكانت مقصورة على كلية الآداب ، كما أنشئت معاهد عليا كبيرة . وفى أواسط عشرينيات هذا القرن أنشئت الجامعة المصرية الأميرية، وكانت تتكون آنئذ من أربع كليات هى الآداب والحقوق والطب والعلوم، وكانت العلوم هى وحدها التى أنشئت إنشاء فى ذلك التاريخ ولم تكن متحولة عن معهد أو مدرسة أخرى ، وضمت إليها بعد ذلك كليات أخرى . ثم أنشئت فى أوائل الأربعينيات جامعة الإسكندرية ثم جامعة عين شمس فى سنة ١٩٥٠ وتتابعت الجامعات فى مصر بعد ذلك فى أسيوط وطنطا والمنصورة والزقازيق ، كما تتابع إنشاء الجامعات فى كثير من البلدان العربية فى العراق فى بغداد والموصل وفى سوريا وفى دمشق وحلب وفى الأردن وعمان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب والكويت والرياض وغيرها ، كما أنشئت المجامع اللغوية فى القاهرة وبغداد ودمشق للمحافظة على سلامة اللغة العربية وجعلها مسايرة للنهضة العلمية.

ومن أسف أن اللغة العربية ماتزال وئيدة الخطو لتكون لغة التدريس فى الكليات العملية خاصة باستثناء جامعة دمشق .

وقد آمن الكثيرون أن التدريس إنما كان بلغة أجنبية ضرورة مؤقتة لم يكن معدى عنها، وإنهم ليرقبون اليوم الذى يعم

فيه اتخاذ العربية لغة العلم . فالعربية لم تقصر عن اللحاق بركب العلم وإنما قصر أبناؤها .

وفى أوائل الثلاثينيات صدرت فى مصر مجلة علمية باللغة العربية وفيها دعوة صريحة لتحقيق هذا الهدف، وكان العدد الأول يحمل استفتاء بين كبار أعضاء هيئة التدريس وكلهم يجمع على تحقيق ذلك الهدف ، وتكونت جماعة أطلقت على نفسها اسم جماعة أنصار اللغة العربية كان هدفها تحقيق هذا العلم وتدريب أعضاء هيئة التدريس والطلاب على معالجة الموضوعات العلمية بلغة عربية سليمة . يتناولون فى محاضراتهم ومقالاتهم أحدث الموضوعات العلمية من كيميائية وجيولوجية وطبية وصيدلية ونباتية وحيوانية ورياضية وهندسية وطبيعية بلغة عربية لاعجمة فيها . لقد حدث كل ذلك آنئذ فى كلية العلوم بالجامعة المصرية، وكان للإنجليز فى ذلك الوقت سلطان ودولة لافى السياسة فحسب بل فى العلم والتعليم كذلك ومع ذلك فقد توافر لدى الكثيرين من أبناء العربية من القوة والشجاعة ماجعلهم ينادون بتعريب العلم . وإنى لأسجد لله شكرا أن عشت حتى أرى فجر هذا اليوم يبزغ وما أشك فى أن ضحاه قريب مادمنا نحمل هذه القلوب القوية والعزمات الفتية ومادام أبناء العربية فى أرجاء الوطن العربى يستهدفون وحدته ورقيه وقوته ومنعته ليكون وطنا كريما يشعر أبناؤه ويشرفون بالانتساب إليه .

وهاهم العلماء العرب يتزايد عددهم يوما بعد يوم يحاولون أن يعيدوا مجد أسلافهم من أمثال من ذكرنا ، وهاهم أولاء يعقدون المؤتمرات الطبية والصيدلية والهندسية والعلمية العربية فى كل رجا من أرجاء الوطن العربى من أقصى شرقه إلى أقصى غربه تحت راية لغة الضاد — ليعلن عن حيويته الكامنه وليقود الإنسانية مرة أخرى إلى رحاب العلم والرفاهية والسلام، وأنه على ذلك لقدير ما اتخذ من العلم هاديا وإماما ومارفع راية الضاد يجعلها من مقومات ثقافته وحضارته بل وكيانه. ولامراء فى أن أولى مراتب الثقافة الرفيعة علم المرء بلغته وقدرته على التعبير والإبداع العلمى فيها فى كل مرفق من مرافق الحياة .

ولا مراء فى أن مجمع اللغة العربية بالقاهرة وقد عاصرته زهاء ثلاثين عاما ، قد أدى هذا المجمع أعظم خدمة لتعريب العلم إذ خصص جانبا غير يسير من وقته وجهده لترجمة المصطلحات العلمية إلى اللغة العربية بعد أن جند لها الخبراء من الأساتذة المتخصصين كان يجتمع بهم اعضاء المجمع فى لجان واجتماعات تعقد بصفة منتظمة لهذا الغرض ثم يعرض ما تقرره اللجان على أعضاء المجمع مجتمعين فى صورة مجلس، ثم تعرض مرة أخرى على

هيئة المجمع فى صورة مؤتمر حين يعقد المجمع مؤتمرة السنوى ليناقش ويقرما انجزه المجلس من أعمال طيلة العام، . فكان مرور المصطلح والتعبير العلمى بهذه الخطوات جميعا كفيلا بصقله وحسن صوغه .

وقد أقر مجمع اللغة العربية ألوف المصطلحات والتعبيرات العلمية فى مختلف فروع العلم نشر منها حتى الآن خمس عشرة مجموعة تضم بضع عشرات من ألوف المصطلحات فضلا عن عدد غير قليل منها يتضمنه المعجمان اللذان يصدرهما المجمع وهما الوسيط والكبير .

وقد ذهب فريق من المشتغلين بهذه المسألة إلى أنه لابد من إيجاد جذور عربية للكلمات والمصطلحات المراد ترجمتها والتعبير عنها، وأنه لا ينبغى أن تدنس العربية بعجمة أو لكنة وإنما تبقى مصفاة مطهرة وقد يبدو هذا الرأى وجيها لولا ان — هناك استحالة فى تنفيذه أو الأخذ به على أية صورة . فالمصطلحات العلمية فى تزايد مستمر بل إنها لتتكاثر كما يتكاثر الإنسان والنبات والحيوان، فيزيد عددها يوما بعد يوم وسنة بعد أخرى حتى أضحى مجرد حصرها مشكلة تعترض الفنيين والمتخصصين — وأضحت دور النشر تخرج علينا بين حين وآخر بمعاجم تتفاوت حجوما وأشكالا وتختلف فى لغاتها وطرائقها، فمنها ما يصدر بلغة واحدة ومنها ما يصدر بلغتين ومنها ما يجمع بين ست لغات أو أكثر . فملاحقة هذا التكاثر بلغة عربية أصيلة يبدو ومستحيلا لأسباب ليس أقلها شأنا أن العرب لم تكن تعرف هذه الموضوعات وأن هذه العلوم جديدة حتى على الغربيين، وأن الكثير منها إنما رأى النور وعرفته الإنسانية فى مطالع هذا القرن بل وبعد أن تنصف، فمن أين تأتى الجذور العربية لهـذه المستحدثات والمستعدنات والنظريات التى لم يكن للعرب بها علم ؟ إننا نكلف العربية شططا ونكلف أنفسنا جهدا لا طائل تحته إن نحن صممنا على التنقيب فى بطون المعاجم عن أصول عربية للميكرسكوب والترمومتر والالكترون والنيترون والميزون وما إليها مما يعد بعشرات الألوف، وإذا نحن وجدنا جذرا عربيا لهذه الكلمة أو تلك علينا أن نجد لعشرات الألوف، فما علينا إلا أن نبحث وندقق فإن أسعفتنا المراجع ببغيتنا ، فبها ونعمت ، وإلا ففى التعريب متسع لهذه الألوف المؤلفة من المصطلحات و التعبيرات العلمية فى كل علم وفن. ويسعنا ماوسع الأقدمين من استعمال أريثماطيقا وميتافريقا وجو مطريا وأسطرو نوميا وغيرها .

وإذا نحن اتفقنا على الترجمة العربية لكلمة فلعله من الواجب توحيدها وتعميم استعمالها فى الأقطار العربية بل التزام هذا الاستعمال، وإذا ترجمنا ميكروسكوب فهل نستعمل مجهر بصيغة اسم الفاعل أو مجهر بصيغة اسم الآلة أو نقول مجهار على وزن مفعال ؟

وإذا نحن ترجمنا كلمة ترمومتر فهل نقول ميزان الحرارة أو نستعمل اسم الآلة فنقول محرار على وزن مفعال أو نبقى

على ترمومتر تقريبا ؟فهذا كما نرى أمر محير تختلف فيه الآراء وتتباين فيه الأذواق :

توحيد الترجمة العربية للمصطلحات :

وهناك أوجه خلاف بين الدول العربية والمثقفين العرب بشأن هذه المصطلحات فالعراق والأردن ومصر لونتهم الثقافة الإنجليزيةحينا فتأثروا بها،وسوريا ولبنان وتونس والجزائر ثقافتها فرنسية فتاثرت مصطلحاتهم العلمية بالأصول الفرنسية للكلمات ، فلابد لنا اذن من الترجمة ثم توحيد هذه الترجمة : ولنضرب بعض الأمثلة لهذا التباين فى التعبير العلمى فى بعض البلاد فعلم الطبيعة كما نعرفه فى مصر يسمى فى سوريا والعراق والأردن ولبنان «فيزياء» والأولى ترجمة والثانية تعريب ،على أن التعريب ليس كاملا فالصحيح هو « فيزيقا » كذلك استعمله العلماء الأقدمون كما استعملوا أرثما طيقا للحساب ، وماثماطيقا للرياضيات وجو مطريا للهندسة، وهكذا، فكلمة فيزياء لم تلتزم فيها العربية الفصحى ولا التعريب السليم ولاعيب فى كلمة طبيعة الا احتمال الشبهة مع (nature) التى تترجم بنفس الكلمة « طبيعة » :

ونحن نقول فى مصر كما يقول أهل العراق بؤرة العدسة،ولكن الأقطار الأخرى تقول « المحرقة » ونحن فى مصر نقول بندول الساعة تعريبا لكلمة pendulum وفى العراق يقولون رقاص وفى سوريا « نواس » وفى الأردن «خطار»، فينبغى أن تختار الدول العربية ترجمة واحدة للمصطلح الواحد :

وفى مصر والعراق تطلق كلمة « طحلب » لتدل على alga على حين أنهم فى سوريا ولبنان يقولون « أشنة » أما اشنة فنستعملها فى مصر لكلمة lichen، على حين تقول الأقطار الأخرى طحلب .

وكلمة endosperm عربت فى مصر إلى اندوسبرم وترجمت فى بعض البلاد العربية الأخرى إلى سويداء .

وكلمة ecology ترجمت فى مصر إلى علم البيئة وفى أقطار أخرى إلى « علم المحيط « وفصيلة » Rutaceae ترجمت فى مصر إلى سدبية نسبة إلى اسم النبات الذى اشتق منه اسم الفصيلة واستعملت الأقطار الأخرى ليمونية نسبة إلى أشهر نباتاتها :

وكلمة nucellus ترجمت إلى « جويزة » فى البلاد العربية وعربت فى مصر إلى « نويسلة » .

وكلمة micropyle ترجمت إلى نفير فى مصر وفى البلاد العربية العربية إلى « بويب » :

ونحن فى مصر نقول « جرام » تعريبا لكلمة gram الإفرنجية وغيرنا يقول غرام :

ونقول مغنطيسية تعريبا الكلمة magnetism

فعربنا الجاف بالجيم حينا وبالغين حينا آخر ونحن نقول اجروسكوبى وآخرون يقولون ابغيروسكوبى . . . وهكذا :

وليست الترجمة العربية للمصطلح جامدة أبدا، فما أيسر أن تبين ان هناك ترجمة أو تعبيرا أفضل أن نعدل عن الأول إليه. فلم تكن الترجمة جامدة أبدا ، فقد كانت الترجمة تعرض فى المقالات والبحوث وللدراسات فيصقلها ويصححها الذوق العام والاستعمال ومن أمثلة ذلك ترجمة المصطلح الذى يدل على درجة تركيز ايون الأيدروجين ويرمز له بالإفرنجية بالرمز pH ، فقد سمى أولا - ا الجهد : الأيدروجينى ثم الأس الأيدروجينى ثم عدل أخيرا إلى « الرقم الأيدروجينى » :

وكذلك تلك الظاهرة التى سميت حينا « ادمصاص » ثم عدل عنها إلى التجمع السطحى، وهاهى ذى يقرها المجمع اللغوى والذوق العام بين المشتغلين بالعلم إلى « امتزاز » ترجمة لكلمة adsorption .

ومصطلح غروى اتخذ ترجمة لكلمة colloid ثم عدل عنها إلى شبه غروى ثم إلى غراوانى :

وكذلك كلمة alkaloid عربت حينا إلى قلويد ثم ترجمت إلى شبه قلوى ثم إلى « قلوانى » وهكذا :

مصطلحات فى علم الطبيعة :

وهناك مصطلحات متقاربة المعنى متفاوتة المدلول لابد من تعريفها تعريفا دقيقا ولابد من وضع الترجمة الصحيحة لكل مصطلح يتميز بها عن المصطلح الأخر فالممانعة ، والمعاوقة ، والمقاومة ، قريبة فى معناها ولكن مدلولاتها متفاوته فوضعت :

الممانعه ترجمة الـ Reluctance

والمقاومة « الـ Resistance

والمعاوقة « الـ Impedance

ثم المجاوزه والمهاودة والمسايرة قريبة فى فى معناها ولكن مدلولاتها متفاوته فوضعت:

المجاوزة ترجمة الـ Permittance

المهاودة « الـ Susceptance

والمسايرة « الـ admittance

ثم المفاعلة ، والمنافذة ، والمواصلة ، والمحاثة قريبة فى معناها ولكن مدلولاتها متباينة فوضعت :

المفاعلة ترجمة الـ Reactance

والمنافذة « الـ Permeance

والمواصلة « الـ Conductance

والمحاثة « الـ Inductance

ثم ابتكرت صيغ جديدة لم تكن تستعمل كثيرا كالمصدر الصناعى فنقول :
الممانعية ترجمة الـ Reluctivity

وهى مقدار قابلية المادة المغنطيسية لتوصيل الفيض المغنطيسى وهى مقلوب المنفذية

والمنفذية ترجمة لـ Permeability

وهى النسبة بين كثافة الفيض المغنطيسى المنتج فى وسط ما إلى القوة الممغنطة المنتجة له :

والمجاوزية ترجمة لـ Permittivity

وهى النسبة بين الإزاحة الكهربية لوسط ما إلى القوة الكهربية المنتجة له

والمقاومية ترجمة لـ Resistivity

وتعنى المقاومة الحجمية للمادة ، ويقصد بذلك مقاومة جرم من تلك المادة طوله الوحدة ومساحة مقطعه الوحدة تسمى ايضا المقاومة النوعية

والمتأثرية ترجمة لـ Susceptibility

وهى النسبة بين شدة التمغنط إلى شدة المجال المغنطيسى فى الدائرة المغنطيسية

والمفاعلية ترجمة لـ Reactivity

والمعاوقية ترجمة لـ Impedivity

والموصلية ترجمة لـ Conductiuity

وهى خاصية للمادة بفضلها تسمح للتيار الكهربائى بالمرور خلالها إذا كان هناك فرق جهد وهى مقلوب المقاومية .

وكذلك تتقارب معانى الانحلال والتدهور والفساد والتفتت والتخلل وقد ترجمت على هذا النحو :

Degeneration	— انحلال
Deterioration	— تدهور
Destruction	— هدم
Disintegration	— تفتت
analysis	— تحلل
Decay	— فساد

مصطلحات طبية :

وابتكرت صيغ قياسية كثيرة فى المصطلحات الطبية

كأن نقول عصاب ترجمة للمصطلح Neurosis وهو مرض عصبى وظيفى لاتصحبه علامات عضوية ومن أنواعه :

(ا) عصاب القلق	anxiety neurosis
(ب) عصاب أصابى	Teaumatic neurosis
(جـ) عصاب قلبى	Cardiac neurosis
(د) عصاب كلالى	Fatigue neurosis
(هـ) عصاب متأخر	Neurosis tarda
(و) عصاب انحصارى قسرى	Obsessive compulsive
(ر) عصاب مهنى	Occupatinal neurosis

وكذلك نقول عن المرض الجلدى —جلاد Dermatosis

وعن مرض الصدفية ، صداف Psoriasis

ونقول بواغ الشعر	Sporotrichosis
والوزام الذهمى	Stratomatcsis
وفطار الشعر	Trichomiyris
وعقاد الشعر	Trichonosdis
والعراق المصن	Asmidiosis
والعراق الفسفورى	Phosphe.iodrosis
والطعام	Cehunosis

وترجم إلى العمه الحسى مصطلح Agnesis وهو القصور عن تمييز الاشياء وانواعه

(أ) عمه سمعى	Auditory agnosis
(ب) عمه بصرى	Optic agnosis
(جـ) عمه لمسى	Tactile agnosis

وترجم إلى العمه الحرفى المصطلح Apratia وهو عدم القدرة على الاتيان بحركة ذات قصد .

وهناك عشرات من الأمثلة لهذه المجاميع من الكلمات أو المصطلحات التى تتقارب فى معانيها وتتفاوت فى دلالتها ومن أسف أن المراجع الأجنبية كثيرا ما تستعمل الكلمة الواحدة لأكثر من معنى ومدلول . فكان على المترجم أن يحتاط كذلك.ومن حسن حظ العربية أنها غنيةجدا بالمترادفات ،وأن فقهها من أغنى لغات الأرض بالمدلولات والألفاظ والأقيسة،وكانت الطريقة الوحيدة هى جمع هذه الأشياء وتسليط الأضواء عليها واستنباط المدلولات الحقيقية لها ،والغوص فى المعاجم لاستخراج الكلمة الملائمة،وتعميم الاستعمال والتزامه .

الوحدات والرموز والثوابت :

وهناك صعوبة الوحدات والمواصفات والمقاييس واستعمال الرموز المناسبة لكل وحدة. وتميزت اللغات الأجنبية بالخطوط المتغايرة فالرومانى والإغريقى والايطالى والخفيف والثقيل والكبير والصغير لكل صورة مما جعلنا نحصل على مئات الصور — للحروف الأجنبية ومن حسن الحظ ان الخط العربى هو أيضا متعدد الصور فهناك النسخ والرقعة والثلث وما إلى ذلك فنجد مثلا هذه الصور :

الكاف — ك لـ كـ ك ،

الميم — م م م

النون — ں ن ن ن

الجيم — ج جـ ج ج

السين — س س س س

القاف — ق ق ق ق

الياء — ى ى ي ي

الراء — ر ر ر ر

فكان علينا أن نؤلف بين هذه الحروف لنجد الرموز الكافية لمئات الوحدات والمقاييس والعناصر. فهناك رموز للثوابت مثل ثابت سرعة الضوء ثابت افوجادرو ، ثابت فراداى ، ثابت شحنة الإلكترونات ، ثابت الجاذبية وثابت لكتلة الإلكترون .

وهناك وحدات المقاييس من طول وعرض وارتفاع ونصف القطر والقطر والزاوية والمساحة والحجم .

ووحدات الوقت والزمن والتردد والسرعة وطول الموجة والتسارع والكثافة والعزم والشغل والقوة والوزن والضغط والطاقة والقدرة والكفاءة والشد والثنى والانحراف والالتواء والاحتكاك واللزوجة والولاء والتوتر والتيار والمقاومة والحث والسعة والفيض والجهد والمقاومة والممانعة والمجاوزة والمواصلة والإضاءة .

ثم معاملات الانكسار والانحراف ودرجات الحرارة والتمدد والموصلية والعدد الذرى والوزن الذرى والتكافؤ والتحلل والتأين .

ثم المتر والمليمتر والسنتمتر والميكرون والمليلتر والثانية والدقيقة والساعة والسيكل والكيلو سيكل والجرام والمليجرام والكيلو جرام :

والسعر والكيلو سعر والواط والفولط والأمبير والجول والقنديلة والكولومب والفولط كولومب والفولط أمبير والهنرى والفاراد والكورى والميكروكورى ، والبوصة والقدم والياردة والجالون والحبة والأوقية والباوند والباوندال والحصان : : إلخ .

هذه أمثلة لوحدات لاتجاوز المائة وهناك ثوابت غيرها لايتسع المقام لذكرها عدا أكثر من مائة من العناصر الكيميائية ينبغى أن يتفق على رموز من حروف عربية لها وقد قال قوم بالإبقاء على الوحدات والرموز الأجنبية إلا أن هذا الرأى قد رفض وروئى التزام العربية والمعادلات الكيميائية روئى تعريبها هى الأخرى مادامت الرموز قد عربت جميعها :

وتتبين الصعوبة إذا عرفنا أن القدرة والقطر وقوة المجال المغنطيسى والقوة الدافعة الكهربائية والطاقة والدقيقة كل هذا وغيره كثير يرمز إليه بالحرف ق ولابد من التمييز بينها فقد يقع اثنان أوأكثر فى معادلة واحدة . كذلك المساحة والسعة وستوكس وغيرها يرمز لها بالحرف س . والشدة والشغل والشحنة ومعامل الانتشار وغيرها يرمز لهابالحرف ش والتردد والتيار والتورك (عزم الدوران) والوقت ومعامل الانتقال وثابت سرعة التفاعل يرمز لها بالحرف : ت :

وعدد أفوجا درو والزمن وثابت الدوران وعدد اللفات وعدد الجزئيات والسعة الحرارية للجزئ وعدد الانتقال ووحدة نيوتن كل ذلك يرمز له بالحرف ن ؛

وهكذا من عشرات الأمثلة التى يرمز فيها الحرف الواحد لعدد كبير من الأحداث والثوابت والمعاملات وما إليها من وحدات ومقاييس عالمية مغيرة ينبغى أن توجد لها مقابلات بالأحرف العربية فضلا عن أن الحرف الواحد قد يرمز إلى أكثر من عنصر كيميائى واحد فالزئبق والأزوت والزرنيخ قد يكون رمزها جميعاً فضلا عن أن حرف ز نفسه يرمز به لعدد آخر من الوحدات مثل وحدة إزاحة التيار ومعامل الاسموز وما أشبه .

لذلك كان لا بد من اختيار صور مختلفة للحرف الواحد فضلا عن ضرورة الجمع بين حرفين أو أكثر منعاً للبس وكذلك الإبقاءفى بعض الحالات على الحروف الإغريقية كرموز بعض الوحدات العالمية المعبرة أو الرموز الرياضية حيث بدأ صعبا أحياناً إيجاد رموز منحروف عربية موحدة ولا بد أن يمضى بعض الوقت حتى تتكامل طريقة سوية مبرأة من المآخذ بعدأن يصقلها ويصححها ويسيغها الرأى العلمى العام والذوق العام وبعد أن تعيننا المطابع والمسابك

على إيجاد الصور المطلوبة للحروف وقد جربت صور مختلفة لخطوط النسخ والرقعة والثلث والفارسى والكوفى بل وحروف التاج التى ابتدعت حيناً ثم عدل عنها .

وعلى الذين يقولون بالإبقاء على الرموز والمعادلات والحروف الافرنجية ويضربون أمثلة على ذلك باللغات الأوروبية المختلفة التى اتفقت على الرموز نفسها فى هذه اللغات فاتهم أن الحروف فى هذه اللغات جميعا متشابهة إلى حد كبير، فضلا عن أنها تكتب جميعاً من اليسار إلى اليمين فإذا فرضناها فى كتاباتنا وبين سطورنا العربية جاءت نشازا .

وفى علوم الحياة أقر مجمع اللغة العربيه قاعدة موحدة للتصنيف كما وضع قواعد لترجمة وتعريب أسماء المواليد والأعيان من نبات وحيوان فأقر حلقات التصنيف الآتية :

عالم	Kingdom
عويلم	Sub-Kingdom
شعبة	Phylum
شعيبة	Sub Phylum
طائفة	Class
طويئفة	Sub-Class
رتبة	Order
رتيبة	Sub-Order
فصيلة	Family
فصيلة	Sub-Fanily
قبيلة	Tribe
قبيلة	Sub-Tribe
جنس	Genus
جنيس	Sub Genus
نوع	Species
نويع	Sub-Species
ضرب	Variety
سلالة	Race
عترة	Strain
فرد	Indvidual

وقد أزالت هذه الأسماء التى اتفق عليها وأقرها مجمعنا الموقر أزالت حيرة كانت شائعة لدى مؤلفى كتب المواليد، وأصبح اليوم كل اسم عربى يدل اصطلاحيا على حلقة واحدة من حلقات التصنيف على غرار الأسماء الأعجمية المقابلة لها ، واضح أن أسماء حلقات التصنيف هذه تعد من أسماء المعانى، وأنها ترجمت إلى العربية ولم تكن الصعوبة فى الترجمة، ولكن فى تخصيص كل حلقة باسم عربى واحد راجح وهذا ما أقره المجمع : وهو قرار خليق بان يتبع مهما يكن للبعض من آراء أخرى فى هذه المسميات وذلك لأن فيه خلاصا من فوضى تعدد الأسماء لكل حلقة واحدة من حلقات تصنيف المواليد :

وقد أقر المجمع القواعد الآتية فى ترجمة وتعريب أسماء المواليد والأعيان :

الأولى: ترجمة الألفاظ العلمية بمعانيها هو المجال الأوسع فى حلقات التصنيف العليا وهى الشعب والطوائف والرتب :

الثانية: أسماء القبائل والفصائل النباتية أو الحيوانية تكون عربية أو معربة على حسب اسم النبات أو الحيوان الذى تنسب إليه :

الثالثة: اجناس المواليد التى ليس لها اسماء عربية تعرب اسماؤها العلمية اذا كانت منسوبة إلى الأعلام وتترجم بمعانيها إذا أمكن ترجمتها فى كلمة عربية واحدة سائغة وإن لم يكن ذلك ممكنا رجح تعريبها .

الرابعة: لا مجال للتعريب فى الألفاظ العلمية الدالة على أنواع النبات لأن جميع ألفاظها أو معظمها نعوت أو صفات تترجم ترجمة فى جميع اللغات الحية .

الخامسة: يوجد مجال للترجمة أو التعريب جميعا فى الألفاظ الدالة على السلالات والأصناف أو الضروب :

السادسة : لا مجال للنحت ولا للتركيب المزجى فى تصنيف المواليد ولا حاجة إليهما وفى اللجوء إليهما تشويه للغة العربية :

ومع ذلك فقد رأى المجمع ضرورة الازدواج أى ذكر الأسماء العلمية اللاتينية فى الدراسات العليا وفى حالة احتمال أى لبس .

فمثلا لا مجال للتعريب فى الفقاريات والأسماك والبرمائيات والزواحف والطيور والثدييات فى رتب الحيوان : كذلك لا مجال للتعريب فى غشائية الأجنحة وحرشفيات الأجنحة وذوات الجناحين ونصفيات الأجنحة وما إليها من رتب الحشرات وكذلك للنباتات الزهرية واللازهرية وذوات الفلقتين وذوات الفلقة الوحدة وكاسيات البذور وعاريات البذور وما إليها :

فهذه جميعا ترجمات معقولة مقبوله مستساغة فلا معنى للتعريب هنا مطلقا، وكذلك نقول فى الفصائل النباتية النخيلية والنجيلية والزنبقية والنرجسية والسحلبية والخبازية ، وكذلك أسماء الأجناس كالقمح والشعير والخردل والقطن والورد وما إليها .

أما النوع ، فينبغى إن دل على صفة بعينها أن نردف الاسم المتفق عليه باللغة العربية بالاسم العلمى كاملا، ويتعين ذلك خاصة فى الحالات التى تختلف فيها المسميات. فالبطاطس فى مصر هى البطاطا فى سوريا والخوخ هو الدراق والكمثرى هى الإجاص . بل إن الديس والبوط والبردى أسماء مختلفة لنبات واحد، ولكنه يعرف بأسماء مختلفة فى الجهات المختلفة فى كل هذه الحالات وفى مجال البحث العلمى والكتابات العلمية يتعين الازدواج وذكر الاسم العلمى باللغة اللاتينية .

فى الجيولوجيا :

وفى المصطلحات الجيولوجية تسعفنا العربية بألفاظ تحدد الفروق الدقيقة بين درجات متفاوتة من النور والظلمة والعمق والضحالة والملوحة والعذوبة والبرى والتفتت والتشقق

والانفصال والانفصام وما إلى ذلك، فإذا بها معطاء كأجزل ما يكون العطاء :

فنجد النور والغسق والدغش والغبق والإظلام

كما نجد الضحل والغائر والعميق والسحيق

وفى مدى استجابة الصخور ورد الفعل فيها بالنسبة للحركات الأرضية :

فاصل وتفصل	Joint, jointing
صدع وتصدع	Fault, faulting
شق ، تشقق	Fracture, fracturing
دسرة ، ودسر	Thrust, thrustring
تفلق	Cleavage
إنزلاق	Slipping
تزحلق	Sliding
زحف	Creeping

وفى باب الطى

طية وطى	Fold, folding
ثنية وثنى	Pliating
تعرج	Corrugation
قبة ، تقبب	Dome, doming

وفى درجات ملوحة الماء نقول ،

ماء عذب	Fresh water
ماء مسوس	Brackish water
ماء ملح	Saline
ماء زعاق	Hypersaline water
ماء أجاج	Brine

وفى باب ما يشبه :

غراوانى	Colloid
بلورانى	Crystalloid
فلزانى	Metalloid
سكرانى	Saccharoid
كروانى	Spheroird
دلتانى	Deltoid

وفى موضوع البرى والسحج والتحات والتآكل نقول :

البرى أو السحج	Abrasion
التحات	Erosion
التآكل	Corrosion

ونقول

صواعد	Stalagmites

وهى أعمدة من كربونات الكلسيوم ترسبت فى أرضية الكهف بسبب بخر الماء متجهة إلى أعلى :

وهوابط	Stalactites

وهى أعمدة من كربونات الكليسوم مدلاة من سقف الكهف بسبب بخر الماء متجهة إلى أسفل، وهى صيغ عربية سليمة ما أظن أن الأقدمين قد استعملوها :

وفى مراتب ومراحل الزمن الجيولوجى نقول ؛ الدهر والحين والحقب والعصر والبرهة واللحظة

١ — الدهر Eon

أطول مرحلة من مراحل الزمن الجيولوجي لا يقل مداها عن عدة مئات قد تصل إلى ألف أو أكثر من ملايين السنين .

٢ — الحين Era

أطول مراحل العصر فى الزمن الجيولوجى ويقاس مداها ببضعة ملايين من السنين (لا يتجاوز العشرة عادة)، ويتميز كل حين من الأحيان الجيولوجية بفصائل أجناس حيوانية ونباتية مميزة يبيد معظمها مع نهايته .

٣ — الحقب Period

المدة من الزمن ترسبت أثناءها صخور المجموعة ، وتقدر بمئات الملايين من السنين

٤ — العصر Age

أطول مرحلة من مراحل الحقب ويقاس مداها بعدد قليل من عشرات الملايين من السنين . ويتميز كل حقب برتب وفصائل حيوانية ونباتية تنقرض أغلبها أو تقل أهميتها الجيولوجية مع نهاية الحقب .

٥ — البرهة Hemera

مرحلة من الزمن الجيولوجى يقاس مداها بمئات الآلاف من السنين ويندر أن يبلغ مداها أكثر من مليون سنة . وهى أطول مرحلة ينقسم إليها حين من الأحيان الجيولوجية ويتميز بازدهار نوع معين أو عدة أنواع معينة من الحيوانات أو النباتات تنقرض أو تقل فى الأهمية الجيولوجية كثيرا مع نهايتها .

٦ — اللحظة Moment

أقصر مراحل الزمن الجيولوجى وأصغر وحداته ولا يتجاوز مداها بضع عشرات من آلاف السنين، ويتميز بسيادة نوع معين من الكائنات خلالها أو بمرحلة معينة من تاريخ هذا النوع .

ولم تسمح وسائل تقسيم الأحقاب إلى عصور إلا فى الأحقاب الثلاثة الأخيرة فقط التى تتبع دهر الحياة الظاهرة .

جهود مجمع اللغة العربية :

وإذا نحن عرضنا للهيئات التى كان لها الفضل فى هذه الحركة المباركة من تطويع للغة العربية للاستعمال فى التعبيرات والمصطلحات العلمية فإننا لنضع على رأسها مجمع اللغة العربية . فهو الذي يسر الأمر بجهود أعضائه وخبرائه من أساتذة الجامعات المتخصصين، فهم جميعا قوم عاكفون على صون اللغة وسلامتها وهى الضمان الوحيد للتفاهم الصحيح بين قطان الوطن العربى إذ أن العامية واللهجات المختلفة لا يستقيم بها تخاطب ولا تفاهم وإنما يكون ذلك باللغة العربية السليمة التى يحافظ عليها وينميها مجمع اللغة العربية بأعضائه ولجانه وخبرائه ، وكانت حصيلة جهوده فى هذا المجال خمس عشرة مجموعة تضم عشرات الألوف من المصطلحات فى العلوم المختلفة .

المجمع المصرى للثقافة العالمية :

وأذكر بالتقدير المجمع المصرى للثقافة العلمية وقد عاصرته منذ إنشائه منذ نيف

وأربعين عاما لا أذكر أنى تخلفت عن محاضرة من محاضراته أو مؤتمر من مؤتمراته الا لعذر قاهر طارئ، لقد جعل من أهم أغراضه تعريب العلم ونشر الثقافة العلمية باللغة العربية، وقد حقق هذا الغرض كاملا بما نشر وأذاع من كتب ومحاضرات، وبما ترجم وعرب وناقش من موضوعات هى من صميم الموضوعات العلمية نشرها على الناس بلغة عربية سليمة. لقد استحق أعضاؤه ومؤسسوه كل تقدير أن أسهموا بأوفى نصيب فى خدمة اللغة العربية وتطويعها للتعبير العلمى .

ولا ننسى المؤتمرات العلمية العربية التى نظمها الاتحاد العلمى العربى والمؤتمرات العلمية العربية والمؤتمرات الطبية العربية التى عقدت فى العواصم العربية منذ عشرين عاما فقد عقد المؤتمر الأول فى الإسكندرية سنة ٥٣ وكان الثانى فى القاهرة سنة ٥٥ والثالث فى بيروت سنة ٥٧ والرابع فى القاهرة سنة ٦١ والخامس فى بغداد سنة ٦٦ والسادس فى دمشق سنة ٦٩ والسابع فى القاهرة سنة ١٩٧٣ . لقد عرضت من بين ما عرضت لموضوعات المصطلحات وأوصت من بين ما أوصت بضرورة الإسراع فى وضع معجم علمى عربى موحد أعد له نحو مائة ألف مصطلح روجعت جزازات نحو ثلثها ومن أسف أن توقف العمل فيه، وكان ذلك فى كنف وزارة البحث العلمى ثم أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا .

وكذلك عقدت مؤتمرات طبية عربية كثيرة كونت هيئة لترجمة المصطلحات كانت نواة لتأليف لجنة المصطلحات الطبية بمجمع اللغة العربية .

وينبغى أن نذكر بالشكر جهود أخرى بذلتها جامعة الدول العربية حين جمعت الإدارة الثقافية بها — جمعت المصطلحات العلمية التى تستعمل فى المدارس الثانوية وعملت على توحيد ترجمتها فى الأقطار العربية، فجمعت مئات المصطلحات مما يستعمل فى الرياضيات والكيمياء والطبيعة والنبات والحيوان وعرضتها على المختصين فى البلاد العربية، وقد أقرت الترجمة العربية الموحدة فى المؤتمرات العلمية .

خبير اجنبى :

ولعلنا أن نذكر فى هذا الصدد جهود خبير أجنبى هو السيد « جمبلت » الذى استقدم بمعرفة اليونسكو إبان انعقاد المؤتمر العلمى العربى الثانى سنة ١٩٥٥ وأمضى بمصر ستة أشهر عكف فيها على جمع نحو ألف وأربعمائة مصطلح فى علم الطبيعة جميعها وتحريفها من المعاجم المعبرة وفرقها فى جذاذات وزعت على المختصين لترجمتها ثم جمعت فى كتاب يقع فى جزأين عرضت بعد ذلك فى المؤتمر العلمى العربى الثالث فى بيروت، وقد أشار الخبير بمعالجة المصطلحات جملة حسب الموضوعات لا فرادى حسب الترتيب الأبجدى، كما أشار بإنشاء مكتب خاص للمصطلحات وباستعمال النظام العشرى العالمى فى تنسيقها وتبويبها .

مكتب تنسيق التعريب :

وها هو ذا مكتب التعريب يقوم بدوره فى هذا المجال وقد أخرج حتى الآن عددا من المجموعات التى تضم ألوف المصطلحات

ولعلنا أن نذكر كذلك عددا من المعاجم كان لها أثرها فى تذليل الصعاب مثل معجم شرف للمصطلحات الطبية والعلمية ومعجم المعلوف للحيوان ومعجم عيسى للنبات ومعجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهابى ثم معجم المصطلحات الفنية الذى يضم نحوا من خمسة وثلاثين الف مصطلح فى العلوم الميكانيكية والهندسة والرياضة والطيران والبحرية وما إليها :

وهناك المعجم العسكرى الموحد الذى أشرفت على إصداره جامعة الدول العربية ويضم نحو ثمانين الف مصطلح .

ولعله قد آن الأوان لتنسيق هذه الجهود جميعا والعمل على إصدار معجم علمى عربى موحد، وهو ما أوصت به المؤتمرات العلمية العربية المختلفة، وكذلك العمل على إصدار دورية علمية عربية تكون مدرسة لكبار المتخصصين لنشر الثقافة العلمية الرفيعة والموضوعات العلمية المتخصصة الدقيقة :

خاتمة :

وخلاصة القول أن اللغة العربية قد أثبتت قدرتها على التعبير العلمى وعلى نقل المصطلحات العلمية الدقيقة إليها، وانها قادرة على ملاحقة التقدم العلمى فى مختلف مجالاته، لولا هذا التعويق الذى يأتى عن طريق نفر من أبنائها لا يصبرون على لأوائها، يستسهلون استعمال اللغات الأجنبية فيظن شبابنا أن هذه العلوم مستوردة من الخارج مع أنها بضاعتنا ترد إلينا، ومع أننا نحن العرب أهل أصالة وأثالة فيها :

ومن الحق أن نقول إن التعليم فى كل بلاد العالم باللغات القومية لتلك البلاد ، فيما عدا قلة ضئيلة تلك التى تعددت فيها اللغات الإقليمية أو التى خضعت للاستعمار الأجنبى ردحا طويلا ، فاضطرت لاتخاذ لغة المستعمر لغة رسمية وتعليمية لها .

ونحن فى وطننا العربى لا نستطيع أن نحقق ديمقراطية التعليم مالم يكن باللغة القومية، ولست أدرى إذا لم تكن العربية هى لغة التدريس فى الجامعات العربية، فلماذا يتعين أن تكون الإنجليزية أو الفرنسية إن استعمال اللغة العربية فى التعليم الجامعى إنما هو وسيلة أكيدة للابداع العلمى وربط الجامعة بالمجتمع ورفع المستوى الثقافى والعلمى للأمة العربية ومنع الانفصال بين التفكير والتعبير . ولا مراء فى أن الدعوة إلى بناء المجتمع العربى تبقى ناقصة إذا أغفلت التركيز على اللغة العربية باعتبارها المقوم الرئيسى للوجود العربى. وليس معنى اتخاذ العربية لغة للتدريس فى الجامعات والمعاهد عدم العناية باللغات الأجنبية بل على النقيض ان ذلك ادعى لمضاعفة الجهد فى سبيل تقوية الطلاب فى اللغات الأجنبية

وذلك لمتابعة الاطلاع على المنجزات العلمية بلغاتها الأصلية .

وإذا كان قد غدا من العسير ملاحقة التقدم العلمى الهائل حيث ينشر أكثر من مليونين من البحوث العلمية المبتكرة سنويا فى أربعين لغة، فلا أقل من ملاحقة ماينشر باللغات الأجنبية الأكثر شيوعا كالإنجليزية والفرنسية والروسية والألمانية إلى جانب ألوف الكتب العلمية التى تنشر بهذه اللغات وإنما يكون ذلك بتقليد مافعله الرشيد والمأمون من إنشاء ديوان للترجمة فى بيت الحكمة فى العصر الذهبى للحركة العلمية فى العصر الإسلامى .

والآن وقد ثبتت قدرة اللغة العربية على التعبير العلمى، فحبذا أن يوصى مؤتمرنا بالآتى :

١ ـ أن تكون العربية لغـة التدريس فى جميع الجامعات والمعاهد العربية .

٢ ـ الإسراع فى إصدار معجم علمى عربى موحد .

٣ ـ إنشاء ديوان للترجمة تحشد له أرقى الكفايات العلمية لنقل البحوث والكتب العلمية إلى اللغة العربية .

٤ ـ تأكيد العناية بتدريس اللغة العربية واللغات الأجنبية فى المدارس والجامعات والمعاهد .

وبعد ، فإنه مما يشرف جيلنا أن ننفى عن العربية تهمة الجمود والقصور، وأن نجعلها لغة العلم كما فعل أسلافنا فى الزمن الماضى ، حين جعلوا منها لغة للنشر العلمى العالمى، وعنها نقل أهل أوربا علوم العرب وفنونهم . . ولولا هذه الإغفاءة التى طالت بضعة قرون لكان الحال غير الحال ، ولاستمر قصب السبق فى أيدينا ، ندل به على من نشاء ، وهانحن ننضو ثوب الخمول ونركض نحو المجد وثبا نريد أن نستعيد مجد السلف وأن نلحق بالركب ونشارك فى بناء صرح المدنية والحضارة ونحن الألى أسسنا بناءه وأقمنا دعائمه فى سالف الأزمان ونمد نهر المعرفة برافد من أعذب روافده وأغزرها مادة وأسلسها أسلوبا وأفصحها بيانا ، إنها معرفة علمية صيغت بلغة الضاد يقرؤها مائة مليون من الأنفس هم قطان الوطن العربى نريد لهم وحدة قوية عزيزة ، محاطة بسياج من العلم ، سداها العلم ولحمتها العلم ولغتها العربية الفصحى

والله ولى التوفيق والسلام ، ، ،

عبد الحليم منتصر
عضو المجمع

معنى (كاد) في الإثبات والنفي

للدكتور أحمد الحوفى



الفعل (كاد) مثبتا تارة ومنفيا تارة، فما معناه فى الحالين؟

أوثر ألا نتعجل الجواب، بل نستأنس أولا بآراء النحاة، ثم نعتمد على القرآن الكريم وعلى الشعر القديم فى تعرف الدلالة الحقيقية للفعل كاد فى الإثبات وفى النفى.

أولا (فى النحو):

١ ـ قال جمهور النحاة إن كاد وكرب وأوشك وضعت للدلالة على قرب الخبر، وإن كان قربه لا يستلزم وقوعه، بل قد يستحيل وقوعه كما فى قوله تعالى: «يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار».

فإذا قال قائل: كاد زيد يبكى، فمعناه قارب زيد البكاء، أى أن مقاربة البكاء ثابتة، ولكن البكاء نفسه منتف.

وقد عَبَّر الفراءُ والأزهرى عن هذا بأن إثبات كاد نفى، أى نفى لوقوع الخبر، لأنك إذا قلت: كدت أبلغ إليك، فمعناه أنك قاربت البلوغ ولم تبلغ.

٢ ـ أما كاد المنفية نحو قولنا: لم يكد الثمر ينضج، فمعناه عند الجمهور أنه لم يقارب النضج، أى أن المقاربة منفية، والنضج نفسه منتف انتفاءً أبعد من قولنا: كاد الثمر ينضج، وبهذا فسر الأخفش قوله تعالى: «إذا أخرج يده لم يكد يراها» بأنه لا يراها.

على حين أن الفراء والأزهرى يذهبان إلى أن نفيها إثبات، فإذا قلت: ما كدت أبلغ إليك، فمعناه أنك قد بلغت[1].

(١) شرح الأشمونى ٢ / ٩١ ـ ١٠٣ وشرح ابن يعيش ٧ / ١٢٤ ولسان العرب مادة "كيد".

ثانيا (كاد فى الاثبات) :

(۱) فى القرآن الكريم

۱ ـ قال تعالى : « ولما رجع موسى إلى قومه غضبانَ أسفًا قال : بئس ما خَلَفْتمونى مِنْ بَعْدى ، أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ ربكم ؟ وأَلْقَى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يَجُرُّهُ إليه ، قال : ابنَ أُمَّ إنَّ القوم استضعفونى ، وكادوا يقتلوننى ، فلا تُشْمِتْ بى الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين » [1] .

فما معنى كاد هنا ؟

المعنى أننى لم آل جهدا فى معارضتهم ووعظهم وإنذارهم ، لكنهم غلبونى على أمرى ، ولم يبق إلا أن يقتلونى ، وقد قاربوا ذلك .

۲ ـ وقال سبحانه : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتَّبعوه فى ساعة العُسْرة مِنْ بَعْدِ ما كاد يَزِيغُ قلوبُ فريقٍ منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رءُوف رحيم » [2] .

فقد كان المسلمون فى غزوة تبوك فى ضيق شديد ، لأن رواحلهم قليلة ، وأزوادهم ضئيلة ، وكان ماؤهم نَزْرا ، حتى إنهم نحروا الإبل واعتصروا فروثها ، وكان الحر شديدا ، ولهذا كادت قلوب بعضهم تنصرف عن ثباتها على الإيمان ، أو تنصرف عن اتباع رسول الله فى الخروج معه فى تلك الغزوة .

ومعنى هذا أن قلوب هذا الفريق لم تزغ ، بل قاربت أن تزيغ .

۳ ـ وقال تعالى : « وإن كادوا لَيَفْتِنونك عن الذى أَوحَيْنا إليك لتَفْتَرِىَ علينا غيره ، وإذًا لا تَّخذوك خليلًا . ولولا أن ثَبَّتْناك لقد كِدْتَ تَرْكَنُ إليهم شيئا قليلًا » [3] .

وذلك أن ثقيفا أو قريشا عرضوا على النبى صلى الله عليه وسلم أن يسلموا لكنهم اشترطوا شروطا ، ولولا أن الله تعالى ثَبَّت النبى وعصمه لقارب أن يميل إلى الرضا بشروطهم ، لشدة رغبته فى إسلامهم .

٤ ـ وقال سبحانه : « وقالوا اتَّخذَ الرحمنُ ولدا . لقد جئتم شيئا إدًّا ، تكاد السماوات يتفَطَّرْنَ منه ، وتَنْشَقُّ

---

(۱) سورة الأعراف ١٥٠

(۲) سورة التوبة ١١٧

(۳) سورة الإسراء ٧٣ ـ ٧٤

الأَرضُ ، وتَخرُّ الجبال هَدًّا ، أنْ دَعَوْا للرحمن ولدا » [1] .

أى أن نسبتهم ولدا إلى الله تعالى كلمة شنيعة فظيعة ينكرها العقل السليم ، وتبرأُ منها الجمادات ، وتوشك أن تنفطر وتنشق وتخر من هول هذه الفرية وبطلانها .

٥ - وقال تعالى : « الله نورُ السماوات والأَرض ، مَثَلُ نوره كمِشْكاةٍ فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجةُ كأنها كَوكَب دُرِّىٌّ يُوقَدُ منْ شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ يكاد زيتها يضىءُ ، ولو لم تَمَسَسه نار ، نورٌ على نور ، يَهدِى الله لنوره من يشاءُ ، ويَضْرِبُ الله الأَمثالَ للناس ، والله بكل شىءٍ عليم » [2] .

أى أن الزيت بسبب صفائه وبريقه ولمعانه يقارب أن يضىءَ من غير نار .

٦ - وقال سبحانه : « أَلم تر أَن الله يُزْجِى سحابا ، ثم يُؤَلِّف بينه ، ثم يَجْعَلُهُ رُكاماً ، فترى الوَدْقَ يَخْرُجِ منْ خلاله ، ويُنَزِّلُ من السماءِ من جبال فيها منْ بَرَدٍ ، فيصيب به مَنْ يشاءُ ، وَيصْرِفُه عَنْ مَنْ يشاءُ ، يكاد سَنَا بَرْقِه يَذْهبُ بالأَبصار » [3] .

ومعنى هذا أن ضوءَ البرق يقرب من أن يخطف الأَبصار ، ولا يخطفها .

٧ - وقال تعالى : « وإذا رأوك إنْ يتّخذونك إلا هُزُوًا . أَهذا الذى بَعَثَ اللهُ رسولا ؟ إنْ كاد ليُضِلُّنا عن آلهتنا لولا أنْ صَبَرْنا عليها ، وسوف يَعْلمون حين يرون العذابَ مَنْ أَضلُّ سبيلاً » [4] .

ويتبين من الآية أن النبى عليه الصلاة والسلام بذل أقصى جهده فى دعوتهم إلى الإسلام ، مع عرض المعجزات عليهم حتى شارفوا أن يتركوا دينهم ويسلموا ، لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم .

٨ - وقال سبحانه : « وأَصبح فؤادُ أمِّ موسى فارغا ، إنْ كادتْ لتُبْدِى به ، لولا أَنْ ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين » [5] .

---

(١) سورة مريم ٨٨ - ٩١ (٢) سورة النور ٣٥ (٣) سورة النور ٤٣
(٤) سورة الفرقان ٤١ - ٤٢ (٥) سورة القصص ١٠

أى أن أم موسى لما سمعت بوقوع موسى فى يد فرعون طار صوابها من شدة الجزع حتى قاربت أن تجهر بأن موسى ابنها ، لولا أن الله تعالى ألهمها الصبر لتكتم الخبر ، ولتكون من المصدقين بوعد الله لها فى قوله « إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » .

أو أنها حينما سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه كادت من شدة فرحها تبوح بأنه ابنها ،لولا أن الله ثبتها وألهمها الصبر .

(٢) فى الشعر :

١ - قال أبو صخر الهذلى :

تكاد يَدِى تَنْدَى إذا ما لمستُها
ويَنبت فى أطرافها الورق النّضْر[(١)]

فهو يصور سعادته إذا لمستها يده بهذه الصورة ، وهى أن يده تقرب من الإيراق الجميل .

٢ - وقال قيس بن ذَرِيح :

وَعَذّبه الهوى حتى براه
كَبْرِى القَيْنِ بالسَّفَنِ القداحا
وكاد يذيقه جُرَعَ المنايا
ولو سَقّاه ذلك لاستراحا[(٢)]

أى أن الحب هزله وقارب أن يسقيه جرع الموت ، وهو لم يسقه إياها ، لأنه لو شربها لاستراح ، وما قال ولو سقاه ذلك لاستراح .

٣ - وقال رجل من بنى جَعْدة :

إذا دعا باسمها داعٍ لِيَحْزُنَنى
كادتْ له شُعْبَةٌ من مهجتى تَقَعُ[(٣)]

أى أوشكت وقربت أن تقع .

٤ - وقال رجل من قيس :

وفيهن مِنْ بُخْتِ النساء رِبَحْلَةٌ
تكاد على غُرِّ النساء تَرُوقُ[(٤)]

فهى فى نظره لم تفق النساء الحسان ، بل قاربت أن تفوقهن ، وهو بهذا التعبير صادق ، لأنه يعلم أنها لم تفق النسوة الحسان جميعا .

ثالثا (كاد فى النفى) :

(١) فى القرآن الكريم

١ - قال تعالى : « قالوا الآنَ جئْتَ بالحق. فذبحوها ،وما كادوا يفعلون »[(٥)] :

أى أن قوم موسى تباطأوا فى ذبح البقرة ، وتلكأوا ، وأطالوا فى أسئلتهم

(١) الأمالى ١ / ١٤٩
(٢) الأمالى ١ / ١٦٢ القين : الحداد . السفن جلد أو حجر ينحت به الشىء ويسحج القدح .
(٣) الأمالى ٢ / ٢٧٣ . (٤) الأمالى ١ / ١١٨ بخت وربحلة : المراد ضخمة ممتلئة. (٥) سوره البقرة ٧١

عن صفاتها ، وهم يقصدون التهرب من ذبحها ، حتى إن حالتهم كانت تدل على أنهم لم يقاربوا الاستجابة والطاعة ، ثم بعد هذا كله اضطروا إلى ذبحها .

ففى الآية الكريمة معنيان ، لكل منهما حاله وزمانه .

وأغلب الظن أن الذين ذهبوا إلى أن نفى كاد إثبات فهموا أن قوله تعالى « فذبحوها وما كادوا يفعلون » تصوير لحالة واحدة فى زمان واحد ، أى أنهم ذبحوا البقرة فعلا ولكن بعسر ومشقة .

والحق أن الإثبات لم يفهم من قوله تعالى « وما كادوا يفعلون » بل فهم من قوله سبحانه « فذبحوها » فالنفى الداخل على الفعل كاد ما زال نفيا ، ويحسن أن استأنس هنا بما قاله الطبرى والزمخشرى .

أما الطبرى فإنه قال : وما كادوا يفعلون ، أى أنهم كادوا لا يفعلون ، لأنهم لم يكادوا يفعلون ما أمرهم الله به من ذبح البقرة ، لغلاء ثمنها ، ولخوف الفضيحة على أنفسهم حينما يظهر قاتل القتيل الذى اختصموا فيه [1]

وأما الزمخشرى فقال : وما كادوا يفعلون ، استثقال لاستقصائهم واستبطاء لهم ، وأنهم لتطويلهم المفرط وكثرة استكشافهم ما كادوا يذبحونها ، وما كادت تنتهى أسئلتهم ، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم [2] .

٢ - وقال تعالى : « قل كلٌّ مِنْ عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا [3] » .

وذلك أنهم زعموا أن ما أصابهم من خير ونعمة منسوب إلى الله ، وما أصابهم من قحط وشر منسوب إلى رسول الله ، وهم مبطلون فى زعمهم ، لأن الله تعالى هو الفعال ، وهو الذى يبسط الأرزاق ويقبضها ، فما بالهم لا يقاربون أن يفهموا فيعلموا هذه الحقيقة ؟ وليس المراد أنهم فهموها بعسر .

٣ - وقال سبحانه : « واستفتحوا وخاب كلُّ جبارٍ عنيد ، مِنْ ورائه

---

(١) تفسير الطبرى ١ / ٢٨١
(٢) تفسير الزمخشرى ١ / ٧٥
(٣) سورة النساء ٧٨

جهنم ، ويُسْقَى مِنْ ماء صديد ، يتَجَرَّعُه ولا يكاد يُسيغه ، ويأْتيه الموتُ مِنْ كل مكان ، وما هو بمَيِّتٍ ، ومِنْ ورائه عذابٌ غليظ [1] » .

أي أنه يتجرع الصديد ولا يقارب أن يسيغه ، فكيف تكون إساغته إذن ؟

ويفهم من الآية أن الإساغة لم تقع مهما يكن عسرها .

٤ ــ وقال تعالى : « حتى إذا بلغ السَّدَّيْن وجد مِنْ دُونِهما قوما لا يكادون يفقهون قولا [٢] » .

أي أن ذا القرنين لما بلغ ما بين السدين وجد من دونهما قوما لا يقاربون أن يفهموا الكلام ، ولهذا يتم التفاهم معهم بالإشارة ونحوها ، فهم مثل البكم ، لأن لغتهم غريبة على ذى القرنين ، ولأن لغته مجهولة لهم .

٥ ــ وقال سبحانه : « والذين كفروا أعمالُهم كسراب بقِيعة ، يَحْسَبُهُ الظمآن ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجَدَ الله عنده فَوَفَّاه حسابه ، والله سريعُ الحساب . أو كظلمات فى بحر لجِّىٍّ يَغْشاه موجٌ مِنْ فوقه موجٌ مِنْ فوقه سحاب . ظلماتٌ بَعْضُها فوق بعض ، إذا أخرَجَ يَدَه لم يَكَدْ يراها ، ومَنْ لم يجعل اللهُ له نوراً فما له مِنْ نور [٣] .

فى هاتين الآيتين وصف لظلمات متراكمة ، إذا أحاطت بإنسان وأخرج فيها يده لم يقارب أن يراها .

وهذا هو الذى يتناسب والظلمات الموصوفة ، وهو أبعد فى نفى الرؤية ، لأن الذى لا يرى قد يقارب أن يرى ، أو يرى رؤية ضعيفة ، ولكن الذى لا يقارب أن يرى لا يرى شيئا ما ، وهذا هو المراد من الآية الكريمة ، ويعززه تشبيه أعمال الكفار بالسراب ، فإن السراب لا حقيقة له ، ثم شبهت أعمالهم بالظلمات المتراكمة التى لا تهدى إلى شىء ولا يمكن أن يُرَى فيها شىء .

٦ ــ وقال سبحانه على لسان فرعون : « أم أنا خيرٌ من هذا الذى هو مَهِينٌ ، ولا يكاد يُبين [٤] » .

---

(١) سورة إبراهيم ١٥ – ١٧

(٢) سورة الكهف ٩٣

(٣) سوره النور ٣٩ – ٤٠

(٤) سورة الزخرف ٥٢

فقد زعم فرعون لقومه أنه خير من موسى عليه السلام ، ووصفه بالضعف والحقارة وبالعجز عن الإبانة .

(٢) فى الشعر :

١ ـ قال ذو الرُّمَّة :

إذا غَيَّر النأىُ المحبين لم يَكَدْ
رسيسُ الهوى من حب مَيَّةَ يبْرَح (١)

يريد أنه إذا أضعف الفراق الحب فى قلوب المحبين فإن حبى لم يقارب الضعف والتغير .

وهذا أدل على ثبات حبه من أن يقول لم يبرح حبها قلبى ، فقد يكون حبها باقيا فى قلبه وهو ضعيف أو قريب من الزوال ، ولا يطاوعنا الأسلوب إذا أردنا أن نفهم البيت على أن النفى إثبات ، لأن المعنى يصير حينئذ إذا تغير المحبون جميعا تغيرت ، وهذا غير ما قصده الشاعر .

٢ ـ وقال قيس بن ذُريح أو قيس المجنون :

وما كاد قلبى بعد أيامَ جاوزَتْ
إلىَّ بأجراعِ الثُّدىِّ يَريعُ (٢)

أى أن عقله بعد رحيل محبوبته لم يقارب العودة إليه ، وليس المراد أنه عاد ، لأن عودته مهما تكن عسيرة لا تتفق والصورة الغزلية التى يقصدها .

٣ ـ وقرأ أبو على القالى على أبى بكر بن دُرَيْدْ :

وقد لان أيامُ اللِّوَى ثم لم يكد
من العيش شئٌ بعدهنَ يَلينُ (٣)

فهو يصف الحياة فى أيام اللوى باللين ، ويصفها بعد أيام اللوى بالقسوة والجفاف وبأنها لم تقارب اللين ، ولا يريد أنها لانت مهما يكن لينها ضعيفا ، وهذا هو الذى يلائم ضيقه بالحياة بعد أيام اللوى .

٤ ـ وقال المرّار بن مُنْقذ :

وإذا تمشى إلى جاراتها
لم تكد تَبْلُغُ حتى تَنْبَهِرْ (٤)

(١) رسيس الهوى : ثابته .
(٢) الأمالى ١ / ١٣٦
(٣) الأمالى ١ / ١٦١
(٤) المفضليات ١ / ٨٩

أى أنها ذات جسد ممتلىء ، وذات نعيم ، فإذا مشت من دارها إلى دارجارتها تلاحق نفسها سريعا ، وأدركها الإعياء قبل أن تصل .

رابعا (النتائج) :

تبين من الآيات القرآنية الكريمة ومن النصوص الشعرية ما يأتى :

١ - (كاد) فعل يدل فى حالة الإثبات على مقاربة الخبر ، ولا يدل على وقوعه فى أية صورة من الصور .

٢ - أما (كاد) الفعل المنفى فإنه ينفى مقاربة الخبر ، ولهذا كان الخبر المنفى بعده أبعد من المنفى بدونه ، فقولنا : لا أكاد أصدق هذا الخبر أوغل فى نفى التصديق من قولنا : أكاد أصدق هذا الخبر .

وهذا يخالف ما ذهب إليه الفراء والأزهرى فى قولهما إنك إذا قلت : ما كدت أبلغ إليك ، فمعناه أنك قد بلغت ، ويؤكد ما ذهب إليه الأخفش وغيره فى فهم ما بعد نفى كاد على أنه أوغل فى نفى الخبر منه بغيرها .

٣ - أما دخول النفى على خبر كاد نحو قضيت أياما فى بلد كاد فيه المطر لا ينقطع ، فإننى لم أجده فى نص موثوق به ، ولكن النحاة أجازوه ، والقياس لا يمنعه ، والمعنى حينئذ أن المطر قارب ألا ينقطع ، فالنفى منصب على الانقطاع لا على مقاربة الانقطاع .

وقد روى بيت زهير بن أبى سلمى :

صحا القلب عن سلمى وقد كان لا يسلو
وأقفر من سلمى التعانيق فالثقل

بوضع كاد بدلا من كان .

وجاء فى تفسير الطبرى قوله : عن ابن عباس فذبحوها وما كادوا يفعلون ، يقول كادوا لا يفعلون [1] .

والفرق بين قولنا : ما كاد المطر ينقطع وقولنا : كاد المطر لا ينقطع ، أن النفى فى الجملة الأولى منصب على مقاربة الانقطاع ، أما النفى فى الجملة الثانية فهو منصب على الانقطاع نفسه ، ولهذا كان النفى فى الأولى أوغل من النفى فى الثانية .

ومعنى هذا أن الخبر المنفى بنفى يسبق كاد أبعد من الخبر المنفى بنفى يجىء بعدها .

احمد الحوفى
عضو المجمع

---
(١) تفسير الطبرى ١ / ٢٨١

ثلاث قصائد تاريخية

للدكتور إسحاق موسى الحسيني



شهد العالم الإسلامى ، فى القرن الرابع الهجرى ، أحداثا جساما ضعضعت كيانه ، وأذوت البراعم التى تكوّنت فى القرنين الثانى والثالث . من هذه الأحداث اشتداد نفوذ الأعاجم فى الدولة العباسية ، وعبثهم بالخلفاء ، والافتئات على سلطانهم ، حتى أضحوا كالدمى لا تضرّ ولا تنفع . ومنها الانشقاق فى المجتمع الإسلامى بسبب تصارع النزعتين السنّية والشيعية . ومنها القتال الذى استعر أواره بين الروم والمسلمين على الثغور ولا سيما إمارة حلب .

ومن الطبيعى فى مثل هذه الأحوال أن ينعكس الصراع فى الأدب العربى . فقد كانت ألسنةُ القومِ أشبه بسيوف لا تقع معركة إلا خاضت فيها ، كما تخوض الرماح والسيوف . وقتال الألسنة لا يقلّ خطرا عن قتال السيوف ، لأنها كانت تزيد نيران البغضاء اضطرابا ، فيشتدّ الصراع عنفا .

وقد نشرت أخيرا ثلاث قصائد تاريخية ذات لون خاص فريد . فهى تصور المعركة التى احتدمت بين المسلمين والروم فى القرن الرابع الهجرى ، وتكشف النقاب عن أثر الدين فى المعركة ، ومبلغ ما وصل إليه الخلاف الدينى من استحكام .

أولى القصائد ، وبداية الشرّ ، قصيدة أرسلها نقفور بن الفقاس ، الملقب بالدمستق ، المتوفى سنة ٣٥٢هـ - ٩٦٣ م والذى تولى قتال المسلمين باسم رومانوس بن قسطنطين ، ملك الروم ، أرسلها إلى الخليفة العباسى المطيع لله المتوفى سنة ٣٦٤ هـ - ٩٧٤ م . وفى أيامه

تولىّ الديلم زمام الحكم ، ولم يكن له من رسم الملك سوى الخطبة .

والقصيدة تقع فى اثنين وخمسين بيتا ، مطلعها :

من الملك الطهر المسيحى رسالة

إلى قائم بالملك من آل هاشم

وبعد المقدّمة القصيرة يعيرّ نقفور المسلمين بضعفهم وانكشاف ثغورهم . ثم يعدّد الثغور التى فتحها الروم مثل : جند قنّرين ، وملطة ، وسميساط ومرعش والرها . . . إلخ . ثم ينتهى عند فتح حلب ، وهنا يقف وقفة طويلة فيصف سبيهم الحرائرَ من النساء المسلمات ، وفتكهم بالمسلمين وسوقهم الأسرى سوق البهائم . ثم يهدد بفتح أنطاك (أنطاكية) ودمشق ومصر وبغداد والقدس ومكه واليمن . وفى أثناء ذلك يعيرهم باستسلامهم للحاكم الديلمى ووقوفهم منه موقف العبيد ، ويأمرهم بالعودة إلى منبت عودهم — بلاد الحجاز .

فعودوا إلى أهل الحجاز أذلّةً

وخلو بلاد الروم أهل المكارم

ثم يُبين أسباب هزيمتهم ، فيذكر :

(١) جور السلطان .

(٢) التعامل بالمنكرات .

(٣) بيع القضاة القضاء .

(٤) شهادة الشيوخ بالزور .

(٥) شيوع البرطيل .

ثم يختم قصيدته بالتوعد بنشر دين الصلب وذم الرسول صلوات الله عليه .

سأفتح أرض الشرق طرا ومغربا

وأنشر دين الصلب نشر العمائم

ومن البديهى أن القصيدة ليست من نظم نقفور الأرمنى ، ولا من نظم أحد من أهل القسطنطينية . ولكنها من نظم أحد المسلمين المرتدين الذين أسرهم الروم ونقلوهم من ديارهم إلى القسطنيطينية ، واستطاعوا أن يحملوهم على نظم هذا الكلام . ولم يفت ابن كثير فى البداية والنهاية الانتباه إلى هذه الحقيقة ، فذمّ الناظمَ وقال : « إنه ممن كان قد خذله الله وأذله وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة وصرفه عن الإسلام وأهله . وفى الوقت نفسه لم تفته الإشارة إلى تمكن صاحبها

من النظم فقال : « ونفس ناظمها تدل على أنه شيطان مارد » .

ونقفور هذا هو الذى قاتل سيف الدولة فى حلب ، وهو الذى هزمه سيف الدولة فى سمندو سنة ٣٣٩ هـ فقال المتنبى :

رضينا والدمستق غير راض
بما حكم القواضب والوشيج
فإن يقدم فقد زرنا سمندو
وإن يحجم فموعدنا الخليج

وهو الذى أسر أبا فراس الحمدانى سنة ٣٥١ هـ .

وانتهت حياة نقفور نهاية بشعة . فقد عاد سنة ٣٥٢ هـ من حلب إلى القسطنطينية فوجد ملكها رومانوس قد توفى عن صبيين ، فحدثته نفسه بالاستيلاء على الملك عن طريق الزواج من الملكة . ولكن التاج لم يستقرّ على رأسه طويلا إذ سرعان ما دبرت الملكة قتله فقتل غيلة .

تصدّى للردّ على قصيدة نقفور عالمان جليلان من علماء المسلمين ، أحدهما شاعر معاصر لنقفور هو محمد بن على ابن إسماعيل القفّال الشاشى المتوفى سنة ٣٣٦ هـ — ٩٤٧ م ، أى قبل وفاة نقفور بنحو ستة عشر عاما . والثانى عالم الأندلس فى عصره على بن أحمد بن سعيد ابن حزم الظاهرى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ — ١٠٦٤ م ، أى بعد وفاة نقفور بنحو مائة سنة .

تقع قصيدة القفّال فى أربعة وسبعين بيتا من القافية والبحر نفسيهما ، كال فيها الصاع صاعين ، كما يقال ، وأجاد إجادة استرعت نظر أحبار القسطنطينية يومذاك فسألوا عن الشيخ القفّال من هو ؟ ومن أى بلد هو ؟ وتعجبوا من قدرته على النظم .

بدأ القفّال القصيدة بقوله :

أتانى مقال لامرئ غير عالم
بطُرْق مجارى القول عند التخاصم

ثم برأ نقفور من طهر المسيحية فقال :

تسمى بطهر وهو أنجس مشرك
مدنّسة أثوابه بالمداسم
وقال مسيحى ، وليس كذا كمُ
أخو قسوة لايَحْتذى فِعْلَ راحم

وليس مسيحياً جهولاً مثلثا
يقول لعيسى جلّ عن وصف آدم
وما الملك الطُّهْرُ المسيحيُّ غادرا
ولا فاجرا ركّانةً للمظالمِ

وفى هذا القول براعة ، فقد طعن خصمه دون أن يقدح فى دينه . فالمسيحية فى رأيه تبرأ مما يتصف به نقفور من غدر وفجور . ثم يوازن بين حروب نقفور المتسمة بالغدر وحروب المسلمين المتسمة بالرحمة اتباعا لوصايا الرسول عليه السلام .

ولكن كَرُمْنا إذ ظَفرناَ وأنتم
ظَفِرتم فكنتم قُدْوةً للألائم

ثم يحاجه فى قوله إن المسلمين هزموا لتفشى الظلم وفساد القضاة بأن ذلك إقرار بصحة الدين .

ثم يستخف بتهديده بفتح بلاد المسلمين ، ويتطرق إلى عقيدة التثليث فينقدها ، ويرى المسيح عليه السلام رسولا كريما ، والله تعالى خالق المسيح وغيره من الأنبياء . ثم يلمح إلى أن ارتداد نفر من المسلمين عن الإسلام لا يضير الإسلام فى شىء ، فقد دخل الإسلام هند وصين وأتراك .

أما التعيير بحكم الديلمى فجوابه أن للحقّ أنصارا يذودون عنه مثل سيف الدولة الحمدانى ومنصور بن نوح :

هما أمّنا الإسلام من كل هاضمٍ
وصانا بناء الدين عن كلّ هادم

ثم يتوعده بغزو الخراسانيين بخيول مسومة .

ويختم قصيدته بدعوته إما إلى حرب تجر عليهم الويلات ، وإما إلى إسلام فيه السلامة .

وإن تُسْلموا فالسلم فيه سلامة
وأهنأُ عيش للفتى عيش سالم

أما قصيدة ابن حزم فطويلة تقع فى ١٣٧بيتا على غرار القصيدتين السابقتين وزنا وقافية .

يردّ ابن حزم هزيمة المسلمين إلى ضعف الخلافة . ولو كان الخليفة فى صفات جدوده لجرع الأعداء سموم الأراقم . يضاف إلى ذلك انشغال الخلفاء بالقضاء على فتن الأتراك والديلم الذين كفروا بنعم المنعم عليهم . وانتهز الروم انشغال الخلفاء فوثبوا على ديار المسلمين .

ثم عدد ابن حزم البلاد التي فتحها المسلمون كالشام ومصر والقَيْروان والأندلس حتى لم يبق بأيدى الروم إلا رومة وقسطنطينية . أما ما استردوه فيما بعد فسيعود إلى المسلمين . ولابُدَّ من أن تستردَّ الخلافة نورها ، وأن تعود إلى المسلمين أيام الظفر كما حدث فى ماضى الأيام زمن هرقل وقيصر . أما التهديد بفتح بلاد المسلمين مثل بغداد والرملة ودمشق والحجاز فأمانى دونها ضرب يُلقِّى الرومَ كلَّ مذلة . ويطيل ابن حزم فى وصف قوة المسلمين وشجاعتهم وما سيلاقيه الروم من قتلٍ ودمارٍ وهزيمة ، كما يطيل فى ما بعدّه كل بلد من دفاع واستبسال . ومن ذلك قوله :

وجمع كموج البحر ماض عرمرم
حمى سرة البطحاء ذات المحارم

ومن دون قبر المصطفى وَسْطَ طَيْبَة
جموع كمسودٍّ من الليل فاحم

يقودهم جيش الملائكة العُلا
كفاحاً ودفعاً عن مُصَلٍّ وصائم

فلو قد لَقِيناكم لعدتم رمائماً
بمن فى أعالى نجدنا والحضارم

ثم يكر عليهم ويتوعدهم بفتح بلادهم حتى يصل المسلمون أرض الصين والهند

إلى أن يرى الإسلام قد عم حكمه
جميعَ البلاد بالجيوش الصوارم

ثم يصل إلى الجدل الدينى ويوازن بين العقيدتين فيركّز على التثليث وانتحال الأناجيل والصلب ، وما يقابلها من توحيد وصدق رسالة وقوة برهان . ويعد آراءهم افتراء وضلة بحق السيد المسيح عليه السلام .

ولكنه عبد نبيّ مُكرم

ولكنه عبد نبيّ مُكرم
من الناس مخلوق ولا قول زاعم

وبلغت أبيات هذا الجدل أكثر من ثلاثين بيتا . وهنا يصل إلى ختام القصيدة وينتهى بالبيتين التاليين :

أتيهم بشعر بارد متخاذل
ضعيف مبانى النظم جم البلاغم

فدونكها كالعقد فيه زمرد
ودرّ وياقوت بإحكام حاكم

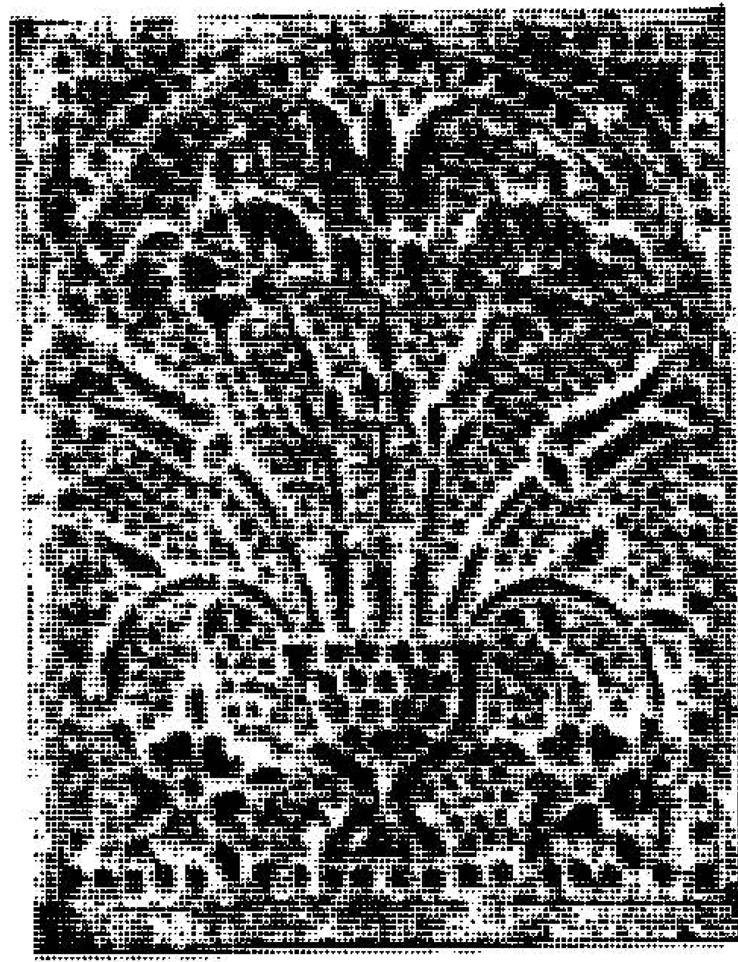
ونلاحظ : أولا أن هذه القصائد الثلاث تكوّن موضوعا جديدا فى الشعر العربى ، يمكن أن نسميه « الهجاء الدولى » .
ثانيا : أنها أقدم ما نعرف من شعر عربى فى ا

هذا الباب فى العصر الإسلامى . ثالثا : أن شاعر الروم أقذع فى ختام قصيدته حتى إن التاج السبكى ناشر القصائد فى طبقات الشافعية الكبرى - الجزء الثالث ، الطبعة الأولى ١٩٦٥ ص ٢٠٩ - لم يستجز إثبات الأبيات الثلاثة الأخيرة ، واثبتها ابن كثير فى البداية والنهاية . وكان موقف الشاعر القفال معتدلا فلم يطل الجدل الدينى . أما ابن حزم فقد أخذته الحميّة الدينية فأطال فى هذا الموضوع الشائك .

رابعا : إن نفس ابن حزم الطويل يدل على قدرة فى النظم لا سيما وقد التزم البحر والقافية فكان عليه أن يتقيد بما فرض عليه من نظام . وهى قدرة لا نذكر أنّ أحدا من مؤرخيه نصّ عليها . فقد برّز الشيخ بنثره وعلمه حتى عدّ عالم الأندلس فى عصره وأحد أئمة المسلمين .

وأخيرا كم فى بطون المخطوطات من آثار طواها عنا الزمن ! ولو كشفت لنا جميعها لبان لنا أنّا عرفنا عن الحضارة الإسلامية والأدب العربى شيئا وغابت عنا أشياء .

اسحاق موسى الحسينى
عضو المجمع من الأردن







مكتبة الأسكوريال بأسبانيا تحت رقم ٥٧٢ بالمخطوطة الوحيدة لكتاب الجيم ، ويغلب على الظن أنه إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى كانت هناك بعض نسخ أخرى من كتاب الجيم ، وقد كان كتاب الجيم مصدرا من مصادر مرتضى الزبيدى (المتوفى سنة ١٧٩١ م) فى معجمه « تاج العروس » الذى ألفه فى مصر .

وصف المخطوطة رقم ٥٧٢ بالاسكوريال وتاريخها :

تضم المخطوطة ٢٨٦ ورقة ، وهى على ورق ، وعدد الأسطر فى الصفحة يتراوح بين ٢٠ ، ٢٥ سطراً . جرى الناسخ على الاقتصاد فى الإعجام أو الشكل فى الألفاظ الشائعة ، وعلى العكس من ذلك حيث نجد كلمات الأصول حافلة بالشكل ، وعلى هامش النسخة دونت ملاحظات عديدة ، أكثرها بخط الناسخ .

وليس بالمخطوطة تاريخ أو اسم الناسخ ، وقد أرخها « ديرنبرج » فى كتابه عن المخطوطات العربية بالأسكوريال باريس سنة ١٨٨٤ بالقرن السادس أو السابع الهجرى (الثانى عشر أو الثالث عشر الميلادى) ، وذهب « كرنكو » إلى أن المخطوطة أقدم بكثير مما ذهب إليه « ديرنبرج » لأن قاعدة الخط تدل على ذلك ، ففيها الحروف التى تقرب من الكوفى وفيها تؤدى الألف الممدودة بألفين متتابعين ، وفى الأفعال المضارعة الواوية اللام يكتب ألف الوقاية فى آخر الفعل المفرد ، ونرى صورة الألف فى الخط تميل فى أسفلها ناحية اليمين وهذا معروف فى الخط الكوفى . وفى الجملة فإن الاعتبارات التى ذكرناها ومقابلة خط المخطوطة بالمخطوطات غير القرآنية يجعل تاريخها فى القرن الرابع أو الخامس الهجرى (العاشر أو الحادى عشر الميلادى) .

ملكية المخطوط :

كتب على صفحة العنوان ملكيات مختلفة للكتاب : « لعبد الله بن يوسف بن هشام

الأنصارى عفى الله عنه ، ثم صار لولديه محمد عفى الله عنه » :

« ملك على بن محمد القابونى الحنفى عامله الله بلطفه الغالى والخافى فى شهر ربيع الأول سنة أربع وأربعين وثمانى مائة » .

« محمد بن أحمد خطيب داريا عفى الله عنه »

وواضح أن المخطوطة دخلت فى ملكية النحوى ابن هشام (٧٠٨ — ٧٦١ هـ ١٣٠٨ — ١٣٦٠ م) الذى كان يعيش فى مصر ، وورثه بعد وفاته ابنه محمد . وتملكها أيضاً بعده اللغوى محمد بن أحمد وهو خطيب داريا (٧٤٥ — ٨١٠ هـ ١٣٤٤ — ١٤٠٧ م) ومن مؤلفاته شرح لألفيته ابن مالك : ثم أصبحت المخطوطة ملكاً لعلى بن محمد القابونى الحنفى المتوفى سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) . ولما كانت داريا وقابون من القرى القريبة من دمشق ، فمن المرجح أن المخطوطة وجدت فى مصر وسورية مدة قرن أى من منتصف القرن الرابع عشر حتى منتصف الخامس عشر الميلادى :

وعلى صفحة العنوان فى الهامش الأيسر كتب اسم ابن فضل الله واسم محمد بن محمد العمانى ولم نتوصل إلى معرفتهما والكشف عن شخصيتهما :

وفى ورقة ٩٢ ا وورقة ٢٠٢ ا وكل من الصفحتين عنوان لجزء من الكتاب اسم محمد ابن عبد الرحمن بن أحمد العاصى وقد كتب بالخط المغربى مما يدل على أن المخطوطة كانت فى أسبانيا أو فى شمال إفريقية : ويذكر السيوطى فى « بغية الدعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » عالماً نحوياً ولغوياً باسم محمد بن عبد الرحمن بن أحمد ، وذكره ابن الأبار فى التكملة لكتاب الصلة ، والصفدى فى الوافى بالوفيات : ولد فى فلنسيا وعاش فى أواخر حياته فى ألميريا Almeria ، وتوفى بعد ابن أبار الذى توفى سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) ويقول السيوطى إن محمد ابن عبد الرحمن توفى بعد سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) أى لسنتين قبل ابن هشام وهو الذى تلاه فى امتلاك النسخة : ومما يستحق الذكر أن أبا عبيدى البكرى (٤٣٢ — ٤٨٧ هـ ١٠٤٠ — ١٠٩٤ م) وهو من علماء الأندلس ذكر فى كتابه سمط اللآلئ فى شرح الأمالى للقالى ، موضعاً من كتاب الجيم (فى باب الحاء) : وقد عاش البكرى بعض الوقت فى ألميرا ، حيث عاش بعده محمد بن عبد الرحمن بن العاصى صاحب مخطوطة الأسكوريال :

وعلى هذا نرجح أن مخطوطة الأسكوريال وجدت فى ألميرا منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، استخدمها البكرى فى كتابه السمط » ثم ظلت فى ألميرا حيث دخلت فى ملكية محمد بن عبد الرحمن بن العاصى :

وأنه من المحتمل أن المخطوطة نسخت حوالى سنة ١٠٠٠ ميلادية فى العراق ، ثم وصلت الأندلس ، ونقلت فى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر الميلادى إلى شمال إفريقية فمصر

ثم سورية ، وفى القرن السادس عشر أو السابع عشر الميلادى عادت إلى أسبانيا واستقرت فى مكتبة الأسكوريال :

مقدمة المؤلف :

يذكر القفطى فى « إنباه الرواة على أنباه النحاة » عبارة نتبين منها أنه كان لكتاب الجيم مقدمة » وصنف أبو عمرو كتاب الحروف فى اللغة وسماه كتاب الجيم وأوله الهمزة ولم يذكر فى مقدمة الكتاب لماذا أسماه الجيم » . ونسخة الأسكوريال تنقصها مقدمة الشيبانى التى نتوقع أن يتحدث فيها عن مصادره ومنهجه ونقرأ فى الصفحة الأولى (١) بعد العنوان « هذا الجزء الأول من كتاب الجيم فى اللغة بل الكتاب الكامل وفيه بقية الأجزاء أيضاً » مقدمة للناسخ الذى لم يذكر اسمه عن النسخة التى نقل عنها : « اقتفيت بهذه النسخة نسخة أبى موسى الحامض فاستدركت بها أكثر شكوكى ووجدت فيها ما ذكر السكرى أنه سقط عليه من ورقة ووجه ورقة ، فنقلته فكان زائدا على ما ذكر أنه سقط عليه بضعفه وقد بينت ذلك فى مواضعه وعلامتى على كل ما صححته « ضاد » لأنه المشهور من اقب الحامض ، وتبقى على شكوك فى الزيادات فإن أبا موسى لم يكن فى كتابه شئ منها والحمد لله كثيراً .

ووجدت فى حرف الفاء ورقتين زائدتين على نسخة السكرى فنقلتهما وبينت موضعهما»

ومن تعليقات الناسخ يتضح لنا أنه كان تحت يده نسختان من كتاب الجيم : نسخة بخط أبى موسى الحامض (المتوفى سنة ٣٠٥ ﻫ) وهو تلميذ ثعلب ونسخة أخرى من نسخ السكرى (٢١٢ — ٢٧٥ ﻫ) . وإذا نظرنا فى تاريخ حياة الناسخين ، تأكد لنا أنهما لم يعرفا كتاب الجيم فى حياة الشيبانى .

ومن حسن الصدف أن ناسخ كتاب الجيم قابل النسختين مقابلة دقيقة ، وأشار فى الهامش إلى اختلاف القراءة ، وهذا يدل على أن كتاب الجيم كان شائعاً فى أكثر من نسخة .

ونسخة الأسكوريال لها قيمة لا تعوض ، لأنه أتى بقراءة السكرى بالرغم من سقوط بعض المواضع فى نسخة السكرى ، وأهميتها تفوق نسخة الحامض :

وفى أكثر من باب كتب الناسخ ما ورد فى نسخة الحامض وقابلها بنسخة السكرى وفى مواضع أخرى ذكر ما جاء فى نسخة السكرى من زيادات :

ويخيل إلينا أن السكرى أتى بزياداته من نسخة أخرى للشيبانى لأن نسخة الحامض لم تذكرها . ويقول ناسخ كتاب الأسكوريال عبارة « كذا فى النسختين » أو « لم أجده فى النسخة الأخرى » :

ومما يذكر أن ناسخ مخطوطة الأسكوريال أشار إلى أنه وجد فى نسخة الحامض المواضع

التى قال عنها السكرى إنها سقطت . وقد صرح السكرى فى خمسة مواضع ما سقط فى كتاب الجيم :

١ – فى أوائل حرف الجيم قال : «سقط من هنا ورقة أو أكثر – ما وجدت شيئاً سقط » :

٢ – فى نهاية حرف الجيم « هذا آخر ما وجد من حرف الجيم بخط السكرى وذكر فى آخر الجيم أنه قد بقى منه ، ولم يوجد » .

٣ – فى أول حرف الفاء (ورقة) « قال أبو سعيد : سقطت الورقة الأولى » .

٤ – فى أول حرف القاف (ورقتان) : ذكر السكرى أنه من نسخة أبى عمرو كان قد بيض فى أوله صفحتين ذهبتا » .

٥ – قبيل نهاية حرف الميم (صفحة) : « وجدت فى كتاب الحامض فى باب الميم شيئاً سقط على السكرى من أصل كتاب أبى عمرو وذكر أنه صفح ورقة سليمانى وهو الذى أثبته وهو قريب ورقتين بعد قوله : « وكل شئ أحرقته فقد محشته » وروى الحامض » أمحشته :

وواضح أن الناسخ نقل ما سقط من الفاء والميم فى الأصل من نسخة الحامض وهى فى نسخة السكرى ورقة ونصف ، وفى مخطوطة الأسكوريال بلغت ورقتين أما ما سقط من نسخة السكرى فى بابى الجيم والقاف فقد ضاع نهائياً . وأدرك ما سقط من باب الفاء فأضافه آخر باب القاف يقول الناسخ : « وجدت هذه الزيادات فى كتاب الحامض فى أول باب الفاء فكتبته حتى اتصلت بأول باب الفاء من نسخة السكرى» .

ومن هذا نرى أن مخطوطة الأسكوريال لا تشمل كتاب الجيم ، أضف إلى ذلك أن الأبواب تختلف طولا وقصراً فالصاد والضاد والطاء والظاء تقع فى ٢٧ صفحة ، بينما نجد العين تقع فى ٧٠ صفحة . ولو قدرنا أن الأبواب يجب أن تكون متناسبة ، وهذا يدل على أن الأبواب القصيرة مختصرة ، وذلك فى نسخة الشيبانى الأصلية التى نسخها السكرى ، وليست من تصرف السكرى .

ورقات من مخطوطة أخرى :

وتضم نسخة الأسكوريال بعض ورقات (١٤٥ – ١٥٠) من نسخة أخرى لكتاب الجيم أقل حجماً وبخط مخالف ونصها يوافق نص نسخة الاسكوريال من ورقة ١٣٥ ا إلى ١٣٨ ا . وعلى هامش ورقة ١٤٥ ا نقرأ عبارة من يد متأخرة نصها : « هذه الألفاظ التى استدركت وقعت فى نفس الكتاب وقد أعلمت على مكانها بالحمرة » . ونلاحظ أن الورقات من المخطوطة الثانية أقل دقة من نسخة الأسكوريال ، وأن التهميش الذى فى النسخة الثانية ذكر على هامش نسخة الأسكوريال ، أما الهوامش التى على نسخة الأسكوريال فلم تدون فى النسخة الثانية . ومن الملاحظ أن النسخة الثانية اتخذت قراءة واحدة فى حين ذكرت نسخة الأسكوريال عدة قراءات

أحيانا للفظة واحدة مثال ذلك ورقة ٣٦ ب « وقال المحراف الميل الذى تنقش به الشجة » وجاء فى الهامش : حفظى : تنقش به : فى نسخة : تنقش كما فى الأصل – وقال : المحراف الميل الذى تقاس به الشجة . وهذا يرجح أن النسخة الثانية اعتمدت على نسخة الأسكوريال أو على نسخة اعتمدت عليها نسخة الأسكوريال ، ثم ضمت النسخة الثانية إلى نسخة الأسكوريال متأخراً .

ترتيب كتاب الجيم وتسميته :

جمع الشيبانى فى كتاب الجيم جميع الألفاظ التى تبدأ بفاء الفعل فى باب واحد . وفى مخطوطة الأسكوريال عشرة أجزاء متساوية تقريبا مرتبة على الأبجدية العربية . وليس بصحيح ما ذهب إليه « كرنكو » من أن كتاب الجيم انتهى عند حرف الجيم .

وبهذا الترتيب يقع كتاب الجيم فى المعاجم العربية القديمة موقعا خاصا : فهو لم يتأثر بترتيب كتاب العين ، وكان هو المثل الذى احتذاه مؤلفو المعاجم الذين ألفوا على ترتيب الأبجدية للحرف الأول من الكلمة . ألف أبو حنيفة (المتوفى ٢٨٢ هـ) معجمه فى النبات على ترتيب الحرف الأول من أصول الكلمة وكذلك جمهرة ابن دريد (المتوفى ٣٢١ هـ) المجمل ومقاييس ابن فارس (المتوفى ٣٩٥ هـ) وكان الشيبانى يسترسل حين يعرض المادة فى مناسبات ، مثلا يذكر فى باب الألف بيتا من الطويل شاهداً على عبارة أرى بكفيه ويشرحها ، أى أنشب كفيه فى الأرض يعنى الضب ، وبمناسبة الضب انتهز الفرصة فترك لقلمه الاسترسال فى أمثلة وقصص عن الضب . وكان من طريقته أن يضيف أخبارا أثناء شرح المادة ويستشهد بالشعر شارحا ومعلقا للألفاظ الصعبة ويستشهد على الشرح بالشعر ، وقد يأتى فى الشرح بالمرادف أو الضد ؛ مثال ذلك فى مادة ب و ص : البوصر ثمر الأرائين قد بوض فإذا حبب فهو القرزح قد قرزح ، وثمر القرظ البلت ثم السنف والقلقل حبه الذى يكون فيه .

وقد تنتج عن ذلك فقرات طويلة ، ويذكرنا ذلك بكتاب الغريب المصنف لأبى عبيد . وقد استرعى نظرى كثرة الشواهد الشعرية فى كتاب الجيم ، تعدها ٤٣٠٠ بيت أو يزيد ، حتى خيل إلى أن الشيبانى إنما ألف كتاب الجيم ليكون بمثابة المعجم للألفاظ التى وردت فى دواوينه . أو عرض لمقتطفات من دواوينه .

ومن الملاحظ أن الفصول الطويلة تنقسم عادة فى كتاب الجيم إلى ثلاثة أجزاء متداخلة : ففى الجزء الأول يأتى بنصوص معجمية وفيه شواهد لم يذكر قائلها ، ثم ترجح كفة الرجز فى الجزء الثانى ، وفى الجزء الأخير يأتى بشواهد شعرية يقل أو ينعدم فيها الشرح . أما الفصول القصيرة فينقصها هذا التقسيم .

وعند دراسة فصول الراء والعين والفاء والقاف ، وجدنا كثيرا من الشعر الذى

أتى به كشواهد من دواوين سبعة عشرة شاعراً كان يقدم منها شواهده على الترتيب الآتى تقريبا : كعب بن زهير ، زهير بن أبى سلمى ، لبيد ، تأبط شراً ، أبو النجم ، أوس بن حجر ، عمرو بن شاس ، طفيل ، عمرو بن معد يكرب ، عدى بن زيد ، امرؤ القيس . النابغة الذبيانى ، أبو دؤاد الإيادى ، عبيد ، أمية بن أبى الصلت ، بشر ، أبو ذؤيب . وقد يسقط أحيانا الاستشهاد بشاعر أو أكثر من هذا الترتيب ، ومرجع ذلك أن الشيبانى لم يجد عند الشاعر ما يوافق المجال .

ولم يصل إلينا ما يبين كيفية التأليف عند العلماء وبخاصة عند أصحاب المعاجم . ولا يمكن أن نتخيل أن الشيبانى دون هذه المادة الغزيرة فى كتاب الجيم من الذاكرة . وأغلب الظن كان تحت يده جزازات وكراريس وملاحظات دونها ، ثم رتبها أبجديا واستعان بها فى تأليف كتاب الجيم . ولعل أقدم ما ورد فى الكتاب استقاه من الرواة ثم من دواوينه .

وإذا لاحظنا أن الشيبانى فى كتابه أتى باستطرادات وأقوال الرواة ومختارات من الشعر ، يعن لنا السؤال : هل نعد كتاب الجيم من المعاجم بالمفهوم الحقيقى للمعجم أى عرض مرتب للألفاظ ؟ وإذا لاحظنا مضمون الكتاب وقصر منهجه الذى اتبعه ، خطر على ذهننا أن كتاب الجيم يشبه كتب النوادر الأولى وأخص بالذكر كتاب نوادر أبى مسحل الأعرابى المتداخل فى عرضه دون تقسيم واضح :

فهل كان الشيبانى ينوى أن يعيد كتابه الجيم ويرتبه ترتيبا أبجديا دقيقا ، وأن ما بين يدينا إنما هو مشروع كتاب ؟ نحن نميل إلى أن كتابه كان تجميعاً لمادة يؤلف منها معجما واضح المعالم ، ويدعونا إلى الأخذ بهذا الرأى ما نجده من نقص واضح فى مواد الكتاب . فقد يختار من الدواوين بقوله : وقال طفيل فى التفشغ : وقد سمنت حتى كأن مخاضها — تفشغها ظلع وليست بظلع » وواضح أنه لم يفسر المثال ، وقد لا يأتى به ويخيل إلينا أن الشيبانى إنما أراد أن يدون الشاهد الشعرى المناسب أولا ، ويؤجل شرحه وتكملة الكلام فيما بعد . ويعزز ما نذهب إليه ، أن الشيبانى يأتى أحيانا ببعض مشتقات الكلمة فى غير أصولها ، فنجد مثلا فى باب الألف : أنابيب (ن ب ب) ، إحريد (ح ر د) ، إحرنباء (ح ر ب) ، أشكلة (ش ك ل) ، ألكنى إلى فلان (ل و ك) ؛ وفى باب التاء : توادى (و د ى) ، تترى (و ت ر) . ونجده أحيانا يعالج ألفاظا فى غير أبوابها ، فهو يتكلم عن « بدح » فى باب الألف مثلا ، ولاحظ الناسخ هذا الخلط فكتب على الهامش فى بدح : « هذا من باب الباء » .

هذه الأمثلة التى سقناها لا تدل على أن الشيبانى لم يكن يعرف التصريف ، ولكنها تدل على أنه انزلق فى بعض الهنات وأنه كان

بجمع مادته ليضبطها عند مراجعتها ويصلحها ويخرجها فى شكل كتاب . ومما يؤكد لنا أن الشيبانى لم يراجع كتاب الجيم ليخرجه كتابا للناس ، الحقيقة المعروفة أن الشيبانى كتم كتاب الجيم عن الناس فى حياته ، لأنه على ما يخيل إلينا وجده غير ناضج أو لم يجد الفرصة لصياغته صياغة متكاملة. يقول أبو الطيب فى مراتب النحويين « فأما كتاب الجيم فلا رواية له لأن أبا عمرو بخل به على الناس فلم يقرأه عليه أحد » ، وهذا يعلل ما نعرفه من أن الكتاب لم يتداول فى التدريس ، لأن صاحبه لم يجزه .

ومن العسير أن نقرر الشكل النهائى لكتاب الجيم الذى أراده له الشيبانى ، لأنه لم يفصح عنه :

الزمن الذى نشأ فيه كتاب الجيم :

كتب كتاب الجيم بطبيعة الحال قبل وفاة صاحبه الشيبانى أى قبل سنة ٢١٣ هجرية . ولا نعرف متى بدأ الشيبانى فى تأليفه ، لأننا لم نجد أية إشارة إلى ذلك فى كتابه ، ولم تصل إلينا أية رواية عن ذلك . ومادة الكتاب تدل على أن تدوينه حدث على مرحلتين : الأولى ما أخذه عن الرواة وهى المرحلة الأقدم ، والثانية هى المختارات الشعرية ، أى أن الزمن الذى احتاجه الشيبانى فى تدوين هذا الكتاب لم يكن قصيراً . ولا يمكننا القول أيضا إذا كان البدء فى جمعه حدث قبل أو بعد منقولة الليث بن المظفر (المتوفى سنة ١٨٠ هجرية) لكتاب العين للخليل . ومما يستحق الذكر أن الشيبانى ورد اسمه عده مرات فى نسخة العين للمظفر (بعد صفحة ٢٦٠ من نسخة برلين) ، وربما لايدل ذلك على شئ لأننا نعرف أن هناك زيادات أدخلها النساخ على كتاب العين . ولم يذكر الشيبانى اسم الخليل فى كتاب الجيم . وهناك سؤال قد يتبادر إلى الذهن : هل كان كتاب العين حافزاً مباشراً لنشأة كتاب الجيم ؟ اختلف المستشرقون فى الرد على هذا السؤال فذهب « كرنكو » و « هيوود » إلى ترجيح أثر العين على الجيم ، وأنكر « ويلد » وقوع هذا التأثير : اعتمد كل من « كرنكو » و « هيوود » على المنافسة الشديدة بين مدرسة البصرة ممثلة فى الخليل ومدرسة الكوفة ممثلة فى الشيبانى :

والواقع أن كتاب الجيم هو تطور طبيعى لكتب النوادر التى لم تتبع ترتيبا دقيقا ، وهو مرحلة من التطور للمعاجم العربية ، بخلاف كتاب العين الذى اتبع مؤلفه ترتيبا أجنبيا (قد يكون هنديا) .

حول تسمية كتاب الجيم :

كان عنوان كتاب الجيم هدفا لكثير من تأويلات القدماء . وقد أرجعه العلماء فى الأغلب إلى الترتيب . وقد ذهب البعض أن اسم كتاب الجيم أتى قياسا على كتاب العين الذى تبدأ بالعين وأن كتاب الجيم لا بد أنه كان يبدأ بحرف الجيم . وكان ذلك قبل أن

يصل الكتاب إلى أيدى العلماء . وكتاب الجيم كما نعرفه يبدأ بالألف لا بالجيم .

وقد أشار المستشرق « ديرنبور » فى كتابه المخطوطات العربية الجزء الأول (صفحة ٣٩٦) إلى أن اسم الكتاب يمكن أن يوضح من عبارة وردت فى المخطوطة « هذا آخر ما وجد من حرف الجيم بخط السكرى وذكر فى آخر الجيم أنه قد بقى منه ولم يوجد » . وقد فهم « ديرنبور » من هذه العبارة بخط الناسخ أن النسخة التى وقعت للسكرى تنتهى بحرف الجيم ومن هذا أخذ الكتاب هذه التسمية . وهذه العبارة المكتوبة فى ورقة ٣٢ ب من مخطوطة الأسكوريال ، لا تشمل الكتاب كله ولكنها تشير إلى باب الجيم الذى ضاع منه جزء عند السكري ، وبالتالى لا يمكن الأخذ بها فى تفسير سبب التسمية. وكذلك لا يمكننا أن نأخذ بمحاولة « هيوود » فى تفسيره لاسم الكتاب : وهو القائل بأن الكتاب سمى فى الأصل من واقع ترتيبه : ألف باء جيم ، ثم اختصر العنوان إلى جيم ، ولسنا نفهم كيف جاء هذا الاختصار ، وهو غير مألوف عند العرب .

وذهب الفيروزبادى فى القاموس أن الجيم عند الخليل : الجمل المغتلم ، وعند الشيبانى : ديباج . ويقول الفيروزبادى فى « بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز » : وله (أى الشيبانى) كتاب فى اللغة سماه بالجيم كأنه شبهه بالديباج لحسنه . أما معنى الديباج فيقول صاحب القاموس : جيم سمعته من بعض العلماء نقلا عن أبى عمرو الشيبانى . ولم ينص صاحب القاموس على أن الشيبانى سمى كتابه بهذا الاسم ، وإنما جاء ذلك فى معنى الجيم فقط وهناك من العلماء من ألف كتبا بهذا الاسم : النضر بن شميل (توفى سنة ٢٠٣ هـ) وهو معاصر للشيبانى ، ذكره الفهرست . وشمر بن حمدويه (توفى سنة ٢٥٥ هـ) وهو من جيل لاحق للشيبانى . ولم يصل إلينا من هذين الكتابين شىء . فكتاب النضر لم نعرف عنه شيئا ، وكتاب شمر غرق فى فيضان ، وكان عند الأزهرى منه بعضه من الأول ، ويصفه الأزهرى فى تهذيب اللغة بقوله : على غاية الكمال. وكان شمر قد أتى بشواهده من الحديث والقرآن على الأغلب .

ويخيل إلينا أن شمر أخذ عنوان كتابه من كتاب الشيبانى وشميل لأنه تتلمذ على زملائهما كما جاء فى التهذيب . وكان كتاب الجيم لشمر مرتبا ترتيباً أبجدياً ولم يبدأ بحرف الجيم .

وعلى هذا فإن تسمية كتاب الشيبانى بالجيم لا تزال معلقة للدرس والبحث .

مراد كامل
عضو المجمع

اللغة العربية هل هى لغة عصرية ؟

للأستاذ محمد شوقى أمين

— ١ —

فى الجزء الخامس والعشرين من مجلة «ديوجين — مصباح الفكر» التى تصدرها مجلة رسالة اليونسكو ومركز مطبوعاته ، وهو الجزء المؤرخ ٥ مايو سنة ١٩٧٤ — بحث الأستاذ «أنطوان مطر» مترجم بقلم الأستاذ «على أدهم» ، عنوانه : «اللغة العربية والظروف الحاضرة ، وما ينتظر تحقيقه من آمال فى مستقبل عالم المتكلمين بها» .

وقد عرض الباحث فى بحثه لقضايا ومشكلات وثيقة الصلة باللغة العربية ومدى كفايتها العلمية ، مستخلصا مما عرض نتائج وأحكاما تثير الانتباه ، وتقتضى المراجعة .

وإن الغيرة الراشدة ، والحفاظ المستنير على لغتنا العزيزة ، حقيقان أن يبعث كلاهما على الترحيب بالنقد والملاحظة أكثر من الترحيب بالتنويه والإعجاب :

— ٢ —

قصارى البحث أن اللغة العربية ليست لغة حديثة ، وهى لا تستطيع بحالتها الراهنة أن تستخدم باعتبارها وسيلة صالحة لثقافة تقدمية ، إنسانية أو تقنية ، وأن الإعلام الجماهيرى — مثل الإذاعة والصحافة — قد أنقذها فى تردد وجزئيا من جمودها ، وذلك بأن أرغمها على قبول تطور إيجابى ، ولكنه ليس كافيا ، لأنه لا يؤثر إلا فى القليل نظم القضاء والأدب ، مع استبعاد المجالات العلمية والتقنية .

ويقدم البحث أسبابا لعدم إمكان استعمال العربية ، وهى أن لها طابعا دينيا ، وأن ليس للعرب لغة قومية علمانية ، وأن العربية مرتبطة بالقديم ، فكأنها للتعبير عن التاريخ ، وأن التطور الاجتماعى تجاوز العالم العربى . ويبنى على هذا أن العربية محرومة المصطلحات الفنية اللازمة لتقدمها . ويضيف إلى ذلك أن وسائل الاتصال بالتقدمية الحديثة لا تتأتى فى مجتمع يكتب لغة لا يتحدث بها ، أو يتكلم بعدة لهجات ينشأ عنها لغات قومية لا تكتب .

ويمضى البحث ناعيا على اللغة العربية أن بها إمكانيات مثل أسماء الأسد البالغة تسعين اسما ، وأسماء الله الحسنى الزائدة على هذا

العدد ، فى حين أنه لا يوجد بها مساعد لغوى لتصورات ومفاهيم أولية لا يستغنى عنها ، وأن الثغرة الخطيرة المكونة من نقص المصطلحات العلمية موضع إهمال .

ويتناول البحث منطق العربية ، فيذكر أن تطور معانى الكلمات فيها ضعيف ، وأن (نعم) و « لا » لهما قيمة تختلف عما لنظيريهما فى اللغات ، وأن درجات التأكيد متعددة ، والصور البلاغية البسيطة مفقودة ، وأن زمن الأفعال مختزل ، وأن الحروف ساكنة تتحرك أواخرها تبعا لوظيفة الكلمة فى الجملة ، ومعنى الجملة يتوقف على نطق الكلمة عليها حركتها ، وحروف الآلة الكاتبة أكثر منها فى نظائرها اللاتينية ، والكلمات تكتب من اليمين إلى الشمال على عكس الأعداد .

ويقدم البحث إحصائية لليونسكو يبين جدولها أن نسبة الإنتاج العلمى فى انجلترا ٢٢١ ٪ وهى أعلى نسبة ، وفى فرنسا ٩ ٪ ، وما انخفض عنها موزع فى الإيطالية والإسبانية والصينية والاسكنديناڤية . فأما الإنتاج العربى فليس بشىء تقريبا ، فالعربية ليست ذات إنتاج علمى له قيمة فى كل علم نظرى وتطبيقى وعلم اجتماعى ، بسبب بطء تقدمها .

ويطالب البحث بجعل التربية ملائمة للحياة الحديثة ، ويذكر أن ما يتلقاه الطالب من اللغة قد تنحى عن حاضره الجارى ، ويشير إلى أن تجديدات الاتصال الجماهيرى فى المصطلحات لا تقل نفاسة عما تقدمه مجامع اللغة العربية الثلاثة الرسمية .

ويرى الباحث أن العربى حفظ الكلاسيكى للوراثة الثقافية ، وحماية لغة المسلمين المقدسة . وهذا لا يمنع من دراسة لغة اختيارية علمانية سهلة التداول باتخاذ خطوات ، هى فصل العربى الأساسى عن العناصر التى تعوق تقدم اللغة ، وتعليم الطفل التعبير بالأساليب اللغوية الحديثة المتضمنة لمصطلحات العلم الحديث ، مع تحاشى التعدد اللغوى بين المتحدثين بالعربية وقيام الجماعات العلمية بإعداد معاجم تختار المصطلحات الموجودة المعبرة فكريا ومفهوما أو المنبعثة من الاشتقاق والتأليف ، أو المنقولة صوتيا من اللغات الأخرى .

— ٣ —

ولعل أول ما يلاحظ فى هذا البحث أنه بالغ الجسارة فى التصريح بتقريرات قطعية وإصدار أحكام حتمية ، لا تعبر عن حاضر ولا يشهد لها واقع . فهل العرب ليس لهم حقا لغة قومية علمانية ؟ وهل العربية ذات طابع دينى ، وصبغة مقدسة ، تعبر عن تاريخ الوراثات الثقافية ؟ وهل هى محرومة مصطلحات العلم ، فقيرة فى المساعدات اللغوية للمفاهيم العلمية الأولية ؟

لو أن هذه التقريرات والأحكام جرى بها قلم باحث عربى أو أجنبى منذ قرن أو أكثر من قرن ، لوجدت للمساغ قبولا أو شبه قبول . أما اليوم فإنها لا تمثل حقيقة اللغة العربية ونشاطها العلمى والحضارى فى بلاد العروبة .

وما أحسب أن أجنبيا – بله العربى – يستطلع من بعيد أفق الحياة الثقافية فى بلاد العروبة ، يستطيع أن يجد إلى الاطمئنان بهذه التقريرات والأحكام سبيلا . ففى البلاد العربية العدد الكبير من الكليات والمعاهد والمجامع والمجالس والأندية التى تمارس الحياة العلمية الطليقة فى أدق مجالاتها ، وأرفع درجاتها ، وصميم اختصاصاتها . واللسان الذى ينطق بهذه الحياة العلمية ويعبر عنها فى معظم المجالات والدرجات هو اللسان العربى ، والمطبعة العربية تخرج فى كل يوم بل فى كل ساعة من الزاد العلمى والثقافى ما يتناول ضروب المعرفة بنسب متدرجة ، وفى العرب الألوف من الدارسين العلميين المتخصصين الذين جمعوا بين اللغات المتعددة والثقافات المتنوعة ، وقد فتحت أمامهم النوافذ على الصعيد العالمى يحصاون ويعلمون ويؤلفون ويترجمون بالعربية ، وفى المعجمات الثنائية لمختلف اللغات ما يؤكد احتواء العربية لأمهات المصطلحات العلمية ، وتعبيرها عن أكثرها من مادة الفصحى ، ونقلها للأقل بأصواته الأصلية . والصحافة العربية التى تزيد نشراتها على المئات تخرج للأمة العربية صباح مساء مصورة أحداث الحياة وشئون الدنيا وما يدور فيها من وجوه الأنشطة ، وذلك بلسان عربى ينتقل إلى أذهان القراء العرب فى كل مكان. فأين خصوصية الطابع الدينى وخصوصية التعبير التاريخى فى ذلك كله ؟ وكيف يكون مدلول اللغة القومية العلمية أو اللغة الحديثة العصرية إن لم يكن ذلك الواقع المشهود الذى لا ترقى إليه شبهات الجدال ؟

— ٤ —

والملاحظة الثانية التى تبرز فى البحث أنه عرض لنظريات لغوية ، واستخلص مشكلات للعربية فى النحو والكتابة وبعض الأوضاع واقترح أخيرا ما اقترح من حلول وعلاجات ، وقد ساق البحث نظرياته ومشكلاته ومقترحاته على نحو يشعر بأنه أنشأها إنشاء ، أو اكتشفها اكتشافا وهى لا جديد فيها ، إذ أشار إليها باحثون من قبل ، من الوجهة العملية حينا ومن الوجهة النظرية أحيانا ، ولكل منها مكانه من الدراسة والتحليل والتعقيب قبولا أو رفضا ، فأجملها البحث إجمالا ، ودفع بها لتكون قذيفة تنفجر بها نتيجة حاسمة ، هى أن العربية ليست لغة عصرية ، وأنها لا تصلح لثقافة تقدمية .

ومع أن المقدمات غير مسلمة على إطلاقها ، وبهذا لا تكون النتيجة منطقية مسلمة ، فإننا نفترض جدلا أننا سلمنا بتلك المقدمات كل التسليم ، فرفعنا تلك المشكلات فوق المناقشة والإنكار ، فهل تكون مقدمات صالحة لاستنتاج ما يكرره البحث من عجز العربية عن أن تكون لغة عصرية لثقافة تقدمية ؟

أئذا بقيت العربية على حالها بمشكلاتها لا تكون لغة علمية ؟ فماذا نسمى إذن ما تجرى به الأقلام وتنطق به الألسنة فى النطاق العلمى اليوم ، وماعسى أن تجرى به وتنطق من بعد؟

أفإذا خلت العربية من مشكلاتها المعروضة في البحث تصبح لغة علمية صالحة لثقافة تقدمية بمجرد هذا الخلاء المنشود ، وبسببه وحده ؟

إن المشكلات التي عرضها البحث ، كانت هي وغيرها مما لم يعرضه ، قائمة بهذه الدرجة أو أشد ، يوم خرجت العربية من عهد البداوة إلى حياة جديدة لا عهد لها بها ، فواجهت على الرغم من تلك المشكلات مستحدثات المعاني والمسميات في حكمة الهند ، وفلسفة يونان ، وحضارة فارس ، وتجلت عبقريتها وفراهتها في العواصم ، في بغداد ودمشق ، وفي القاهرة وقرطبة ، لاستيعاب المعرفة الإنسانية علما وفكرا بوجه عام ، وحفظتها حتى نقلتها أمانة مزيدة نامية إلى العالم المتعطش إليها في شرق وغرب :

— ٥ —

ومما يلاحظ في البحث أنه وصف العربية بأوصاف مشوبة لا تتنكب عن لبس وإبهام ، فهي ذات طابع ديني ، لغة كلاسيكية للوراثة الثقافية ، لغة للمسلمين مقدسة . والذي يسبغ على هذه الأوصاف اللبس والإبهام أن البحث يجعلها في مقابل : لغة الحياة ، اللغة العصرية ، اللغة العلمانية :

لقد كانت اللغة العربية ، خلال أربعة عشر قرنا ، موصولة بالدين كصلتها اليوم أو أقوى ، وبخاصة في عصور الازدهار الأولى ، ولم تكن مع ذلك إلا لغة قومية عصرية علمانية حية بالنسبة لتلك العصور الخوالي ، وبالنسبة لعصرنا الراهن :

إن الناطقين بالعربية يأبون هذه الأوصاف التي يراد بها الفصل بين لغة ولغة ، أو التمييز بين أولى وأخرى ، فهم لا يتقبلون القول بأن هناك تفرقة بين لغة كلاسيكية ولغة عصرية أو أن هناك لغة يفهم بها التراث الثقافي ولغة يفهم بها العلم الحديث ، أو أن هناك لغة ذات طابع ديني ولغة بعيدة عن المجال الروحي : ولعلي لا أغلو إذا قلت بأن هذه التفرقة والتمييز فيهما ما يحدو — بحق أو بغير حق — على التشكك وإساءة الظن بمن يلجئون إليها ، وربما أوحت إلى النفوس القول بأن ثمة خبيئة نفس عند من ينادون بها ، وأن وراء السطور من النعرات الطائفية ما وراءها :

لا يرى الناطقون بالعربية إلا أن هناك لغة عربية واحدة ، يرجع كيانها لفظا وتركيبا وأسلوبا إلى معجم واحد ، وإن اختلفت مدلولات اللفظ حقيقة ومجازا ، وتطورت معانيه في عصور متعاقبة ، وتعددت تعريفاته في مجالات متعددة ، ولكنهم إلى جانب ذلك مؤمنون بأن هنالك أساليب تتنوع بين علمية وأدبية ، وصحفية وإذاعية ، وأن بينها درجات من يسر التعبير وسهولته ، أو جودته والتأنق فيه ، طوعا لبلاغة الأداء ، وما يحتويه من عناصر الدقة المنطقية ، أو الوضوح العلمي ، أو سعة الخيال وما يستتبعه

من صور بيانية موحية . بيد أن تنوع الأساليب ، وتفاوت التراكيب ، هو عند العرب لغة عربية واحدة ، لغة للدين وللحياة ، لغة للمسلم وغير المسلم ، لغة للكتابى ولغير أهل الكتاب ، لغة لمطالب العقل والجسد والروح ، لغة للعلم والفن والأدب والحضارة على السواء .

لا تفرقة فى العربية بين لغة عصرية ولغة غير عصرية ، بهذا المفهوم الانفصالى القاطع ، فهى أداة ألفاظها متعددة الدلالات ، وعباراتها متفاوتة التراكيب ، وفى أساليبها تنوع بحسب مجالات التعبير ومقتضياته : لغة نفهم بها تراثنا الثقافى ، ونعبر بها عن حاضرنا العصرى ، ونعمل على تنميتها وتطويعها لمقاصد الحياة فى ركبها العالمى مع الأيام إلى أمام .

— ٦ —

وفيما يلاحظ أن البحث يردد ما لاكته الألسن من الإشارة إلى سعة اللغة فى بعض موضوعات وضيقها فى بعض ، ويضرب لذلك ما ضربته تلك الألسن من مثل الأسد الذى قاربت أسماؤه الأصلية أو الوصفية المائة ، ويقابل ذلك بفقد المساعد على التصورات الأولية ونقص المصطلحات العلمية . فهل يعد ذلك — على فرض وجوده — ضعفا فى طبيعة اللغة وأصالتها وما لها من مرونة وقدرة على سد الحاجة إلى التصور أو الاصطلاح العلمى ؟

إن اللغة التى سمت الأسد بأوصافه عشرات الأسماء لا تعجز أن تسمى غير الأســد من التصورات أو المصطلحات . وليس أدل على قدرتها من أن المصطلح العلمى الواحد ، نجد اليوم على أقلام الباحثين والمترجمين العلميين ألفاظا شتى تدل عليه ، منها ما يترجم أصله ، ومنها ما يترجم معناه ، ومنها ما يتخذ فنونا من الوسائل بإحياء لفظ قديم أو اشتقاق صيغة جديدة ، ومنها ما يلمح فى الوضع سمة ظاهرة ، أو وظيفة عاملة . وهذا كله برهان طواعية اللغة للتثمير ، ولبانها لضروب التعبير .

ونحن حين ننوه بهذا الدليل لا نباهى به ، فما أحوجنا إلى الحرص على توحيد اللفظ العربى للمصطلح العلمى ، وإنما نقدمه فى مواجهة النعى على العربية بأنها فقيرة فى هذا الجانب من المواضعة والاصطلاح ، لندل على أن غنى العربية وخصبها كفيل أن ينفق على من يستثمر مادتها وأوضاعها فى الوفاء بمطالب الحياة العصرية والحضارة الحديثة فى تقدمهما العلمى والإنسانى .

— ٧ —

وفيما يلاحظ أن البحث يكرر موقف العربية من الاصطلاح العلمى ، ولايبالى أن يصرح بأن العربية محرومة المصطلحات العلمية اللازمة لتقدمها . وهذا الإطلاق يجافى ماهو قائم فعلا فى الحياة العربية . فإن عصر النهضة الذى نيف على مائة سنة قد

تتابعت فيه الجهود لتنمية المصطلح العلمى، فترجم الطب والهندسة وغيرهما فى مطالع العصر، بل لقد كان تدريسها بالعربية أول الأمر، وأذكر أن الدكتور «فارس نمر» الصحفى اللبنانى الأصل، المولود فى منتصف القرن الماضى، كان يحدثنا أنه درس الطبيعة والرياضة وغيرهما بمصطلحات عربية، وكان يذكر فى هذا الصدد اسم «فانديك» واسم «وارتبات» من الأساتذة والمؤلفين. وفى هذا العصر ترجمت شوامخ العلم والفلسفة والفن والأدب، من أمثال أرسطو وداروين وفرويد وشكسبير، وألفت كتب فى الفروع العلمية كافة، وتولى تدريسها بالعربية علميون مختصون. وما كان ذلك ليتسق لو كانت العربية قد خلت من كلمات عربية تقوم مقام المصطلحات الأجنبية على تعدد لغاتها.

إن العربية العريقة ذات تجارب فى الأداء العلمى أصيلة، وقد أعانتها تلك التجارب على أن تطاوع ماتراد عليه من تأدية المعانى الاصطلاحية، ولم تكن المشكلة عندها نقل المعانى المجردة والأوصاف والشروح، بل نقل أسماء الجواهر والذوات والأعيان وبعض المسميات، وعلى الرغم من ذلك اتسعت لها بالوضع فى الأكثر، وبالتعريب فى الأقل.

ولسنا نقول ذلك من فراغ، فبين أيدى قراء العربية ماتتابع خلال المائة السنة الماضية من معجمات ثنائية، حافلة بالألوف من مصطلحات المعرفة الحديثة عامة، نذكر منها تمثيلا لاحصرا: معجم شرف الطبي، ومعجم عيسى النباتى، ومعجم مظهر العلمى، ومعجم الشهابى الزراعى، ومعجم المعلوف الحيوانى، ومعجم الجامعة العربية العسكرى، ومعجم إلياس العصرى، وكذلك المورد والمنهل وغيرهما من عشرات المعجمات.

— ٨ —

ومما يلاحظ أن البحث قد شاء أن يغفل — لا عن غفلة — جهد المجامع اللغوية فى القاهرة ودمشق وبغداد، إلا حين أشار إلى إسهام الاتصال الجماهيرى فى التطور اللغوى وتجديداته فى المصطلحات، فقد ذكر أن هذه التجديدات لاتقل نفاسة عما تقدمه تلك المجامع.

بهذا يتجاهل البحث أن هذه المجامع قد جعلت لغة العلم أساسا لعملها، ولم تكن جهودها فى نشر التراث العربى أو تيسير أوضاع اللغة وتوسيع أقيستها ووسائل الاشتقاق فيها، أو التخطيط لدراسة الكلمات وقبولها، إلا ركائز ودعائم لتنمية لغة العلم وتزكيتها.

إن أنظار قراء العربية ترتع فى نحو عشرين مجلدا أخرجها مجمع القاهرة، ولا محتوى لها إلا مصطلحات العلوم والفنون والآداب، مقرونة بمقابلها الأجنبى، مدروسة ممحصة بفضل من قاموا عليها من أعضاء وخبراء تسنموا فى كل فرع من الفروع العلمية أعلى مستويات

الاختصاص . وهذه المجلدات التي هى ثمرة الكفاح فى عشرات من السنين تشمل ألوفا من المواضعات العلمية الحديثة ، وقد بادر إليها مؤلفو المعجمات الثنائية فتناهبوها — مشكورين — لتضمها معجماتهم التى تتوالى طبعاتها ، وكذلك بادر إليها المؤلفون والمترجمون والمدرسون لتكوين سندهم فى التأليف والترجمة والتلقين :

وفى سيرة صاحب البحث أنه أسهم فى وضع معجم عربى فرنسى موحد ، وقد حوى من المصطلح العلمى العربى ما حوى ، واليقين أن صاحب البحث هو ومن معه من مؤلفى المعجم رجعوا إلى من سبقوهم إلى التأليف المعجمى ، وما أحسب أنهم قد زهدوا فى الرجوع إلى الجهد المجمعىّ :

ولا بد لنا من أن نراجع البحث فيما عمد إليه من الفصل بين الاتصال الجماهيرى أو الإعلام الجماهيرى من : إذاعة وصحافة ونشر وبين المجامع اللغوية . فأى فاصل بين وجوه النشاط الإعلامى ووجوه النشاط المجمعى ، وكلها أنشطة متداخلة متعاملة ، يستقى بعضها من بعض ، ويتدامج فيها بعض وبعض ، وهى تتجاوب أصداؤها فيما تقترح من الكلمات وما تشيع : فالصحفى أو الإذاعى أو الكاتب بوجه عام إذا أراد التعبير عن المسميات العلمية والحضارية رجع إلى المتخصصين العلميين أو اللغويين يستعينهم عليها ، أو استخبر المعجمات الثنائية لتهديه إلى ما يعبر به عند الحاجة :

وليست مهمة المجامع خلق الكلمات وافتعالها ، وإنما يخلق الكلمة أو يرتضيها من يختصون بموضوعها من العلماء والفنانين وصناع الحضارة فى بيئاتهم العلمية والفنية والصناعية : وغاية ما تقوم به المجامع هو الإعداد والتنظيم وجوهر عملها المراقبة والإشراف ، فهى أداة تسجيل أو ترشيح ، وهى جهاز تنقية وتزكية وتوثيق : فعلاقتها بالإعلام الجماهيرى أنها منه وإليه ، بينهما تبادل وتعامل ومؤازرة ، لا تباعد بينهما ولا انفصام :

وعلى رأس ما تعنى به المجامع العمل على توحيد المصطلح العلمى أو الحضارى ، لتعميم استعماله فى العربية على تراحب أصقاع الناطقين بها ، تفاديا من التعدد والفرقة اللذين ينتهيان إلى بلبلة على طريق التواصل والتفاهم الثقافى بين الكاتبين والقراء :

ولا أظننى أعدو الصواب حين أعد المجامع اللغوية قبلة الذين يرجون للعربية أن تتعمق صلتها بالتعبير العلمى الحضارى ، رعيا لما يتوافر فى هذه المجامع من أدوات التحرى والترجيح ، ومن عوامل التأثير الإيجابى فى البيئات العلمية المختلفة :

— ٩ —

يضاف إلى ما يلاحظ أن البحث تحدث فى مشكلة الفرقة بين لغة الكتابة والتدوين ، ولغة المشافهة والحديث . وعرج من ذلك على تعدد العاميات بين المتحدثين بالعربية ، وتساءل ما هى فرص البقاء للغة مكتوبة لا يتحدث بها كاتبوها ؟

وليس منا من لا يعرف أن العاميات والفصحى فى صراع موصول ، وأن لهذا الصراع وشائج

من غلبة الجهل بالقراءة والكتابة بالنسبة لجموع أهل العربية . وليس منا من لا يلمس الجهود التى تبذل لعلاج ذلك بنشر الوعى الثقافى وتقوية وسائل الاتصال الجماهيرى بين العرب لتذويب الفوارق بين العاميات من ناحية وبينها وبين الفصحى من ناحية أخرى ، وذلك إلى جانب الجهود الجادة لخفض نسبة الجهل بالقراءة والكتابة . ولكننا لا نعرف لماذا يعرض البحث لهذه المشكلة فى صدد ما يندد به من فقر العربية فى المصطلحات الفنية ، وحرمانها أن تكون لغة العلم العصرى ، وأنها ليست لغة حديثة ؟ فهل يتوقف الخلاص من ذلك على الخلاص من تلك المشكلة المتعددة الجوانب ؟ وهل نقف مكتوفى الأيدى على مضض الانتظار حتى تمحى العاميات وتتوحد الفصحى لكى تكون لنا لغة علم ؟ وهل يرفع توحيد اللغة نسبة قابليتها لاستيعاب الإنتاج العلمى؟ أليس الملايين ممن يعلمون العربية قدرا كافيا لجعلها أداة عامية إن لم تكن؟ إن هؤلاء الملايين لهم لغتان متقاربتان إحداهما الفصحى الموحدة والأخرى العامية الخاصة ، وهم يتبادلون الثقافة بالأولى . ومن الميسور أن نفترض البعد كل البعد بين لغة الخطاب ولغة الكتابة ، دون أن يستتبع ذلك عجز اللغة الكتابية عن الاستيعاب العلمى ، وليس بمستنكر أن تتعدد فى المثقف لغاته ، ولكل لغة مجالها فى حياته : فلتكن الفصحى لغة الكتابة عند العربى ، وإن كانت العامية لغته المستعملة فى غير النطاق الكتابى .

ولولا مخالفة التطويل لأفضت فى القول بأن الفروق بين الفصحى والعامية وبخاصة المصرية مغالى فيها ، فهما لغة واحدة فى الجملة ، يفارق الإعراب وبعض الأوضاع التعبيرية فى الألفاظ والتراكيب ، وفينا من سمى لغة الحديث والخطاب : العامية الفصحى .

ولئن قلنا ذلك إننا لا نقوله غافلين عن سوء أثر التعدد اللغوى ، وعن ضرورة مواصلة السعى لتذويب العاميات ومكافحة الجهل بالقراءة والكتابة . وإن كنا نرفض الذهاب إلى أن هذه المشكلة عامل أساسى فى نقص المصطلحات الفنية وضعف الإنتاج العلمى ، وأنها عقبة كئود تعوق العربية عن أن تكون لغة علم حديث وحضارة تقدمية .

وإذا ألقينا نظرة على الماضى فى موضوع الفصحى والعامية : أطللنا على التاريخ وهو يرينا أن العامية ليست حديثة العهد ، ومن الباحثين من يرجع بنشأتها إلى العصر الجاهلى . أما الثابت الذى لا يحتمل نزاعا فهو أن العامية عاشت فى أزهى عصور العربية ، علما وفكرا وثقافة ؛ وكان أهل العربية فى تلك العصور أقل منهم الآن عددا وأوفر تأليفا وأغزر إنتاجا ، مع عسر الوسائل والملابسات وطرق المواصلات . ففى الوقت الذى كانت فيه تترجم روائع الفكر العالمى فى القرن الهجرى الثانى وما يليه ، كان للعامية وجودها فى المجتمع العربى بين المثقفين خاصة وغير المثقفين عامة . ويحضرنى الساعة ما عزاه صاحب «الأغانى» إلى «الموصلى»

من شعر ملحون هو أقرب إلى ما نعرف باسم « الزجل » ، ومنه قوله :

أنا جيت من بلاد موصل

أسقى قلل خمريا

وكذلك بحضرتى مانقله « الجاحظ » فى بخلائه من قول « النظام » : « إن كنت سبع » دون إعراب ، وتنبيه الجاحظ » فى غير موضع إلى أن حكاية النوادر والنكات والأفاكيه يجب أن يراعى فيها لفظها ولهجتها ، فإن ردها الحاكى إلى الفصاحة وألزمها الإعراب خرجت باردة لا طلاوة عليها ولا تأثير لها :

ويخلص لنا من ذلك أن اللغة وتعليمها أو تعصيرها وتحديثها ، لا يتوقف على أن تكون لغة كتابة وحديث معا ، ويكفى فى مساوقتها لركب العلم والحضارة أن يستطيع أهلوها إجراءها على أقلامهم فى سهولة ويسر

— ١٠ —

وفيما يلاحظ أن البحث تناول موضوع الحروف العربية وتعدد صورها وعلامات ضبطها ، وذكر أن الفهم مطلوب لإمكان القراءة ، وأن الخطأ فى النطق يغير معنى الجملة ، ولذلك خطره فى التفاهم الجماهيرى.

والبحث فى هذا كله يتلقط ماأفاض فيه الباحثون وأهل الرأى من قبـل ، ومنه ماعولج بطريقة أو بأخرى ، ومنه ماتبين الغلو فى تقدير أثره :

فأما تعدد صور الحروف فى الطباعة العربية فقد كثرت المقترحات فى حل مشكلاته ، وانتهى العمل إلى اصطناع مادعا إليه « مجمع اللغة العربية » فى القاهرة من اختصار الصور إلى أقل عدد ، مع الاحتفاظ بطبيعة الخط العربى وفنـه الجمالى . وفى الصحف اليومية السائرة نماذج من هذا الاختصار .

وأما علامات الضبط فهى مغفلة حقا فى معظم ماينشر ، وإغفالها لايقوم سدا فى سبيل التفاهم إلا فيما ندر من كلمة أو كلمات : على أن الكاتب العلمى وغير العلمى يكتب ما يكتب وإن كان غير محسن لقواعد العربية وضوابطها ، ومايكتبه فى شهور يستطيع مراجع وراءه أن يسد خلاله فى يوم وليلة ، والناس يقرءون الصحف والكتب عارية عن الضبط والإعراب ، وربما كان فيها من الخطأ مافيها ، فيفهمون فى الأغلب الأعم لايتعثرون. ولقد أصبح من المبالغ فيه القول بأن الإعراب شرط المعنى ، فنى سياق الجملة غنية وكفاية فى معظم الأحوال : وبين اللغويين المحدثين من يتكهن بأن العامية صائرة إلى عربية غير معربة ، وفى القدامى من العلماء الأثبات من يرى أن البناء وترك الإعراب لايخل بمعانى الكلام ، والدارسون للهجات العربية يعلمون أن الوقف بالسكون مطلقا لغة لبعض العرب ، وأن إسكان المنصوب لغة لبعض من العرب

آخرين ، وفى المأثور من الكلام العربى ماهو موقوف غير معرب ، لإجراء الوصل مجرى الوقف ، أو لإعطائه حكمه .

وما نبغى بما نبسط من ذلك أن ندعو إلى ترك الإعراب ، أو نجنح إلى الاستخفاف به ، بل نقصد بذلك أن الأمر الواقع فى ترك الضبط بالحركات لا يمثل مشكلة تباعد بين العربية وبين مواتاتها لحاجات الحياة العلمية والحضارية ، وفى ذلك رد كاف على ما يعنيه البحث من وراء ترديد تلك الظواهر فى ضبط الكتابة ، للقول بأنها هى الحاجز عن أن تكون العربية لغة علم حديث :

— ١١ —

وفيما يلاحظ أن البحث تكلم فى موضوع النفى والإيجاب بنعم ولا ، وفى موضوع زمن الأفعال للماضى والحاضر والمستقبل ، مقارنا بين العربية واللغات الأخرى : والبحث يجرى فى هذا على شاكلته من التعرض لمسائل نظرية سبق إليها بعض المستشرقين ، ودارت حولها مناقشات وردود ، فالبحث يبتعثها من مرقدها ليتخذ منها تكأة لما يقرر من أن العربية ليست لغة علمية حديثة :

ولا أنسى أن ما تكلم فيه البحث كان مدار حوار خصيب منذ عشرين سنة أو نحوها فى مجلس علمى لغوى ، حاضر فيه « عباس محمود العقاد » وناقش فيه دارسون ذوو اختصاص بفقه اللغات وعلم الأصوات ، منهم الدكاترة إبراهيم أنيس وتمام حسان وكمال بشر وعبد الله درويش : وفيما قيل يومئذ أن العربية تستطيع التعبير عن الأزمنة السبعة جميعا ، وإن لم تكن بها صيغ اصطلاحية لها . وهل تعاب العربية بأنها منطقية فى تحديد الزمن والتعبير عنه بأفعال معينة ، توافق ماقاله أحد النحاة الإنجليز فى كتابه « أصول الأجرومية » إذ يقول : « الزمن ينقسم إلى جزئين : ماض ومستقبل ، وبينهما حد الانفصال وقت حاضر كأنه النقطة الهندسية التى لاطول لها ولاعرض ولاارتفاع ، ولكنها على الدوام منسوبة للمستقبل » :

ومهما يكن الرأى ، فالنقاش نظرى لمقارنة اللغات ، فما هو بمشكلة عملية فى ترجمة أو تأليف . وفقدان الأداة فى بعض مداولات النفى والإيجاب أو بعض أزمان الأفعال لا يلزم منه فقدان القدرة على التعبير العلمى المرضى . والسؤال هو : فيم الخصومة والشقاق ، والعربية تتعوض بما فيها من أفانين التعبير عما ليس فيها من أدوات تقابل ما فى سواها من بعض اللغات؟ وهل فى مكنة البحث إثبات أن الكاتبين أو المترجمين قد تطاعوا إلى التعبير عن معانى النفى والإيجاب أو درجات الزمن فوقفت الأداة غصة فى أقلامهم فلم يستطيعوا أن يعتصروا بشىء من أساليب العربية كما يعتصر الغصان بالماء ؟

— ١٢ —

وفيما يلاحظ أن البحث ، حين جعل هذه المشكلات التى عرضها ذريعة للقول بأن اللغة فى حاجة إلى تزويدها بأدوات التفكير العلمى ، استند ذلك إلى حقيقة جاءه بها إحصاء « اليونسكو » الذى قدم جدولا بان منه أن العربية لم تعد بين اللغات التى لها إنتاج علمى . ونسبته فى إنجلترا أعلى نسبة وهى ٢٢ مم وفى فرنسا أدناها وهى ٩ . ومن اللغات التى انخفضت عن ذلك الإيطالية ، أما الإنتاج العربى فليس بشىء تقريبا .

ويبدو أن البحث قد استشاط غضبا لهذا الإحصاء الأليم ، فأثار غبار تلك المشكلات ليوجه إليها الاتهام ، وليس من شك فى أن ذلك الإحصاء يكشف عن حقيقة مؤسفة ، ويدق أجراس التحذير من استمرار الحال على هذا المنوال ، وينبه القوّام على الثقافة إلى ضرورة تنمية التأليف والترجمة فى المجال العلمى .

ونحن إذ نلتزم جانب الأناة والروية فى الفهم والتحليل لما كشف عنه الإحصاء اليونسكى ، يتضح لنا أن السر فيه لا يرجع بقدر يذكر إلى صعوبة العربية أو قصورها ، وأمامنا الإيطالية التى أخرجها الإحصاء من جدول النسب ، وما ذلك عن صعوبة أو قصور فى بنيتها اللغوية بالإضافة إلى لغة إنجلترا التى زادت النسبة فيها على العشرين فى المائة . أليست النسبة إذن نسبة جهد وعمل ونشاط ، لا نسبة يسر وسهولة ومرانة واقتدار ؟

وفى ظنى — بدرجة ما — أن الإحصاء كمى عددى ، لا نوعى كيفى ، أعنى أنه يقوم على تعداد وحساب للمؤلفات والمترجمات قلة وكثرة . فإن العربية — بين أيدينا — فيها نماذج كثيرة من أنواع المعارف والعلوم تأليفا وترجمة ، يدرسها أو يقرؤها الملايين من أهل العربية ، ولكنها فى غلبة الظن لا تبلغ فى العد والحساب ما بلغت اللغات التى سما بها الإحصاء إلى الصفوف الأولى .

— ١٣ —

ويسعنا فوق ما تقدم أن نرد السر فى الإحصاء الذى تخلف بالعربية دون النسب العالمية للغات إلى أسباب شتى ، نشير منها هنا إلى أن ثمة اتجاها بين العلميين العرب يتحمس له بعض منهم ، وهذا الاتجاه يرى أن الوقت لم يحن بعد للعدول عن تدريس العلوم باللغات الأجنبية ، ومن الخير العمل على تقوية المتعلمين فى تلك اللغات ، لكى يتابعوا تحصيلهم للعلوم بها ، ولكى يتسنى لهم أن يلاحقوا التقدم العلمى السريع فيها ، بالاطلاع الدائب على ما يجدّ من البحوث والدراسات . وفيما يستند إليه أصحاب هذا الاتجاه أن الانصياع إلى التدريس بالعربية فى المجال العلمى التقنى يحرم الدارس العربى هذه المتابعة والملاحقة التى تحقق المشاركة الإيجابية

على نحو مقبول : ولكن هذا الاتجاه – على وجاهته – لايدعونا إلى الاستسلام له ، دون أن نمضى قدما فى تزويد العربية بالمؤلفات والمترجمات العلمية ، حتى نتدانى إلى المستويات العليا من التقدم العلمى العالمى .

بيد أن هذا كله لا يتصل باللغة من حيث اقتدارها على استيعاب الفكر الحديث ، فإن لها من الطاقة والدربة والطواعية حظا غير منقوص ، وهى لا تعيا بالترجمة عما يدور فى العقل الإنسانى العصرى . وفى ميدان التعليم العربى كليات للغات ، ومعاهد للترجمة الفورية ، تمارس نشاطها مستعينة بالجهود الفردية والجماعية والمجمعية لإثراء اللغة بالمواضعات والمصطلحات : وها نحن أولاء الآن نناقش من نافذة العربية هذا البحث الذى يصطنع المنهج العلمى العصرى ، ويأنس بالمعطيات الحديثة من الآراء والدراسات ، وقد حرره صاحبه بغير العربية ، فاستطاع الناقل أن يترجمه اليها دون حائل ، والعربية على حالها بمشكلاتها التى لم يدخر البحث جهدا فى تجميعها ، والإغراق فى استعظام تأثيرها .

حقيقة المشكلة التى كشف عنها إحصاء اليونسكو أنها مشكلة تعليم وتقييم؛ لا مشكلة عجز أو صعوبة فى اللغة ، مشكلة جد واجتهاد مادى أو طباعى أو فنى ، مشكلة تنشيط وحفز للبيئة العلمية فى التأليف والترجمة والنشر . مشكلة جزاء مرضى عنه للتفرغ للعمل بأيدى المتخصصين من ذوى الجدارة والامتياز، فى كل فرع من فروع العلوم والفنون . وليس من ينكر أن التأليف العلمى جهد رهبانى ، وأن الترجمة العلمية ليس لها من الجزاء المقدور ما يفى بما يبذل فيها من كد وعنت ، وأن النشر العلمى مغامرة سوقية لا يؤمن فيها الخسار . وتلك هى المشكلة الخليقة حقا بالبحث والدرس والمواجهة ، ومتى ظفرت بالمساعى الجادة لتذليل مصاعبها كان ذلك خطوات فساحا على طريق التقدمية والعصرية دون جدال .

— ١٤ —

بقى مما يلاحظ فى البحث أنه يضع خطة لترقية العربية الحديثة : ويدعو إلى اتخاذ إحدى طرق ثلاث للتنفيذ ، وهى استعمال اللفظ العربى إن وجد ، أو اللجوء إلى الاشتقاق والتأليف ، أو النقل صوتيا من اللغات الأخرى . وليطمئن صاحب البحث إلى أن هذه الطرق الثلاث هى بأعيانها الأسس التى نادى بها البصراء من العلماء اللغويين والمصلحين من المفكرين منذ استهلال القرن الحاضر ، وقد صاغها «مجمع اللغة العربية» القاهرى فى قرارات محددة منذ أربعين سنة ، فإن منهجه العملى المنصوص عليه هو :

أولا – تفضيل الاصطلاح العربى القديم على الجديد إلا إذا شاع .

ثانيا – قبول ما استعمله المولدون مما جرى على الأقيسة من مجاز أو اشتقاق ، مع إجازة الاشتقاق من أسماء الأعيان فى لغة العلوم .

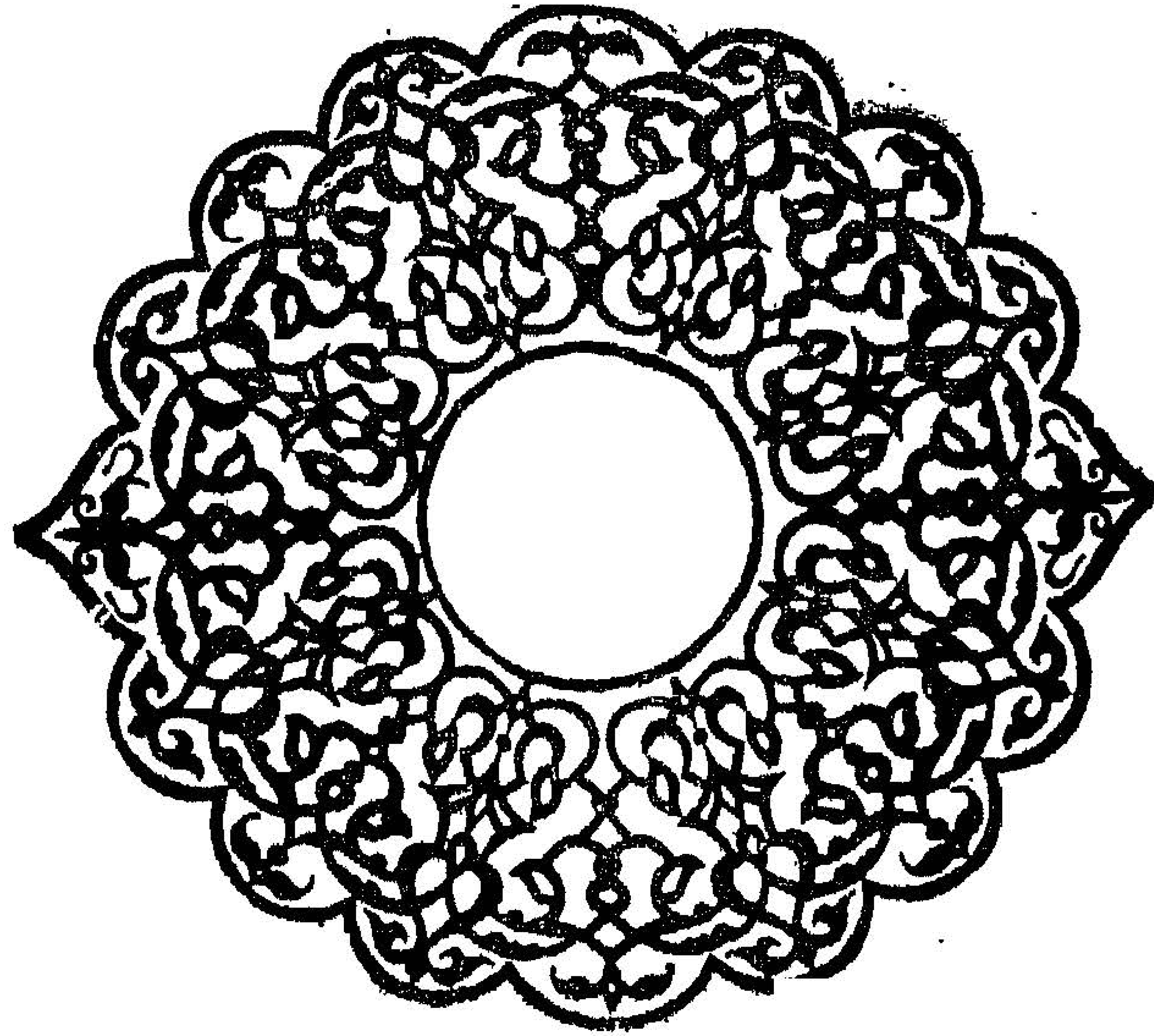
ثالثا – إجازة استعمال بعض الألفاظ الأعجمية للضرورة .

وعلى هذه الأسس جرى عمله فى وضع المصطلح العلمى على مدى تلك السنين الأربعين ومازال :

– ١٥ –

وهكذا ينقشع غبار البحث عن جو مصفى، تلتقى فيه النتائج التنفيذية بآراء عملية مطبقة، وحسبنا من ترديد هذه النتائج أنها تذكير بضرورة العمل على تزكية لغة العلم العربية ، والقصد إلى تنمية الإنتاج العلمى فيها . وهذا فضل للبحث وصاحبه يذكر فلا ينكر، ويشكر فلا يكفر . ومن ثم يطيب لى أن تكون خاتمة النقد والرد تحية للكاتب وما كتب :

محمد شوقى أمين
عضو المجمع



ثراء اللغة العربية
بأصول المصطلحات الجيولوجية

للدكتور محمد يوسف حسن



في بحث سابق[1] كيف بزّ العرب في عصور النهضة العلميـــة الإسلامية من سبقوهم من يونان ورومان، في سكّ المصطلحات الجيولوجيـــة من أصـــول لغتهم الزاخرة بها ، وكيف أن هذا يرجع إلى طبيعة البيئة التي عاش فيها المجتمع العربي قبل ظهور الإسلام وإبّان ظهوره .

وقد كان العربي، بتأثير تلك البيئة ، يعنى بابتكار الألفاظ واشتقاق المعاني أوصف معالمها المتباينة الممتازة بالمظاهر الطبيعية الأرضية من جبال ووهاد ، ومن مفاصل[2] وتلاع ، ومن شعاب وجُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها ، ومن حصى ورمال ، ومن جرولٍ[3] وحصيم[4] ، ومن فُهور[5] وجلاميد . وكان يميّز من الصخر المختلف : المرو والأعبل[6] والغربيب[7] والظِّرّ[8] والصّوان والمرمر والبَلَنْط[9] والرخام . ومن المعدن والجوهر : الدّر والياقوت[10] والطّلق[11] . والجزْع والعقيق .

---

(١) مجلة مجمع الله العربية ، الجزء (٣٢) سنة ١٩٧٣ .

(٢) المفصل : ما بين الجبلين من رمل وحصى صغار .

(٣) الأرض ذات الحجارة.

(٤) صغار الحصى.

(٥) الفهر : القطعة من الحجر ملء الكف .

(٦) الصخر أو الجبل الأبيض الصلب .

(٧) الشديد السواد ، توصف به خاصة الحجارة والجبال .

(٨) الحجر المضرس له حد كحد السكين .

(٩) حجر كالرخام ، إلا أنه دونه في الهشاشة واللين والرخاوة.

(١٠) سيد المعادن بعد الماس، وهو من الألفاظ القرآنية ، وورد في سورة الرحمن: « كأنهن الياقوت والمرجان » . وقيل إنها فارسية أو يونانية معربة ، ولكن العرب تكلمت بها قبل الإسلام ، ويقول أحمد محمد شاكر في شرح « المعرب للجواليقي » : « الظاهر أنه عربي من مادة أميتت كما أميت كثير من المواد » ص ٤٠٤ ، سنة ١٩٦٩ .

(١١) حجر براق شفاف ذو أطباق يطحن فيكون مسحوقا أبيض.

ومن الأرض : الهِرْشَمُ [١] والمَرْمَرِيس [٢] والرّواهِص [٣] والخَبار [٤] . ومن الماء : الجارى والخرخار [٥] والحَسَوِى والحشرج [٦] ومن العيون : البارد والحَنِيذ [٧] . ومن غير ذلك كثير كثير .

ولما انتشر الإسلام واتسعت رقعة الأرض العربية من حدود الهند والصين شرقا ، إلى أسبانيا وحدود فرنسا غربا ، ازدادت هذه الألفاظ وتلك الاشتقاقات تشكلا وخصبا فى هذا المجال بفضل ماتغصّ به تلك المنطقة من العالم من ظواهر جيولوجية شتى ، ومن جبال وأنهار وأودية ، ومن معادن بِلّورٍ وخامات وأحجار .

وغنى عن التأكيد والبيان ماقام به مشاهير الجغرافيين والمعدّنين العرب فى تلك العصور من أسفار طويلة فى أرجاء تلك الأرض الواسعة سطّروا من نتاجها أسفارًا ضخمة ، تعجّ بالمصطلحات الفنية العربية الخالصة فى تقويم البلدان ، ووصف الأماكن والمياه ، وفى البحث عن المعادن والأحجار والجواهر .

أما الفرنجة فى غرب أوروبا إبان عصر النهضة وإحياء العلوم فإنهم لما نهلوا من علوم الشرق ، جعلوا اللغة اللاتينية لغة العلم عندهم . ولما بدأوا يمارسون لغاتهم الأصلية بعد ذلك فى هذا المجال ، اضطروا إلى الإسراف فى الاستعارة من الأصول اللاتينية واليونانية وحتى من الأصول العربيـة [٨] لسك المصطلحات العلمية ، وذلك لقصور لغاتهم عن استيعاب المعانى العلمية الجديدة ، وتقديم الأصول المناسبة للمتغيرات اللانهائية فيها .

(١) الرِّخو النخر من الجبال .
(٢) الأرض الصلبة لا تنبت شيئا لصلابتها .
(٣) الصخور المتراصة الثابتة .
(٤) ما لان واسترخى من الأرض وساخت فيه قوائم الدواب .
(٥) الماء الجارى جريا سريعا .
(٦) الماء فى الأباطح لا يفطن له فاذا حفر عنه مقدار ذراع جاش . (٧) الماء الساخن .
(٨) فى الرياضة قالوا : Algebra للجبر ، وفى الفلك والمساحة قالوا Azimuth للسموت ، وفى الجيولوجيا قالوا : Erg للمراق و Seif dunes للكثبان السيفية ، وقالوا : Gravel للجراول ، وقالوا Adobe للطوب .. إلخ .

أما كتابات العرب فى عصور النهضة العلمية الإسلامية ، ككتابات الجاحظ والكندى والبيرونى والقزوينى وابن سينا والكتبى « الوطواط » وابن الأكفانى وإخوان الصفا والتيفاشى وغيرهم ، فتضم زاخرا من المصطلحات الجيولوجية فى أوصاف الجبال والطبقات والعيون والأحجار والمعادن والجواهر وفى نظريات قيام الجبال وتآكلها ، وتحركات البر والبحر ، ومن مصطلحات الصناعة الجيولوجية والاستكشاف فى تخليص المعادن من خاماتها وقطع الجواهر والبلور وصقلها وفى تمييز الحر والزائف منها ، وغير ذلك مما يشهد بأن اللغة العربية لم تقصر عن استيعاب طموحهم والإحاطة بآفاق كشوفهم بتقديم المادة الصالحة لكل ما ابتكروه أو نقلوه .

وفى عصر النهضة العلمية العربية الحديثة ، وبفضل جهود مجمع اللغة ، ودأب القائمين عليه فى التشجيع على البحث والاستنباط فى نقل المصطلحات ، مازالت اللغة العربية تثبت جدارتها فى تحقيق المهمة ، ومازلنا نلمس ثراءها التليد ونبعها الفياض فى تزويد الاصطلاحيين بكل ما يطلبون من أصول ، حتى بلغ ما نقله أعضاء المجمع وخبراؤه فى مجال المصطلحات الجيولوجية ما ينيف على الخمسة آلاف من المصطلحات : جلها من أصول واشتقاقات عربية أصيلة .

ويهدف هذا البحث إلى التدليل على أن بحر اللغة العربية مازال زاخرا بالأصول البكر الصالحة للاستعمال والاشتقاق الجيولوجى ، والتى تفى بكل حاجات المشتغلين بهذا العلم من نقل مصطلحات أجنبية إلى العربية أو ابتكار مصطلحات جيولوجية جديدة أصلا ، وأنه سيظل يوافينا بمدد فياض من هذه الأصول .

وقد ضربت فى بحث سابق [1] بعض الأمثلة على قدرة اللغة العربية على الإحاطة بكثير من المتسلسلات الإصطلاحية الجيولوجية فى الموضوع الواحد . وهذا مثال جديد من أروع الأمثلة فى هذا

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ، (الجزء ٣٢) سنة ١٩٧٣ .

الباب : مسلسلة من خمسة عشر لفظا ليس بينها إلا لفظ واحد معرب ، غير أنه دخل معاجم العربية من قديم وليس عن طريق التعريب العلمى على أى حال . أما المقابلات الإنجليزية لهذه المسلسلة فإنها تضم ستة ألفاظ غير إنجليزية ، ولكن من أصول لاتينية أو إغريقية ، — أى أنك إذا اطلعت على معجم عربى متوسط لوجدت فيه ضالتك فى كل معانى هذه المسلسلة من الألفاظ العربية الأصلية ، ولكنك تفتقد ستة منها فى المعجم الإنجليزى ، ولابد لك من البحث عنها فى المعاجم الإنجليزية الكبرى التى تهتم بالمصطلحات العلميـــة وتعنى بذكر الأصول اللاتينية والإغريقية .

وهذه هى المسلسلة المشار إليها ، وهى فى الأنواع المختلفة من المواد الطينية ، مرتبة حسب الترتيب الهجائى العربى : —

المصطلح العربى	أصله	معناه	المصطلح الإنجليزى
١ — البَصْر — البَصْرة	بصر	الطين العلك الجيد فيه حصى .	Boulder clay
٢ — البُصرة	بصر	الأرض الطيبة الحمراء	Laterite *
٣ — الجُلاهِق (١)	—	الطين المدوّر الأملس	
٤ — الجَنَد	جند	حجارة تشبه الطين	Mudstone - Slate
٥ — الحَمَأ	حمئ	الطين الأسود المنتن	Saprolite *
٦ — الخُثّ	خث	غثاء السيل إذا خلفه ونضب عنه حتى جفّ .	Peat

(١) فارسى معرب قديم .

(*) كلمات غير انجليزية .

تابع جدول المصطلحات

المصطلح العربى	أصله	معناه	المصطلح الإنجليزى
٧ ـ الرَّدَغ ـ الرَّزَغ	ردغ ـ رزغ	الطين المبتل لا يسيل	Ooze
٨ ـ الصَّلْصَال	صلصل	الطين اليابس يصلصل	Clay
٩ ـ الطَّفْال	طَفْل	طين يابس فيه مادة الطَّفْل الرخص الناعم الدقيق	Shale
١٠ـ الطمى	طَمَا	ما يحمله السيل ويستقر على الأَرض	Alluvium *
١١ـ الطَّمْلَة	طمل	الطين الرقيق (يترسب فى موسم أَو فى مدة قصيرة)	Varve *
١٢ـ الطَّيْس	طاس	دِقاق التراب	Loess *
١٣ـ الطِّين	طان	التراب المختلط بالماء	Mud
١٤ـ الغَرِين	غَرِن	الطين يحمله السيل	Silt
١٥ـ الغَضَار	غَضُر	الطين اللزج الأَخضر الحر (ومادة الخزف عموما)	Kaolin

ومن يراجع المعاجم العربية لا يعدم أن يجد فى كل مادة تقريبا أصلا أو أكثر يصلح للتعبيرات الجيولوجية أو لاشتقاق المصطلحات الخاصة بالأَرض أو الماء أو الحركات الأَرضية أو الصخور وما تحوى من معادن وخامات وبنيات هندسية وغير ذلك .

(*) كلمات غير انجليزية

وليس من سبيل فى مقال أو سلسلة قصيرة من مقالات أن يحاط بكل ما تقدمه لغة الضّاد من مادة صالحة للاستعمال فى مصطلحات الجيولوجيا . لكننا فى هذا البحث سنقدم عينات من هذه الأُصول ومشتقاتها فى الأَحرف السبعة الأُولى فقط من المعجم على سبيل المثال لا الحصر ، لندلل بها على ثراء هذه اللغة بأُصول تلك المصطلحات .

ورب قائل يقول : هذا نبشٌ عن الخَبْء فى أجداث الأَلفاظ البائدة ، واستحاثة لما ضاع منها فى رغام المعاجم القديمة .

لكن هذا قول مردود ، فما نقدمه هنا من ألفاظ تكلمت بها العرب ، وهى مدوّنة فى معاجمهم الآن . وغرابة الكلام تنشأُ من عدم استعماله ، وما زالت اللغة العربية حية والحمد لله ، بل لها مكان فى الصدارة بين اللغات العالمية . وهل فى استعمال المصطلحات اللاتينية والإغريقية بأَحرفنا العربية ونطقنا العربى سهولة أَو بعدًا عن الغرابة وهى مستقاة من هاتين اللغتين البائدتين ، اللتين تشتق منهما معظم المصطلحات فى اللغات الأُوروبية الحية ؟ فلماذا نأْتى نحن اليوم لنستعير أَلفاظها كما هى أَو نعربها تعريبا ، وعربيتنا أَولى بإحياءِ أُصولها العريقة ؟ !

وهذه مختارات من الأصول الصالحة للاستعمال الجيولوجى فى الأحرف السبعة الأولى من المعجم :

حرف الهمزة :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
أبَنَ	إبّان الشيء : أوانه	أزمنة الحفريات وأعمار الحوادث الجيولوجية الصغيرة .	Chron
أَبَدَ	الأبد : الدهر	الزمن الجيولوجى كله .	Geoloogical time
	آبدة وجمعها أوابد : بقيت زمنا طويلا .	الحفريات التى لم يطرأ عليها تغير يذكر أزمانا جيولوجية طويلة .	Conservative Fossils
أثر	الأثارة : العلامة وبقية الشيء	الحفرية تذهب وتبقى آثارها فى الصخور ، العلم المختص بدراستها (علم الأثارات ، وهو غير علم الآثار المعروف) .	Trace fossils Ichnology
أَثَلَ	الأثلة : الأصل	الموارد الإقليمية القديمة للصهارة . أصول السلاسل الحفرية .	Stocks
أَجَجَ	الأجاج : ماء يلذع الفم بحرارته أو ملوحته .	لوصف البيئة البحرية الزائدة الملوحة .	Hypersaline
أَجَنَ	ماء أجين : فسد وتغير لونه وطعمه ورائحته	وصف للمياه المحتبسة غير المهواة وصف للبيئة المائية غير الصالحة للحياة	Foeted waters Euxinic enoironment
أَدَمَ	الأديم من الأرض مايلى وجهها .	الصخور المتفككة البالية فوق صخر الأساس .	Regolith Mantle rock
	الإيدامة	أرض صلبة بلا حجارة ، جمعها أياديم .	Stoney desert Hamada

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
أَسِيَ	الآسية : الدعامة والأسطوانة والبناء المحكم أساسه	لوصف العمود الوسطى فى المرجان والحلزون وأعمدة التقوية فى درقات بعض القنافذ البحرية .	Collumella Buttrusses
أَفَكَ	المؤتفكات : الرياح تختلف مهابها . أئتفكت الأرض : انقلبت بمن عليها .	لوصف الطيات والصدوع المقلوبة	Reverse faults Recumbent folds
أَكَرَ	أكر الأرض حرثها ، وأرض أكيرة (قياس). الأكرة : حفرة تعمق ليتجمع فيها الماء .	أكير : لأرض المثالج بعد زوال الجليد عنها . لمصارف المناجم .	Till Tillite
أَمَتَ	الأمت : المكان المرتفع وصغار التلال والاختلاف فى المكان ارتفاعا وانخفاضا ورقة وصلابة .	لنوع من الطوبوغرافية السيئة تنشأ من فعل العوامل الطبيعية على جيولوجية غير متجانسة .	Badlands
أَنِفَ	الآنف : الماضى القريب	يصلح اسماً لآخر الأزمنة الجيولوجية فهو قد انقضى وليس جزءًا من الحاضر وبعضهم يسمية الزمن الحديث أو الحاضر (خطأ) .	Recent period
أَهَبَ	الإهاب : الجلد المغلف لجسم الحيوان قبل أن يدبغ .	لوصف الطبقات الخارجية من هياكل المراجين وما شابهها	Theca

حرف الباء :

المقابل الانجليزى	الغرض الاصطلاحى	الاشتقاق	الأصل
Disected land Highly faulted	للأرض المقطعة بالسيول أو التصدع الشديد أو غيره	بتْكة : قطعة وهو يبتّك والقطعة منه بتْكة	بتَكَ
	يصلح لوصف درجات الأنهار ومراتبها ومواقعها	البتيل :المسيل فى أسفل الوادى .	بتَل
	فى الجيولوجيا المائية ويجوز استعماله فى جيولوجيا النفط.	الباثر : الماءُ البادى من غير حفر .	بثَر
		البثنة : الأرض السهلة اللينة .	بثَن
Sand sheets Sand seas	التجمعات الرملية العظمى	البجباج من الرمل ؛ المجتمع الضخم منه	بجْبَج
		البُراض : البئر القليلة الماءُ .	بَرَض
Placers Placer deposits	لرواسب الأنهار القوية القديمة البائدة وتكون أحيانا معادن للعناصر الثمينة كالذهب والألماس	البرقاء : أرض غليظة فيها حجارة ورمل وطين	بَرَق
Ornamentation Mottled rocks	لوصف الزخارف اللونية والتركيبية فى أصداف الحيوان ، ولوصف الصخور ذات المساحات المختلفة الألوان	نقش بألوان شتى وزيّن.	برْقَش

(تابع) حرف البـاء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
بَرَهَ	البرهة مدة من الزمان.	يمكن أن يطلق على مدى معين من الزمن الجيولوجى (*) .	
بَسَق	البسقة : الأرض ذات الحجارة السود .	يمكن استعماله لوصف الأصقاع المكونة فى أساسها من الصخور البركانية القاعدية .	Trappes
	بساقة القمر : معدن أبيض صاف يتلألأ		Moonstone
بَصر	البُصْر والبُصْرَة :	الأرض الطيبة الحمراء .	Laterite
	البَصْرة :	الطين العلك الجيد فيه حصى .	Boulderclay
بَلَنْطَ	حجر كالرخام	إلا أنه دونه فى الهشاشة واللين والرخاوة	Semicrystalline Limestone
بَلّوَر	بِلّوْر جوهر أبيض شفاف وقيل هو نوع من الزجاج .	السليكا المتبلورة – بلورات المرو	Crystalline Quartz
باح	الباحة : الساحة	معالم جيومورفولوجية مستديرة تحدثها المثالج عند منابعها .	Circus
		ومساحات محددة فارغة فى أصداف بعض الرخويات	Hinge area Cardinal area etc
بَيَن	البيون : البئر الواسعة العميقة	يصلح فى علم الجيولوجيا المائية وجيولوجيا البترول .	

(*) يلزم الاصطلاح فى تحديد المدى الزمنى الجيولوجى لكل من الأصول المختلفة الخاصة بالإمتدادات الزمنية فى اللغة .

حرف التاء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الإنجليزى
حَبَبَ	التَّحباب : عرق الفضة ونحوها فى حجر المعدن		
تخّ	تخَّ العجين ونحوه : لان واسترخى لكثرة الماء فيه .	يصلح لوصف ما ينتاب أنواع الطين بالاختلاط بالماء .	يصلح فى الجيولوجيا الهندسية وجيولوجيا المناجم
تَرُصَ	تَريصٌ : محكم ومضبوط .	لوصف الصخور ذات الحبيبات الشديدة الانضغاط ؛ فلا تترك بينها مسافات يمر فيها الماء .	Compact grains
تَلَعَ	التلعة : ما ارتفع من الأرض ومسيل الماء من أعلى إلى أسفل وما اتسع من فم الوادى .	يصلح لرواسب الطمى فى السيول الشديدة الانحدار عن سفح الجبل	alluvial fans
تلف	التلفة : الهضبة المنيعة يخشى التلف على من علاها .	يصلح فى وصف معالم النحت فى مجال الجيومورفولوجيا	Precipitous Scarps
التيهور	جرف الرمل .		
تهم	التهامة : أرض منخفضة بين ساحل البحر وسلسلة جبلية على امتداده .	لتسمية هذا المَعْلَم فى علم الجيومورفولوجيا	

حرف الثاء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
ثبق	النهر امتلأ وأسرع ماؤه	فى الفيضان وتجدد شباب الأنهار بالرفع عند المنبع .	Rejuvenation
ثلّ	الثُّلّة : الجماعة من الناس	يستعار للحيوان والحفريات	Association
ثلم	الثُّلمة : والثلّم : الانكسار أو الشق أو إزالة جزء من الشيء	يستعار للمراحل الضائعة من السجل الجيولوجى .	Diastem

حرف الجيم :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
جدد	الجَدَدُ : الأرض المستوية		Peneplain
جذّ	الجُذاذة : الحَجَرَةُ من حجارة الذهب	كسارة المرو لحامل الذهب .	Gold-bearing Quartz
	الجُذَاذ : المقطّع أو المكسّر	الصخور الرسوبية المهشمة المكونة أصلا من كسارة صخور سابقة .	Breccia
جَرش	الجريش : الشيء يدق ولا ينعم دقه .	طحين الصخر فى أعمال المناجم .	
جسّ	جسّ الأرض : وطوها وبحثها وفحص ماتيها .	أعمال الاستكشاف الجيولوجية المختلفة .	Exploration

(تابع) حرف الجيم :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
جفر	الجُفْرة : الحفرة الواسعة المستديرة .	الحفر الواسعة الناشئة من فوهات البراكين الخامدة .	Caldera
جند	الجَنَدُ : حجارة تشبه الطين .	اسم للطين المتحجر أو المتحول .	Mudstone-Slate?
جمّ	المَجَمّ : مستقر الماء	فى الطبقات الحاملة الماء الجوفى .	Aquifer

حرف الحاء :

الأصل	الاستقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
حبس	وعاء حابس للماء	الصخور الحابسة للماء	Water retaining
حث	الحُثّ : المدقوق من كل شيء .	الصخور المهشمة تهشيما شديدا بطرق التحول الحركى العنيف .	Pulverised rocks
حثل	الحثالة : الردىء من كل شيء والنفاية .	المعادن غيرذات القيمة الاقتصادية فى الخامات والتى لا يستعمل الخام من أجلها .	Gangue minerals
حدّ	المحَادَدَة : المشاركة فى الحدود .	لوصف التكاوين والطبقات المشتركة فى الحدود .	Boundary Contacts
حَسَى	الحِسِى وجمعها أحساء	السهل من الأرض يستنقع فيه الماء ؛ ورمل تحته صلابة يحجز الماء .	

(تابع) حرف الحـاء :

المقابل الانجليزى	الغرض الاصطلاحى	الاشتقاق	الأصل
Vadose water	الحَشْرج : الماء فى أباطح الأرض لا يفطن له فإذا حفر عنه مقدار ذراع جاش .		حَشْرَج
Ore dressing	المُحَصِّل : الذى يخرج تراب الفضة من حجارة المعدن والذى يخرج تراب المعدن ـ التحصيل : هذا الفن .		حصل
Grit	الحَصِيم : صغار الحصى للصخور المكونة من الحصى الدقيق		حصم
Era Epoch	لمصطلحات الجيولوجيا التاريخية	الحقب : المدة الطويلة من الدهر ، جمعها حقَبٌ وأحقاب . الحقْبة المدة لا وقت لها أو السنة ، جمعها حِقَب وحقوب .	حقب
Streak	فى مجال اختبار المعادن والكشف عنها .	الحُكاكة . ماتساقط من الشىء عند الحك .	حكّ
Streak plate	لوح للكشف عن المعادن بالحك	المحَكُّ : ما يحك به من حجر وغيره .	
Pumice	بعض الصخور البركانية الفقاعية الخفيفة الحمضية .	الحَكَّاكُ : حجارة رخوة بيض تحك بها الأرجل .	
Saprobelic Saprolite	الصخور الطينية الناشئة فى قعور المستنقعات .	الحمأ : الطين الأسود المنتن	حمأ

(تابع) حرف الحاء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
حمم	الحمَّة : عين ماءٍ حارة تنبع من الأَرض . حَمَمَةَ وجمعها حُمَمٌ . كل ما احترق من النار	صفة للصخور الرسوبية الناشئة من أصل بركانى .	Hot spring Pyroclastic rocks
حنذ	الحَنذ : الماء الساخن واللحم المشوى يقطر منه الدهن	يستعار للمياه الجوفية الحارة والصخور التى تعرضت للحرق أو الحرارة العالية فكادت أن تتحول .	Hydrothermal waters Baked rocks
حنو	الحِنْو : منعرج الوادى		Meander
حاث	أحاث الارض : أثارها وطلب ما فيها .	البحث بالطرق المختلفة عن مكامن الثروات المعدنية (علم الاستحاثة) .	Prospecting

حرف الخاء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
خبب	الخَبُّ : سهل بين حزنين .	مادة لمصطلحات علم الجيومورفولوجيا	
خبر	الخبار : مالان من الأَرض واسترخى وساخت فيه قوائم الدواب .		

(تابع) حرف الخاء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
خثّ :	الخُثُّ : غثاءُ السيل إذا خلّفه ونضب عنه حتى جف .	يستعار للرواسب النباتية الأصل التى لم تتفحم بعد أو أصابها تفحم بسيط .	Peat
خثر	الخُثَار : فضلة الشيء وبقيته .	تستعمل فى التحاليل الكيميائية للصخور الرسوبية وفى وصف الرواسب المتبقية من غيرها .	Insoluble residue Residual deposits
خَدب	الخادِبة : الشجّة الشديدة جمعها خوادب.	لوصف الشقوق الكبرى بالجليد وبعض الصخور الطباشيرية .	Crevasses
خرب	الخَرْبة : الثقبة الواسعة المستديرة .	لوصف ما تحدثه رواسب الملح المنضغطة فى الصخور الرسوبية التى تعلوها فتثقبها ؛ ولوصف اختراق طبقات اللب للطبقات المطوية الضعيفة .	Diapir structures
خَرْخَر	الخرخار : صفة للماء الجارى جريا سريعا .	يستعار لوصف مجارى الأنهار الشابة عندما تتقدم مراحل تآكل المساقط المائية .	Rapids

والبحث الدقيق المستأنى فى المعاجم العربية يمكن أن يزود الباحث الجيولوجى بمعجم وافر من الأصول العربية والأغراض الجيولوجية التى يمكن استعمالها فيها أو استعارتها ، لتأدية معناها .

فاللغة بخير ، والعلم العربى بخير ، مع الاجتهاد ، والتوفيق من عند الله .

محمد يوسف حسن

التطور اللغوى بين القوانين الصوتية والقياس

للدكتور رمضان عبد التواب



أراني فى بداية حديثى ، مضطرا إلى تأكيد أمور ، فرغ منها المحدثون من علماء اللغات ، منذ فترة طويلة ، وهى تعدّ عندهم الآن من البديهيات ، على حين يجادلنا فيها بعض الدارسين العرب ، ممن بقى فى الكهوف القديمة ، يردّدون قولتهم المشهورة : ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

وأول هذه الأمور أن اللغة كائن حى ؛ لأنها تحيا على ألسنة المتكلمين بها ، وهم من الأحياء ، وهى لذلك تتطور وتتغير بفعل الزمن ، كما يتطور الكائن الحى ويتغير . واللغة العربية الجاهلية ، ليست بدعا بين اللغات ، فهى حلقة فى سلسلة حلقات طويلة ، من التطور والتغير ، أى أنها لم تكن كما يتخيل بعض الناس ، بصورتها التى رويت لنا ، منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها .

وإننا لنبتسم لسذاجة من روى لنا شعرا عربيا ، على لسان قحطان بن هود عليه السلام ، يسلى به بعض ما كان بأبيه هود – من الكآبة والجزع والغم والحزن ، على قومه عاد ، فقال :

إنى رأيت أبى هودا يؤرّقه
حزن دخيل وبلبال وإسهاد

لا يحزننك أن طاحت بداهية
عاد بن لاوى فعاد بئسما عاد [1]

بل لقد رووا لنا أن آدم عليه السلام ، قال شعرا عربيا فى رثاء ابنه « هابيل » حين قتله « قابيل » وقالوا : إن أول

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام للأصمعى ص ٤

من أقوى فى الشعر ، هو آدم عليه السلام ، وهو يقول فى قصيدته تلك :

تغيّرت البلاد ومن عليها
فوجهُ الأرض مغبرٌّ قبيحُ

تغيّر كلُّ ذى حسن وطيب
وقل بشاشةُ الوجهِ المليحِ (1)

والحقيقة الثانية أن مانسميه نحن بالعربية الفصحى ، يشتمل فى الكثير من ظواهره ، على بعض حلقات التطور ، أى أننا نلاحظ فى هذه اللغة أحيانا ، صورتين أو أكثر لظاهرة لغوية واحدة ، وبعض هذه الصور يمثل فترة تاريخية ، أقدم من الصور الأخرى . وسأضرب هنا بعض الأمثلة ، لكى تتضح هذه القضية :

يظن بعض الناس أن السين وسوف ، أداتان مختلفتان للدلالة على الاستقبال ، وُضعا هكذا وَضْعًا ، منذأن خلق الله العربية . وقد خُدع بذلك نحاةالبصرة ، وحكّموا المنطق العقلى ، فى أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ؛ فقالوا : إن سوف تدل على الاستقبال البعيد ، والسين تدل على الاستقبال القريب .

وليس فى نصوص اللغة مايشهد لتكلفهم هذا ؛ فقوله تعالى مثلا « فسيكفيكهم » ، ليس معناه تحقق هذه الكفاية فى الغد ، كما أن قوله تعالى : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » ، ليس معناه تأخر الإعطاء عاما أو عامين .

بل إن الحقيقة أن سوف أقدم من السين ، والسين جزء مقتطع منها . ومن الحقائق المقررة عند المحدثين من علماء اللغات ، أن كثرة الاستعمال تُبلى الألفاظ ، وتجعلها عرضة لقص أطرافها ، تماما كما تبلى العملات المعدنية والورقية ، التى تتداولها أيدى البشر .

ومن الألفاظ التى تعانى هذا القص ، وذلك البلى ، هى الأدوات التى تدور كثيرا فى الكلام ، وكذلك كلمات التحية التى يرددها الناس صباح مساء . ويكفى أن نتذكر هنا عبارة « عمْ صباحا » المتطورة عن : « أنْعِمْ صباحا » و « مُ الله » المأخوذة من : « أيمُن الله » ، وقولنا مثلا : « سلخير » بدلا من : « مساء الخير » ، بل إن

(1) الدرر اللوامع على همع الهوامع 2 - 209 .

كلمة : «للساعة» بمعنى «للآن» ، أصبحت فى مصر : «لِسّه» وفى شمالى إفريقيا : «لِلسَّعْ» وفى السودان : «للساتى» ، وعبارة : «رايح أعمل كذا» تطورت إلى «حاعمل كذا» . والناس فى نجد يقولون : «سَمْ» بمعنى : «نعم» ، وهى مقتطعة فيما نعتقد من : «سمعا وطاعة» ، كما يقولون : «أبى كذا» وهى متطورة عن : «أبغى». وغير ذلك من الكلمات الكثيرة .

وهذا هو ماحدث بالضبط لكلمة : «سوف» القديمة ، التى توجد فى بعض اللغات السامية الأخرى ، كالآرامية فهى فيها : (Sawpā) ، وهى اسم معناه فيها الغاية والنهاية . هذه الأداة التى أصبحت تدل فى العربية القديمة ، على الاستقبال فى الأفعال ، كانت قد بدأت تعانى قصا لبعض أجزئها ، فى الفترة التى سبقت نزول القرآن الكريم ؛ فقد ورد أن العرب «قالوا : سويكون ، وسوف يكون ، وسايكون ، وسيكون»(1).

وعند ما جاء القرآن الكريم ، سجل لنا إحدى صور التطور فى «سوف» ، أو قل المرحلة الأخيرة منه ، مع الأصل الذى كان لايزال يعيش معه جنبا إلى جنب ، كما روى لنا اللغويون صور التطور الأخرى ، التى لم يكتب لها ما كتب لغيرها من الخلود .

وهذا مثال آخر : رُوى لنا فى العربية الفصحى ، صيغتان من صيغ الأفعال ، بصورتين مختلفتين ، وهما : تفعَّل وتفاعل ، إلى جانب : اتفعّل واتفاعل . والصورة الأُولى لهاتين الصيغتين هى الأقدم ، وعليها جمهرة الأفعال التى رويت لنا فى الفصحى ؛ مثل : تعلّم ، وتكلّم ، وتقاتل ، وتضارب . كما رُوى لنا من الصورة الثانية قوله تعالى : «حتى إذا ادّاركوا فيها جميعا» ، وقوله تعالى : «اثّاقلتم إلى الأرض» . وقد حدث التطور فى هاتين الصيغتين ، أول ماحدث فى المضارع ؛ إذ لنا أن نتصور أن الأصل هو : «يَتَثَاقل» ، ثم سكنت التاء للتخفيف ؛ إذ تكره العربية توالى المتحركات — كما هو معروف — فتصير الكلمة : «يَتْثَاقل» ، ثم انقلبت التاء ثاء ، لقربها منها فى

(1) انظر : لسان العرب. (سوف) 11 — 65.

المخرج والصفة ، فصارت الكلمة : « يَثَّاقل » : وهنا يشتق من المضارع ماض جديد ، هو : « اثَّاقَلَ » .

وقد كانت هذه الظاهرة فى سبيل التطور فى العربية الفصحى ، عندما جاء الإسلام ؛ ولذلك نجد أمثلتها فى القرآن الكريم ، جنبا إلى جنب مع الصيغ القديمة التى لم يحدث فيها تطور . ونحن نعدّ هذا دليلا على أن التطور اللغوى فى أية ظاهرة لغوية ، لايحدث فجأة ، فيقضى بين يوم وليلة على كل أثر للقديم ؛ فنى القرآن الكريم ، أمثلة كثيرة للصيغ القديمة ، مثل قوله تعالى : « وما يتذكر إلا من ينيب » ، بل إن الآية الواحدة لتحتوى فى بعض الأحيان ، على الصورتين معًا ؛ كقوله تعالى : « لِيَدَّبَّرُوا آياته وليَتَذَكَّر أُولو الألباب ».

وقد ظل هذا التطور سائرا فى طريقه فى لهجات الخطاب ، حتى ساد وحده وقضى على الظاهرة القديمة ؛ فنى اللهجة العامية المصرية ، نقول مثلا :فلان اصَّدَّعت دماغه ، واسَّرَّع فى كلامه ، واشَّهى الأكل ، واصَّوَّر ، واطَّوَّع فى الجيش ، ولا أثر للصيغة القديمة فى لهجات الخطاب ؛ إذ لايقال فيها مثـ : فلان تصدّعت دماغه ، وتسرع فى كلامه ، وتشهّى الأكل ، وتصوّر ، وتطوّع فى الجيش . وكذلك الحال فى ؟ صيغة : « تفاعل » ؛ إذ ماتت هى الأُخرى ، وحلت ؟ محلها صيغة : « اتفاعل » التى شاهدنا مولدها ، فى عصر نزول القرآن الكريم ، إذ نقول الآن فى لهجات الخطاب : فلان اطّاول على فلان ، واشّاتم هو وهوّ ، واسّاهل معاه ، واصّالحوا سوا ، بدلا من : تطاول عليه ، وتشاتم ، وتساهل ، وتصالح .

والقضية الثالثة التى أُريد تأكيدها هنا ، أن العربية الفصحى لها ظرف خاص ، لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم . وهذا الظرف يجعلنا نرفض ماينادى به بعض الغافلين — عن حسن نية أوسوء نية أحيانا — من ترك الحبل على الغارب للعربية الفصحى ، لكى تتفاعل مع العاميات ، تأخذ منها وتعطى ، كما يحدث فى اللغات كلها .

حقا إن اللغة كائن حى ، يتطور على ألسنة المتكلمين بها ، فينشأ من هذا التطور ، اختلاف بين لغة عصر والعصر

الذى سبقه ، وهنا يحدث الصراع بين أنصار الشكل القديم ، وأنصار الشكل الجديد ، وبعد فترة يصبح قديما ما كان بالأمس جديدا ، فيتصارع مع جديد آخر ، وتضمحل لغة العصر الأسبق أو تندثر ، غير أن كل جديد لا يظهر فجأة ، ولا يقضى على القديم بين يوم وليلة ، بل يظل الصراع بينهما لفترة قد تطول أو تقصر ، غير أن الانتصار يكون فى النهاية للشكل الجديد - تلك سنة الحياة ، وتاريخ اللغات جميعها يشهد بهذا ، ولا نعرف لغة على ظهر الأرض ، جمدت على شكل واحد مئات السنين .

غير أن العربية الفصحى لها - كما قلنا - ظرف لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم ؛ ذلك أنها ارتبطت بالقرآن الكريم ، منذ أربعة عشر قرنا ، ودُوّن بها التراث العربى الضخم ، الذى كان محوره هو القرآن الكريم فى كثير من مظاهره . وقد كفل الله لها الحفظ ، مادام يحفظ دينه ، فقال عز من قائل : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، ولولا أن شرفها الله عز وجل ، فأنزل بها كتابه وقيّض له من خلقه من يتلوه صباح مساء ، ووعد بحفظه على تعاقب الأزمان - لولا كلُّ هذا لأمستْ العربية الفصحى لغة أثرية تشبه اللاتينية أو السنسكريتية ، ولسادت اللهجات العربية المختلفة ، وازدادت على الزمان بعدًا عن الأصل الذى انسلخت منه .

هذا هو السر الذى يجعلنا لانقيس العربية الفصحى ، بما يحدث فى اللغات الحية المعاصرة ، فإن أقصى عمر هذه اللغات فى شكلها الحاضر ، لايتعدى قرنين من الزمان ، فهى دائمة التطور والتغير ، وعرضة للتفاعل مع اللغات المجاورة ، تأخذ منها وتعطى ، ولاتجد فى ذلك حرجا ، لأنها لم ترتبط فى فترة فترات حياتها بكتاب مقدس ، كما هو الحال فى العربية .

وقد صدق الشيخ أحمد رضا العاملى حين قال : « وأنا لا أرتاب فى أن اللغة التى حملها الفرنسيس ، أيام الحملات الصليبية ، إلى سوريا لم تكن كاللغة التى حملها أحفادهم إليها فى هذه الأيام ، وأن اللغة التى نظم بها شكسبير قصائده ، لايفهمها العامى

الإنجليزى اليوم ، أكثر مما يفهم العامى العربى قصائد المتنبى وأبى العلاء المعرى ، وأن لغة موليير الفرنسية - فيما أحسب - بعيدة عن لغة إميل زولا . ولكن لغة المتنبى لم تتغير عن لغة شوقى ، وبينهما ألف عام ، إلا أن لغة المتنبى تخالف لغة الزاجل فى زجله اليوم ، بل إن لغة الزاجل فى زجله اليوم تخالف لغة الزاجل فى عصر ابن خلدون »[1] .

إن ارتباط العربية الفصحى بالقرآن الكريم ، لهو السرّ كذلك فى تمسّكنا بالعربية الفصحى القديمة ، ودعوتنا إلى دراستها دراسة مستفيضة ، لكى نفهم بها القرآن الكريم ، ومادار حوله من دراسات ، وكذلك الشعر العربى القديم ، الذى يلقى أضواء على المعانى القرآنية ، ويفيد فى توضيح ألفاظ القرآن الكريم . ولقد صدق الصحابى الجليل عبد الله بن عباس ، حين قال : « الشعر ديوان العرب ، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن ، الذى أنزله الله بلغة العرب ، رجعنا إلى ديوانها ، فالتمسنا معرفة ذلك منه »[2] .

فهذه العربية الفصحى التى استمرت حية ، أربعة عشر قرنا ، والتى ستستمر فى حياتها إلى ماشاء الله - تستمد من ارتباطها بالقرآن الكريم عنصر الحياة . وهذه القضية كانت واضحة فى أذهان اللغويين العرب فى الماضى ، فهذا هو أبو حاتم الرازى (المتوفى سنة ٣٢٢ هـ) يقول : « ولولا مابالناس من الحاجة إلى معرفة لغة العرب ، والاستعانة بالشعر على العلم بغريب القرآن ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصحابة والتابعين ، والأئمة الماضين ، لبطل الشعر ، وانقرض ذكر الشعراء ، ولعفى الدهر على آثارهم ، ونسى الناس أيامهم »[3] .

لقد أطلْتُ فى إبراز هذه القضية هنا ، حتى لايظن بعض الناس ، أننى حين أُعالج قضايا التطور اللغوى أكون من أنصار هذا التطور فى العربية فإننى أُعالج هذه القضايا هنا من الناحية الوصفية التاريخية ، وهناك فرق كبير فى مناهج اللغة ، بين الوصفية والمعيارية

(١) مولد اللغة للعاملى ص ٧٢ . (٢) انظر : الإتقان للسيوطى ١ - ١١٩ . (٣) الزينة للرازى ١ - ١١٦

كما أن استخدام اللغويين المحدثين لكلمة « التطور » ، لايعنى تقييم هذا التطور ، والحكم عليه بالحسن أو بالقبح ، فإنه لايعنى عندهم أكثر من مرادف لكلمة : « التغيّر » .

ويهمنا هنا أن نشير إلى أن هذا التغير لا يحدث على نحو مشتت غير مطرد ، بل يحدث وفقا لقواعد ثابتة ، يمكن أن نصوغها فى دقة ، إذا تناولنا لغةً ما ، فى عصرين متتابعين من تاريخ تطورها .

والقوانين الصوتية ، تعبر عن علاقة بين حالتين متتابعتين للغة واحدة فى وسط اجتماعى معين ، فهى ليست قوانين عامة شبيهة بقوانين علم الطبيعة أو الكيمياء ، ولهذا السبب ، نجد تطورا صوتيا فى إحدى اللهجات ، ولانجد له أثرا فى لهجة أخرى .

ومن أبرز القوانين الصوتية أثرا فى التطور اللغوى ، هو قانون « المماثلة » بين الأصوات ، فإن أصوات اللغة ، تختلف فيما بينها فى الشدة والرخاوة والجهر والهمس ، والتفخيم والترقيق وما إلى ذلك ، فإذا التقى فى الكلام صوتان من مخرج واحد ، أو من مخرجين متقاربين ، وكان أحدهما مجهورا والآخر مهموسا مثلا ، حدث بينهما شدّ وجذب ، كل واحد منهما يحاول أن يجذب الآخر ناحيته ويجعله يتماثل معه ، فى صفاته كلها أو فى بعضها ، وهناك اصطلاحات لعلماء الأصوات ، فى أنواع التأثر الناتجة عن قانون المماثلة ، فإن أثّر الصوت الأول فى الثانى فالتأثر (مقبل) ، وإن حدث العكس ، فالتأثر (مدبر) وإن حدثت مماثلة تامة بين الصوتين ، فالتأثر (كلى) وإن كانت المماثلة فى بعض خصائص الصوت ، فالتأثر (جزئى) . ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة :

فمثال التأثر المقبل الكلى ، قولنا مثلا : « ادّعى » ، إذا أصلها : « ادتعى » ، التقت الدال والتاء ، وهما من مخرج واحد ، هو مخرج الأسنان واللثة ، فأثرت الدال وهى متقدمة ، على التاء التى بعدها ، وقلبتها دالا مماثلة .

ومثال التأثر المقبل الجزئى ، قولنا مثلا : « اضطجع » ، إذا أصلها :

« اصتجع » ، فقد اجتمعت الضاد والتاء وهما من مخرج الأسنان واللثة كذلك فأثرت الضاد على التاء ، وقلبتها إلى صوت مماثل لها فى بعض صفاتها وهو الطاء الذى يماثل الضاد فى التفخيم .

ومثال التأثر المدبر الكلى ، تأثر النون فى « إنْ » و « أنْ » و « مِنْ » و « عَنْ » بالميم واللام التى تليها ، فتقلب ميما أو لاما ، مثل : « إمّا » و « أمّا » و « إلاّ » و « ألاّ » و « مِمّا » و « عمّا » وما إلى ذلك .

ومثال التأثر المدبر الجزئى ، تأثر النون بالباء التالية لها ، إذ تقلب إلى صوت من مخرج الباء وهو صوت الميم إذ هو شفوى كالباء وهذا هو ماسماه علماء القراءات العرب بالإقلاب ، فى مثل قوله تعالى : « من بعدما جاءهم » وقوله تعالى : « عليم بذات الصدور » .

ونحب أن نشير هنا إلى شىء مهم وهو أن الصوت لايمكن أن ينقلب إلى صوت آخر ، بعيد عنه فى المخرج جدًا فلا ينقلب صوت من أصوات الشفة أو الأسنان مثلا ، إلى صوت من أصوات الحلق ، وكذلك العكس ، وقد فطن إلى هذه الحقيقة ، العلامة ابن جنى فقال : فأما قول من قال فى قول تأبط شرا » :

كأنما حشحثوا حُصًّا قودامُه
أو أمّ خِشْف بذى شَثٍّ وطُبّاق

إنه أراد : حثّثوا ، فأبدل الثاء الوسطى حاء ، فمردود عندنا .

وإنما ذهب إليه البغداديون وأبوبكر ابن السراج معهم ، وسألت أبا على عن فساده ، فقال : العلة فى فساده أن أصل القلب فى الحروف ، إنما هو فيما تقارب منها ، وذلك : الدال والطاء والتاء ، والذال والظاء والثاء ، والهاء والهمزة والميم والنون ، وغير ذلك مما تدانت مخارجه ، فأما الحاء فبعيدة عن الثاء ، وبينهما تفاوت يمنع قلب إحداها إلى أختها[1] » .

هذا هو قانون المماثلة. وهناك قانون صوتى آخر ، يسير فى عكس اتجاه قانون المماثلة وهو مايعرف عند علماء الأصوات باسم قانون « المخالفة » ؛ فقد عرفنا أن

(١) سر صناعة الإعراب لابن جنى ١ — ١٩٧ .

قانون المماثلة ، يحاول التقريب بين أصوات بينها بعض المخالفات . أماقانون المخالفة ، فإنه يعمد إلى صوتين متماثلين تماما فى كلمة من الكلمات ، فيغير أحدهما إلى صوت آخر ، يغلب أن يكون من أصوات العلة الطويلة ، أو من الأصوات المتوسطة أو المائعة ، المعروفة فى اللاتينية باسم Liquida ، وهى اللام والميم والنون والراء ؛ مثال ذلك : «قيراط» و «دينار» بدلا من : «قرّاط» و «دنّار» ؛ بدليل الجمع : «قراريط» و «دنانير» .

وكان الناس فى القرن الثالث الهجرى فى العراق يقولون فى : «إجّاص» : «إنجاص» وفى : «إجّانة» : «إنجانة» ؛ ولذلك قال ابن السكيت فى كتابه إصلاح المنطق : «ويقال : هو الإجّاص ، ولاتقل : إنجاص ، وهى الإجّانة ، ولا تقل : إنجانة[1] » .

كما كان أهل الأندلس فى القرن الرابع الهجرى ، يقولون : «كرناسة» فى : «كراسة» ، كما كانوا يطلقون على الأسد كلمة : «عَدَنبس» بدلا من «عَدَبّس[2] » .

وليس من اللازم أن يكون الصوتان متجاورين ؛ فكلمة : «عنوان» تنطق فى بعض اللهجات عندنا : «علوان» ، وكلمة : «لعلّ» فيها عشر لغات مشهورة ، ومن هذه اللغات : «لعنّ[3] » ، وهى أثر من آثار قانون المخالفة .

وقد فطن قدماء اللغويين العرب إلى هذه الظاهرة وكانوا يعبرون عنها أحيانا «بكراهية التضعيف» أو «كراهية اجتماع حرفين من جنس واحد» أو «اجتماع الأمثال مكروه» وما أشبه ذلك .

ويرى علماء الأصوات أن السبب فى المخالفة من الناحية الصوتية ، هو أن الصوتين المتماثلين ، يحتاجان إلى جهد عضلى فى النطق بهما فى كلمة واحدة ، ولتيسير هذا المجهود العضلى ، يقلب

(١) إصلاح المنطق لابن السكيت ١٧٦ .
(٢) لحن العوام للزبيدى ٣٥ ، ١٦١ .
(٣) شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ١ – ٢٧١ .

أحد الصوتين صوتا آخر ، من تلك الأصوات التى لاتتطلب جهدا عضليا ، كاللام والميم والنون .

وتميل العربية إلى التخلص من توالى الأمثال فى أبنيتها ، عن طريق آخر ، إلى جانب طريق المخالفة الصوتية ، ذلك هو طريق الحذف . ومن أمثلة ذلك فيها : صيغ « تَفَعَّل » و « تفاعل » و « تفعلل » مع تاء المضارعة ؛ مثل : « تتقدّم » و « تتقاتل » و « تتبختر » ، فالكثير فى العربية الاكتفاء بتاء واحدة . وفى القرآن الكريم أمثلة كثيرة لذلك ؛ ففيه مثلا : « تَذَكَّرون » ١٧ مرة بالحذف ، فى مقابل : « تتذكّرون » ٣ مرات بلا حذف ، كما يقابلنا فيه مثلا : « تكاد تَمَيَّز من الغيظ » بدلا من : « تتميز » و « فأنت عنه تَلَهَّى » بدلا من : « تتلهى » و « نارا تَلَظَّى » بدلا من : « تتلظى » وغير ذلك .

ومن أمثلة ذلك أيضاً : نون الأفعال الخمسة مع نون الوقاية ، قبل ياء المتكلم ، أو مع ضمير المتكلمين المنصوب ، وكذلك الفعل المسند إلى نون النسوة ، قبل هاتين الحالتين ؛ كقول الأعشى :

أبالموتِ الذى لابُدَّ أنِّى
ملاقٍ لا أباك تُخوِّفينى [(1)]

أى : « تخوفيننى » . وكقول عمرو ابن معد يكرب :

تراه كالثغام يُعَلُّ مِسْكاً
يسوء الفالياتِ إذا فَلَيْنِى [(2)]

أى : « فلينني » . وكقول جميل :

أياريحَ الشمال أما تَرَيْنِى
أهيم وأننى بادى النُّحُول [(3)]

أى : « ترينني » .

وليست ضرورة الشعر هى المتسببة فى هذا الحذف ، كما قد يُتوهَّم ؛ إذ ورد فى النثر كذلك ، فقد ورد فى سيرة ابن هشام : « ما الذى تهنئونا به [(4)] » ، وفيها كذلك : « أفلا تعطونى [(5)] » . وفى الأغانى للأصفهانى : « فأخبراه أنهما لا يعرفانى [(6)] » . وفى عيون الأخبار لابن

(١) أمالى ابن الشجرى ١ - ٣٦٢ والكامل للمبرد ٢ - ١٤٢ والمنصف لابن جنى ٢ - ٣٣٧ .
(٢) كتاب سيبويه ٢ - ١٥٤ والمنصف لابن جنى ٢ - ٣٣٧ .
(٣) الأغانى ٨-١٠٩ .
(٤) سيرة ابن هشام ٤٥٨ .
(٥) سيرة ابن هشام ٥١ .
(٦) الأغانى ٥-١٢٦ .

قتيبة : « لم تُز عجونى من جواركم ؟ » [1] .

وفى تفسير الطبرى : « كنا نعطيهم فى الجاهلية ستين وسقا ونقتل منهم ولا يقتلونا » [2] .

ومن أمثلة الحذف لكراهة توالى الأمثال كذلك : إنّ وأنّ ولكنّ وكأنّ ، مع نون الوقاية قبل ياء المتكلم ، أو ضمير المتكلمين المنصوب . والحذف مع هذه الأحرف هو الشائع فى القرآن الكريم ؛ ففيه مثلا : « إنّى » ١٢٤ مرة ، فى مقابل : « إننى » ٦ مرات ، كما ورد فيه : « وإنّا » ٣٣ مرة ، فى مقابل : « وإننا » مرة واحدة . وغير ذلك [3] .

ولعل المسئول عن منع كلمة : «أشياء» من الصرف ، وقوعها فى القرآن الكريم ، فى سياق تتوالى فيه الأمثال لو صرفت ، فى قوله تعالى : « لاتسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تسؤكم » سورة المائدة ١٠١/٥ إذ لو صرفت لقيل : « عن أشياءٍ إنْ » ولا يخفى مافيه من تكرار المقطع : « إنْ » .

وليست العربية بدعا فى سلوك طريق الحذف ، للتخلص من توالى الأمثال ؛ ففى الآرامية مثلا : L'iš ('aryā) بمعنى : « ليث » ، أصلها الاشتقاق : 'aryayā وفى الألمانية مثلا كلمة : der Beamte بمعنى : « الموظف » ، هذه الكلمة أصلها الاشتقاق : der Beamtete وغير ذلك من الكلمات .

وفى العربية الفصحى من المقاطع الصوتية ، خمسة أنواع : الأول مقطع قصير مفتوح ، وهو ماتكوّن من صوت صامت وحركة قصيرة ؛ مثل : (كَ) ، والثانى مقطع طويل مفتوح ، وهو ماتكوّن من صوت صامت وحركة طويلة ؛ مثل : (فى) ، والثالث مقطع طويل مغلق حركته قصيرة ، وهو ماتكوّن من صوتين صامتين بينهما حركة قصيرة ؛ مثل : (مِنْ) ، والرابع مقطع طويل مغلق حركته طويلة ؛ مثل : (بابْ) فى الوقف ، والخامس مقطع زائد فى الطول ، وهو مابدأ بصوت صامت ، تليه حركة قصيرة ، ثم يختم

(١) عيون الأخبار ١ - ٢٩٣ . (٢) تفسير الطبرى ٨ - ٥١٠ .

(٣) انظر أمثلة أخرى فى مقالتنا : كراهة توالى الأمثال ، بمجلة المجمع العلمى العراقى - المجلد الثامن عشر .

بصوتين صامتين متتاليين ؛ مثل : (بِنْتْ) فى الوقف .

ومن القوانين الصوتية فى العربية الابتعاد عن توالى أربعة مقاطع من النوع الأول ، وهذا هو السر فى تغيير نظام المقاطع ، فى الفعل الماضى الثلاثى المتصل بضمير الرفع المتحرك ، إلى مقطعين من النوع الأول ، بينهما مقطع من النوع الثالث ؛ مثل : « ضَرَبْتُ » ، بدلا من توالى أربعة مقاطع من النوع الأول فى : « ضَرَبَتُ » .

كما تبتعد العربية عن المقطع الرابع ، فى غير الوقف ووسط الكلمة ، بشرط أن يكون المقطع التالى له مبتدئاً بصامت ، يماثل الصامت الذى خُتم به المقطع السابق. وهذه الحالة الأخيرة ، هى ما عبر عنها اللغويون العرب القدامى « بالتقاء الساكنين على حدّهما » وهو أن يكون الأول حرف لين والثانى مدغمًا فى مثله[1] ؛ نحو « الضالّين » و « دَابّة » و « شابّة » . فإذا نشأ هذا المقطع اشتقاقياً ، فى غير هاتين الحالتين ، حوّلته اللغة إلى مقطع من النوع الثالث ، بتقصير حركته مثل : « يقومُ » التى تصير عند الجزم : « لم يَقُمْ » ، وكان الأصل فيها : « لم يقومْ » ، غير أن المقطع : « قُومْ » هو من نوع هذا النوع الرابع الذى تفر منه العربية .

ويذهب بعض المستشرقين[2] ، إلى أن الإعراب كان فى الأصل ، بالحركات الطويلة فى آخر الكلمة ؛ بدليل الوقف بهذه الحركات الطويلة ، فى لغة أزد السراة فى قولهم مثلا فى الوقف : « هذا خالدو » و « رأيت خالدا » و « مررت بخالدى » وبدليل الوقف بالفتحة الطويلة فى الفصحى فى قولنا : « رأيت خالدا » ، غير أن دخول النون الساكنة للتنوين فى الوصل ، أدّى إلى نشوء المقطع الرابع ، فتخلصت منه العربية بتحويله إلى مقطع من النوع الثالث ، أى أن هذا الرأى يفترض أن الأصل فى مثل : « جاء زيدٌ » و « رأيت زيداً » و « مررت بزيدٍ » هو : « جاء زيدونْ » و « رأيت زيدانْ » و « مررت بزيدِينْ » . وهو رأى قد يمكن عن طريقه

---

(١) انظر شرح ابن يعيش للمفصل ٩ – ١٢٠ .

(٢) انظر : Rabin, Ancient West Arabian, p. 57 .

تفسير وجود الواو فى كلمة : (عمرو) ، وقد وردت فى أحد النقوش العربية القديمة ، مكتوبة بالياء فى حالة الجر [1] .

ومن القوانين الصوتية المؤثرة فى العربية كذلك : المخالفة بين حركتى الفتح المتتاليتين ، إذا كانت الأولى منهما طويلة ؛ إذ تتحول الثانية منهما فى هذه الحالة إلى كسرة ؛ فالأصل فى نون المثنى هو الفتح ، غير أنها كسرت تبعاً لهذا القانون ، بدليل أنها ما تزال مفتوحة فى جمع المذكر ، وبدليل بعض الأمثلة ، التى بقيت على الأصل القديم ، وهى ما نسميه نحن « بالركام اللغوى » ؛ مثل : « شَتَّانَ » فى مثل قولهم : « شتان أخوك وأبوك » أى هما متفرقان ، فهو تثنية « شتّ » والشتّ المتفرق [2] .

ومن لم يقنعه هذا المثال ، فلينظر فى نون التوكيد المشددة ، وهى مفتوحة ـ كما نعرف ـ فى : « يضربَنَّ » و « تضربَنَّ » وما إلى ذلك ، غير أنها مكسورة فى مثل : « يضربانِّ » ؛ بسبب المخالفة المذكورة .

وهذه النون التى تسمى بنون الرفع فى الأفعال الخمسة ، هى مفتوحة فى : يفعلونَ ، وتفعلونَ ، وتفعلينَ . ولكنها مكسورة فى : يفعلانِ ، وتفعلان ؛ بسبب هذا القانون نفسه .

بل إن نصب جمع المؤنث السالم بالكسرة ، ليُفَسَّر كذلك بهذا القانون ، أى أن الأصل هو نصب هذا الجمع بالفتحة ، بدليل ما رواه الكوفيون عن العرب من قولهم : سمعت لغاتَهم ، وقول الرياشى : سمعت بعض العرب يقول : أخذتُ إراتَهم [3] ، غير أن أثر هذا القانون ، هو الذى أدى إلى تخالف الفتحة إلى كسرة ، فيما نعتقد .

هذه هى بعض القوانين الصوتية ، التى تحكم التطور اللغوى فى العربية ، وليس من قصدنا هنا إحصاء هذه القوانين فلذلك مجال آخر .

أما « القياس » ؛ فعن طريقه تتطور اللغة كذلك . وقد ثبت من تتبع حياة اللغات « أن الاختلاف فى حياة اللسان ،

---

(١) انظر : نقش « أم الجمال » فى كتابنا : فصول فى فقه العربية ٤٢ – ٤٣
(٢) لسان العرب (شتت) ٢ – ٣٥٥ .
(٣) منهج السالك لأبى حيان ص ١١ .

أقدم من الاتفاق فى أكثر الحالات »[1] . وهنا يأتى القياس اللغوى ، ليلغى هذه الاختلافات ، ويقيس بعض الأمثلة على بعض ، فتتوحد الظاهرة عن هذا الطريق .

مثال ذلك : ثبت من مقارنة اللغات السامية ، أن الأصل فى ضمير المتكلم هو الكاف ، والأصل فى ضمير الخطاب هو التاء ؛ لأن التكلم جنس يختلف عن جنس الخطاب . ومن الطبيعى أن يوضع لكل جنس ، ضمير يخالف ضمير الجنس الآخر ؛ أى أن الأصل أن يقال مثلا : « ضَرَبْكُ – ضَرَبْتَ – ضَرَبْتِ » ، غير أن القياس أدى إلى تسوية هذا الاختلاف فسادت الكاف وحدها فى الحبشية ففيها مثلا : « قَتَلْكُو – قَتَلْكَ – قَتَلْكِى » وفى العربية والآرامية والعبرية ، سار القياس فى اتجاه آخر ، فسادت التاء ؛ إذ يقال فى العربية مثلا : « قَتَلْتُ – قَتَلْتَ – قَتَلْتِ » .

وهذا مثال آخر لأثر القياس فى التطور اللغوى ؛ فالأصل فى لام الجر الفتح ، والأصل فى باء الجر الكسر ، بدليل وجود هذا الأصل فى اللغات السامية الأخرى ، وبدليل الاحتفاظ به فى العربية عند الاتصال بالضمائر ، فى مثل : « له » و « به » . أما كسر اللام فى مثل : « لِلرَّجلِ » و « لِلناسِ » فى العربية ، فإن سببه هو القياس على باء الجر .

وما النصب « بما » عند الحجازيين ، فى مثل قوله تعالى : « ما هذا بشرا » ، إلا أثر من آثار قياس « ما » على « ليس » إذ المعنى فيهما سواء .

غير أن للقياس أثرًا آخر فى منع القانون الصوتى أحيانًا ، عن أن يؤدى وظيفته ؛ فإن صيغ تصريف وزن معين ، توجد فى الذهن فى مجموعات مترابطة ، فلو جاء القانون الصوتى ، وأراد أن يعمل وكان من جراء عمله الإخلال بذلك الترابط فإن القياس يلغى القانون الصوتى ، بسبب ما يسمى « بطرد الباب على وتيرة واحدة » .

مثال ذلك : أن القانون الصوتى ، يحتم أن ينطق الفعل : « عبد » مثلا ، عند إسناده إلى تاء الفاعل هكذا :

(١) انظر : التطور النحوى لبرجشتراسر ص ٤٩ .

« عَبَتُّ » ، بإدغام الدال فى التاء ، تبعاً لقانون المماثلة ، أو التأثر المدبر الكلى ، غير أن القياس على باقى صيغ تصريف هذا الفعل ؛ مثل : « عبدوا » و « عبدا » ، يحتم الإبقاء على الدال ، لكى يطرد الباب على وتيرة واحدة ، وعندئذ نرى العرب يفصلون بين صوتى الدال والتاء هنا بحركة مخطوفة ، هى ما سماها اللغويون العرب فيما بعد ، « بقلقلة » الدال ، حتى لا تتأثر صوتيًّا بالتاء ، فيقولون : « عَبَدِتُ » .

وقد يكمل القياس الطريق الذى بدأه القانون الصوتى ، أى أن القانون الصوتى ، يؤثر فى بعض أمثلة الظاهرة اللغوية ، ثم يَطْرد القياس الباب على وتيرة واحدة فى الأمثلة الباقية .

فمثلا : مضارع وزن « أَفْعَلَ » المسند إلى ضمير المتكلم ؛ مثل : « أُكْرِمُ » ، الأصل فيه : « أُؤَكْرِم » ، فتوالى فيه مقطعان متماثلان . وقد عرفنا من قبل أن العربية تفرّ من توالى الأمثال ، فتحذف أحد المقطعين المتماثلين ؛ وبذلك يصبح الفعل : « أُكرم » ، ثم تقاس باقى صيغ المضارعة على هذه الصيغة ، طرداً للباب على وتيرة واحدة .

وقد فطن إلى هذا ابن جنى ، فقال : « قولهم : أنا أُكرم ، حذفوا الهمزة التى كانت فى (أَكْرَمَ) ؛ لئلا يلتقى همزتان لأنه كان يلزم : أنا أُؤَكرم ، فحذفوا الثانية ؛ كراهة اجتماع همزتين ، ثم قالوا : نكرم ، وتكرم ، ويكرم ؛ فحذفوا الهمزة ، وإن كان لو جاءوا بها لما اجتمع همزتان ، ولكنهم أرادوا المماثلة ، وكرهوا أن يختلف المضارع ، فيكون بهمزة ، وأخرى بغير همزة ، محافظة على التجنيس فى كلامهم [1] » .

وإذا كان الفعل الناقص المسند إلى الغائبة ، قد تحوّل من : (رماتْ) مثلا إلى (رَمَتْ) ؛ بسبب تجنب المقطع الرابع ، الذى تحدثنا عنه من قبل ؛ فإن هذا الفعل الناقص نفسه ، إذا أُسند إلى الغائبتين ، لا ينشأُ فيه هذا المقطع الرابع ، وليس هناك قانون صوتى : يؤدى إلى تحوّل : (رماتا) مثلا ، إلى : (رَمَتَا) ، وإنما هو أثر القياس على

(١) المنصف لابن جنى ١ – ١٩٢ .

الفعل المسند إلى الغائبة ، وطرد للباب على وتيرة واحدة .

كما أن كراهة توالى أربعة مقاطع من النوع الأول ، هو المسئول عن تطور : « ضربت » مثلا ، عن : « ضَرَبَتْ » — كما عرفنا من قبل . أما مثل : « استخرجت » مثلا ، فليس فيه توالى هذه المقاطع الأربعة ، وإنما المسئول عن تسكين لام الفعل فيه ، هو القياس على باقى صيغ الأفعال ، وطرد الباب فيها على وتيرة واحدة .

ومن القوانين الصوتية ، التى طردت العربية الباب فيها عن طريق القياس ، قانون يسمى «بقانون الأصوات الحنكية » ؛ فقد وصل العلماء فى مقارنتهم اللغة السنسكريتية باللغتين اليونانية واللاتينية فى أواخر القرن التاسع عشر ، إلى قانون صوتى سموه : « قانون الأصوات الحنكية » ولاحظوا أن أصوات أقصى الحنك ، كالكاف والجيم الخالية من التعطيش ، كالجيم القاهرية مثلا — تميل بمخرجها إلى نظائرها من الأصوات الأمامية ، حين تليها فى النطق حركة أمامية كالكسرة ؛ لأن هذه الحركة الأمامية فى مثل هذه الحالة ، تجتذب إلى الأمام قليلا أصوات أقصى الحنك ، فتنقلب إلى نظائرها من أصوات وسط الحنك[1] . ويغلب أن تكون هذه الأصوات الجديدة من النوع المزدوج ، أى الجامع بين الشدة والرخاوة ، وهو المسمى باللاتينية : Affricata .

ومن الأصوات التى خضعت لهذا القانون فى العربية : صوت الجيم ؛ فإن مقارنة اللغات السامية كلها ، تشير إلى أن النطق الأصلى لهذا الصوت ، كان بغير تعطيش كالجيم القاهرية تماماً ؛ فكلمة : جمل مثلا ، هى فى العبرية : gāmāl وفى الآرامية : gamlā وفى الحبشية gamal أما العربية الفصحى ، فقد تحول فيها نطق هذا الصوت من الطبق إلى الغار ، أى من أقصى الحنك إلى أوسطه ، كما تحول من صوت بسيط إلى صوت مزدوج ، يبدأ بدال من الغار ، ثم ينتهى بشين مجهورة ، غير أن ذلك لم يحدث فى البداية فى كل جيم ، وإنما كان يقتصر على الجيم المكسورة ، تبعاً لقانون الأصوات الحنكية ، الذى أشرنا إليه من قبل ، ثم

(١) انظر : فى اللهجات العربية القديمة للدكتور إبراهيم أنيس ١٢٣ .

عمّم القياس هذا النطق الجديد فى كل جيم ، طردا للباب على وتيرة واحدة . وقد حدث ذلك فى العربية القديمة ، فى العصور السابقة لظهور الإسلام ، وصار هو النطق المميز للفصحى ؛ ولذلك جاء به القرآن الكريم ، وبقى النطق البائد فى بعض اللهجات العربية القديمة ، وامتداداتها فى بعض اللهجات الحديثة .

وما حدث لصوت الجيم القديم فى الفصحى ، حدث مثله لصوت الكاف فى بعض اللهجات القديمة ، فى الظاهرتين المعروفتين عند القدماء ، بظاهرتى : الكسكسة والكشكشة ، اللتين رويتا لنا عن بعض القبائل القديمة ، كبكر وهوازن وربيعة وأسد . وقد وقفت هذه الظاهرة فى القديم ، عند حدود قانون الأصوات الحنكية ، أى أن الكاف لم تقلب إلى (تْس) فى الكسكسة ، ولا إلى : (تْش) فى الكشكشة ، إلا إذا كانت مكسورة ؛ ندرك هذا من تقييد اللغويين القدماء لها بكاف المؤنثة ، وهى مكسورة كما نعلم ، وإن كانت أمثلتهم تحتوى على كافات أخرى مكسورة ، سوى كاف المؤنثة ؛ كقول الراجز :

إن دنوتِ جعلتْ تُنثيشِ
وإن نأيتِ جعلتْ تُدنيشِ
وإن تكلمتِ حشتْ فى فيشِ
حتى تنقّى كنقيق الدّيشِ (1)

أى : تنثيك ، وتدنيك ، وفيك : والدّيك .

أما اللهجات العربية الحديثة ، فقد طردت هذا القلب فى كل كاف عن طريق القياس ، مكسورة كانت هذه الكاف ، أو غير مكسورة ؛ ففى بلاد نجد تسمعهم يقولون : « تْسيف حالك ؟ » و « على تْسَمْ ؟ » فى : « كيف حالك ؟ » . و « على كم ؟ » . كما نسمع عند أصحاب الكشكشة ، وهم كثيرون فى جنوبى العراق ، وبلدان الخليج وشمالى أفريقيا : « تْشِبير » و « تْشلب » فى : « كبير » و « كلب » وما إلى ذلك.

وقد يؤدى القياس إلى نشوء كلمات جديدة فى اللغة ؛ فإن بناء : « اتّبع » من : « تبع » مثلا ، أدى إلى توهم أن « اتخذ » مأخوذة من « تخذ » ، مع أنها من : « أخذ » ، وبذلك نشأت

(1) انظر : مجالس ثعلب ١ - ١١٦ وخزانة الأدب ٤ - ٥٩٤ .

كلمة جديدة هي : « تخذ » ، واستخدمها الشعراء ؛ كقول الممزق العبدى :

وقد تَخِذَتْ رجلى إلى جنب غَرزها
نسيفًا كأُفحوص القطـــاة المطرِّق

وقد فطن إلى هذا ، الجوهرى فقال : والاتخاذ افتعال من الأخذ ، إلا أنه أُدغم بعد تليين الهمزة ، وإبدال الياء تاء ، ثم لما كثر استعماله على لفظ الافتعال ، توهموا أن التاء أصلية ، فبنوا منه : فَعِلَ يَفْعَل ، قالوا : تَخِذ يَتْخَذُ »[1] .

ولا شك أن هذه هو الطريق ، الذى وصلت إلينا عنه كلمات أخرى ؛ مثل : « التكلان » من : « وكل » ، «التُّخَمة » من الطعام الوخيم ، و « التقوى » من : « وقى » ، و « التراث » من : « ورث » ، و « تِجاه » من : « وجه » ، و «التكأة » من : « توكا » ، و « التالد » و «التلاد و « التليد » من : « ولد » ؛ لأن معناه المال المولود عند أصحابه . وغير ذلك[2] .

وهكذا نرى أنه لا شذوذ فى اللغة ، وأن القانون اللغوى له من الحتمية والضرورة ، مثل ما لقانون الجاذبية فى الطبيعة ، وقانون العرض والطلب فى الاقتصاد ، ولكن وجود قانون ما ، لا يمنع وجود قانون آخر يعارضه فى العمل ؛ فإن قانون الجاذبية مثلا ، يقضى بأن الأجسام كلها تسقط نحو مركز الأرض فى خط عمودى ، لكن هذا لا يمنع أن نرى ورقة تسقط فى خط متعرّج ، وأن نرى « البالون » يرتفع إلى أعلى .

إن القانون فى اللغة ، كالقانون فى الطبيعة ، لا يمضى دون أن يصطدم بقوانين أُخرى . والشذوذ فى قانون صوتى ليس شذوذا ، إلا عندما لا نكون قد اكتشفنا القانون الجديد الذى يفسره أو القياس الذى يلوى عنقه فى اتجاه آخر .

هذا ما أردت الوقوف عنده من عوامل التطور اللغوى ، وهى كثيرة ، غير أن أهمها ما مثلنا له من القياس والقوانين الصوتية . وبعض الأمثلة يغنى عن بعض والله أعلم .

رمضان عبد التواب

(١) الصحاح للجوهرى (أخذ) ٢ / ٥٥٩ .

(٢) انظر : القلب والإبدال لابن السكيت ٦٢ – ٦٣ والإبدال لأبى الطيب ١/ ١٤٩ واللسان (تق) ١٨/ ١١٠ (وق) ٢٠ / ٢٨٣ .

ملاحظات حول أنواع الألفاظ المعرّبة في اللغة العربية المعاصرة

للأستاذ نيقولا دوبريشان



أن التعريب يلعب دوراً معترفاً به عموماً فى تكوين المصطلحات العلمية فى مختلف لغات العالم . إن التطورات التى طرأت على موقف مجمع اللغة العربية الموقر فى القاهرة وهيآت علمية عربية أخرى والعلماء اللغويين العرب من الألفاظ المعربة معلومة جيداً ، وكذلك المناقشات والمواد التى نشرت فى صفحات مجلة مجمع اللغة العربية الموقر ومؤلفات أخرى خلال السنين السابقة . وعلى هذا لا نرى من الضرورى أن نلح عليها(١) . وإذ نعود إلى هذا الموضوع فذلك رغبة منا فى التأكيد على بعض الظواهر — وهذا قل من كثر — التى تدل على حالة الألفاظ المعربة فى اللغة العربية المعاصرة وخاصة فى مجال المصطلحات الاجتماعية والسياسية .

لاحظنا أن اللغة العربية أخذت عدداً من المصطلحات التكنيكية والعلمية من اللغتين الفرنسية والإنجليزية وذلك أن العالم العربي كان فى العصر الحديث على اتصال مستمر بالحضارة الأوروبية بواسطة اللغتين المذكورتين ؛ وحتى عملية التعليم جرت ولا تزال فى بعض البلدان العربية باللغة الإنجليزية وباللغة الفرنسية نتيجة للسيطرة الاستعمارية الطويلة على هذه البلدان فيما مضى .

أما المجالات الإدارية والتجارية فقد دخل فى العربية عدد من الكلمات الإيطالية والتركية وخاصة فى النصف الأول من قرننا هذا ، وذلك نتيجة للعلاقات السياسية والتجارية والبحرية الوثيقة القائمة بين الشعوب العربية ، وهذين الشعبين اللذين يعيشان فى الجوار

---

(١) قد نشرنا فى مجلة جامعة بوخارست مقالين عن المعرب من المصطلحات العربية وذلك فى نطاق رسالة الدكتوراه التى نعدها والتى تتناول موضوع طرق تكوين المصطلحات الاجتماعية والسياسية فى اللغة العربية المعاصرة ، وهما :

1) Nicolae Dobrisan, L'emprunt lexical en arabe (Période classique), AUB, 1973, 11 p.

2) Nicolae Dobrisan, L'emprunt lexical en arabe (Période moderne), AUB, 1973, 24 p.

المباشر للعالم العربى ، ونقدم على سبيل المثال هذه المصطلحات : « بورصة it. borsa » بوسطة it. posta » و « فاتورة it. fattura » ديكريتو it. decreto » و « باسابورط it. passaporto » و « بولصة it. polizza » و « دمغة tc. damga » و « كمرك (جمرك) tc. gümrük الخ .

إن عدداً من أسماء الآلات والأجهزة الحديثة قد دخلت فى اللغة العربية فى نفس الوقت مع الحقائق المسماة بدون أن يترك وقت لإيجاد كلمات عربية للمعانى الجديدة . وهذه هى الحالة بالنسبة لمفردات كـ « تلغراف » و «تلفون » و « بطارية » و « بارومتر » وغيرها ، أو بالنسبة لكلمات دخلت اللغة العربية فى فترة أقرب منا زمناً ، مثل « سينما » و « فيلم » و « تلفزيون » و « مترو » وغيرها .

كما دخل العربية عدد من وحدات القياس بشكلها الأوروبى ، مثل « متر » و « لتر » و « هكتار » و « كيلو متر » و « هكتولتر » وغيرها . وكذلك أسماء الـ... المتعلقة بالكهرباء التى تحمل أسماء مخترعيها ، مثل « أمبير » Ampère و « أوم » Ohm و « وات »[1] Watt وغيرها .

إن هذه المصطلحات تمثل جزءاً مما يسمى بالألفاظ الدولية vocabulaire international حيث إنها توجد فى معظم لغات العالم بشكل قريب من أصلها .

إن أسماء عدد من العلوم المكونة فى اللغات الأوروبية من كلمتين ثانيتهما الكلمة اليونانية « لوجيا » logia دخلت فى اللغة العربية محتفظة بشكل قريب من شكلها فى اللغات الأوروبية (الشكل الفرنسى فى معظم الأحيان)، مثال ذلك : « بيولوجيا » fr. biologie « ميترولوجيا » fr. metrologie و «إبستيمولوجيا» fr. épistémologie وغيرها . فى بعض الاحيان حصلت على شكل مصدر صناعى ، أى بتحويل ألف المد فى نهاية الكلمة إلى اللاحقة — ية « الخاصة بالمصدر الصناعى suffixe ؛ مثل «بيولوجية » وغيرها من العلوم .

وإن الشكل الثانى هذا ليدل على درجة أكبر فى اندماج اللفظة assimilation من الناحية الصرفية والصوتية . فى الوقت الأخير نلاحظ أن الباحثين منحوا الأسبقية للاحتفاظ بالشكل المكون «اوجيا» اليونانية .

وفى حالات أخرى نجد أشكالا متوازية « variantes » أى بالاضافة إلى اللفظة المعربة ، توجد ترجمتها أو حتى شرحها باستعمال كلمات عربية ، مثال ذلك : «بيداغوجية» fr. pédagogie » إلى جانب « علم التربية » و «ديموغرافيا » fr. demografie إلى جانب «علم السكان» و «تيبولوجيا » fr. typologie إلى جانب «علم تشكل الإنسان» إلى آخرها.[2]

---

(١) بشكل (واط) أيضا.

(٢) انظر عبد العزيز بن عبد الله ، معجم أسماء العلوم والفنون والمذاهب والنظم ، فرنسى — عربى ، سلسلة المعاجم عدد ٩ — ١٩٦٩ .

وفى حالة أسماء العلوم غير المنتهية بـ ique فى اللغة الفرنسية تم الاحتفاظ بشكل قريب من الشكل القائم فى اللغة الأصلية ، مثال ذلك : «هدروستاتيك» fr. hydrostatique و « ميكانيك[1] » fr. mécanique و «سبرنتيك[2] » fr. cybernétique وغيرها .

أما أسماء المذاهب والتيارات الفلسفية أو الأدبية التى تقابلها فى اللغة الفرنسية كلمات تنتهى باللاحقة « isme » ، فقد تم تعريبها عن طريق تحويل هذه اللاحقة إلى اللاحقة العربية الخاصة بالمصدر الصناعى « ـيّة» وذلك قياسا على المصطلحات القديمة من هذا النوع، مثال ذلك: «دناميكية» fr. dynamisme وميكانيكية fr. mécanicisme و «أكادمية» fr academisme و «طوطمية» fr. totémisme و «دغماطيقية[3]» fr. dogmatisme وغيرها[4].

وفى حالات نادرة تم استعمال كلمة «مذهب» "doctrine" ، مثال ذلك : «المذهب الكلاسيكى » fr. classicisme و«المذهب الرومانطيقى» fr. romanticicisme الخ . . .

ولكن فى نفس الوقت هناك إمكانية استعمال الكلمة «مذهب » لتكوين اسم أى مذهب من المذاهب المذكورة سابقا وغيرها من المذاهب الفلسفية أو التيارات الأدبية والحضارية شريطة أن تتبع النسبة المشتقة من اللفظة المعربة المعنية لكلمة « مذهب» .

وانطلاقا من الأسلوب الأوروبى تم اشتقاق أسماء مذاهب وتيارات فلسفية وسياسية من أسماء الأعلام ، مثال ذلك: «الماركسية» (مصر ٦٨) Marx و «اللينينية» (مصر ٦٨) Lenin و «التروتسكية» Trotski و « ديجولية » De Gaulle « برغسونية » Bergson وغيرها[5] .

والجدير بالذكر أن بعض الأسماء للمذاهب اشتقت من أسماء شخصيات عربية ، ومن الممكن أن هذه الظاهرة جرت تحت تأثير الأسلوب الأوروبى ، مثل «الناصرية» «جمال عبد الناصر» البورقيبية» « الحبيب بورقيبة » والقاسمية « عبد الكريم القاسم » وغيرها .

وبالإضافة إلى المصادر الصناعية المشتقة من من أسماء الأعلام فهناك نسب مقابلة لها بمعنى

(١) إلى جانب شكل معرب وهو « الميكانيكيات » وهو جمع المصدر الصناعى .

(٢) إلى جانب الشكلين المنتهيين بألف المد « ميكانيكا » و « سبرنتيكا » .

(٣) إلى جانب « الجمود العقائدى » (العراق ٦٨ ولبنان ٦٨) و « العقائدية الجامدة » (العراق ٦٨) .

(٤) لاقتصاد المكان لا نذكر المصادر أو الصحف التى اخترنا منها الأمثلة ونقتصر على ذكر البلد والسنة فقط .

(٥) وجدنا بعض هذه المصطلحات مذكورة بين « المصطلحات فى العلوم الفلسفية والاجتماعية » ، مجلة مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، ج ٩ ، ١٩٥٧ ، ص ١٨٨ - ١٨٩

أنصار المذهب المعنى : «الماركسيون» و «الناصريون» الخ . . . . ولكن اشتقاق النسب من أسماء الأعلام معروف فى العربية القديمة :

وهناك ملاحظة خاصة فيما يتعلق باسم المذهب الفاشى وهى أن لاسم هذا المذهب شكلين لهما نفس الانتشار تقريبا : « الفاشية» و «الفاشستية» والنسبتان المقابلتان لهما «الفاشى» و «الفاشستى» : ويبدو أن الشكل الأول اشتق من الكلمة الفرنسية fascisme (اسم المذهب) بينما اشتق الشكل الثانى من الكلمة الإيطالية fascista . لكننا وجدنا من الناحية الإحصائية أن الشكلين «فاششتى» (اسم وصفة) و « فاشستية » (مصدر صناعى) منتشران بصفة خاصة فى الصحف المصرية .

وتمثل أسماء الأمم والشعوب والقوميات نوعا خاصا من الألفاظ المعربة ، فإنها تظهر بشكل اسم جنس collectif قياسا على حالة قديمة فى اللغة أو بشكل جمع سالم للنسب المشتقة من أسماء البلدان المعنية .

وفى العصر الحديث انتشرت أسماء الجنس مثل الفرنج[1] Franc و «الألمان» Allemand و « الأمريكان » Américain و « الإنجليز » Anglais إلخ . . . وذلك قياسا على أسماء شعوب دخلت فى اللغة العربية فى العصور القديمة ، مثل «الروم» و «الترك» و «الرومان» و «التتار» وغيرها :

ولكن فى العادة يتم اشتقاق جمع مذكر سالم من النسبة المشتقة من أسماء البلدان ، مثل «فرنسا» «فرنسى» «فرنسيون» و «رومانيا» «رومانى «رومانيون» وغيرها .

وفى نفس الوقت يمكن اشتقاق نسبة من أسماء الشعوب التى لها شكل أسماء الجنس وفى هذه الحالة يكون المشتق له قيمة اسم وصفة فمثلا : تشتق من «أمريكا» النسبة «أمريكى» وفى نفس الوقت يشتق «أمريكانى» من «أمريكان» وكذلك تشتق من اسم الجنس «ألمان» النسبة «ألمانى» التى تجمع على «ألمانيين[2]» . فى هذه الحالة يستعمل الجمع السالم المنتهى بـ ـون ـ ـ ين ـ لتسمية الشعوب المعنية . كما يشتق من نسبة مؤنث ينتهى بـ ـ ية ـ ويستعمل كاسم وكصفة ويشتق منه جمع مؤنث سالم ينتهى بـ « ـ ات» . ويستعمل لتسمية النساء المنتميات إلى قومية معينة ، فتشتق على سبيل المثال من الاسم «روس» النسبة «روسى» (اسم وصفة) ومنها تشتق «روسية» وتجمع تلك بدورها على «روسيات» (بمعنى النساء المنتميات إلى القومية الروسية) .

---

(١) استعملت الكلمة قديما بمعنى « الأوروبيون » عامة .

(٢) ويستعمل هذا الجمع كصفة بوجه عام فى حين يستعمل اسم الجنس كاسم .

وبالنسبة للشعب الرومانى تشتق من اسم البلد « رومانيا » النسبة « رومانيون » ولكن بالإضافة إلى هذا الجمع يستعمل لتسمية الشعب اسم الجنس «الرومان» Les Romains وذلك نتيجة لبس مع الرومان القدماء الذين يمثلون أصـــل الشعب الرومانى الحالى ولكنهم كانوا شعبا آخر عاش فى إمبراطورية روما القديمة فى حين نشأ الشعب الرومانى من الاختلاط الذى حدث بين الشعب الرومانى القديم « والداك » وهم السكان الأصليون للأراضى الرومانية الحالية وذلك خلال القرون الأولى الميلادية .

ونذكر هنا كذلك اتجاها حديثا نسبيا وهو تعريب بعض الألقاب الأجنبية ، مثال ذلك : « لورد » angl. lord ومستر[1] « (مصر ٧١) angl. mister و « سيناتور » angl. senator (مصر ٧١) و« بروفيسور » fr. professeur (مصر ٧١) و « سينيور » esb. senor (مصر ٧١) و « سير » angl.sir (مصر ٧١) و« ميسيو » fr. monsieur (مصر ٧١)

ويبدو طبيعيا أن تسبق هذه الألقاب أسماء أشخاص من البلدان التى تستعمل فيها هذه الألقاب ومثلها مثل الألقاب العربية التى لها معنى متشابه تظهر معرفة بأداة التعريف العربية « ال » :

ويمكن اعتبار كل هذه الأنواع من الألفاظ التى ذكرناها فى الفقرات السابقة ألفاظا معربة أو فى مرحلة التعريب ولكن بالإضافة إلى الألفاظ المعربة يوجد فى اللغة العربية ، وهذا ما يحدث فى جميع اللغات تقريبا ، نوع آخر من الكلمات الأجنبية وهى الكلمات التى تدل على أسماء منظمات ومؤسسات دولية أو وطنية أو على أسماء صحف ومحطات الإذاعة والتلفزيون .

وبالنسبة للمنظمات والهيئات والمؤسسات الدولية المعروفة وخاصة المتعلقة منها بالأمم المتحدة ، تتم ترجمة أسمائها ولا تستعمل الحروف الأولى « initiales » للكلمات التى تتكون منها هذه الأسماء فى اللغة الإنجليزية أو الفرنسية إلا نادرا جدا ، فمثلا اسم منظمة ONU يترجم بـ « منظمة (هيئة) الأمم المتحدة » واسم منظمة OMS يترجم بـ « المنظمة الدولية للصحة إلخ . . . أما استعمال الحروف الأولى أو مقاطع من هذه الكلمات التى يتكون منها اسم المنظمة فهو ميل حديث فى اللغة العربية ، وفى هذه الحالة يتم الالتجاء إلى الأشكال المعروفة فى اللغات ذات الانتشار العالمى ، مثل الإنجليزية أو الفرنسية ، وتظهر هذه الأسماء مسبوقة بأداة التعريف ولها فى بعض الأحيان أكثر من شكل ، مثال ذلك : UNESCO « اليونسكو و الأونسكو » (مصر ،

---

(١) لاشك فى أن بعض هذه الألقاب مثل « اللورد » و« المستر » لها استعمال قديم فى اللغة العربية ، ولكننا لم نقصد وضع دراسة تاريخية . ولهذا السبب سجلنا سنة العثور عليها فى الصحف الصادرة مؤخرا .

سوريا ، لبنان ٦٨) ؛ و COMICOM الكوميكون (مصر ، المغرب ٦٨) و OPEC « الأوبيك » و « الأوباك » (مصر ، سوريا ، لبنان ٧٠) .

إن أسماء المنظمات أو الهيئات الأجنبية المكونة من كلمة واحدة تظهر بهذا الشكل مشروحة أحيانا، مثال ذلك : « السوفييت» (مصر ٧١) Soviet و« البنتاجون » (مصر ٧٠) angl. Pentagon و « الكونجرس» (مصر ٧٠) angl. Congres إلخ ؛ . وكما يرى ، فإن جميع هذه الأسماء تظهر معرفة بأداة التعريف « ال» .

أما محطات الإذاعة فنستعمل بصفة عامة لتسميتها الكلمة « راديو » ويليها اسم العاصمة التي توجد فيها المحطة المعنية ، مثال ذلك : « راديو عمان » (مصر ٧١) و « راديو دمشق » (مصر ٧١) و « راديوهانوى» (مصر ٧٠) و « راديو موسكو » (مصر ٧٠) وغيرها . وغيرها . ولكن بالإضافة إلى كلمة « راديو » الأجنبية استعملت كلمة « إذاعة » العربية كمضاف وكاسم تتبعه نسبة ، مثل : « إذاعات الاستعمار» (سو يا ٦٩) . و « الإذاعة الأردنية » (مصر ٧١) وغيرها . ويستعمل نفس الأسلوب لتسمية محطات التليفزيون مثل : « التلفزيون الأمريكى » (مصر ٧٠) و « التلفزيون المصرى » (لبنان ٧٠) الخ

وفى الصحف التونسية وجدنا لفظا يدل على درجة أعلى فى تعريب الكلمة الأجنبية وهو « التلفزة » (تونس ٦٩) فإن هذا اللفظ الذى له وزن المصدر تم اشتقاقه من الفعل الرباعى الأحرف « تلفز» الذى اشتق بدوره من الكلمة الفرنسية الأصل « تلفزيون » fr. télévision . إن هذا المشتق استعمل فى بداية الأمر كمصدر ، كما يستعمل الآن فى أغلب البلدان العربية ولكن فى تونس انتقل إلى استعمال اسمى صرف .

ووجدنا الكلمة « إذاعة » مستعملة كمصطلح تكنيكى ، كذلك مثلها مثل الكلمة المعربة « راديو » وذلك فى العبارات « أجهزة الإذاعة » و« أجهزة الراديو .

وهناك نوع آخر من الكلمات الأجنبية التى تدخل فى اللغة العربية وهى أسماء الجرائد والمجلات وأسماء وكالات الأنباء . ولاحظنا بالنسبة لهذه الأسماء أن بعضها يظهر معرفا وبعضها يظهر غير معرف ، أضف إلى هذا أنه فى حالات أخرى نجد الإمكانين : ويبدو أن المعرف منها كان معرفا فى اللغة الأصلية ، وأن غير المعرف منها ، إما أن يكون غير معرف فى اللغة الأصلية ، وإما أن يأتى من لغة لايعرفها إلا قليل من العرب . وقدحدث بصورة خاصة فى الأوقات الأخيرة حين توسعت توسعا مدهشا العلاقات بين جميع دول العالم

وتطور تبادل المعلومات والأخبار بسرعة نتيجة لإدخال أحدث الوسائل فى الإذاعات اللاسلكية وعدم السماح بوقت للتعرف على موقف كلمة فى لغة أو أخرى من ناحية وسائل التعريف . فإن اسم الجريدة السوفييتية Pravda [1] ، على سبيل المثال ، يستعمل فى اللغة العربية إما معرفا (البرافدا) أوغير معرف (برافدا) ، رغم أن الروسية لاتعرف التعريف بأداة التعريف. وكذلك بالنسبة لاسم الجريدة الرومانية [2] Scînteia الذى يستعمل معرفا (الاسكنتيا) [3] أو غير معرف (سكنتيا) :

ولاحظنا أن أسماء الجرائد والمجلات لاتترجم بل تبقى بشكلها من اللغة الأصلية. مثل : مجلة « جين أفريك » (مصر ٧٠) Jeune Afrique وصحيفة « نيويورك تايمز New York Times » (لبنان ٧١) إلخ .

وإن الملاحظات المتعلقة بتعريف أو عدم تعريف أسماء الصحف الأجنبية تنطبق كذلك على أسماء وكالات الأنباء الأجنبية ، مثال ذلك : « وكالةتاس » [4] (مصر ٧٠) TASS و« وكالة آجير بريس » (مصر ٧١) [5] Agerpres و« وكالة فرانس بريس » (مصر ٦٩) France Presse و« وكالة رويتر » (مصر ٧١) Reuter ولكن « وكالة الأسوشيتد بريس » (مصر ٧١) Associated Press .

ويلاحظ أن العرب لم يأخذوا فى الاعتبار بصدد حالة هذه الأسماء أن بعضها تتكون من الحروف الأولى أو من المقاطع الأولى لعدد من الكلمات فى اللغات الأصلية ، وتمت معالجتها كأنها كلمات مستقلة :

وأخيرا ، نذكر هنا بعض الكلمات المركبة تركيبا مزجيا فى لغات أخرى والتى دخلت فى اللغة العربية ، لكنها تغيرت شيئا ما من الناحية الصوتية ، والصرفية [6] لما دخلت فى العربية .

إن أغلب هذه الكلمات هى مصطلحات علمية وتكنيكية مثل « الصناعة البيتروكيمائية fr. pétrochimique (سوريا ٦٨) ومصنع « البيتروكيماويات (الأوردن ٧١) وعدد من المركبات التى تدخل فيها الكلمة « كيلو fr. kilo] مثل « كيلو متر » fr. kilométre وكيلوغرام fr.kilogramme و«كيلوات» [7] fr. kilowatt وتجمع هذه الكلمات جمع

(١) معنى الكلمة فى اللغة الروسية هى « الحقيقة » .

(٢) معنى الكلمة فى اللغة الرومانية « الشرارة » .

(٣) نتج الشكل « اسكنتيا » عن الطريقة التى اتبعها المعربون فى تعريب اسم يبتدئ بالساكن وذلك لاستحالة النطق بالمبدوء بالساكن فى اللغة العربية .

(٤) وكالة الأنباء السوفيتية. (٥) وكالة الأنباء الرومانية.

(٦) لا نعنى هنا الألفاظ المركبة فى اللغة العربية بالطريقة المعروفة بالنحت .

(٧) والشكل (كيلو اط) «اليمن ٧١» .

مؤنث سالماً : كيلومترات : وكيلوغرامات» وقد لفت أنظارنا مصطلحا من المصطلحات الاجتماعية والسياسية وجدناه مؤخرا فى الصحف اللبنانية وهو «حكومة اكسترابرلمانية» (لبنان ٧١) fr. extraparlamentaire .

ولأننا أخذنا فى الاعتبار كثرة المصطلحات التكنيكية والعلمية المعربة فى العصر الحديث ، وكثير منها تعتبر مصطلحات ذات انتشار دولى ، لم نرد الخوض بهذه العجالة فى هذا الموضوع الواسع[1] . ولكنا نسجل فقط أنه فى العصر الحديث لم يتم تعريب مصطلحات فى علوم كالحقوق والرياضيات والجيولوجيا والفلك والجغرافيا إلا فى حالات استثنائية ، وذلك لأن لهذه العلوم تقاليد عريقة عند العرب . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فى هذه العلوم لم تحدث ثورة تشبه الثورة التى جرت فى العلوم التكنيكية والتطبيقية

نيقولا دوبريشان
NICOLAE DOBRISAN

جامعة بوخارست Université de Bucarest

قسم اللغات الشرقية
Section de langues orientales Roumanie

(١) أنظر للتفاصيل شروح كتاب اللغة العربية كائن حى » لجرجى زيدان « ، ص ١١٦ والصفحات التالية .

في القرآن والعربية:

الصراع بين القُرّاء والنُّحاة

للدكتور أحمد علم الدين الجندي

مقدمة :

اندفع المسلمون كالسيل يدرسون القرآن ويحفظونه متفقهين متعبدين وكان الاعتماد فى نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور ، كما جاء فى صفة أمة الرسول صلى الله عليه وسلم « أنا جيلهم فى صدورهم »[1] لذا أحيط نص القرآن الكريم بالعناية الشديدة المنقطعة النظير ، فأقام الله له أئمة ثقات من القراء[2] .

---

(١) النشر ١ — ٦ .

(٢) سموا بالقراء ، لأنهم يقرءون القرآن ويقرئونه ، وكان من سلوكهم فى الصدر الأول أنهم يستعلون على المال على حين تخضع ظهورهم وتنحنى أصلابهم على أجزاء القرآن وسوره ، ويقضون ليلهم صلاة ، وصياما و بكاء .

وكان (القارىء) عبد الله بن عمر يجد القوة على أن يختم القرآن فى ليلة (غاية النهاية فى طبقات القراء ١ — ٤٣٩) ويغلق عليه بابه ويبكى حتى رمضت عيناه ، وشعاره » ابكوا ، فان لم تبكوا فتباكوا ، فوالذى نفسى بيده لو يعلم العلم أحدكم اصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه « . فقاموا ليلهم أرقا ، وتبادرت دموعهم فرقا ، حتى ضنيت منهم الأبدان وتغيرت منهم الألوان ، صحبوا القرآن بأبدان ناحلة ، وشفاه ذابلة ، ودموع وابلة ، وزفرات قاتلة . . . فاضت عبراتهم من وعيده ، وشابت ذوائبه من تحذيره (لطائف الإشارات) (فما بعدها القسطلانى)

وقد لمس النبى (ص) فى القراء سعة ثقافتهم وأمانتهم ، وإخلاصهم للدين فاتخذ منهم دعاة للفكر الإسلامى ، وقوادا للتحرير ، ومن أمثلة الدعاة : : أبى بن كعب ، والمنذر بن عمرو الأنصارى ، وكان (القراء) أعلم الناس بالعقيدة الجديدة ، والفكر الإسلامى الوليد . أما القواد من (القراء)فنهم : مصعب بن عمير حامل لواء المهاجرين يوم بدر ، ولقد تأثر النبى (ص) يوم أحد لمصرعه ووقف يتلو » من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه « الأحزاب آية ٢٣ ومنهم معاذ بن جبل ، وسعد بن عبيد ، وعبادة بن الصامت ، ولقد بلغ من تكريم النبى (ص) لهم عند مصارعهم يوم أحد أن أمر بتقديم أكثرهم قرآنا (سيرة ابن هشام ٢ — ٩٨) ثم خاطبهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله « إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة « (الإتقان ١ — ٣٥) . وعلى أطراف أسنة رماح القراء كان النصر يوم حنين ، كما استماتت القراء فى معارك الردة وكانوا حملة اللواء فيها . ولما انكشف المسلمون قال واحد من =

تجردوا له ، وبذلوا أنفسهم فى سبيله وتلقوه من صاحب الرسالة حرفا حرفا ، لم يهملوا منه حركة ولاسكونا ولا إثباتا ولا حذفا ، ولا دخل عليهم فى شيء منه شك ولا وهم ، فقد ثبت أن الرسول (ص) كان يستمع إليهم وهم يقرءون عليه ، فعن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأ علي : ففتحت سورة النساء فلما بلغت « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً »[1] رأيت عينيه تذرفان من الدمع فقال : حسبك الآن[2] ومن خلال هذا النص نلمح توثيق النص القرآنى ، لأن النبى (ص) كان يستمع إلى قراءة أصحابه : وهناك توثيق آخر ظهر فيما رواه عطاء بن يسار عن أبى سعيد عن النبى (ص) قال : لا تكتبوا عنى شيئا سوى القرآن فمن كتب عنى شيئا سوى القرآن فليمحه[3] »وذلك مبالغة منه فى شدة الحفاظ على النص القرآنى لذلك كان القرآن هو النص العربى الصحيح المتواتر المجمع على تلاوته بالطرق التى وصل إلينا بها فى الأداء والحركات والسكنات ، فلم يتوفر لنص ماتوفر للقرآن الكريم من تواتر رواياته ، وعناية العلماء بضبطها وتحريرها متنا وسندا ،[4] بل لم تعرف البشرية كتابا أحيط بالعناية واكتنف بالرعاية فحوفظ على تراكيبه وكلماته وحروفه وحركاته وكيفية ترتيله بلهجاته . مع إتقان متناه فى التلقى والتلقين ، ودقة بالغة فى الأخذ والأداء مثل الكتاب العزيز[5] .

= (القراء) بعد أن التقط الراية فى ثورة وغضب : ماهكذا كنا نفعل مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم حفر لنفسه حفرة فى ساحة المعركة ومعه راحة المهاجرين وظل يضرب فى صمود وبأس حتى استشهد ، أما بقية القراء فقد انسحبوا من بين بقية المسلمين وألفوا كتيبة فدائية انتحارية وكان شعارها (يا أصحاب سورة البقرة) يقصدون القراء فصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وسحقوا الأعداء بسيوفهم المسلمة ، ولولا (القراء) لكان العار والمصير الرهيب فى انتظار المسلمين كما اشترك (القراء) أيضا فى الجيش العربى الإسلامى الذى فتح مصر ٢٠ هـ وكان سلوكهم الحربى : أن يقتلوا أو يقتلوا . انظر القرآن وعلومه فى مصر . الدكتور عبد الله البرى — فى مواطن متفرقة من الكتاب .

(١) النساء ٤١ .

(٢) تاريخ القرآن للزنجانى ص ١٧ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ هـ .

(٣) المصاحف للسجستانى ٤ ط أولى المطبعة الرحمانية تحقيق أثر جفرى .

(٤) فى أصول النحو : سعيد الأفغانى ٢٥ ط الجامعة السورية ١٩٥٧ ط الثانية .

(٥) نظرة فى النحو . طه الراوى ، مجلة المجمع العلمى بدمشق مجلد ١٤ ج ٩ ، ١٠ سنة ١٣٥٥ هـ — ١٩٥١ م .

ولهذا كان القرآن الكريم مع قراءاته الواردة إلينا عن الصحابة[1] وقراء التابعين – وهم جميعا ممن يحتج بكلامهم العادى بل قراءاتهم التى تحروا ضبطها – حجة فى اللغة لا سيما لهجات العرب الذين أبيح لهم أن يقرءوه على لهجاتهم المختلفة ، قال الإمام أبو محمد عبدالله بن قتيبة « وكان من تيسير الله أن أمر نبيه (ص) أن يقرىء كل قوم بلغتهم ، وماجرت عليه عاداتهم فالهزلى يقرأ (عتى حين) يريد (حتى حين) لأنه هكذا يلفظ بها ، والأسدى يقرأ – تِعلمون – و (تِعلم) (وتِسودّ وجوه) و (ألم أعهد إليكم) والتميمى يهمز ، والقرشى لا يهمز ، والآخر يقول (وإذا قيل لهم) (وغيض الماء) بإشمام الضم الكسر ، و (بضاعتنا ردت إلينا) بإشمام الكسر مع الضم ، و (مالك لا تأمنا) بإشمام الضم مع الإدغام – وهذا ما لا يطوع به كل لسان[1] .

---

(١) اشتهر من الصحابة : عثمان وعلى وأبى زيد بن ثابت وابن مسعود وحذيفة . ومن التابعين بالمدينة : ابن المسيب وعروة وعطاء . وبمكة : عكرمة وابن أبى مليكة . وبالكوفة : علقمة والأسود ومسروق والربيع بن خيثم وزر بن حبيش . وبالبصرة : عامر بن عبد القيس وأبو العالية وقتادة . وبالشام : المغيرة المخزومى .

ثم تلت هؤلاء طبقة أخرى . وكان بالمدينة : أبو جعفر يزيد بن القعقاع ثم شيبة بن نصاح ثم نافع بن أبى نعيم وإليه صارت قراءة أهل المدينة . وكان بمكة : عبد الله بن كثير ومحمد بن محيصن . وكان بالكوفة : يحيى بن وثاب وسليمان الأعمش ثم الكسائى . وكان بالبصرة : عبد الله بن أبى إسحق وعيسى بن عمر وأبو عمر بن العلاء وإليه صارت قراءة أهل البصرة ، وكان بالشام : عبد الله بن عامر . واشتهر بالآفاق الأئمة السبعة وهم : نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى وهؤلاء هم القراء السبعة الذين اختار قراءتهم ابن مجاهد (٣٢٤ هـ) آخر من انتهت إليه الرياسة بمدينة السلام (إبراز المعانى ٣ ، ٥) . وانظر حديثا مفصلا عن القراء وأنسابهم وأساتذتهم وتلاميذهم فى كتاب :

كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد . تحقيق د – شوقى ضيف دار المعارف بمصر .

* التيسير فى القراءات السبع للدانى تحقيق (أوتوبرتزل) .
* إبراز المعانى من حرز الأمانى لأبى شامة .
* منجد المقرئين ومرشد الطالبين ابن الجزرى .
* لطائف الإشارات لفنون القراءات (شهاب الدين القسطلانى تحقيق – عبد الصبور شاهين والشيخ عامر عثمان .
* النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى .
* غاية النهايات فى طبقات القراء لابن الجزرى نشرة ج . برجشترامر .
* سراج القارئ المبتدئ وتذكار المقرئ المنتهى – لأبى القاسم القاصح .
* اتحاف فضلاء البشر – الدمياطى .
* تاريخ القرآن – الزنجانى .

(١) مشكل القرآن لابن قتيبة ١ – ٢٢٢ ط الخانجى ، النشر ١ – ٢٢ .

والقرآن المعجز وإن نزل بلغة أدبية نموذجية ، إلا أنه أبيح فى قراءاته[1] أن يخرج على تلك اللغة النموذجية ـ تيسيرا على العرب ، وجمعا لكلمتهم ، وكما يسر الله على الناس فى الدين حين أجاز[2] لهم على لسان رسوله الكريم (ص) أن يأخذوا باختلاف العلماء من أصحابه رضى الله عنهم فى فرائضهم وأحكامهم وصلاتهم وزكاتهم وحجهم وطلاقهم وعتقهم وسائر أمورهم » يسر عليهم كذلك فى قراءات القرآن حيث تقرؤه كل قبيلة بلهجتها » قال ابن قتيبة « ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لغته ، وما جرى عليه اعتياده طفلا وناشئا وكهلا ـ لاشتد ذلك عليه وعظمت المحنة فيه »[3] وذلك يتفق مع ما رواه ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله (ص) قال : أقرأنى جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف[4] » وهذا الحديث مشهور فى كتب القراءات والمصاحف والتفاسير كما ورد من طرق متعددة ، وبأوجه مختلفة ، ولكنها مع ذلك متفقة فى الفكرة[5] وهى أن الرسول (ص) أدرك أن الأمة العربية لا تستطيع أن تقرأ كتاب الله إذا نزل بلغة واحدة ، لأن لغة العرب لهجات مختلفة « فلو كلفوا العدول عن لغتهم والانتقال عن ألسنتهم لكان من التكليف بما لا يستطاع[6] »

ويدل حديث رسول الله (ص) على أن هذا التيسير والتوسعة فى قراءة القرآن

(١) الفرق بين القرآن وقراءاته أن القرآن » هو الوحى المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للبيان والإعجاز ، والقراءات هى :
اختلاف ألفاظ الوحى المذكور فى كتبة الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل غيرهما . البرهان فى علوم القرآن ج١ ص ٣١٨ – وانظر إتحاف فضلاء البشر ص٥ ولطائف الإشارات ١ – ١٧١ ويقول ابن الجزرى فى منجد المقرئين ص ٣ (القراءات هى علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة) . وأما المقرئ فهو العالم بالقراءات أداء ورواها مشافهة فلو حفظ التيسير مثلا فليس له أن يقرئ بما فيه إن لم يشافهه من شوفه به مسلسلا ، لأن فى القراءات أشياء لا تحكم إلا بالسماع والمشافهة . منجد المقرئين ٣ . وانظر الفرق بين : المقرئ والقارئ والمنتهى وشروطهم وصفاتهم فى : منجد المقرئين الباب الأول .

(٢) القرطين لابن مطرف الكتانى ١ – ٢٢٣ ط أولى .

(٣) النشر ١ – ٢٣ .

(٤) فتح البارى بشرح البخارى ٩ – ١٩ لابن حجر ط البهية ١٣٤٨ هـ . وانظر النشر ١ – ١٩ لابن الجزرى .

(٥) انظر جامع البيان فى تفسير القرآن ١ – ١٠ ط أولى للطبرى . (٦) النشر ١ – ٢٢ .

على هذه الحروف إنما كان بعد الهجرة ، وبعد أن دخلت القبائل المختلفة الدين الجديد فكان من التيسير عليهم قراءته على هذه الحروف ، ومما يشهد على أن التيسير كان فى هذا الوقت أن جبريل لقى النبى (ص) وهو عند أضاة بنى غفار فقال « إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف »[1]

أما أوجه الاختلاف بين القراءات فقد بينها ابن قتيبة ت ٢٧٦ هـ ، وهى سبعة أوجه :

١ ـ فى الإعراب بما لا يزيل صورتها فى الخط ولا يغير معناها . نحو « هؤلاء بناتى هن أطهرُلكم » و « أطهرَ » و « هل يجازَى إلا الكفور » و « هل نجازى إلا الكفور » ، « ويأمرون الناس بالبُخْل » و « بالبَخَل » ، « فنظرة إلى ميسَرة » و « ميسُرة » .

٢ ـ الاختلاف فى إعراب الكلمة وحركات بنائها بما يغير معناها ولايزيلها عن صورتها نحو « ربّنا باعِدْ بين أسفارنا » و « ربُّنا باعَدَ » و « إذتلقَّوْنه » و « تلِقُونه » « وادّكر بعد أُمّة » و « بعد أَمَة » .

٣ ـ الاختلاف فى حروف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها ولا يزيل صورتها نحو « « وانظر إلى العظام كيف ننشزها » و « نَنْشرها »حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم » و « فُرِّغ » .

٤ ـ أن يكون الاختلاف فى الكلمة بما يغير صورتها ومعناها نحو « وطلع منضود » فى موضع « وطلح » .

٥ ـ أن يكون الاختلاف فى الكلمة بما يغير صورتها فى الكتاب ولا يغير معناها نحو « إن كانت إلا صيحة واحدة » و « زقية واحدة » و « كالعهن المنفوش » و « كالصوف » .

٦ ـ أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير نحو « وجاءت سكرة الموت بالحق » « وجاءت سكرة الحق بالموت » .

٧ ـ أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان نحو « وما عملت أيديهم » و « عملته أيديهم » « فإن الله هو الغنى الحميد » « فإن الله الغنى الحميد » بنقصان « هو » إن هذا أخى له تسع

---

(١) تفسير الطبرى ١ – ١٣ ط الأميرية فتح البارى ٩ – ٢٣ .

وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة أنثى[1] .

ثم يقول ابن قتيبة « وكل هذه الحروف كلام الله تعالى نزل به الروح الأمين على رسول الله (ص)[2] ، واختلاف القراءات لا يخرج عن أمرين :

الأول : أن تختلف القراءتان فى اللفظ وتتفقا فى المعنى ، ومن هذا النوع ما يرجع إلى اختلاف اللغات كقراءة :

(مرفقا[3]) بكسر الميم وفتح الفاء ، وبفتح الميم وكسر الفاء .

والحكمة فى إنزال هذا النوع فى القرآن تيسير تلاوته على ذوى اللغات المختلفة .

ومن هذا النوع مالا تختلف فيه اللغات ، وإنما هما وجهان ، أو هى وجوه تجرى فى فصيح الكلام .

(وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ[4]) .

قرئ بخفض ميم (وقوم) ونصبها .

وهذا النوع وارد على سنة العرب من صرف عنايتها إلى المعانى ، ونظرها إلى الألفاظ على أنها وسائل ، فلا ترى بأساً فى إيراد اللفظ على وجهين أو وجوه ما دام المعنى الذى يقصد بالخطاب مستقيما وفى هذا توسعة على القارئ ، بعدم قصره فى نطاق حرف واحد .

الثانى : أن تختلف القراءتان فى اللفظ والمعنى معاً مع صحة المعنيين كليهما ، فلا يكونان متناقضين ولا متعارضين ، بل يمكن اجتماعهما فى شئ واحد . نحو (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا[5]) .

قرئ بحذف الألف بعد الزاى مع تشديد اللام والمعنى : أوقعهما فى الزلة أى الخطيئة . . وقرئ بإثبات الألف بعد الزاى مع تخفيف اللام والمعنى نحاهما وأبعدهما عن الجنة فالمعنيان متغايران — كما ترى — ولكنهما يجتمعان ، فإن إيقاعهما فى الزلة اقتضى تنحيتهما عن الجنة ، فهناك تلازم بين المعنيين .

---

(١) القرطين . لابن مطرف الكنانى ١ — ٢٢١ ط الخانجى ـ أنظر : النشر لابن الجزرى ١ — ٢٧ — ٢٨ ومقدمتين فى علوم القرآن ١٥ — ٢٠ فما بعدها ؛ ٢٦٥ . وقارن رأى ابن قتيبة برأى ابن الجزرى والرازى والباقلانى فى : ٢٠ النشر ١ — ١٤ — مقدمتان فى علوم القرآن ٢٦٥ فما بعدها . لطائف الإشارات لفنون القراءات ٣٨ فما بعدها . والكلمات الحسان ٦٤ المطيعى مناهل العرفان للزرقانى ١٤٨ .

(٢) النشر ١ — ٢٨

(٣) آية ١٦ من سورة الكهف .

(٤) آية ٤٦ من سورة الذاريات .

(٥) آية ٣٦ من سورة البقرة .

وحكمة هذا النوع من الاختلاف أن تكون الاية بمنزلة آيتين وردتا لإفادة المعنيين جميعا . أما اختلاف القراءتين فى اللفظ والمعنى مع تضاد المعنيين ، وتضارب الهدفين ، فلا أثر له فى القرآن الكريم ومحال أن يكون فيه :

« وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً[1] » .

اختلاف القراءات وتنوعها وحكمة ذلك :

١ ـ التسهيل والتخفيف على الأمة كما قال الرسول (ص) لجبريل « إنى أرسلت إلى أمة أمية فيهم الرجل والمرأة والغلام والجارية والشيخ الفانى الذى لم يقرأ كتابا قط » ولو كلف هؤلاء بلغة واحدة لشق عليهم ذلك ، فاقتضى الدين أن تتنوع القراءات . وإلى ذلك أشار النبى (ص) حيث قال لأحد المختلفين « أحسنت » وفى الحديث الآخر « أصبت » ولثالث « هكذا أنزلت » فصوب قراءة كل وقطع بأنها كذلك أنزلت من عند الله ، وكل قراءة بالنسبة إلى الأخرى حق وصواب .

٢ ـ بيان حكم مجمع عليه كقراءة سعد بن أبى وقاص « وله أخ أو أخت من أم » فهذه القراءة تبين أن المراد بالأخوة هنا هم الأخوة للأم . وفى القراءة المشهورة « وله أخ أو أخت » .

٣ ـ ومنها كذلك ترجيح حكم اختلاف فيه كقراءة « أو تحرير رقبة مؤمنة » بزيادة مؤمنة . وذلك فى كفارة اليمين ففيها ترجيح لاشتراط الإيمان فيها كما ذهب إليه الشافعى ، ولم يشترطه أبو حنيفة .

٤ ـ ومنها الجمع بين حكمين مختلفين كقراءة « ولا تقربوا النساء حتى يطهرن » أو يطهرن . بالتشديد أو التخفيف فينبغى الجمع بينهما وهو أن الحائض لا يقربها زوجها حتى تطهر بانقطاع حيضها ، وتطهر بالاغتسال .

---

(١) آية ٨٢ من سورة النساء وانظر القرطبين بن مطرف ١ ـ ٢٢٣ : أو القراءات للشيخ القاضى .

(٢) انظر النشر . لابن الجزرى ١ ـ ٥١ فما بعدها ، وكتب التفسير ، والإتقان للسيوطى فى قراءات القرآن .

د . عبد الحليم النجار بمجلة كلية الآداب م ١٠ ج١ .

٥ – ومنها اختلاف حكمين شرعيين كقراءة « فامسحوا برؤوسكم وأرجلكم » بالكسر أو الفتح ، فالخفض يقتضى فرض المسح ، والنصب يقتضى فرض الغسل وقد بين النبي (ص) ذلك فجعل المسح لمن يلبس الخفّ ، والغسل لغيره .

٦ – ومنها ما فى ذلك من نهاية البلاغة وكمال الإعجاز ، وغاية الاختصار وجمال الإيجاز . .

٧ – ومنها ما فى ذلك من عظيم البرهان وواضح الدلالة إذ هو مع كثرة هذا الاختلاف وتنوعه لم يتطرق إليه تضاد ولا تناقض بل كله يصدق بعضه بعضا على نمط واحد وأسلوب واحد وما ذلك إلا آية بالغة ، وبرهان قاطع على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .) .

٨ – ومنها أنها تكشف عن فروق المعانى ولمح دقائقها ورقائقها فى السياق القرآنى :

ومن ذلك قراءة علىّ عليه السلام ، وأبى رجاء وابن يعمر وثابت وغيرهم « قد شعفها حبا[1] » بالعين المهملة ، وقراءة الجماعة : بالغين المعجمة . فالأولى كما يرى ابن جنى[2] : أن حبه وصل إلى قلبها فكاد يحرقه لحدته . والثانية أنه فرق شغاف قلبها حتى وصل إليه . فالفرق كما ترى دقيق رقيق بينهما ، وإن كان المآل واحد .

ولم يزل العلماء يستنبطون من كل حرف يقرأ به القارئ – معنى لا يوجد فى قراءة آخر ذلك المعنى . يقول شهاب الدين القسطلانى « فالقراءات حجة الفقهاء فى الاستنباط ، ومحجتهم فى الاهتداء إلى سواء الصراط[3] » .

وليست القراءة السبعية وحدها مصدرا من مصادر لهجات القبائل بل شاركتها القراءات العشرة وما فوقها والقراءات الشاذة كذلك يقول أبو حيان « والقراءات جاءت على لغة العرب قياسها وشاذها[4] » وذلك لأن لها سندا من صحة الرواية وموافقتها وجها من وجوه العربية ، ولهذا كان ابن جنى على حق عندما وثق الشاذ واحتج له وأنه « نازع بالثقة إلى قرائه ، محفوف بالرواية من أمامه ووارئه[5] » ثم حاول

(١) سورة يوسف ٣٠
(٢) المحتسب ١ – ٣٣٩ ط المجلس الأعلى .
(٣) لطائف الإشارات : ١ – ١٧١ .
(٤) البحر المحيط ٨ – ٤٩٣ .
(٥) المحتسب فى شواذ القراءات ١ – ٣ لابن جنى مخطوط بمكتبة تيمور ٣٧٩ تفسير .

ابن جنى مرة أخرى أن يقارن بين الشاذ وغيره بقوله « ولعله أوكثير منه مساو فى الفصاحة للمجتمع عليه ، نعم وربما كان فيه ما تلطف صنعته ، وتعنف بغيره فصاحته ، وتمطوه [1] قوى أسبابه ، وترسو به قدم إعرابه ... إلى أن يقول « لكن غرضنا منه أن نرى وجه قوة مايسمى الآن شاذا ، وأنه ضارب فى صحة الرواية بجرانه آخذ من سمت العربية مهلة ميدانه [2] » وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة فى العربية إذا لم تخالف قياسا معروفا بل ولو خالفته يحتج بها فى مثل ذلك الحرف بعينه ، وما القراءات الشاذة فى نظرنا إلا صورة نابضة بالحياة لكثير من لهجات القبائل – ولكن هذه القبائل ، لم تنل نصيبا من المجد والجاه فحكموا بشذوذ قراءتهم التى هى صورة حية للهجاتهم ، وأرى أن القراءة وإن شذت – فهى أقوى من تراث النثر والشعر على السواء ، لأن القراء كانوا يسجلون نزر الخلاف وقليله ؛ وهم فى ذلك أضبط من رواة الشعر وغيرهم حين نقلوا إلينا إشارات لهجية وقع فيها التحريف تارة والتصحيف تارة أخرى ، يقول الفراء « والكتاب أعرب وأقوى فى الحجة من الشعر [3] » ، ولذا قامت حركة علمية على امتداد التاريخ بالتأليف فى القراءات الشاذة والدفاع عنها .

وليست القراءات المختلفة وحدها فى الميدان – وإنما تمدنا المصاحف القديمة [4] أيضا بمدد لاينقطع من سمات لهجات القبائل ، لأن اختلافها فى الرسم والإملاء يوضح اتساع العربية إبان نزول الوحى من جهة ؛ ومن جهة أخرى يشير إلى تعدد لهجات القبائل .

١ – فحلول التاء [5] المفتوحة محل المربوطة فى (رحمت) فى المواضع السبعة

---

(١) تمده .

(٢) المجلس فى شواذ القراءات ١ / ٣ لابن جنى مخطوط مكتبة تيمور ٣٧٩ تفسير .

(٣) معانى القرآن للفراء ١ – ١٤٠

(٤) ذكر السجستانى المصاحف التى تملكها الصحابة وهى: مصحف عمر وعلى وأبى بن كعب وابن مسعود وابن عباس وابن الزبير وعبد الله بن عمر وعائشة وحفصة وأم سلمة » كتاب المصاحف ٥٠ – ٨٨ كما ذكر مصاحف التابعين وهى : مصحف عبيد بن عمير الليثى ، وعطاء بن أبى رباح ، وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير والأسود بن يزيد النخعى ، وعلقمة بن قيس النخعى ومحمد بن أبى موسى وحطان الرقاش ، وصالح بن كيسان وطلحة بن مصرف الأيامى وسليمان بن مهران الأعمش (المصاحف ٨٨ – ٩١ .

(٥) وكانت قبائل طيء تقف على هاء التأنيث بالتاء وذلك يصور الاحتفاظ بالطور الأقدم لظاهرة التأنيث .

بالبقرة والأعراف وهود وأول مريم والروم والزخرف ، (ونعمت) فى أحد عشر موضعا من كتاب الله ، و « امرأت » فى سورة القصص والتحريم وآل عمران ، (وقرت) بالقصص و (فطرت) بالروم ، و (شجرت) فى سورة الدخان و (لعنت) بآل عمران والنور (وجنت نعيم) بالواقعة و (بنت عمران) بالتحريم (ومعصيت بالمجادلة و (كلمة ربك) بالأعراف[1] . يشير إلى أثر القرشية فى الإملاء القرآنى .

٢ ـ ومن ذلك أيضا قراءة الحسن « سأوريكم دار[2] الفاسقين » بواو ساكنة بعد الهمزة على ما يقتضيه رسم المصحف ، قد نسب أبو حيان قراءة الاشباع إلى قبائل الحجاز بل قال « وهى أيضا فى لغة أهل الأندلس كأنهم تلقفوها من لغة الحجاز ، وبقيت فى لسانهم إلى الآن[3] ولهذا الرسم الإملائى وجه ما ، إذ أنه موضع وعيد وإغلاظ ـ فمكن الصوت فيه .

ولقد كان إسرائيل ولفنسون على حق فى قوله « إن العربية يجب أن تبحث أحوالها فى ضوء القرآن أولا[4] » ، إذ القرآن هو الحقل الخصيب الذى ينطوى على تاريخ العربية وأصول منابعها وحسب القرآن بعد هذا معجزة أن جمع القبائل العربية الشتيتة على وحدة لغوية بعد أن صهرت لغة القرآن كل ما كان بينهم من خلافات ، وهضمت خلاياه النامية لهجاتهم المتنافرة حتى حولها إلى عصارة نافعة غذت العربية وأمدتها بروافد غنية ـ ثم بنى على هذه الوحدة اللغوية وحدة سياسية قومية شادها على وطائد كثر من : مبادئه السامية ومثله السمحة وقد اشرأبت حينذاك وتطاولت أعناق[5] كل قبيلة تيها وفخرا حين رأت أن لهجتها ممثلة فى كتاب العربية الخالد .

مبادئ وقضايا :

وقد استقرت عند المسلمين معالم وضوابط يعتمد عليها فى القراءة ومقاييس وضعتها الأئمة ميزانا يرجع إليه ، ومعيارا

---

(١) الإتحاف ١٠٣ ـ المقنع للرانى ٧٧ فما بعدها . (٢) الأعراف ١٤٥ .

(٣) البحر ٤ ـ ٣٨٩ . (٤) تاريخ اللغات السامية ٢٠٦ ط أولى .

(٥) انظر مقالنا فى حوليات كلية دار العلوم العدد الثانى ١٩٧١ م ص ١٨١ .

يعول إليه ، ليأمنوا الزلل والخطل ، وقد جمعتها من مصادر متعددة من علوم القرآن ، شملت : تفسيره ومعانيه ، وإعرابه وعزيبه ، ومشكله وقراءاته ، ثم وضعتها فى تقسيم منهجى يأخذ بعضه بحجز بعض .

وهى فى جملتها قضايا على جانب كبير من الأهمية لموضوعنا ، فهى بمثابة الجرح والتعديل لفن القراءات ، وضحت شروط القراءة الصحيحة والشاذة ، سبعية وعشريه وما فوقها ؛ كما وضعت حدودا للقراءات الضعيفة والمنكورة وكشفت المزيف والدخيل ؛ ثم أثارت قضايا هى لموضوعنا : لحمته وسداه كالفصاحة وقياس العربية ، ورسم المصحف ، وما استقر فى مصاحف الصحابة والتابعين ، ونظرية القراءة بالمعنى ، ومخالفة المصحف الإمام ، ومكان كل من الأستاذ والرواية والأثر فى القراءة ، ثم استنباط الإحكام الشرعية من القراءات وموقف النحاة وأقيستهم ، وصلة ذلك بكل نوع من أنواع القراءات .

أولا قراءة وافقت العربية ولوبوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولواحتمالا وصح سندها . فهى القراءة الصحيحة التى لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها ، بل هى من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها ، سواء أكانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين .

ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء أكانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم . هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف (١) .

* أئمة القراء لا تعمل فى شىء من حروف القرآن على الأفشى فى اللغة والأقيس فى العربية ، بل على الأثبت فى الأثر والأصح فى التقل ، والرواية إذا ثبتت عنهم لم يردها قياس عزبية ، ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها (٢) .

ثانيا ــ القراءات سنة متبعة ونقل محض فلا بد من إثباتها وصحتها ، ولا طريق

---

(١) النشر ١ ــ ٩ التجارية وانظر منجد المقرئين ١٥ . والكلمات الحسان ٤٧ .

(٢) أنظر كتاب السبعة فى القراءات ص ٥٠ لا بن مجاهد ، وانظر منجد المقرئين ٦٥ ــ النشر ١ ــ ١٠

إلى ذلك إلا بالإسناد[*] فلهذا توقفت عليه معرفة هذا العلم[١] .

* ما وافق العربية والرسم ولم ينقل البتة فهذا رده أحق ، ومنعه أشد[٢] .

* امتنعت القراءة بالقياس المطلق ، وهو الذى ليس له أصل فى القراءة يرجع إليه ولا ركن وثيق فى الأداء يعتمد عليه[٣] .

* الاعتماد فى نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على حفظ المصاحف والكتب[٤] .

ثالثاً – لا نعلم أحداً من المسلمين حظَّر القراءة بالثلاث الزائدة على السبع وهى قراءة يعقوب وخلف وأبى جعفر ، فالعشر متواترة[٥] .

* كل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به فى العربية سواء أكان متواترا أم آحادا أم شاذا ، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة فى العربية إذا لم تخالف قياساً معروفاً ، بل ولو خالفته يحتج بها فى مثل ذلك الحرف بعينه ، وإن لم يجز القياس عليه[٦] .

* من يزعم أن أئمة القراءة ينقلون حروف القرآن من غير تحقيق ولا بصيرة ولا توقيف فقد ظن ما هم منه مبرءون ، وعنه منزهون[٧] .

رابعاً – ما وافق العربية وصح سنده وخالف الرسم فهذه القراءة تسمى اليوم شاذة لكونها شذت عن رسم المصحف

---

* علم الإسناد هو أعظم مدارات فن القراءات ، لأنها مسنة متبعة ونقل محصن فلابد من إثباتها وصحتها ولا طريق إلى ذلك إلا بالإسناد وهو : خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة . وروى عن يحيى بن معين الإسناد العالى قربه إلى الله وإلى رسوله (صلى الله عليه وسلم) وقيل له فى مرض موته : ما تشتهى ؟ فقال : بيتا خاليا وإسنادا عاليا : لطائف الإشارات ص ١٧٣ . وإذا كانت صحة السند من أركان القراءة تعين أن يعرف حال رجال القراءات كما يعرف أحوال رجال الحديث . ولقد أوجدت المكتبة الإسلامية (لأول مرة) معاجم من نوع مختلف لضبط الأشخاص والرجال وتراجمهم وهو فن قائم بذاته يعرف بـ (الجرح والتعديل) لمعرفة الثقة والمزيف والدخيل والضعيف وبحث حال كل بحثا يتناول حياته : ذهنا وسلوكا ، هيئة وصلاحا ، عدالة وضبطا ليحددوا مكانه : قبولا أو رفضا . كما يحددوا النسبة بين الخبر ومصدره ، ومن السهل عليك أن تقرأ زاوية لقراءة من القراءات وأنت على مكتبك ناعم البال ، ولا تعرف المنهج الصارم والطريق الشاق والأساس النقدى النزيه فى سبيل هذا الإسناد .

(١) لطائف الاشارات لفنون القراءات ص ١٧٣ القسطلانى .

(٢) ١ – ١٧ النشر .

(٣) ١ – ١٧ النشر وانظر التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن ٨٩ ظاهر الجزائرى .

(٤) ١ – ٦ النشر .

(٥) منجد المقرئين ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٩ . لطائف الإشارات ٧٥ .

(٦) ص ١٥ الاقتراح للسيوطى .

(٧) ٢ – ٢١٤ النشر .

المجمع عليه . . . وإجماع المسلمين على أنه لا تجوز القراءة بالشاذ ، ولا يجوز أن يصلى خلف من يقرأ بها[1] .

* القراءة الشاذة هى ما وراء العشر ولا تجوز القراءة بها[2] مطلقاً وإن كان إسنادها صحيحاً ويجوز تعلمها وتدوينها وبيان وجهها من حيث اللغة والإعراب والمعنى ، واستنباط الأحكام الشرعية منها والاستدلال بها على وجه من وجوه العربية[3] .

* ما وافق المعنى والرسم أو أحدهما من غير نقل لا تسمى شاذة بل مكذوبة يكفر متعمدها[4] .

* القراءة الشاذة عن قراءة الحجة ، كفى بشذوذها عن قراءتهم دليلا على بعدها من الصواب[5] .

* قال أبو حيان فى البحر ٤/٨٧ حكى أبو عمر الزاهد فى كتاب اليواقيت أن أبا العباس أحمد بن يحيى كان لا يرى الترجيح بين القراءات السبع . وقال : إذا اختلف الإعراب فى القرآن عن السبعة لم أفضل إعراباً على إعراب فى القرآن . فإذا خرجت إلى كلام الناس فضلت الأقوى . قال أبو حيان : نعم السلف لنا أحمد بن يحيى كان عالماً بالنحو واللغة ومتديناً ثقة[6] .

خامساً – ما قرئ به فى السبعة لا يرد ولا يوصف بضعف ولا قلة .

---

(١) منجد المقرئين ص ١٦ ابن الجزرى ط الوطنية الاسلامية .

(٢) انظر التبيان ١١٩ .

(٣) وقد كان ابن شنبوذ (٣٢٨ هـ) يرى القراءة بالشاذ ، أى ما خالف الرسم . ما دامت الرواية صحيحة النقل ، فأمر الوزير بضربه سبع درر أو أكثر . . . وتوبه عن التلاوة بها غصبا ، وقيل إنه نفى من بغداد (طبقات القراء ٢ / ٥٤ فما بعدها) وكان يقرأ بقراءة ابن مسعود وأبى وأشهر من ألف فى القراءات الشاذة : قطرب ٢٠٦ هـ ، وثعلب ٢٩١ هـ ، والجستانى ٣١٦ هـ ، وابن خالويه ٣٧٠ هـ ، وابن جنى ٣٩٢ هـ كما ترى هذه القراءات مثبوتة فى كتب التفاسير كالكشاف للزمخشرى ، والبحر المحيط لأبى حيان ويمكن أن يحمل الشاذ على قلة من قرأ به فى الأمصار بالقياس إلى القراءات السبع وهذا المعنى ما عناه ابن جنى فى صدر كتابه (المحتسب) .

(٤) منجد المقرئين ١٧ لابن الجزرى ، وكان ابن مقسم العطار ت ٢٥٤ يرى أن كل ما صح له وجه فى العربية لحرف من حروف القرآن المدونة فى المصحف العثمانى تجوز قراءته بها فى الصلاة وغيرها فكان يقرأ بما لم ينقل عن القراء مستخرجا لها وجوها من اللغة ، وهذا المذهب يؤدى إلى قراءات مكذوبة وعقد له مجلس ووقف للضرب فتاب . طبقات القراء ٢ – ١٢٤ .

(٥) تفسير الطبرى ١١/١٩٨ تحقيق شاكر .

(٦) وانظر البحر ٢ – ٢٣١ ، ٢٦٥ ، ٥٠٦ ، ٣ – ٨٨ وانظر الاتقان ١ – ١٤٢ فما بعدها ط ٣ حجازى .

* وماجاء به المسلمون من القراءة مستفيضا فيهم ، فغير جائز الاعتراض بالشاذ من القول – على ما قد ثبتت حجته بالنقل المستفيض[1] .

* إذا اختلفت القراءات في الألفاظ واتفقت في المعاني ، فأعجبها إلى ما كان أظهر وأشهر[2] .

* ما اجتمعت عليه القرأة حجة ، وما انفرد به المنفرد عنها رأى . ولا يعترض بالرأى على الحجة[3] .

* يقول ابن خالويه[4] وبعد : فإنى تدبرت قراء الأئمة السبعة من أهل الأمصار الخمسة[5] المعروفين بصحة النقل ، وإتقان الحفظ ، المأمونين على تأدية الرواية واللفظ ، فرأيت كلا منهم قد ذهب فى إعراب ما انفرد به من حرفه مذهباً من مذاهب العربية لا يدفع ، وقصد من القياس وجهاً لا يمنع ، فوافق باللفظ والحكاية ، طريق النقل والرواية غير مؤثر للاختيار على واجب الاثار .

سادساً – أقوى القراءتين إعراباً ماعليه الجماعة[6] .

* يقول ابن هشام لم يوجد فى القرآن العظيم حرف واحد إلا وله وجه صحيح فى العربية[7] .

* الكتاب أعرب وأقوى فى الحجة من الشعر[8]

* القراءة قد تأتى على القليل وعلى المرجوح فى الاستعمال العربى .

سابعاً – إذا ثبتت القراءة لهجة عربية فلا ينبغى أن يخطأ بها القارئ أو يغلط[9]

* القرآن يأتى باللغتين المختلفتين[10] .

* توجيه تأويل القرآن إلى الأشهر من اللغات – أولى من توجيهه إلى الأنكر – ما وجد إلى ذلك سبيلا[11] .

* القراءات جاءت على لغة العرب قياسها وشاذها[12] .

(١) تفسير الطبرى ٣/٢٦٤ ، ٦/٦٥ تحقيق شاكر .

(٢) تفسير الطبرى ٧/٥٦٩

(٣) تفسير الطبرى ٦ – ٤٤٢

(٤) الحجة فى القراءات السبع ص ٣٧ بيروت

(٥) المدينة ومكة والبصرة والكوفة والشام .

(٦) المحتسب ٢ / ١١٥ ط المجلس الاعلى

(٧) نقلا عن المهدوى فى شرح الهداية وانظر (شرح شذور الذهب لابن هشام ٤٢ تحقيق محى الدين) . مصطفى محمد بدون تاريخ .

(٨) معانى القرآن للفراء ١ / ١٤

(٩) البحر ١ /١٥٢ النهر الماد ١ / ١٥٢

(١٠) معانى القرآن للفراء ٣ / ٧٤

(١١) تفسير الطبرى تحقيق شاكر ٥ / ٣٣٧

(١٢) البحر ٨ – ٤٩٢

* القرآن يختار له ولا يختار عليه[1] .

ثامناً ـ فأما القرآن فيختار له أفصح اللغات[2] .

* لغة القرآن أفصح اللغات[3] .

* لغة القرآن أفصح أساليب العربية على الإطلاق[4] .

* قال ابن خالويه فى شرح الفصيح « قد أجمع الناس جميعاً أن اللغة إذا وردت فى القرآن فهى أفصح مما فى غير القرآن لا خلاف فى ذلك[5] .

* كتاب الله جل ثناؤه نزل بأفصح لغات العرب ، وغير جائز توجيه شئ منه إلى الشاذ من لغاتها ، وله فى الأفصح الأشهر معنى مفهوم ووجه معروف[6] .

تاسعا ـ ينبغى أن تصحح قواعد العربية بالقراءة[7] لا أن تصحح القراءة بقواعد العربية .

* النحاة حكموا النحو الذى وضعوه فى القرآن . قال الإمام محمد عبده[8] .

كان يجب أن يكون القرآن مبدأ إصلاح فى اللغة العربية » .

القراءات لا تجئ على ما علمه البصريون ونقلوه ، بل القراء من الكوفيين يكادون يكونون مثل قراءة البصرة[9] .

* كم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو ، أو كثير منهم ولم يعتبر إنكارهم بل أجمع الأئمة المقتدى بهم من السلف على قبولها[10] .

* لا يلزم من وجود وجه فى اللغة وجود قراءة به ؛ لأن القراءة توقيفية[11] .

* القراءات تجرى على الرواية والأثر لا على مذهب القياس والنحو ،

وبيان ذلك :

---

(١) المحتسب ١ / ٤١ ، ٥٣ ط المجلس .

(٢) المحتسب ١ / ٢٧٢ .

(٣) سر صناعة الإعراب ١ / ٣١٨

(٤) العربية يوهان فك ٤ ، ٥ .

(٥) المزهر ١ / ٢٥٧ ط ٣ الحلبى .

(٦) تفسير الطبرى ١٢ / ٣٢٢

(٧) الإنتصاف بهامش الكشاف ٢ / ٤٢ .

(٨) تفسير المنار ٢ / ٢٣٦ .

(٩) البحر ٢ / ٣٦٢ .

(١٠) ١ / ١٠ النشر .

(١١) أمالى ابن الحاجب ٧٣ / دار الكتب رقم ٢٦ مخطوطة .

مايتصل بالدرس النحوى :

(أ) فى شواذ القرآن لابن خالويه ص ٤

« ولا تكونوا أول كافر به واشتروا [1] »

أجازة الفراء فى النحو . وهى فى المصحف « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » وما أجازه الفراء عند علماء النحو لم يقرأ به واحد فى السبعة ولا فى العشرة ولا الأربعة الذين بعد هؤلاء .

(ب) « فدعا ربه أن هؤلاء قوم » [2] .

يقول الفراء : تفتح أنّ — ولو أضمرت القول فكسرتها لكان صوابا [3] . ولم يقرأ به واحد من السبعة أو العشرة أو الأربعة بعدها [4] .

(ج) « وقيل يارب [5] » خفضها عاصم والسلمى . . . . ونصبها أهل المدينة والحسن . . . . قال الفراء « ولو قال قائل : وقيله — رفعا كان جائزا [6] » ولم يقرأ بها واحد من السبعة أو العشرة أو الأربعة بعدها [7] . وإنما جاءت فى قراءة شاذة عن أبى قلابة وقتادة والحسن [8] .

(د) « وقل سلام فسوف تعلمون [9] »

« رفع سلام » بضمير عليكم وما أشبهه ، ولو كان : وقل سلاما كان صوابا . ولم يقرأ بما رآه الفراء أحد من السبعة أو العشرة أو الأربعة بعدها فى هذا الموضع [10] .

فالقراءة جرت على الأثر والرواية ولم تجر على مايجيزه القياس ومذاهب العربية .

(هـ) « ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله [11] » يقول أبو حيان : المحل هنا المكان ولم يقرأ إلا بكسر الحاء فيما علمنا ، ويجوز الفتح إذا كان يراد به المكان [12] .

(١) البقرة ٤١ .

(٢) الدخان ٢٢ .

(٣) معانى القرآن للفراء ٣ / ٤٠ .

(٤) إتحاف فضلاء البشر ٣٨٨ . وإنما قرأ بها عيسى بن عمر والحسن وابن أبى إسحق وهى قراءة شاذة . أنظر مختصر شواذ القرآن لا بن خالويه ١٣٧ .

(٥) الزخرف ٨٨ .

(٦) معانى القرآن للفراء ٣ / ٣٨ ، وانظر النشر ٢ / ٣٧٠ .

(٧) إتحاف فضلاء البشر ٣٨٧ .

(٨) مختصر ابن خالويه ١٣٦ .

(٩) الزخرف ٨٩ .

(١٠) النشر ج ٢ سورة الزخرف . الإتحاف الزخرف — كتاب السبعة لا بن مجاهد ٥٨٩ .

(١١) البقرة ١٩٦ .

(١٢) البحر المحيط ٢ / ٧٥ .

مايتصل بالدرس اللغوى :

(أ) « هذا لله بزعمهم »[1] .

واللغة تحكيها مثلثة الزاى ثلاث لغات ، ولم يقرأ بكسر الزاى أحد نعلمه[2]

وأجود ذلك ما اختارته القراء الذين يؤثر عنهم القراءة[3] وهو الوجوه اللغوية خارجة عن الرواية لذالم يعترف بها أىّ قارئ . و إن كانت اللغة ترضاها .

(ب) وفى قوله تعالى : « لمن أراد أن يتم الرضاعة »[4]

واللغة تحكيها بفتح الرّاء وكسرها . والقراء أجمعوا على الفتح[5] .

عاشراً نص كثير من العلماء على أن الحروف التى وردت عن أبىّ وابن مسعود وغيرهما مما يخالف هذه المصاحف . منسوخة وإن كان يصح الاحتجاج بها فى العربية ؛ لأنها مروية بالسند المتصل ، مع شذوذها لمخالفتها المصاحف العثمانية ، وأما من يقول إن بعض الصحابة كابن مسعود كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه إنما قال : « إنى قد سمعت إلى القرأة فوجدتهم متقاربين » فاقرءوا كما علمتم نعم كانوا ربما يدخلون التفسير فى القراءة إيضاحا وبيانا ، لأنهم محققون لما تلقوه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قرآنا فهم آمنون من الالتباس ، وربما كان بعضهم يكتبه معه لكن ابن مسعود رضى الله عنه كان يكره ذلك ويمنع منه فروى مسروق عنه أنه كان يكره التفسير فى القرآن ، وروى غيره عنه : « جردوا القرآن ولا تلبسوا به ما ليس منه »[6] ويؤخذ من هذا النص :

١ ـ أن ما يخالف المصحف الإمام بالزيادة والنقصان ـ إنما هو من التفسير والبيان ولا يعتبر قرآنا كقراءة الحسن « وإن منكم إلا واردها الورود الدخول » قال ابن الأنبارى : قوله الورود الدخول » تفسير من الحسن لمعنى الورود ، وغلط فيه بعض الرواة فادخله

(١) الأنعام ١٣٦ .

(٢) وإنما قرئ بالفتح والضم .

(٣) معانى القرآن للفراء ١ ـ ٣٥٦ .

(٤) سورة البقرة ٢٣٣ .

(٥) معانى القرآن للفراء ١/١٤٩ .

(٦) النشر ٢ / ٣٢ وقارنه بما ورد فى تفسير الطبرى تحقيق محمود شاكر ١ / ٥١ .

فى القرآن[1] ومما يؤكد ذلك أن هذه الزيادات إنما هى من قبيل التفسير قراءة ابن عباس « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

وهو صلى الله تعا عليه وسلم أب لهم بدون « وأزواجه أمهاتهم » ثم ذكر الشهاب الخفاجى أن « عمر رضى الله تعالى عنه مرّبغلام يقرأها فقال للغلام « حكّه من المصحف »[2] .

٢- أنه لا يجوز (قراءة القرآن بالمعنى) لأنها تكل تحديد النص القرآنى إلى هوى كل إنسان .

ونظرية القراءة بالمعنى يراها المستشرقون من نولدكه إلى رجيس بلاشير حيث أقحم الأخير على النص القرآنى بعض آيات إلى سورة النجم اعتمادا على روايات لا سند لها رفضها النقد المنهجى سندا ومتنا مما يسمى عند علماء المسلمين بالجرح والتعديل، وهو منهج معيارى صارم شامل فى نقد الأسانيد والمتون[3] .

* قرأ على بن أبي طالب وهو على المنبر « وطلع منضود[4] » فقيل له : أفلا تغيّره فى المصحف .

قال : ما ينبغى للقرآن أن يهاج أى (لا يغيّر)[5] .

الحادى عشر- القراءة نقل ، ماوافق منها ظاهر الخط[6] كان أقوى ، وليس اتباع الخط بمجرده واجبا ما لم يعضده نقل ، فإن وافق فيها ونعمت ذلك نور على نور[7] وذلك كما فى سورة الحج

---

(١) الكواكب الدرية ٣٣ / ٣٤ الحداد ط ١٣٤٤ . وانظر أمثلة كثيرة فى مصاحف الصحابة والتابعيين فى : (Materials For The Histary of The Test of The Our'ân . ١٩٣٧ ط ليدن)

(٢) تاريخ القرآن ١٦٠ د . عبد الصبور شاهين نقلا عن نسيم الرياض فى شرح شفاء القاضى عياض ١ -٣٠٣ ط أولى .

(٣) وانظر مزيداً من البيان والتفصيل عن هذا الموضوع فى كتاب تاريخ القرآن ، د - عبد الصبور شاهين (٧٧ - ٩٧) .

(٤) الواقعة ٢٩ .

(٥) شواذ ابن خالويه ١٥١ .

(٦) وقد كتب برسم كان أدق ماوصل إليه فى هذا العهد ويسمى الرسم العثمانى نسبة إلى عثمان رضى الله عنه وأصبح هذا الرسم الذى قدره عثمان باجماع الصحابة سنة لاتخالف ؛ خوفا من العبث فيه والتبديل . وقد سئل مالك : هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟فقال : لا . إلا على الكتبة الأولى (لطائف الإشارات ١-٢٩٧ (وقد فصل بعضهم بين كتابة ليكون أصلا يرجع إليه ، وبين كتابته للتعليم والرسم غير القراءة ، لأن القراءة مصدرها الرواية والرسم مصدره طريقة الكتابة والمسلمون ينطقون بالحرف كما روى لا كما رسم والعمدة فى نقل القرآن على حفظ الصدور لا على خط المصاحف والكتب وليس اتباع الخط وحده ملزما ما لم يؤيده نقل وأكثر رسم المصاحف موافق لقواعد العربية إلا أنه قد خرجت أشياء عنها يجب علينا اتباع مرسومها والوقوف عند رسومها . ا . هـ .

(٧) إبراز المعانى من حرز الأمانى لأبى شامة ٤٠٦ ط الحلبي رسم المصحف ٦٦ ، د- عبد الفتاح شلبى .

« آ ٢٣) يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير » .

فقرأ عاصم ونافع بالنصب هنا وفى فاطر فى قوله تعالى « يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ » والباقون بالجر فيهما . ورسم بالألف فى الحج خاصة دون فاطر ، فلو اتبعوا الخط لقرأوا ما فى الحج بالألف ، وما فى الملائكة بالخفض ويقول أبو عبيد « لولا الكراهية لخلاف الناس لكان اتباع الخط أحبّ إلى فيكون فى هذا[1] بالنصب والآخر[2] بالخفض وأبو عبيدة لم يقرأ بهذا ، وآثر النقل والرواية على الخط والرسم .

* لا تأخذوا القرآن من مصحفىّ ولا العلم من صحفى[3] » ولذلك عدّ من تحريف وتصحيف .

أهل البدع :

(أ) ما عزى إلى حمزة الزيات من أعدائه « ذلك الكتاب لا زيت فيه[4] » ! وكان يتعلم القرآن من المصحف فقرأ ذلك وأبوه يسمع فقال أبوه : دع المصحف وتلقن من أفواه الرجال .

(ب) وأن عبد الله بن أحمد بن حنبل تقدم قوما يصلى بهم، « فقرأ :اقرأ باسم ربك الذى خُلق » فقال له قائل أبوك ضرب بالسياط على أن يقول كلام الله مخلوق ،وقد جعلت خالق الأشياء مخلوقا[5]

(ج) كما قرأ آخر « وفرش مرفُوعةً » وآخر « وأخذ برأس أخيه يجزه إليه »

وجميع هذه وجوه مصحفة وكلها عبث وضلال ولا تعتبر قرآنا مع أن رسم المصحف يحتملها .

على أن هناك قراءات فى اللغة صحيحة ويحتملها الرسم ، ولكن لم يقرأ . ومن ذلك :ـ

(أ) قوله تعالى : « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث »[6] فقد أجمع القراء على ضم الميم من مكث. مع أن اللغة تجيز فيها تثليث الميم ورسمها يحتمل الأوجه الثلاثة[7] .

(١) سورة الحج .
(٢) سورة فاطر آ ٣٣
(٣) التصحيف والتحريف – ٨ للعسكرى ط ١٩٠٨
(٤) التصحيف والتحريف ٩ للعسكرى .
(٥) التنبيه على حدوث التصحيف .٣ لحمزة الأصفهانى من علماء القرن الرابع نسخة مخطوطة عن مصورة دار الكتب المصرية ٦٨١ هـ .
(٦) الإسراء ١٠٦
(٧) البحر ٦ / ٨٨

(ب) وفى قوله تعالى فى سورة البقرة[1] « وعلى أبصارهم غشاوة » وفى سورة الجاثية[2] « وجعل على بصره غشاوة » فرسم المصحف للكلمة بحذف الألف فى المكانين ومع ذلك اتفق القراء بقراءتها بكسر الغين وفتح الشين وإثبات ألف بعدها فى البقرة ، على حين اختلفوا فى الجاثية فبعضهم يقرأ بكسر الغين مع الألف بعد الشين وبعضهم بفتح الغين وسكون الشين ، ولو قرئ موضع البقرة بفتح الغين وسكون الشين لصح لغة ومعنى ، ولكن لم يقرأ أحد بهذه القراءة فى هذا الموضع .

فليس تجرد المصاحف من الشكل سببا فى تنوع القراءات واختلافها وإلا لوجدنا القراءة تقرأ على ما تجيزه اللغة من الحركات ، وإنما مرد هذا التنوع والاختلاف : الروايات الموثقة والأسانيد الثابتة الموصولة ، والنقل والتوقيف والتلقى والسماع لا الخط والرسم ، لاسيما إذا عرفنا أن القراءات تليت ورويت قبل كتابة المصاحف فهى أصل والرسم تابع لها ، وهذا يؤكد فساد مذهب بعض المستشرقين الذين يرون[3] أن الرسم أصل وإليه يرجع أكثر القراءات ؛ إذ كان غفلا من النقط ومن الحركات .

يلاحظ أن النحويين السابقين كانوا من المقرئين ، وكانوا بهذه الصفة (القراء النحاة) رقباء على أداء القراءات ومن ذلك أن أبا الأسود ٦٩هـ وهو قارئ نحوى سمع رجلا يقرأ : « إن الله برئ من المشركين ورسوله » بالجر . فاستعظم أبو الأسود وقال : عزّ وجه الله أن يبرأ من رسوله[4] ! فالمدرستان كانتا فى اتجاه واحد يصعب الفصل بينهما ، وقد قامتا بعمل واحد فى إعراب النص

---

(١) آية ٠٧ . (٢) آية ٢٣ .

(٣) وانظر كتاب مذاهب التفسير الإسلامى د – النجار ص ٨ ، والمذاهب الإسلامية ٤ / د . على عبد القادر ، ورسم المصحف د – عبد الفتاح شلبى ، والقراءات للشيخ القاضى .

(٤) نزهة الألباء . ٨ – ٩ . يؤكد الصلة القوية بين النحاة الأول والقراء ما نراه فى كتب طبقات النحاة من مثل قولهم (كان حسن الإقراء ونهاية فى علم العربية) وقولهم (وكان إماما فى القراءات وعللها . . . وأما النحو فكان فيه بحرا لا يجارى) . وقولهم (كان مقدما فى صنعة الإعراب ضابطا للقراءات) . وقولهم (أقرأ القرآن والعربية) أنظر نزهة الألباء ، وبغية الوعاة فى أماكن مختلفة . وهذا يؤكد وحدة مدرسة النحو والقراءة .

القرآنى أيام أبي الأسود . ثم توجه نفر من رجال هذه المدرسة إلى دراسة النحو ليلائم بين القرآن والعربية فيتخذ منهما مصدر تقعيد ، ومناط إصلاح وتصحيح . ومن ذلك أن أبا عمرو بن العلاء سمع رجلا ينشد :

ومن يلق خيرا يحمد الناس أمره
ومن يغوَ لايعدم على الغى لائما

فقال : أقومك أَمْ أتركك تتسكع فى طُمتك ؟ فقال : بل قومنى . فقال : قل : ومن يغو (بكسر الواو) ألا ترى إلى قول الله عز وجل : (فغوى) .

كما كانوا معا يردّون القراءات التى لم ترد عن الرسول وإن كانت جائزة فى فى العربية :

(أ) فالحجاج بن يوسف يقول ليحيى بن يعمر ت ١٢٩ هـ : أتجدنى ألحن ؟ فقال : الأمير أفصح من ذلك ، فقال : عزمت عليك لتخبرنى ! فقال يحيى : نعم ! فقال له : فى أى شىء ؟ فقال فى كتاب الله تعالى ، فقال : ذلك أشنع ، ففى أى شىء من كتاب الله تعالى ؟ قال ؛ قرأتَ : « : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم[1] » .

فرفعت أحب . وهو منصوب . . فقال الحجاج ليحيى : لا تساكنى ببلد أنا فيه ، ونفاه إلى خراسان[2] .

والرواية بالنصب ، والرفع مخالف لإجماع القراء ، وإن كان جائزا فى فى العربية[3] . ولم يستطع الحجاج أن يحاجّ يحيى بن يعمر بما تجيزه العربية ، على الرغم من بطشه ، وسلطانه .

(ب) وهذا أبو عمرو بن العلاء وقد كان له مذهب خاص فى النحو ومع ذلك كان فى القراءة لا يتعدى ما نقله عن أئمته وتلقاه عن شيوخه ، ولو خالف مذهبه فى العربية . فقد حدث أبو عمرو قائلا :

لولا أنه ليس لى أن أقرأ إلا بما قرئ لقرأت كذا وكذا من الحروف كذا

(١) التوبة ٢٤.

(٢) نزهة الألباب : ترجمة يحيى بن يعمر .

(٣) أنظر البحر المحيط ٥ / ٢٢.

وكذا . فقد أدغم أبو عمرو وحده الراء في اللام من (يغفر لكم) وما شاكله في القرآن . وهو ضعيف عند البصريين[1] . ولا نستطيع أن نفسر ذلك إلا أن أبا عمرو يلتزم في القراءة النقل والرواية فقد خالف البصريين مع أنه بصرى ! ،

وأخيرا اشتد الجدل بين القراء والنحاة واندلعت نار العدواة والبغضاء ، وذلك بعد أن انفصلت مدرسة القراءة عن مدرسة النحو[2] ، فاتجه النحاة إلى القراءات ليأخذوا منها ما يؤيد وجهة نظرهم ، أو ليرفضوا منها ما يتخالف مع أقيستهم ، فهم من هذا المنطق يؤيدون أو يعارضون ،

أولا – من ذلك أن الأصمعى سأل المازنى : ما تقول في قول الله عز وجل « إنا كل شىء خلقناه بقدر »[3] فقال المازنى : يذهب سيبويه إلى أن الرفع فيه أقوى من النصب في العربية لاشتغال الفعل بالضمير . وليس هناك شىء هو بالفعل أولى ، ولكن أبى القراء إلا النصب[4] ، والقراءة سنة متبعة .

ويقول ابن جنى في المحتسب[5] (الرفع هنا أقوى من النصب) .

ثانيا – كما نرى عيسى بن عمر : وكان عالما بالنحو وله اختيار في القراءة على مذاهب العربية يفارق قراءة العامة ويستنكره الناس[6] – يقرأ :

« هؤلاء بناتى هن أطهرلكم » بنصب أطهر[7] وفي المحتسب[8] يقول أبوالفتح : ذكر : سيبويه هذه القراءة وضعفها

---

(١) الحجة لابن خالويه ٥٦ بيروت وانظر : إعراب ثلاثين سورة لابن خالويه ١٢ وفيها يذكر أن سيبويه لا يجيز الإدغام ، والفراء يجيزه .

(٢) يقول السيوطى في البغية ٢ / ٤٨٢ تحقيق أبى الفضل في ترجمة ثابت بن محمد بن يوسف بن حيان الكلاعى « إنه لم يكن من أئمة النحويين ، بل كان من أئمة المقرئين » وانظر : ترجمة محمد بن عبد الله بن مالك صاحب الألفية ١ – ٤٨٢ في المرجع السابق .

(٣) ٤٩ من سورة القمر .

(٤) لم يقرأها بالرفع إلا أبو السمال : المحتسب ٢/٣٠٠ ، وله اختيار في القراءة ، شاذة عن العامة ، ولم يصحح ابن الجزرى سند قراءته . طبقات القراء ٢ / ٢٧

(٥) ٢ / ٣٠٠ ط المجلس الأعلى.

(٦) طبقات القراء ١ / ٦١٣

وكذلك كان يحيى اليزيدى ، فقد اشتهر بالنحو ، وله اختيار في القراءة ، خالف فيه أبا عمرو .

(٧) طبقات القراء ١ / ٦١٣

(٨) ١ / ٣٢٥ ط المجلس الأعلى .

وقال فيها « احتبى ابن مروان فى لحنه » وكان محمد بن مروان المدنى القارئ قد قرأ بها . ويقول ابن جنى « وأنا من بعد أرى أن لهذه القراءة وجها صحيحا » .

ثالثا : كما يضعف سيبويه[1] النصب فى قوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون[2] » مع أن قراءة النصب قراءة ابن عامر ، وقراءة الكسائى فى بعض المواضع[3] . والقراءة سبعية متواترة قرأ بها ابن عامر ، وإمام الكوفيين الكسائى ويقـول أبـو حيان (فالقول بأنها لحن من أقبح الخطأ المؤثم الذى يجر قائله إلى الكفر[4]) . وهذه لمحة من تعصب النحاة لفنهم وقواعدهم لأنهم كثيرا ما يصححون قراءة القرآن بما يوافق العربية وإن لم تثبته الرواية ، وقد شدد علماء القراءات النكير عليهم . ويظهر ذلك واضحا أولا – فى زمن متأخر عند أبى العباس المبرد حين قال : لو كنت ممن يقرأ لقرأت «ولكن البَرّ» بفتح الباء يشير إلى قراءة : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب . . » بكسر الباء فيهما. فالمبرد يرجح قراءة الفتح ، « ومن أجل ذلك كان على المبرد أن يتحمل سخط أهل السنة عليه قرونا طويلة بعد وفاته ، إذ كانوا يرون فى القراءة المتلقاة بالقبول « ليس البِرّ » بكسر الباء تحقيقا للإعجاز البلاغى فى كلام الله » [5] . وهو نفسه المبرد الذى يقول (لو صليت خلف إمام يقرأ : « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخىِ إنى » بكسر الياء لأخذت نعلى ومضيت[6] » فانظر كيف يقاوم المبرد قراءة سبعية بخروجه عن جماعة المسلمين وإمامهم !

كما يتواصى النحاة على القدح فيها والنيل منها ، وهى قراءة أحد القراء السبعة وصحت سماعا وقياساً !

ثانيا : زمن متقدم ا – ومن ذلك أن ابن أبى عبلة[7] قرأ (اقتتلنا) وقرأ عبيد

(١) الكتاب ١ / ٤٢٣ .
(٢) يس ٨٢
(٣) النشر ٢ / ٢٢٠ ط التجارية.
(٤) البحر ١ / ٣٦٦
(٥) أنظر : مذاهب التفسير الإسلامى : اجنتس جولد تسيهر ٤٦ تحقيق د – على عبد القادر . وانظر تحقيق د – النجار ٦٦ فما بعدها .
(٦) تفسير القرطبى ٥ – ٣ وانظر درة الغواص ٩٥ للحريرى .
(٧) انظر : تفسير الكشاف ، والبحر المحيط فى سورة الحجرات .

ابن عمير وزيد بن على (اقتتلا) وذلك فى قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما »[1]

فقد عاد ضمير جمع المذكر على مثنى مؤنث ، والقواعد النحوية تقتضى أن يقال (اقتتلتا) أو يقال (اقتتلا) فقد روعى فيها معنى (طائفتان) إذا أريد بالطائفة : الفريق

والقراءة السبعية أصح فى النقل وأثبت فى الرواية والسند إذ ركيزتها التلقين والتوقيف ، والتلقى والمشافهة ، وقد جرت على أفصح الأساليب ، وتوجيهه أن الطائفة الواحدة تجمع أفراد كثيرة ، فالطائفتان فى معنى الجماعة ، ولهذا أتى بواو الجمع فى (اقتتلوا) باعتبار معنى (طائفتان) ، وإذا كان القرآن الكريم قد راعى المعنى فقد راعى هنا اللفظ أيضا حيث أتى بألف التثنية فى قوله عز وجل (فأصلحوا بينهما) والسر الخفى فى مراعاة المعنى أولا واللفظ ثانيا أن الطائفتين فى حال القتال تكون طائفة مختلطة بالأخرى بحيث لايستطاع التمييز بينهما بخلاف حالهما فى الصلح بحيث تكون كل طائفة متميزة عن الأخرى ، ولهذا جمع ضميرهما فى حال القتال وثناه فى حال الصلح بينهما[2]

أما ما جاء عن ابن أبى عبلة وعبيد بن عمرو وزيد بن على فهى قراءة شاذة لم ترد لافى السبعة ولافى غيرها من القراءات الصحيحة الموثقة وإنما وردت فى مصاحف قديمة : لابن مسعود ، وأبى ومصحف عبيد بن عمرو[3] ، وابن أبى عبلة ، له حروف فى القراءات واختيار خالف فيه العامة وفى صحة إسنادها إليه[4] ، نظر فقراءته واهية ، كما أن القراءة الصحيحة المشهورة تقدم

---

(1) الحجرات ٩ .

(٢) انظر : القراءات فى نظر المستشرقين : ١٩٧ الشيخ القاضى ، المذاهب الإسلامية ٤٦ جولد تسيهر و نقله إلى العربية د – على عبد القادر .

(٣) انظر مصحف ابن مسعود وأبى بن كعب ومصحف عبيد بن عمير فى :
Materials For the History of the text of the Our'ân, JEFRY, Brill, 1937.

(٤) طبقات القراء : ١ / ١٩ وتوفى ابن أبى عبلة ١٥١ هـ أو ٥٢ أو ١٥٣ . وأخذ القراءة عن أم الدرداء الصغرى . وزيد بن على ت ٣٥٨ هـ . طبقات القراء ١ / ٢٩٨ . وعبيد بن عمير بن قتادة المكى ت ٧٤ هـ . طبقات القراء ١ / ٤٩٦ .

المقياس المصحح للاستعمال العربى لا العكس[1] . والقواعد النحوية يجب أن تخضع للقراءة لا العكس . وأخيرا فإن للقرآن طريقا فى النحو ينبغى أن يقاس عليه ، كما له لغته الخاصة به .

ولكن النحاة جعلوا من أنفسهم رقباء على اللغة وأهلها ، ولقد كانت لهم فى هذا صولات وجولات معروفة فى نقد الشعر والنثر على السواء فى العصرين الجاهلى والإسلامى[2] ، وبمرور الأيام قوى نفوذهم ، واشتدت وطأتهم ، فأصبحوا المشرعين والمقننين فى الحقل اللغوى وحدهم ، لا يلوون على شئ ولا يأبهون ، فرفض بعضهم الاستشهاد بالحديث النبوى ، لجواز أن رواته قد دخل عليهم اللحن كما لحنوا العرب وغلطوهم فى لغتهم ، حتى جاءوا إلى قراءات القرآن الكريم فنالوا منها ومن أصحابها وأخضعوها لقواعدهم ، وقوانينهم ، لأنهم أصحاب معايير ومقاييس ، واستطاعوا بسلطانهم وسطوتهم أن يسيطروا على حقل الدراسات القرآنية فضيقوا وحجروا وأولوا ، واجترءوا وتطاولوا على القراءات السبعية وما فوقها

ب - أجاز الفراء فى النحو « ولا تكونوا أول كافر به واشتروا »[3] وهى فى المصحف « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا »[4] وما أجازه الفراء عند علماء النحو لم يقرأ به واحد فى السبعة ولا فى العشرة ولا الأربعة الذين بعد هؤلاء

جـ - وأخيرا يأتى السيوطى ليؤكد موقف المتقدمين من النحاة بقوله « وكان قوم من النحاة المتقدمين يعيبون على عاصم وحمزة وابن عامر قراءات بعيدة فى العربية ، وينسبونهم إلى اللحن ، وهم مخطئون فى ذلك ، فإن قراءاتهم ثابتة بالأسانيد المتواترة الصحيحة التى لا مطعن فيها ، وثبوت ذلك دليل على جوازه فى العربية[5]

والحق أن كثيرا من هؤلاء النحاة قد تأثروا بمدارس علم الكلام ودعامتها : القياس والعقل ، ومدرسة القراءة ركيزتها الرواية والنقل ، فالقراء أعدل ، لأنهم

(١) مذاهب التفسير الإسلامى ٦٨ جولد تسيهر .
(٢) الموشح للمرزبانى فى مواطن متفرقة . ط السلفية .
(٣) شواذ القرآن لابن خالويه ٤ .
(٤) البقرة ٤١ .
(٥) اقتراح السيوطى ١٧ ط أولى .

لايعملون فى شىء من حروف القرآن على الأفشى فى اللغة ، والأقيس فى العربية بل على الأثبت فى الأثر ، والأصح فى النقل ، والرواية إذا ثبتت عنهم لم يردها قياس عربية ، ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة (١) . هذا :

ويجب أن نقرر (أولا) أن موقف النحاة من القراءات ورميهم كثيرا منها باللحن والغلط ، والضرورة والشذوذ والخطأ واتهامهم القراء بالوهم تارة ، والغفلة وعدم الدراية تارة والغفلة وعدم الدراية تارة أخرى ، وإخضاعهم القراءات للمذاهب النحوية والأقيسة العقلية ، هو الذى جرأ المستشرقين على الطعن فى كثير من القراءات والنيل منها متسترين بلباس البحث العلمى حينا وبالحقد الدفين والسهام المسمومة أحيانا وهم فى هذا وذاك قد تنكبوا الطريق السوى وضلوا وأضلوا فى بعض ماكتبوا ومانقلوا .

وثانيا — أن هذه المعارك الحامية بين الفريقين أمدتنا بثراء فى النحو العربى فتعددت مسائله ، واختلفت الآراء حول كل جزئية منه : فتلاقت الآراء حينا واختلفت أحيانا ، كما رأينا من خلال ذلك ألوانا من التأليف جديدة تعتبر من أجل مصادر تراثنا المجيد ، وكلها تدور فى فلك القراءات والنحو — ناقدة ومعللة ، ومحتجة ومفاضلة ، وممحصة ومستشهدة ، وهى فى جميع هذا تكشف عن آراء كل فريق والوجه الذى آثره واختاره — نقلا وعقلا ، ورواية ، ودراية . ومن هذه المؤلفات :

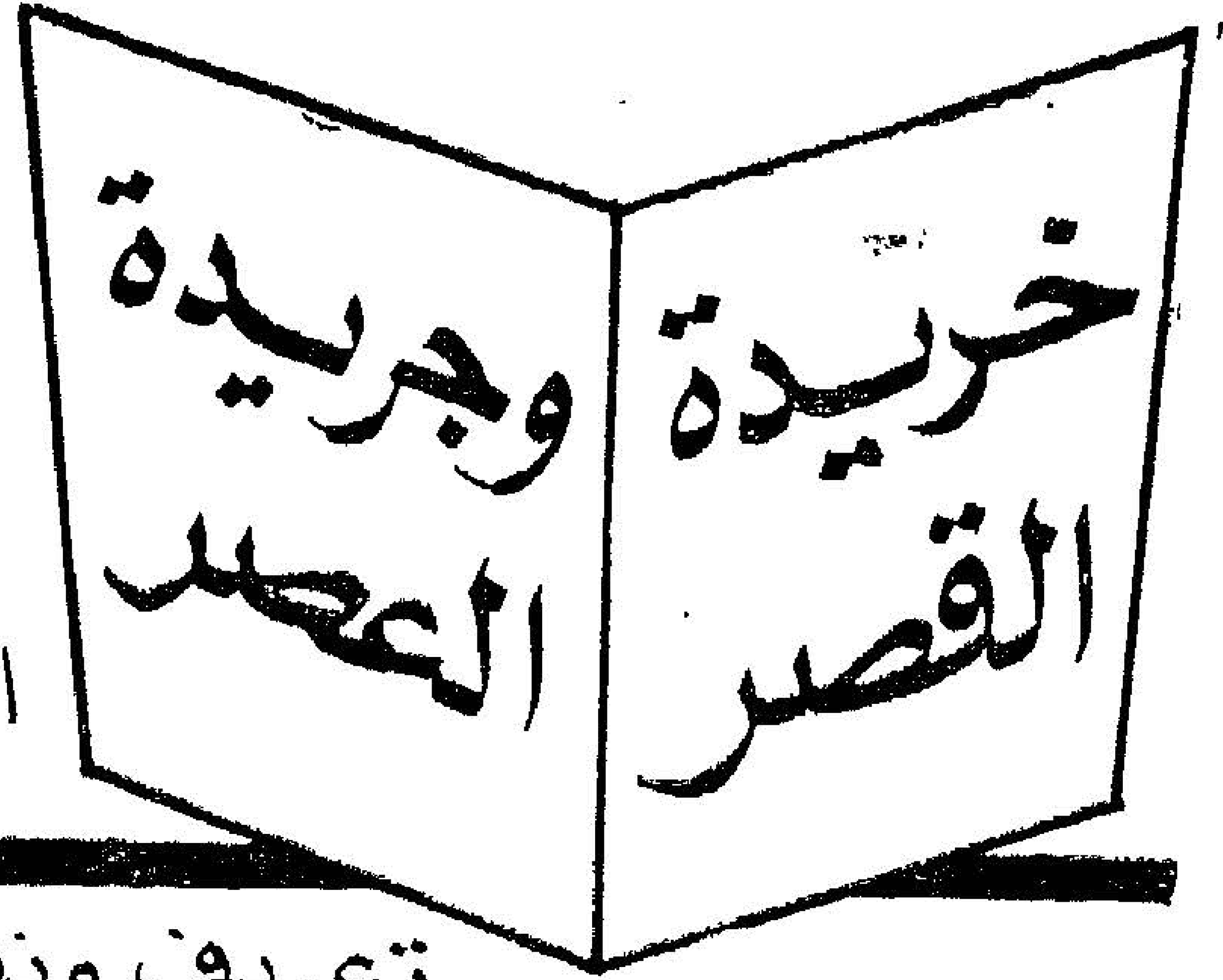
معانى القراءات لأبى زكريا الفراء والحجة فى علل القراءات السبع لأبى على الحسن الفارسى والمحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لأبى الفتح عثمان بن جنى والحجة فى القراءات السبع لابن خالويه ، والكشف عن وجوه القراءات لمكى القيسى ، وإعراب الشواذ للعكبرى .

أحمد علم الدين الجندى

---

(١) النشر ١ — ١٠

(٢) مع اعترافنا بأن نفرا منهم لهم يد فى التراث العربى لا تنكر من حيث المنهج والتحقيق وعمق الدراسة .



للعماد الأصبهانى

الجزء الرابع

حققه وشرحه

الأستاذ محمد بهجة الأثرى

تعريف ونقد : الأستاذ محمد عبد الغنى حسن



خريدة القصر وجريدة العصر للأديب الكاتب السياسى المؤرخ « العماد الأصبهانى » لونا طريفا من كتب الشعر والشعراء المؤلفة وفق القرون ، والحاوية للشعر والشعراء فى عصر معين ، لا على مدار العصور كما فى كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة . وهى بهذا اللون الطريف والمذاق الجميل تقدم لنا نماذج الشعر العربى فى القرن السادس الهجرى وهى نماذج لا تخصّ قطرا عربيا معينا بذاته ، ولا تقتصر على بقعة عربية دون بقعة ، بل تمتد لتشمل الوطن العربى الفسيح كله مابين مشرق ومغرب . وقد خص المؤلف كل أرض عربية بقسم من «خريدته» فللمغرب والأندلس والشمال الإفريقى قسم صدر منه جزء ان فى تونس ، ولمصر قسم صدر من زمن غير بعيد ، وللشام قسم بدأ صدوره فى دمشق منذ سنة ١٩٤٩ ، وللعراق قسم كبير صدر منه الجزءان الأول والثانى منذ زمن ، كما صدر أخيرا الجزء الرابع منه بمجلديه الضخمين بتحقيق الأستاذ العلامة الكبير محمد بهجة الأثرى ، أما ثالث الأجزاء العراقية فلما يصدر بعد ، استكمالا للتحقيق كما يصرح محققه الفاضل .

والذى صنعه العماد الأصبهانى فى الخريدة هو الذى صنعه من قبله الثعالبى فى «اليتيمة» وصنعه الباخرزى فى « دمية القصر » والخطيرى فى « زينة الدهر » ثم صنعه بعدهم الشهاب الخفاجى فى «الريحانة» والمحبى فى «نفحة الريحانة» ولاتزال وزارات الثقافة فى البلاد العربية

اليوم تحرص على إصدار مجموعات ومختارات من الشعر المعاصر مع تعريفات وجيزة بالشعراء المختار لهم لتكون مرآة الشعر الحديث .

ولن تسلم مجموعة ضخمة من الشعر في عصر واحد من أن يجتمع فيها الغث والسمين والجيد والردىء ، فليس من المعقول أن يجرى الشعر المختار كله على نسق واحد من السمو والارتفاع ، أو أن يكون كله موحد المستوى ، مستوى النفس ، بل لابد أن تصادفنا فيه القمم والسفوح والحب والزؤان . وهذا الخلاف فى المستوى وفى النفس وفى الأهداف والأغراض والمعانى هو دلالة أكيدة على اختلاف المواهب والمستويات عند الناس ، وهو يصور الحياة تصويرا صادقا ، واضحا فلا يعرض جميلا ولايحجب قبيحا . وإنما يجمع بين الجمال والقبح كما تجمع الحياة عادة بين النقائض ، وتضم بين المتناقضات والأضداد .

ولن يكون العماد الأصبهانى أو غيره من مؤلفى المجاميع الشعرية لعصر من العصور أمناء على قضية الأدب والجمع الشعرى إذا قدموا بعضا من النماذج دون بعض : أو آثروا لونا من الشعر على لون أو أبرزوا غرضا من الأغراض دون غرض فإن الأمانة تقتضى أن يقدموا نماذج لكل ماصدر من الشعر عندهم . وقيل فى عصرهم مهما كانت درجته ومهما كانت بضاعته ؛ لأن المفروض أنهم لايقدمون نماذج رفيعة أو أمثلة جيادا فحسب ، ولكنهم يقدمون صورة كاملة للشعر العربى فى عصرهم بما تحويه من سمو وهبوط ، ورفعة واتضاع .

ومن هنا كان حرص العماد الأصبهانى على أن يجمع فى كتابه الضخم كل لون شعرى ظهر فى عصره ، وأن لايحاول إبراز بعض الأغراض الشعرية على حساب البعض الآخر. وإن كان لم يمسك فى يده مكيالا يكيل به مااختاره من كل غرض ويوفق بين المكاييل حتى لايطغى اختيار على اختيار .

فالرجل كان جامعاً ناقلا راوياً مسجلا ، فلا يعنيه من الجمع المقدار والكم ، ولكن يعنيه الكيف ، حتى تكون أغراض الشعر فى عصره ممثلة على أقرب الوجوه دقة ، وأصدقها تمثيلا .

ولا شك أن « العماد » قد وقع له من الشعر العربى فى عصره شىء كثير ، بحكم طبيعته الأدبية الواضحة ، أو بحكم صلاته الاجتماعية الكثيرة التى هيأتها له نيابته عن الوزير ابن هبيرة فى « واسط » وبحكم مركزه السياسى المرموق الذى جعل داره مهبط الأدباء من كل حدب ، وأخيرا بحكم ذلك الميل الخاص الغالب عليه نحو الشعر العربى ، وتعاطفه معه ، وعنايته به .

ولا شك أنه لم يكن فى جمعه لذلك السيل الغامر من الشعر حاطباً ، ولا خابط ليل . لقد كان ينتقى ، ويؤثر قولا على قول ، ويستبعد ما يراه أهلا للاستبعاد . وقد يقرأ المجموعة من الشعر لشاعر معاصر تقع له بأى طريق من طرق الإعارة أو الإهداء أو الشراء ، فلا يخلص منها فى النهاية له إلا عددٌ من الأبيات يؤثرها بالرواية ، ويخصها بالتسجيل .

ألم يحدثنا ــ وهو صادق ــ فى خلال ترجمته الوجيزة للشريف أبى هاشم إسماعيل بن المؤمل الرشيدى الواسطى بأن أشعار هذا الشاعر التى نظمها جمعت فى مجلدة ضخمة تنيف على ستة آلاف بيت ، وأنه طالعها كلها فلم يختر منها إلا هذه الأبيات :

مضى الود والأيام ما سمحت لنا
بشرب مدام أو بقرب نديم
ونحن عطاشٌ ، والموارد جمة
يوطدها قوم لكل لئيم
على الراح والأقداح منى تحيةٌ
إلى أن أراها فى بنان كريم !

والذى لا يصفو له إلا ثلاثة أبيات من ٦ آلاف بيت ليضعها فى موسوعته الشعرية هو رجل لا يجمع حيثما اتفق ، ولكنه يتأنق فى الجمع ، ويحسن فى الاختيار .

على أنه قد تصادفنا فى أشعار الخريدة أبيات ومقطعات فى الإحماض والإفحاش فى الهجاء كنا نرجو لو خلا منها الكتاب ، حتى لا يخدش حياء القارىء بمعان لا تحيى خلقاً ، ولا تنشر فضلا ، ولا تقيم فضيلة ، بل هى ضرب من الفحش والمجون واللغو الآثم الذى قد يحرك غرائز الشر ، ويثير المضاحك ، ولكنه لا يعبر عن نبل أو حياء. وأى شرف فى أن نلتقى فى الخريدة برجل سليط اللسان ، فاحش القول ، لا يتورع

أن يهجو زوجته بأقبح هجاء ، ويهجو ولده بأفحش قول ؟ وإذا كنا احتملنا هذا من أمثال الحطيئة ، وجرير ، والفرزدق ، والبعيث ، وابن حجاج ، وابن سكرة ، [قبل القرن السادس الهجرى ، فلماذا نصاب به من جديد فى هذا القرن الذى يتميز بلقاءالعرب والمسلمين ضدالصليبيين؟ ولماذا نجد فى عصر الجهاد الإسلامى ضد الغرب المتعصب جماعة من الشعراء الذين يَبدُون وكأنهم فرغوا من هموم الدنيا ، ومشاغل الحياة . فيهزلون حين ينبغى أن يجد الجد ، ويمزحون حين تدعوهم الحياة إلى الرصانة والوقار ؟ ا.

الحق أن العماد لم يخرج عن مفاهيم زمانه حين اضطر أن يروى فى خريدته شعرا هابطاً فى الهجاء ، والمجون ، فهو ناقل صورة يريد أن يكون أميناً على أدائها . وقد كان الرجل معتدلا فى هذا المجال ، فلم يسرف فى عرض هذه الألوان النابية .

والحق أيضا أن محقق الكتاب العلامة الأستاذ محمد بهجة الأثرى –وهو رجل فيه خلق ودين وحياءٌ – قد ضاق بمثل هذه النماذج الهابطة من شعر الهجاء فى الخريدة ، فلم يسكت عليها ، ولم يقف أمام إيرادها صامتا ، بل نراه حين يطفح به الكيل ، ويسيل السيل يتفجر كالبركان معلقا على هذا الشعر بمثل قوله : « وهذه القطعة من فسولة اللفظ والمعنى والغرض فى أحط منازل الكلام » ص (٤٩١) . أو بمثل قوله فى هامش ص (٥٤٦) : « هذا البذاء امتداد لبذاء جرير والفرزدق والأخطل ثم ابن الرومى والمتنبى : وأضرابهم ممن عدموا المروءة وضعف فى نفوسهم وازع الدين ، و نوازع الطبع الشريف . فاستباحوا فحش القول وأشاعوه فى المجتمع العربى الإسلامى . وقد كان يحسن المؤلف ، وهو هو ، أن ينزه كتابه من مثله ، ويقتصر على رواية النظيف من هجاء الشاعر مجتزئاً بالاشارة إلى بذائه الذى أفضى إلى اغتياله . .) أو بمثل قوله فى هامش ص(٧٥٩) : « . . . وكان اللائق بالمؤلف تنزيه كتابه من هذه الأقذار) فأنت ترى أن المحقق الفاضل هنا ساخط على اختيار هذه الأهاجى الفاحشة ، ضائق بها صدره . ويخيل إلى أنه لو لم يكن المجال مجال تحقيق نص قائم موجود ، لأبعد المحقق هذه النماذج

ونفاها من الكتاب كله ، ولكنه وفقا لأمانة العلم ، وتوفية الأداء ، لا تملك هذا ، ولم يملك إلا أن ينفس عن صدره بمثل هذه التعليقات ، ولعل ذلك أضعف الإيمان ! !

والحق أن هذا الإحماض ورواية المقذع المفحش قد وقع فيه نفر من المصنفين العرب والمسلمين ممن كان لا ينتظر وقوعه منهم ، كالراغب الأصفهانى فى محاضراته ، والغزولى فى مطالع بدوره ، بل وقع فيه صاحب عيون الأخبار أحيانا ، ووقع فيه النويرى فى نهاية الأرب ، ووقع فيه صاحب كتاب « قطب السرور » الذى صدر عن مجمع اللغة العربية بدمشق من زمن غير بعيد .

على أنه لا بأس برواية النادر من الهجاء إذا لم يكن فيه إقذاع ولافحش ولا بذاء . ولعل من ذلك ما رواه العماد عن الشاعر « الصارم مرجى البطائحى » حين هجا ثلاثة من الكبراء فى وقته قائلا :

قوم إذا قام قوم للعلا قعدوا
وإن تنبه قوم للعلا ناموا !

ويظهر أن هذا اللون من الهجاء القاتل غير البذئ ولا الماجن قد راق لدى العماد ، فعقب عليه قائلا : « هذا البيت الأخير نادر فى الهجاء ، يعجز عنه فصحاء البلغاء » .

وقد كان العماد يستجيد المعانى النادرة الجيدة حتى فى الهجاء ، ويعلق عليها بما يكشف عن قيمتها . فقد علق على أبيات هجاء قالها « الصارم مرجى » فى هجو شقيق له بقوله :(والمعنى فى غاية الحسن لم يسبق إليه)

ولا بأس هنا من إيراد هذه الأبيات ما دامت لا تخل بمبدأ الشرف والعفة ، وصيانة اللسان ، وإن كانت تخل بالمروءة وحقوق الرحم حين يهجو أخ أخاه :

أى حرام من الحلال أخى ؟
كأنه الخمر إبنة[1] العنب

قاتلك الله يا أخى ، فلقد
فضحتنا فى قبائل العرب

كأننا الغر من قريش سموا
وأنت ما بيننا أبو لهب !

(١) اضطر الشاعر إلى قطع همزة الوصل فى كلمة : ابنة .

ولم تخل أغراض الشعر التى رواها العماد الأصبهانى لشعراء عصره من المدح والفخر ، والعتب ، والتهانى وهى أغراض لم تزل موجودة فى كل عصر ، وإن كان آن للشعر العربى أن يتحلل منها اليوم فى عصر يتطلع إلى التطور والتجديد .

ولقد كانت المدائح المروية يُقصد بها الخلفاء ، والأُمراء ، وعمال الولايات ، والوزراء ، والقادة . وهى بالطبع مما يغلب عليه المدح لغرض فى النفس ، أو لمنفعة ذاتية . وقليل منها المدح الصادق الذى كان نادرا فى ذلك الزمان .

على أن الشعراء الذين وفدوا على العماد الأصبهانى وخصوه بمدائحهم التى نشر بعضا منها فى كتابه ، لم يمدحوه — ولا نسيءُ الظن — إلا قاصدين أن يهدى إليهم صنيعةً من جاهه ، تغنى عن صنيعة من ماله ، فلم يكن الرجل ذا مال ، ولا صاحب ضياع ، ولا رَب ثراء ، ولكنه كان نائبا للوزير ابن هبيرة فى واسط ، وكانت هذه النيابة عن الوزارة تتيح له أن يكون مرجوا . ومن هنا تسابق الشعراء إلى بابه ، وقصدوه بالمدائح وأبيات الثناء .

وإذا كانت « الخريدة » قد اشتملت على هجاء ، استكمالا لصورة الشعر العربى فى العراق فى القرن السادس الهجرى ، فإنها قد اشتملت على طائفة من شعر الألغاز الذى يبدو أنه كان بدعة فاشية فى ذلك العصر وحين يظهر لون من الأدب ؛ ويشتغل به الناس ؛ ويعطونه من اهتماماتهم فوق ما يستحق ، فإنه لا يلبث أن يشيع ، ويذيع ، ويقبل عليه الناس إقبالا شديدا حتى يكادوا أن يستهلكوه . ومن هنا شاعت الألغاز بين شعراء ذلك العصر ، يصنعونها شعرا — أو إن شئت الدقة فقل نظماً — ويقدمونها إلى أصدقائهم ومعارفهم ، وينتظرون حلها والإجابة عنها نظماً كذلك . وكثيرا ما كان يفتنّ الشاعر فى عمل اللغز الشعرى ، والتعمية به ، والخفاء فيه ، حتى يضطر المجيب إلى كد الذهن وإعمال الفكر . ولعل مثالا واحدا من هذه الألغاز الشعرية يغنينا عن الإطالة فى لون من الشعر لا جمال فيه ولا خيال . فقد كتب الشاعر ابن أبي الصقر الشافعى لغزا فى « الدينار » يقول فيه :

وأى شىء طــولــه عرضه . أضحى لــه عندك مقدارٌ ؟

دل عليـــه حسن طبع لــــه
ففيــــــه للعالم أوطار
تمسكــــه الكف ، ولا تشتكى
منـــــه احتراقا ، وبه نار

وكان للشاعر ابن أخت بعث باللغز إلى الأمير أبى الغيث البصرى ، فقال فى جوابه :

يا من أتانا ملغزا فكـــــــره
الغـــــــز يستغنى ويمتـــــــار
ألغزت فى « الدينار » فامتز به
إن كنت من للعلم يمتــــــــار

ويكفى أن نشير هنا إلى أن هذه الألغاز كانت فى أشياء ماديّة ومعنوية مما تشتمل عليه الحياة ، ويقع عليه البصر أو الظن ، مما لا يدخل تحت حصر . وقد اهتم الناس بها فى ذلك العصر ، حتى لقد جمع فيها أبو المعالى الخطيرى الكتبى كتاباً أسماه (كتاب الإعجاز ، فى الأحاجى والألغاز) طالعه العماد الأصبهانى واختار بعضاً من ألغازه .

والإخوانيات كثيرة فى أشعار الخريدة ، وهى ضرب من أغراض الشعر شاع وكثر حين كثرت الجماعات ، وازداد الاتصال والترابط بين الناس ، وهى وإن كانت لا تدخل فى الأغراض السامية الرفيعة للشعر ، فهى تعبير صادق عن علاقات بين الشعراء ، يصور لنا كثيراً من أخلاقهم وسلوك حياتهم .

ولم تسلم أغراض الشعر فى الخريدة من شعر الشكوى . وهو غرض يعبر عن مواجع الشعراء من بعض الظروف المحيطة بهم ، وغير الملائمة لهم ، كالشكوى من الزمان ، ومضايقات الأيام ، والشكوى من سوء الحظ ، ونكد الطالع ، والشكوى من حاكم ظالم ، أو بلد غير طيب ، أو صديق جائر ، أو جوٍّ غير مناسب ، أو علة طارئة ، أو عشرة منغّصة ! ولعل من أطرف الشكاوى الشعرية ما نظمه الشاعر « أبو الحسن الهيتى » فى الشكاة من بلدة « هيت » بالعراق وأهلها وذمهم . ولا بأس من إيراد بعض أبياتها حيث يقول :

منازل « هيتٍ » لا يوافقها العدل
إذا عَدَلَ السلطان جار بها الأهل
وما هى إلا بلــــــــدة جاهلية
أمرَّتْ على مَرِّ الزمان فما تحلو !
تجمّع أهلوها على الخُلف والجفا
وبينهما أخذُ الحرائبِ والقتـــــل

قلوبهمُ من جنـــــدل وصفائح
خُلقن وما فى العالمين لهم شكل

وأيمانهم غـــــدر إذا حلفوا بها
وقولهمُ نكرٌ ، وموعدهمْ مطل

وإن عوتبوا فالعتب فيهم مضيع
وإن عذلوا يوماً فما ينفع العذل

أرى شيمتى تأبى بـــلادى وأهلها
فيا ليت أنا لم يكن بيننا وصل !

وأقسم لولا بنتُ عم شفيقـــةٌ
إذا غبتُ عنها نالها منهمُ ثقل

لأَعدتُ أسفارى ، وفارقت منزلى
أولم يثننى كَرْم بأرضى ولا نخل ..

أما الشكوى من الكبر والاضطرار إلى استعمال العصا ، فقد عبر عنها شاعر من شعراء الخريدة بقوله :

أسوق نفسى بعصاً فى يـــدى
تُبصر قدَّامى ولا خلفـــى

يا رب ! حتى الشيخ فى سَوقه
مخالف للعادة والعــــرف[1] !

ما ألطف هذه الإشارة إلى مخالفة الشيخ لمألوف العادات ، حتى سوق العصا !!

وتُصور لنا شكوى الشاعر من « ابن يعيش » صاحب الديوان صورةً من الظلم الإدارى فى المجتمع العراقى . وهو نوع من الظلم كان سائدا فى ذلك الزمان .

ولن ندع شعر الشكوى يمر دون الإشارة إلى الأبيات الفكهة التى نظمها العماد الأصبهانى نفسه فى الشكاة من البق والبرغوث ! وقد نظمها ارتجالا حين بات ليلة « بنهر دقلى » وهو فى طريقه إلى بلدة عسكر مكرم فقال :

يا لحا الله ليلـــةً قرصتنى
فى دياجيرها البراغيث قرصاً !

شربتْ بقُّهـــا دمى فتغنـــت
وبراغيثهـــا تواجدن رقصاً !

قـــد تعريتُ من ثيابى لـــكربى
غير أنى لبست منهن قُمصـــا

كلما ازددتُ منعهن بحـــرص
عن فراشى شرِهْن فازددن حرصاً

من براغيثَ خلتُهـــا طافرات
طائرات جناحهـــا قد حُصا

---

(١) هكذا ورد : وصوابه : مخالف العادة والعرف بالإضافة لا بال التعريفية .

عَرَضت جيشَها الفريقـــان حولى
وهى أوفى من أن تعــد وتحصى

لو غزا « سنجر » بها الغُز يوماً
لم يَدَع منهمو على الأرض شخصاً!

وكان العماد يظن أن المعنى هنا لم يُسبق إليه ، ولم يقله قائل ، إلى أن أنشده صديقه القاضى عبد المنعم بن مقبل الواسطى بيتين للشاعر العدل أبى على بن بختيار الواسطى فى المعنى نفسه ، وهو غناء البق لرقص البراغيث ، كما فى البيت الثانى ، فاعترف له بالسبق !

وتصادفنا فى أشعار الخريدة بعض النماذج القليلة من شعر الحنين إلى الوطن ، وما أجمل لو كان العماد أطال فيه ، فهو لون من الشعـر الصادق النفسىّ المعبر عن واجد المرء الحقيقية ، وليس مجرد نظم أو رصف كلام . ومن نماذجه هنا ما قاله الشاعر أبو الفرج الواسطى :

كم ذا الوقوف بنا على الإبل ،
أورد قلوصى ما أذى الأثل

واعدل إلى ذات اليمين بنـــا
واحطط بربع بريكة رحلى

مغنىً عفت آيات ملعبه
ومحت معالمـه يـد المحل

أودعت قلبى فى ربائبـــــه
وعقلت فى عرصاتـــه عقلى

وبكيت حين رأيت ما صنعت
أيدى النوى بالربع والشمـل

أكبرته فوطئت تربتــــــــه
بحشاى ، لا بمناسم الإبل

وطفقت أنشد فيه حين خـــلا ،
منهم بما يُغرى ولا يُسلى

لا ابيضَّ لى فى الدهر بَعدهُم
يوم ، وهل دار بلا أهل ؟

ولعل أكثر أغراض الشعر اختيارا وجمعا فى الخريدة هى أغراض الغزل والنسيب ، والآداب والأخلاق ، والوصف واختيار العماد الأصبهانى للشعر الأخلاقى الرفيع يعكس لنا صورة من أخلاقه . فقد كان الرجل كريما ، متواضعا ؛ ذا مروءة ونجدة . وطالما تمنى أن يحل مشكلات الشاكين ويجيب مطالبهم قبل أن يحلّها الوزير ابنَ هبيرة الذى كان نائبا له . وله فى هذا المواقف المحمودة .

فحين وفد الشاعر «ابن الشريف الجليل» على الوزير ابن هبيرة شاكيا ومتظلما ، وأسمعه قصيدة فيها البيتان الآتيان :

أجِرْنى على الدهر فيما بقى
بقيت فما قد مضى قد مضى
فلستُ أبالى بسخط الزمان
وأنت ترانى بعين الرضا

اهتز لها كما اهتز الوزير ابن هبيرة ، وودَّ لو أنه له مكنة ، أو أنه يستطيع إجازته أو إجارته .

ومن مختاراته الأخلاقية الزهدية ما أنْشَدَهُ عن أبىّ تراب العكبرى » من قوله :

حالى بحمد الله حالٍ جيدُهُ
لكنه من كل حظ عاطلُ
ما قلت للأيام قول معاتب
فالرزق يدفع راحتى ويماطل
إلا وقالت لى مقالة واعظ :
الرزق مقسوم ، وحرصك باطل

ونماذجه فى شعر القناعة والزهد ، والرضا غير قليلة ، وهى تعكس أيضا جملة أخلاقه ، ومنها ما رواه عن الشاعر المعلم أبى الأزهر الضحاك :

ما أنعم الله على عبده
بنعمة أوفى من العافيه
وكل من عوفى فى جسمه
فأنه فى عيشة راضيه
والمال حلو حسن جيد
على الفتى لكنه عاريه
وأسعدُ العالم بالمال من
أداه للآخرة الباقيـــــه
ما أحسن الدنيا ! ولكنها
مع حسنها غادرة فانيه ...

ومن مرويات العماد الأصبهانى فى شعر عزة النفس ، وعدم الرضا بدون ، ما رواه عن الرئيس أبى سعيد بن واثق الأنبارى حيث أنشده لنفسه :

أظما ، وغدران الموارد جمة
حولى وأسغب والمطاعم دونى
وأعاف أدوان الرجال ، فأنه
لا يرتضى بالدون غير الدون
لا الفقر يخفض من تسامى ناظرى
فيغُضُّ منه ، ولاالغنى يطغينى

وكذلك ماارواه من شعر فى الاستغناء عن المخلوق بالخالق من شعر ابن أبى الصقر :

كل رزق ترجوه من مرزوق
يعتريه ضربٌ من التعويق

وأنا قائل – وأستغفر الله
مقـال المجاز لا التحقيق

لست أرضى من فعل إبليس شيئا
غير ترك السجود للمخلوق !

أما ما رواه من شعر فى صلة ذوى القربى والرفق بهم والإحسان إليهم مهما أساءوا والعفو عنهم إذا أخطأوا فغير قليل القدر ، ومنه ما قاله ناصر الدولة بن حماد فى ابن خال له :

أخى : وابن خالى ! ما الذى كان بيننا
من الأمر حتى صرت تنفر من قربى ؟

ولو أننى يانصرُ رامت جوانحى
إساءة فعل فيك حاربها قلبى

ويدخل فى شعر القرابة والرحم الذى احتوته الخريدة ما دار بين الفقيهة الشاعرة أم على الرشيدة ، وبين ولدها الأديب على العبدى ، وقد كان غائبا فى بعض أسفاره فكتب إلى أمه قصيدة يبثها أشواقه يقول منها :

سيان إن عذروا فيكم وإن عذلوا
لأننى عن هواكم لست أنتقل

لا أكذب الله مالى – غير حبكم
والاستزادة من وجد بكم – شغل

وليس فى الناس لى – لو كان ينفعكم
أن تعلموا ذاك منى – غيرَ كم أمل

أشتاقكم وبودى لو يواصلنى
خيالكم ، لو بنوم كنت أكتحل

وقد صحبت أناسا ، واشترطت لكم
قلبى ، ويصحبهم جسمى وقد قبلوا

وربما قلت للواشى إلىَّ بكم
همُ الأحبة إن جاروا وإن عدلوا

صِلوا وصُدوا ، وجوروا ، واعدلوا ، وقفوا
عما أحب ، فعندى بعد محتمل

مهما فعلتم فمحمولٌ ومغتفر
وما أمرتم فمسموع ، وممتثل

وقد ردّت عليه أمه بقصيدة تقول فيها :

لولا الأمانىُّ والتسويف والأمل
ما كان يكنُفُنى سهلٌ ولا جبل

وكلما اشتد بى نـــار تعذبنى
فليس إلا دموع العين تنهمل
وقد تعللت أسباباً لرؤيتكم
فكيف بى وبكم إن فاتت العلل ؟
أهذى بكم حسب ما أحيا ، فإن حضرت
منى الوفاة وأوفى دونى الأجل
ناديت : لا تأخذوا ثأرى بهم هبةً
هم الأحبةُ إن جاروا وإن عدلوا !

ولو أخذنا نعرض شعر الحكم والأخلاق والآداب فى الخريدة لطال بنا المجال فى معرض لا يحتمل الإطالة ، ولكنا ننتقل إلى غرض آخر من الشعر ، وهو الوصف ، وقد وقع للعماد منه نماذج جيدة ، ولعل من أجودها وصف السفينة للشاعر الأمير نجم الدولة بن أبى الجبر واسمه أحمد ابن أبى الفتوح ، وهذا الوصف هو بضعة من قصيدة طويلة بعث بها الشاعر الأمير إلى الحريرى صاحب المقامات ، وفيه يقول :

يـأيها الرائح تنحو به
هوجاء تنقضُّ انقضاض العقاب (١)
لم يرأم الفحـــل امَّها فى الفلا
ولا عِراضا لقحت فى الضراب
ولا رعت حمضا ، ولا خلـــة
يوما ، ولم تجتر بُهمى العذاب
ولا اعتقى الحـــالب أغبارها
ولا رأت سقبا لهـــا فى السقـــاب
لا تشتكى الأين إذا ما اشتكت
من الوجى الوجناء ذات الهباب
دهماء لم تلمس لهـــا أشطرا
كلبيةً ، قد عصَّبتها اعتصـــاب
تنساب والتيـــار ذو حومة
مثل الحباب الصل ، فوق الحباب
طالت على العود بأعوادهـــا
والناب ، لكن ما لها قط نـــاب

(١) أى أن هذه السفينة كالناقة السريعة ، ولكنها ليست حيوانا ، ولا رعت النبات الحامض ولا الحلو ولا نبات السهول ، ولا تشكو تعبا إذا ما شكت الناقة النشيطة ، وهى سوداء اللون ، تنساب فوق الماء انسياب الحيات فوق الرمال ، وقد استطالت على النوق المسنة ، ولكن ليس لها ناب كالأبل التى شبهها بها .

والقصيدة كلها مماوءة بالألفاظ الغريبة ولعله راعى مقتضى المقام بأنه أرسل بها ، وخص بنظمها الحريرى المشهور باللغة ووفرة الحصيلة اللغوية التى تدل عليها المقامات .

ويبدو أن الأمير الشاعر نجم الدولة هذا كان مغرما بالشعر الوصفى ، فقد بعث إلى صديق له هدية من الأقلام ، الواسطية ، وبعث معها أبياتا يقول فيها فى صفة الأقلام :

قد بعثنا بهـا رشاقا دِقـاقـا
كالقنا فى لدونة واستـــواء

قطعت عندما طاوع سهيـــــل
إذ وجدنا طيبا لحلو الهـــواء

لم تغادَر حتى تجف . ولكن
قطعوها ، فيها بقية مـاء

من قصار ومن طوال تضاهى
فى تمام أصابع العــــــذراء

تركتْ بعضها كما خلق الله
وبعضا علتــــه بالحنـــاء

فابرها ، ثمت اسقها النقس[1] واكتب
بسواد منـــه على بيضاء

وقد أتيح لهذا الشاعر الأميريوما أن يرى معركة قادتا قائدا اسمه «عفيف» ، وقد خرج عليه بعض الخارجين المتطرفين إلى واسط ، فهزمه وعبر فى الماء وراءه ، فقال الشاعر :

فبات جيش العدا فى «واسط» وجلا
منه يحاذر بأسا غير مأمون

فانصاع للجانب الشرقى منهزما
من ليث غاب بشدى الحرب ملبون

تصوروا أن عبر النهر يعجزنا
عنهم ، لظن بغير الحق مظنون

هناك قام عفيف بالذى قعدت
عنه الرجال برأى غير موهون

وما همُ بالكماة الغلب قد لبست
من كل زغف دلاص السرد موضون

والخيل فى العبر تتلوهم مبادرة
فى كل فلك كركن الطود مشحون

كأنما قيل : ياريح ! اسكنى بهم
ولا تعرّض لهم يابرد كانون

(١) النقس بالقاف هو الحبر .

ولم يعدم المجتمع العراقى فى العصر الذى عاش فيه العماد الأصبهانى وسجّلَ شعره أن يجد بعض الشعراء العاكفين على الحب ، القائمين فى محرابه ، المغنين بألحانه ، كالشاعر الرئيس أبى الفرج الواسطى الذى كان المغنون يتغنون بشعره فى ذلك الزمان . وقد سجلت له الخريدة بعض غزله الذى يقول فيه :

ألا ياحماماتِ تجاوبن بالضحى
كشفتُنَّ مكنونى ، فأعلنت بالشكوى

إليكن عنى ياحماماتِ ضارج
عدا كنَّ أشجانى وما بى من البلوى

ترفقن بى فيما بكنَّ من الهوى
كما بى ، لا وجدٌ كوجدى بمن أهوى

نقضت لياليناً « بليت » ، « وعلّنا »
« وسوف » ، وما أجبدت علىَّ المنى جدوى

فلا اليأس يُسلى لو تعهدت سلوة
ولاالصبر تُلْفَى دونه الغاية القصوى !

وكما لشاعر أبى الغنائم بن المعلم الذى كان له أشعار يحدو بها الحداة ، ويتغنى بها أرباب الغناء فى العراق ، كقصيدته فى مدح الأمير هندى الكردى ، وقد افتتحها بأرق النسيب ، مما جعلها دائرة على أفواه العاشقين ، وألسنة المحبين ، وفيها يقول :

تنبهى يا عذباتِ الرند
كم ذا الكرى ؟ هبَّ نسيم نجد!

مر على الروض وجاء سَحَرا
يسحب بُرْدَى أرجَ وبرد

حتى إذا عانقتُ منه نفحة
عاد سموما ، والغرام يُعدى

واعجبا منّىَ ! أستشفى الصبا
وما تزيد النارُ غير وقدِ

أعلل القلب ببان رامة
وما يتوب غُصُنٌ عن قدٍّ

وأسأل الربع ومن لى لو وعى
رجْع الكلام ، أو سخا بردٍّ ؟

أأقتضى النوحَ حماماتِ اللوى؟
هيهات ! ما عند اللوى ما عندى

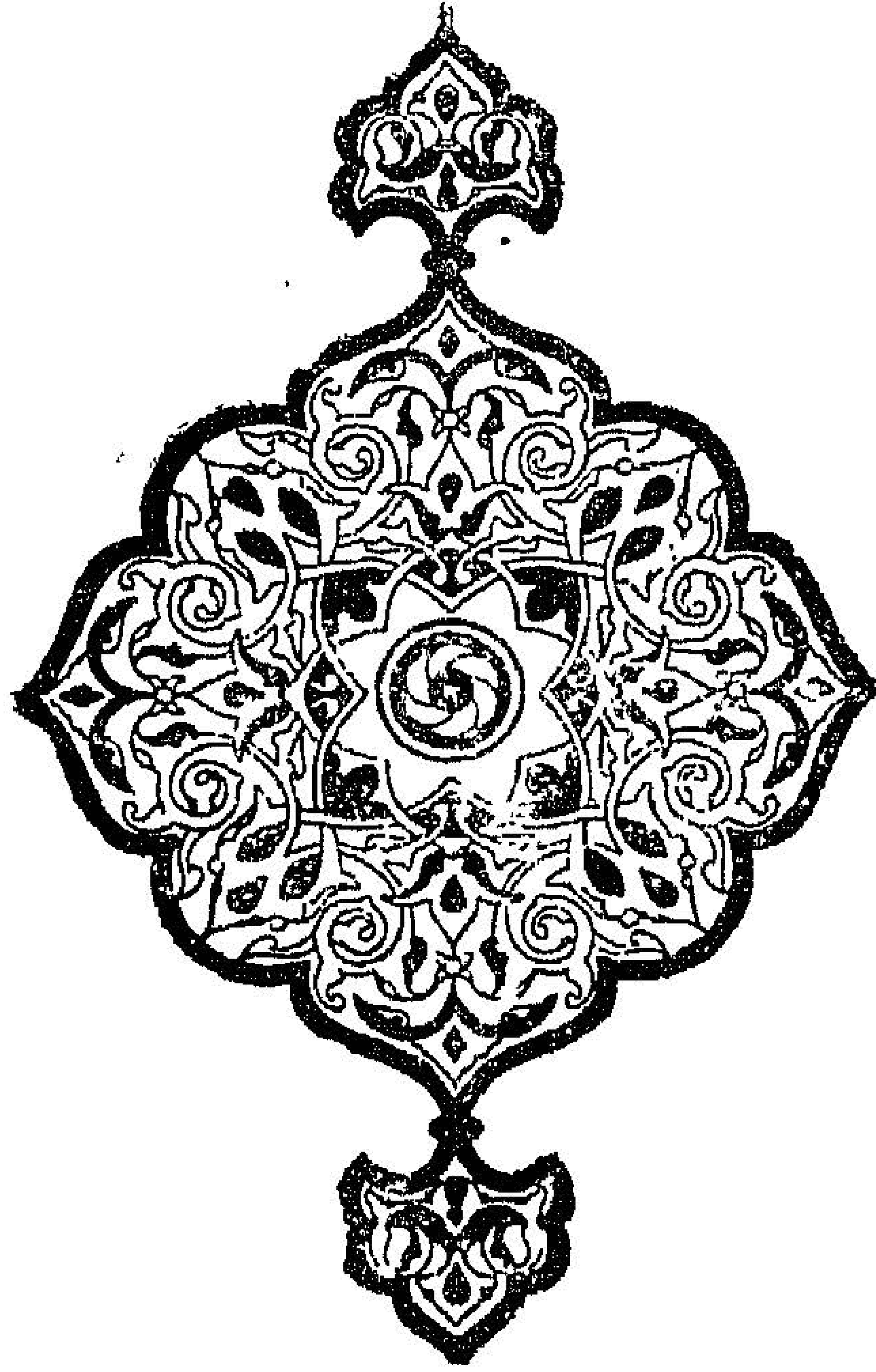
وبعد ! فهذه جولة مع « خريدةالقصر » العراقية فى أغراض شعرها ، وفنون قولها وهى تلك الخزانة الثمينة التى جمعها

أديب شاعر مؤرخ منصف ، وحققها
باحث عراقى شاعر ناثر جميل الخط
هو الأستاذ محمد بهجة الأثرى ، الذى
يستحق أن يقال فيه ما قاله الرئيس
ابن المعلم – من شعراء الخريدة – فى أبى
غانم اللؤلؤى :

فى حلبة الشعر المثقف لو جرى
معه امرؤُ القيس بن حُجْرٍ قصَّرا

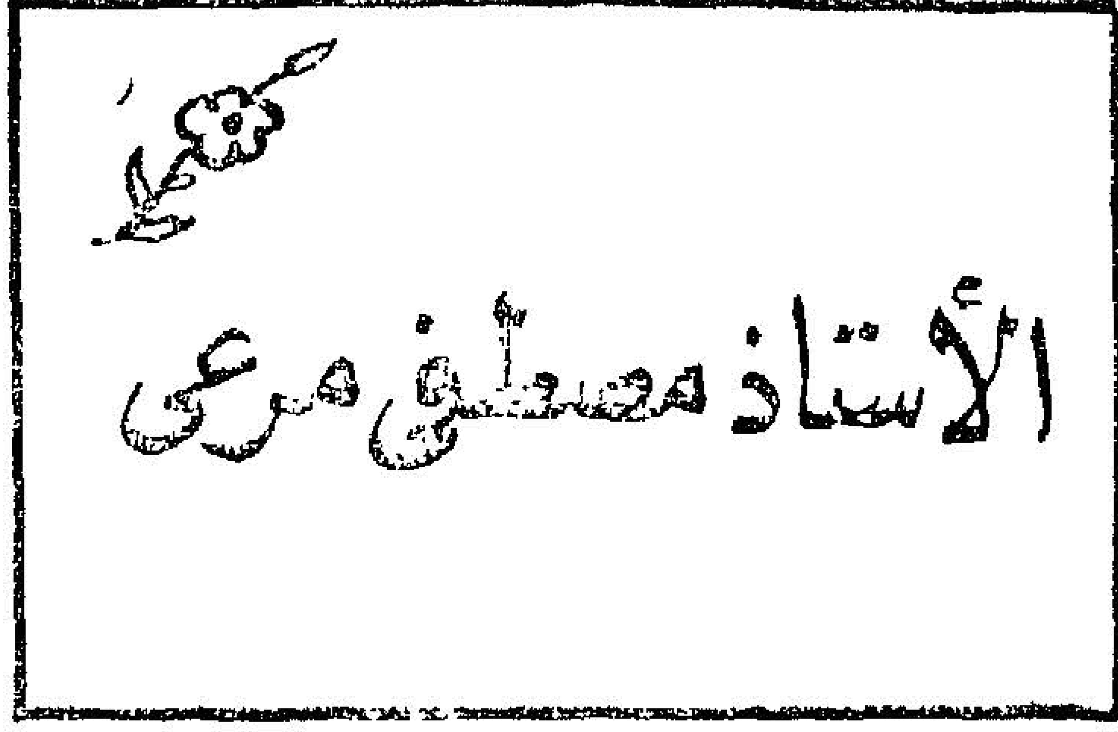
أو لو جرى قلم « ابن مقلة » طالبا
فى الخط شأو يراعِهِ لتعثرا ...

محمد عبد الغنى حسن



فى الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ١٢ من ذى القعدة سنة ١٣٩٣ هـ (الموافق ٥ من ديسمبر سنة ١٩٧٣ م) أقام المجمع بداره بالجيزة حفل استقبال لعضوه الجديد الأستاذ مصطفى مرعى . وفيما يلى ما ألقى فى الحفل :

كلمة الافتتاح للأستاذ زكى المهندس فى استقبال :



سيداتى ، سادتى

إنه ليسر المجمع كل السرور أن يستقبل اليوم زميلا جديدا ، وعلما من أعلام القانون هو الأستاذ مصطفى مرعى ، لقد كان من المفروض أن يستقبل الزميل خلال الدورة المجمعية الماضية ، ولكن لأسباب خارجة عن إرادته وارادتنا تأجل استقباله إلى اليوم ، والمجمع إذ يهنىء الزميل بما نال من ثقة وتقدير ليسعده كل السعادة أن يرى كفاية علمية عظيمة تضاف اليوم إلى كفاياته ، وأن يرى نشاطاً جديداً يلتقى بنشاطه ، فكذلك كان المجمع ومازال وسيظل دائما مثابة للثقافات العالية ، وملتقى للكفايات الممتازة .

والزميل مصطفى مرعى ليس غريباً علينا ، فكلنا مايزال يذكر له تلك المواقف الوطنية العظيمة داخل البرلمان وخارج البرلمان ، وفى الوزارة وخارج الوزارة ؛ ولعله كان أول وزير يسبب استقالته من الوزارة بأسبابها الحقيقية ، فقد ألفنا من الوزراء إذا استقالوا من الوزارة عللوا هذه الاستقالات بتلك العبارة التقليدية المألوفة وهى « لأسباب صحية » ولكن الزميل مصطفى مرعى وضع النقط فوق الحروف ، وعلل استقالته بعدم التعاون مع رئيس الوزراء ، وإذا لم تخنى الذاكرة فإنه قد اتهم رئيس الوزراء بالتزوير فى أوراق رسمية ، وهذا موقف شجاع لم يكن لنا عهد به :

ثم يجب ألا يغيب عنكم أيتها السيدات والسادة أن بينى وبين الزميل مصطفى مرعى علاقة وثيقة ، وصلة مؤكدة ؛ ليست هى صلة المجمع ولا العلم ، ولا الزمالة ، ولكنها صلة الطربوشية ؛ فكم تمنيت أن أرى فى المجمع زميلا يشاطرنى تلك العلامة المميزة ، وها قد تحققت أمنيتى ؛ رحم الله أياماً كنت أرى فيها

الطرابيش فى المجمع بقدر عدد الأعضاء ، وبقدر عدد الموظفين ، ولكنى أصبحت فإذا المجمع ليس فيه إلا طربوش واحد يوحد الله.

فليهنأ صديقى الأستاذ مصطفى مرعى بانضمامه إلى الأسرة المجمعية ، ومرحبا به فى مجمع الخالدين :

أما الآن أيتها السيدات والسادة فسيتولى استقبال الزميل الأستاذ الجليل عبد العزيز محمد عضو المجمع ، ويليه الصديق الأديب الأستاذ ثروت أباظة فيلقى كلمة كان المرحوم الأستاذ عزيز أباظة طيّب الله ثراه — قد أعدها لاستقبال زميله وصديقه الأستاذ مصطفى مرعى :

ثم يليهما الزميل الجديد الأستاذ مصطفى مرعى فيقول كلمته عن سلفه المرحوم الدكتور محمد عوض محمد ، فليتفضل الزميل الأستاذ عبد العزيز محمد مشكورا.

●●● كلمة الأستاذ عبد العزيز محمد :

السيد الرئيس — أيها السادة :

أشعر بسعادة غامرة إذ أقدم اليوم كبيرا من أساطين رجال القانون ، جال فى جميع ميادين القانون وتسنم القمم فيها جميعا .. من محاماة وقضاء ، وفقه ، حتى إذا بلغ فى ذلك المدى تصدى للشئون العامة فحمل أعباءها ، وكافح فى سبيلها ، وكان له فى ذلك مقام معلوم . . . وبعد ، فهو من صفوة رجال الفكر المعاصرين . . . شخصية لا شك فذة متعددة الجوانب — وسأحاول جاهدا فى هذا المجال المحدود ، أن ألم إلماما سريعا موجزا ببعض هذه الجوانب العديدة وإن كنت أشعر أنه ليس من اليسير أن أقدر ما يجب أن أذكر وما أدع .. فأمامى صفحات جديرة بالنشر كاملة ، ولكن يضيق المجال عن ذكر شىء من التفصيل والإفاضة .

ولد الزميل الفاضل فى ١٨ من يونية سنة ١٩٠٢ بالجزيرة الخضراء مركز فوّه ، وقد تجلت مواهبه مبكرة . . فهو دواما فى مقدمة المبرزين فى الدراسة وذلك فى جميع مراحل التعليم ... وكان هذا هو شأنه حين حصل فى سنة ١٩٢٣ على شهادة الليسانس فى الحقوق ، وقد كان تفوقه يؤهله للالتحاق بالنيابة العامة ، ولكنه آثر مجالا أشق محفوفا بالمخاطر والمصاعب .. مليئا بالعقبات ، وهو مجال المحاماة وقد زاد عليه هذا الطريق وعورة أنه لم يشأ أن يدخل هذا الميدان كما يدخله أى حامل لإجازة المرور بل دخله بآمال كبار دخله على أن يجد له مكانا فى الصدر . . وكان هذا يعد طموحا بعيد المنال ... ذلك أن المحاماة إذ ذاك كانت تزخر بأعلامها الخالدين الذين عاصروا نشأتها الأولى ، وكان لهم

الفضل في رفعة مكانتها — ولكن الزميل اقتحم الطريق بنفس مطمئنة وخطى ثابتة يؤنسه عزم صادق ، وجد صارم ، وعاونته مواهب فذة . فلم تمض سنوات قليلة حتى ذللت الصعاب وأدرك مكانا مرموقا في مهنته ، على أن مكانته لم تبلغ شأوها الحق إلا بعد أن زاول المهنة في القاهرة في سنة ١٩٣٦ بعد أن استقال من القضاء وعاد إلى مجاله المفضل فأصبح بعد قليل على رأس الصف الأول مع شيوخ المهنة وأعلامها ، ولا غرو فقد أحب المحاماة ، وقدر سمو رسالتها فوهبها بكل صدق وإخلاص روحه وقلبه ، فخلفت عليه مجدها ، وجازته إحسانا بإحسان ..

وقد كانت مواهبه لا تبارى ، ومثله العليا التي التزمها هي الشعلة التي أضاءت له معالم الطريق .

وإنا لنرى تقديره للمحاماة فيما سطره في صدر كتابه الذي ألفه ودون في القضاء إذ جعل إهداءه للمحاماة ، واصفا إياها بأنها مهنة الكرامة والكفاح والحرية ، والواقع أن هذه الكلمة تعبر تعبيراً صادقاً عما التزمه هو في أداء رسالته من مثل تزمت في الحرص عليها فبلغ ما بلغ ،

ثم تلت بعد ذلك فترة بعد فيها عن المحاماة من سنة ١٩٣٩ حتى سنة ١٩٤٨ ، كان يشغل فيها وظائف مختلفة ، إلى أن عاد للمحاماة سنة ١٩٤٩ ، وظل بها حتى سنة ١٩٥٩ حيث أثقل العمل كاهله ، فقد كان المورد العذب الذي كثر عليه الزحام ، ولم يستطع أن يرد قاصدا يبغي حقا ، وهو القائل : إن المحاماة مروءة ونجدة ، فنال ذلك من صحته ، فاضطر مكرها لاعتزال العمل في المحاماة ، بعد أن ظل يمارسها نحو ربع قرن من الزمان ، خلف فيها ذكرى لا تزال يتحدث بها زملاؤه في ندواتهم كلما طاب لهم أن يتحدثوا عن أمجاد المحاماة ، وحملة مشاعلها — كما ترك مثلا لمن يبغي في المهنة علوًّا .

على أن اعتزال الزميل العمل في المحاماة في سنة ١٩٥٩ لم يكن — وما كان يمكن أن يكون — إلى فراغ ... فقد عكف على هوايته المفضلة وهي الإحاطة بشتى ألوان المعرفة ... يطلع ويدرس ويتحقق ، حتى لقد أضحى موسوعي المعارف .

ولا أنسى محاضرة قيمة ألقاها بعد اعتزاله — عن العلم والفلسفة — أحاط فيها بهذا الموضوع الدقيق إحاطة تنم عن التعمق وسعة الأفق ، وتدل على أن ملقيها هو حقا من صفوة رجال الفكر المعاصرين ..

أما في القضاء فقد ألقيت إليه أمانة الحكم في سنة ١٩٣٢ بتعيينه قاضيا بمحكمة الإسكندرية ، وقد عهد إليه رغما عن حداثة عهده بالقضاء بتطبيق نظام قضائي جديد في المحاكم الوطنية ، وهو نظام القضاء المستعجل ، فقام بالعبء على أكمل وجه . مما أسهم في نجاح هذا النظام فظل قائما حتى اليوم :

وقد أهله هذا النجاح للتعيين عضوا فى التفتيش القضائى بوزارة العدل ليقدر جهود رجال القضاء ويزن أعمالهم، وذلك رغما عن أنه كان إذ ذاك فى أول درجات القضاء، وكان هذا التقدير تقديرا عظيما لم يسبق إليه :

ولكن رغما عما صادفه من نجاح فقد غلبه الحنين إلى المحاماة التى وصفها بأنها « مهنة الكرامة والكفاح والحرية » . . فاستقال فى سنة ١٩٣٦، ومارس المحاماة فى القاهرة حتى عين فى سنة ١٩٣٩ فى النيابة العامة محامياً عاماً، وهى وظيفة تلى النائب العام مباشرة، ثم عين بعد ذلك مستشارا بمحكمة الاستئناف. وأخيراً بلغ ذروة المناصب القضائية بتعيينه فى سنة ١٩٤٦ مستشاراً بمحكمة النقض فأتاح له ذلك أن يسهم فى المهمة الجليلة التى تقوم عليها المحكمة، وهى تجلية غوامض القانون وتقعيد القواعد القانونية، وتقويم المعوج من الأحكام — وكانت هذه هى آخر رسالة له فى القضاء توج بها مجهوده الكبير .

وفى سنة ١٩٤٧ عين رئيساً لإدارة قضايا الحكومة فنهض بعبئها الجسيم ضارباً المثل لكبار أعضائها، بأن محامى الحكومة — مهما علا مركزه — مكانه ساحة المحاكم لا مكاتب الإدارة، فكان يترافع بنفسه فى القضايا الهامة مما جعل للإدارة شأناً لم يكن :

وقد أضاف الزميل إلى هذا السجل الحافل فى مجال القانون أثراً جليلا فى فقه القانون المدنى، وذلك بمؤلفه القيم فى « المسئولية المدنية » الذى تناول موضوعاً من أدق مواضيع القانون وأشدها تعقيداً وسد بذلك فراغاً فى المراجع القانونية، إذ أصبح الكتاب مرجعاً الكل المشتغلين بالقانون حتى لقد أعيد طبعه مراراً.

وبعد مجالا القانون يأتى مجال كفاحه فى سبيل الشئون العامة الذى تصدى له منذ أن ولى الوزارة فى سنة ١٩٤٨، ثم وليها فى سنة ١٩٤٩ وكان عضواً بمجلس الشيوخ فى ذلك الحين فجعله ميدان كفاحه، كما إتصل قلمه بالصحافة وقد حوت مضابط مجلس الشيوخ ما كان له من جولات، كما حوت الصحف العديد من مقالاته — وقد وعى التاريخ كل هذا وطوى هذه الصفحة من بين ماطوى، وهو صاحب القول فيها، وقد عودنا العدل والإنصاف ولو بعد حين .

هذه المقالة موجزة كل الإيجاز عن هذه الشخصية الكبيرة المعددة الجوانب، أرجو أن أكون قد وفقت فى إبراز شئ من معالمها .

●●● كلمة المرحوم الأستاذ عزيز أباظة * :

أيها الزميل الكريم

هناك فى أحضان الريف اليانع الوارف ، وعلى مقربة من ملتقى البحر المتوسط بالنيل الرافد الخالد ، هناك ولدت ونشأت ، وحين شارفت الخامسة خرجت صباح يوم ربما لم تحمده ، خرجت إلى كتاب القرية الوادعة من بيتك الكريم ذى الفناء القصود والورد المورود . وقذف بك كما قذف بنا نحن أهل الريف إلى ذمة سيدنا فقيه الكتاب . وإلى أيدى رائدنا عريف الكتاب . وتسلمت كما تسلمنا لوحك من الصفيح المصقول أو غير المصقول : وطولعت بهوز قرشت . ورأيت بعينك كما رأينا ـ الفلقة والعصا ، وما أعظمهما من مؤدبات ، زاجرات أو معاقبات . ثم بدأت بخير مايبدأ به الإنسان حياته ، ذلك هو حفظ قدر كريم قل أو كثر من كتاب الله أنزله هدى للبشر على من أرسله رحمة للبشر : وأغلب الظن أنك حين من الله عليك فأتممت حفظ ثلاثة الأجزاء عم ، وتبارك ؛ وقد سمع ، زايلت الكتاب بين هالة من فخر الفقيه والعريف ، إلى المدرسة الابتدائية ثم إلى المدرسة الثانوية

وأغلب الظن أنك كنت تلميذا مرموقا أو ولدا نجيبا كما كان يقال فى ذلك العهد ولم لاتكونه فإن النجابة قد تتلامح فى السن الباكرة إرهاصا لغد سعيد ، ومستقبل مشهود :

وتلاقينا فى مدرسة الحقوق . وكانت الثورة الكبرى قد اندلعت فى البلاد عامة ؛ يظاهرها ويؤازرها ويحترق فى أتونها المقدس أهل البلاد أجمع . ثم اختلف زعماء البلاد ، رضى الله عنهم جميعا وأرضاهم . اختلفوا أى التدابير أسرع وأكفل لتحقيق آمال البلاد وصونها . وأيها فى هذه الغاية أحكم وأهدى سبيلا .

وكان طلبة مدرسة الحقوق فى طليعة الطلبة الثائرين المجاهدين . وكانوا جميعا إلا قلة قليلة منهم يؤمنون أصدق الإيمان بزعامة الزعيم الخالد سعد زغلول : تستهويهم ، وتسحرهم كلمته . ولم أكن منهم. وكان مقهى مدرسة الحقوق ندوة للطلبة ، يأتمرون فيه ويتشاورون : وذات صباح كنت جالسا بهذا المقهى ، وعلى قيد خطوتين منى جلس زعماء الطلبة يديرون بينهم الأحاديث. ويتناقلون فى الخطط والتدابير ، وإذا بواحد

---

* كان المرحوم الأستاذ عزيز أباظة قد أعد هذه الكلمة ليلقيها فى حفل استقبال صديقه وزميله الأستاذ مصطفى مرعى ، ولكن رحمة الله استأثرت به قبل القاء كلمته فألقاها الأستاذ ثروت أباظة .

منهم صحت بعد ذلك بينه وبينى الصداقة — رحمه الله يقول ، وهو يشير إلى بإيماءة طرف لم يخفها : احترسوا فإن إلى جوارنا خصما لنا ، ولاجتماعنا غير مأمون العواقب : ولعل بعض الحاضرين قد وافقوا على هذا الرأى ولكن واحدا منهم اعتورت طلاقة وجهه مسحة من العبوس ، ثم أجال نظرات فى إخوانه جميعا ، ثم بدأ يتحدث فى هدوء وخفوت . تحدث عاتبا ثم لائما ، ثم أخذ يتناول حرية الرأى وحرية التعبير ، وحرية الإنسان فى اختيار الطريق الذى يتلاءم مع نفسيته واقتناعه مدافعا عن ذلك الذى وجهت إليه تلك الإشارة النابية . وحين عورض اندفع فى صوت متهدج يؤيد آراءه ويقول : إن اختلاف الآراء دليل على حيوية الأمة ، وبرهان على محاولات كريمة تنشد الوصول إلى الحق . ولست أذكر ماقاله ذلك الزميل على وجه الدقة ، ولكننى أذكر كلمة كأنما سمعتها منه أمس . قال : فليؤمن كل منا بما آمن به وهذا خير ؛ أما عبادة الأشخاص ، والتسابق على تأليه مايقولون وتقديس مايصنعون ، فإنها علامة إسفاف متهافت يصيب الأمم والشعوب . ثم قام والغضب والأسف فى وجهه ملامح .

أتعرف هذا الشاب أيها الزميل الكريم ، إن لم تكن تعرفه ، فاسمح لى أن أقدمه إليك ، إنه مصطفى مرعى . ومنذ هذا اليوم تآلفنا ، فلم يدخل بيننا والحمد لله شيطان إلى الآن .

ثم قذفت بنا إلى الحياة العامة مدرسة الحقوق سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة وألف ، وكنت كعادتك فى أوائل الخريجين . أولئك الأوائل الكرام الذين كان لهم فى خدمة العدالة والقانون فضل ممدود ، وشأن مشهود . ولقد سمعت بأذنى المستشار « كالوينى » يقول لعبقرى القانون والعلم والأدب عبد الحميد بدوى ، وكانا يمتحنان فى فرقتنا فى القانون المدنى ؛ سمعته بعد أن امتحن واحدا منكم يقول : هذه فرقة لم تخرّج مدرسة الحقوق فرقة تماثلها منذ أخرجت فرقتكم عام ثمانية وتسعمائة وألف . فقد كان فيها إلى جانبك « محمد أحمد الوكيل » و « عبد المعطى الخيال » و « محمد على رشدى » و « محمد أحمد غنيم . » رحمهم الله ؛ « ومحمود فوزى » و « محمد نجيب أحمد » أطال الله فى حياتها . ولقد سرنا وعزانا نحن الذين جاء ترتيبنا بعدكم بمدى طويل أن تكرم فرقتنا بهذه الشهادة الكريمة من خبير كبير .

ثم اخترت المحاماة أيها الزميل الكريم ؛ فزاولتها بالإسكندرية . ثم عينت قاضيا بها سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وألف . وأظنك لم تمكث طويلا مكتفيا بعمل القاضى من دراسة إلى حكم ولكنك بعد أخذ ورد مع نفسك ، فى هدأة حينا ، وفى ثورة أحيانا ؛ انتفضت قاضيا متعباً لأنك ألزمت نفسك بمهمة غير مألوفة لافى وقتها ولافى نوعها : طالبت بإصلاح مراحل القضاء وبتحقيق الأمن مع الكرامة لرجال القضاء . واخترت من

رأيتهم أهلا لمعاونتك ، ولما قضت الظروف على صحبك أن يكفوا عن معاونتك ، نهضت بالعبء وحدك فكتبت التقارير والبيانات يتنافس فيها الإقدام والإحجام ، وبعثت بها لقضاة البلاد جميعا ممهورة باسمك وحدك . ألم أقل لك إنك كنت قاضياً متعباً . ولقد كان جزاء هذا القاضي المتعب بعد أن بلور نظريته ، وضرب ضربته ، أن نقل من الإسكندرية قاضيا لإطسا .

ثم رأس الحكومة عارف لفضلك ، فعينت متخطيا زملاءك والسابقين على زملائك مفتشا فى لجنة المراقبة القضائية ، ثم استقلت عام ستة وثلاثين ، فسعى إليك مكتب محاماة من أكبر مكاتب البلاد وأكثرها عملا فانضممت إليه محاميا ، ثم عينت عام تسعة وثلاثين محاميا عاما ، ثم مستشارا فى محكمة الاستئناف ، ثم مستشارا فى محكمة النقض . ولقد كادت سنك أن تحول بينك وبين هذا المكان الكبير . وبعد أن أمضيت مستشارا بمحكمة النقض عامين ، عينت رئيسا لإدارة قلم قضايا الحكومة لتعود بسمعتها ومكانتها إلى ما كانت عليه أيام عبد الحميد بدوى ، وبقيت بها إلى عام ثمانية وأربعين ، حيث عينت وزيرا فى وزارة ابراهيم عبد الهادى . ثم عينت وزيرا مرة أخرى فى وزارة « حسين سرى » . ثم مر على البلاد من حوادث وأحداث ما دفعك أن تكون وزيرا متعبا كما كنت قاضيا متعبا .

لم تكن وزيرا من الوزراء الذين يشدهم كرسى الوزارة أسفل ، وكثير من هم . ولم تكن من الوزراء الذين هم أشبه الناس بالسكرتيريين ، وأكثر من الكثير من هم بل كنت وزيرا عرف قدر نفسه ، وقدر مسئوليته ، فكنت تقول : لا مجلجلة حين يقتضيك ضميرك أن تقول : لا ، وكنت تقول نعم ، حين يقتضيك ضميرك أن تقول : نعم . غير آبه بملك قائم ، وقصر حاكم ، وتهديد جاثم . ولم تكن وزيرا يكتفى فى كبرى مصالح الدولة بما يعرض عليه . بل كنت وزيرا تقرر ما يجب أن يعرض عليه ، وكنت فى مجلس الوزراء محركاً ، دافعاً عند ثبوت المنهج الصالح ، كما كنت قابضا مانعاً عند تلامح الهدف الواضح . وكنت نورا لمن يريد أن يستنير . وكنت كفيلا لمن يعمل منهم ، فإذا انتحاه اللوم نسب إليك التوجيه والتدبير .

وكنت وزيرا متعباً ، بل ثائراً ، حين ضاقت فى وجهك السبل لإصلاح الفساد الذى استشرى بهذه البلاد ، فى أواخر العهد الملكى تحدثت وناقشت ثم شكوت ثم نفذت . ثم خرجت من النقد إلى لوم عاصف ، وتجريح قاصف . وحين آنست أن الطريق أمام آرائك مسدود ، وأن الوزارة التى أنت عضو فيها تخاذلت عن هدفك المنشود . وتلددت بين أعاصير الوعيد ودفاع الوعود ؛ حين آنست ذلك ألقيت باستقالة لم يعرف تاريخ الاستقالات لها مثيلا . قلت فيها بأسلوبك

الرائع القائم على إخلاص ذى غور عميق ، واقتناع ذى أس وثيق ؛ قلت مخاطباً رئيس الحكومة :

حضرةَ صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء :

تحية ، وبعد ، فإنك تعلم كما يعلم غيرك ، أننى إنما اشتركت فى حكومتك على أمل فيك ، أن لك غاية هى جمع الكلمة ، وضم الصفوف ، وأن لك هدفاً ، هو الاستعانة بالقوى المؤتلفة على مواجهة الخطر من مشاكلنا الخارجية والداخلية . وقد تبين لى أنك لا تبغيا هذه الغاية ، ولا تتوسل بوسائلها ؛ بل إنك لتبدو كما لو كنت مسلطاً لتجعل من كل حزب حزبين ، وكل فرقة فرقتين .

وقد رأيتك بنفسى ترى الرأى للحق وتنقضه للباطل ، وتقول الكلمة وتنكرها ، ولم يقع ذلك مرة واحدة فى تافه من الأمر ، بل وقع مرارا وفى الخطير من شئون الدولة .

أما لفظك ، وأما عبارتك ، وأما أساوبك فى إدارة مناقشات مجلس الوزراء ، فقد أصبح هذا كله ، مضرب الأمثال ، وموضع التندر فى كل مكان .

لهذا أحيطك علماً باعتزالى العمل فى الوزارة ؛ والله المسئول أن يدفع عن بلادنا السوء ، وأن يقيها غوائل الفساد .

ثم اتخذت الصحف وسيلة لإعلان رأيك ، وتبيين خططك واشتركت فى تأسيس اللواء الجديد ، فكتبت وكتبت متذرعاً بصدقك ، ملقياً بلألائك على سود الصحف ، التى كان يضربها على البلاد أكبر رأس فى البلاد . وكانت مقالاتك تنقض على رؤوس الحاكمين ، فى نقد ثائر ، ولكنه ساخر . وفى أسلوب يهدى لما هو أكرم وأصلح ؛ ولكنه على قسوته يدمى دون أن يجرح ، ومما أذكره قولك :

« إننا لا نتجر فى السياسة ، ولا نساوم عليها ولا نبيع أقلامنا ولا نؤجرها . إننا لا نخشى فى الحق لومة لائم ، مهما يكن مقامه . ولا غضبة غضوب مهما تكن سطوته . وإننا لنعرف أن الشر راصد للأحرار فى مصر ، فاغرفاه ، يود لو استطاع أن يبتلعهم واحداً بعد الآخر . لكننا نعرف ، مع ذلك ، أن الكلمة الحرة الصريحة الجريئة ، هى ألزم ما يلزم مصر اليوم .

ولقد قال « اللواء » — ولا يزال يقول — كلمات لها هذه السمات ، وفيها هذه الخصائص إن لم تكن قد هزت ضمائر الطغاة ، فإنها من غير شك ، قد قرعت منهم الأسماع ولفتت الأنظار .

ومن يدرى . . . لعل الذى نقوله غدا ، أو بعد غد ، يكون أبعدَ غورا وأشد وقعاً من كل ما قلناه حتى الآن ، فقد يلزم أن تتضاعف جرعة الدواء ، إذا لم تنحسر موجة الداء ، وأن تزداد قوة المقاومة ، كلما ازدادت قوة الاعتداء . فأدواؤنا تقوى مع الزمن ولا تضعف ، وتتسع دائرتها ولا تضيق ، وتشتد قبضتها ولا تتراخى . وأنها — على

اختلاف أنواعها — لتتساند وتتآخى : كما يتساند الأشرار فى ظل الشيطان ، حيث يتبادلون النفع ويتعاطون الحرام .

وها هى ذى الديكتاتورية البغيضة الطاغية ، تمكن للحكم الفاسد وتعينه ، وتمده بأسباب البقاء : وها هو ذا الحكم الفاسد بدوره يهش للديكتاتورية الباغية ويبش ، ويتصاغر أمامها ويتقاماً ، وإنه ليذل لها ويخضع ويلين ثم ينحنى .

ومن علٍ ينظر الإنجليز . . بل ينظر العالم كله إلى شعبنا المسكين محصوراً بين هذين الأمرين نظرة استخفاف وازدراء .

هذه هى مصر اليوم ؛ ما أحوجها إلى الكلام الحر الجرىء ، عسى أن يهز ضمائر سادتها فيعودوا إلى الرشد ويثوبوا إلى الصواب ، أو يهز شعور الأمة المغلوبة على أمرها ، فتثور لتسترد حقوقها المغصوبة وسلطانها الضائع :

وإن يوماً يتحقق فيه هذا الأمل ، أو ذاك .. ليكونن لمصر مطلع فجر جديد " :

وداولت أيها الزميل بين مقالاتك فى الصحف ومواقفك فى مجلس الشيوخ ، تلك المواقف التى توجت باستجوابك عن مأساة الأسلحة الفاسدة ، مما أدى بأخَرةٍ إلى طردك من مجلس الشيوخ مع تسعة عشر من إخوانك ، فكانت جريمة دستورية طاغية ، هبطت بالعهد إلى الهاوية ، وسهلت على السائلين مهمة إنهائه ، والإجهاز على أشلائه .

أما أنت محامياً ، وعلى الأخص بعد تمام العدة ، واكتمال النضج ، فإشراقة تكاد تنقطع دون وصفها علائق الأقلام ، وقلائد الكلام . فأنت بالعلم الواسع ، والخاطر الحافل ، والذهن الحاضر ، والوميض المقدس تحت السطوح بصائب النظرة ، والأسلوب الحلو المستحكم المحصد والقدرة على الإبلاغ فى غير تحبس ولا توقف ولا تلجلج ولا طول معاناة ومقارفة ، وبالحس السادس تتفطن به إلى مطاوى العيب . . . أنت بكل هذا الذى تحريته ، وبغير هذا مما تركته ، قد بلغت فى المحاماة أعلى مشارف قيمها . ولست أود أن أطيل فى هذا الباب ، حتى لا يقال مأفون يدلل على انهلال النهار فى وضح النهار ؛ ولكن الذى يقع فى ذمتى أن أثبته ، أن هذه البلاد قد كرمت بعدد من أقطاب المحامين وعباقرتهم : فإذا ذكر « أحمد لطفى » و « عبد العزيز فهمى » و « أحمد عبد اللطيف » و « مرقص فهمى » و « وهيب دوس » ، إذا ذكر هؤلاء العماليق ، تخلل جمعهم « مصطفى مرعى » ثابت القدم ، مرفوع الهامة . و دخل فى زمرتهم ، لا دخول الدخيل ، ولكن دخول الزميل المثيل الأصيل .

وأما كتابك . ولا أقول مذكرتك التى قدمتها لمجلس الدولة عام اثنين وخمسين ، فى قضية من قضايا الإحالة على المعاش لها ظروفها العجيبة ، ووطائدها المعيبة ؛ هذه المذكرة ، بل هذا الكتاب ، يرتفع إلى أعلى مشارف إقرار حق الإنسان .

وبيان الحق أواللاحق فى تصرف الدولة قبله . وذلك داء استشرى فأذل الناس وهدر حقوقهم ، إذ كان وما يزال ينفث سمومه بغير ما ضابط من عدل أو وازع من خلق ، ويتراءى لى أن الفساد وأداة الحكم فى بلادنا هذه الكريمة ، هما توأمان عريقا النسب ، يسلمهما عهد إلى عهد ، وحكم إلى حكم . حتى ليستطاع فى غير تزيد ، أن تذكر أداة الحكم فيذكر تلقائياً معها الفساد ، فيقالا متعاقبين ، الفساد وأداة الحكم ، كما يقال : العُجَر والبُجَر ، والبر والبحر ، وزفتى وميت غمر .

ولقد جلوت هذا الموضوع الخطير فلم تر مزلقاً إلا كشفته ، ولا طغياناً إلا فضحته ، فأرسيت أصوله ، وأصّلت جباهه وذيوله ، كل ذلك إلى جانب الأسلوب المشرق ، والتعبير المحكم المحصد لقانون الحق وقانون البطش بالحق .

ولقد اجتزأت من مئات مذكراتك ذات الوعى السديد الدقيق ، والعمق البعيد السحيق ، التى كان يتلقفها القضاة والمحامون ، بهذه المذكرة لأنها كانت دراسة فذة لقانونيين نعرفهما حق المعرفة : قانون الحق ، وقانون البطش بالحق :

أما كتابك « المسئولية المدنية فى القانون المصرى » ، الذى أصدرته فى يونية من عام ستة وثلاثين . فأول مايُبْده القارئ فيه هو شعورك أنت بالمسئولية ومعناها ، وأبعادها ، وأغوارها ، فتقول فى مقدمة الكتاب :

ما أحسب أن مسئولية توازى فى خطرها وجسامتها ، مسئولية المؤلفين على وجه عام ، ومسئولية مؤلف القانون على وجه خاص : من أجل ذلك تهيبتُ المطبعة وترددت فى طريقى إليها .

وقد جاء كتابك أولا من نوعه فى المؤلفات القانونية ، الدائرة حول موضوع واحد لم يسبقه إلا أبواب متفرقة هنا وهناك :

والكتاب على قدم العهد به نوعاً ما ما زال المرجع الرئيسى لهذا الموضوع الضخم المتشابك ، الذى زادته المدنية انتشاراً ، فقضت به دور المحاكم وارتكز عليه القضاة فى أحكامهم .

وسيبقى هذا الكتاب الفريد ، مرجع رجال القانون ، ما دام مقدرا أن توزن بموازينها الحقة هذه الموضوعات . وسيظل القضاة ينظرون إليه كلما عرضوا للخطأ بأنواعه ، وللتقصير فى شتى أشكاله ، والصلة الإرادة والتمييز والإدراك بالخطأ والتقصير . كما سيظلون ينظرون إليه إذا عرضوا للخطأ تحت ستار الحقوق ، والمسئولية عن الغير تلك التى يحمل عبئها الآباء والمعلمون وأرباب الصناعة ومالكو الحيوان والمبانى ، كما سيظل ينظر إليه كل من تعرض عليه قضايا الحريق وحوادث العمل وما إليها ، وسيظل هذا الكتاب عماداً من أعمدة القانون ، ما بقيت دعاوى التعويض ، وستبقى دعاوى التعويض ما بقى للإنسان حق أو أثر .

أيها الزملاء الأجلاء .

إن فى زميلكم « مصطفى » مزايا سامقة ، قلما تجتمع متكاملة إلا للمرهوبين وقليل من هم .

إنه يعرف الكثير ، وإنه ليجهل الكثير .

إنه يعرف دينه كما أنزله الله ، وكما سنّه له محمد بن عبد الله . ويتجافى بعد ذلك عما تفهق فيه المتفيهقون ، وغرق فى لججه المتحذلقون .

إنه يعرف فى علمه الذى تخصص فيه وهو القانون ، يعرف أصوله وفروعه وحواشيه وذيوله ، وما اتفق فيه عليه المتفقون ، وما اختلف فيه المختلفون ، وله فى كل ذلك رأيه القائم على أثبت الوطائد ، وتخريجه النابع من أسلم الموارد ؛ إنه يعرف من علوم الإنسانية وأدبها وفنها ، أدخلها إلى العقل ، وأقربها إلى النفع ، وأعودها على الكمال الإنسانى بالفائدة ، تسمو أقدارها ، والموعظة تتراقى أخطارها .

إنه يعرف أن الكلام فى موضع الصمت فضول وهذر ، ولا يعرف أن يتصدى لما لا يفى به ، ولا يتسع له ، ويعرف أن السكوت فى موضع الكلام لُكْنَة وحَصَر . إنه يعرف الصداقة والصديق . وإنه يعرف البِرّ بمن ، والفضل من غير من ، كل ذلك فى رفاهة حس ، ووضاءة نفس .

ويعرف أن يستمع وأن يقول ، فإذا قال فلا تزيد ولا تحيف ، وليس إلا الكلمة تنفذ إلى حيث يريد لها أن تنفذ ، طبًّا بها عليما بكل معانيها . وإذا ترافع فتفصيل أصيل ، وتبليغ بليغ ، وترديد ما له من نديد .

إنه يعرف أو يكاد لكل معضل حلوله ، ولكل حق دليله ؛ ولكن الذى لا يعرفه « مصطفى » كثير وكثير .

إنه لا يعرف أن يقول لمبطل آمين ، ولو كلفه ذلك قطع الوتين .

إنه لا يعرف أن يقول إلا إذا تلاحمت فى نفسه أواصر اليقين .

إنه لا يعرف للرجل وجهين ، ولا للحق ميزانين ، ولا للكرامة صورتين ، ولا لقيمة الإنسان معيارين .

وإنه من القلائل الذين لا يعرفون للمال قدراً عند الخدمة العامة ، فهى عنده قيمة وخلق وضمير .

إنه لا يعرف أن يقبل قضية لم يقتنع بها ، فهو يطرد المال الساعى إليه من هذا السبيل ، بل ليخال هذا النوع من الجزاء أفاعى تسعى لا مالا يساق ، وهو لا يعرف أن يحتج بغير الصدق ، جل عنده الكلام أن يكون صنعة ، وتنزه أن يكون تكلفاً ، فهو حين يقول يجمع بين المهابة والحلاوة ، وبين الصدق والأصالة .

ورجل القانون عنده لا بد أن يجمع بين الأدب الرفيع والعلم العميق ، وهو من الذين يؤمنون أن رجلا لا يحسن أن يقول ، لا يحسن أن يكون شيئاً فى أى شئ .

إن المقاييس التي يقاس بها « مصطفى » تتعدد تعدد جوانب النبوغ فيه ، وهيهات لهذه أو تلك وهيهات أن يلم بها حديث مهما يطل هذا الحديث .

أيها الخالدون :

لقد أضفيتم عليه بالغ التقدير والتوقير ، وآية ذلك أنكم لم تقفوه كعادتكم عند بابكم ، وطالما وقفتموني وغيري دورات ودورات عند بابكم . ولكنكم عند أول دقة دقها عارفو فضله ، فتحتم له مصاريع محرابكم . وكنتم أعزكم الله عند دعوتنا الجواب . صيغ في بالغ التأهيل وخالص الترحاب .

●●● الكلمة التي ارتجلها الأستاذ مصطفى مرعي :

السيد الرئيس

السادة الزملاء

سيداتي ، سادتي

ما تهيبت الكلمة ولا أشفقت منها ، كما تهيبتها وأشفقت منها هذا المكان ، وأنا لست طارئاً ولا دخيلا على صناعة الكلام ، فقد خاطبت المحاكم على اختلاف درجاتها حين كنت محامياً ، خاطبت الطلبة في حلقات الدرس حين كنت أحاضر في كلية الحقوق ، خاطبت مجلسي الشيوخ والنواب حين كان لنا برلمان ، وكان لي أن أمثل الحكومة في المجلسين ؛ هناك في المحاكم أو في حلقات الدرس أو في البرلمان ، كانت الفكرة هي الغاية لا اللغة ولا الألفاظ ، هناك كانت المعاني لا المباني هي قصد السامع والمتكلم على حد سواء ، هناك كان وضوح الفكرة يغطي أخطاء اللغة ، هناك كانت طلاقة اللسان تحجب عثرات اللسان ؛ هنا الأمر يختلف ، هنا اللغة لا تقل أهمية عن الفكر ، هنا سلامة اللغة هي المقياس الذي يقاس به حسن الكلام ، هنا قلعة الفصحى ومنارة الضاد ، هنا أريد أن أتكلم فلا يسعني إلا أن أقف خاشعاً أمام أئمة اللغة وأعلام البيان .

وقد سألت نفسي حين علمت أنكم أردتم لي أن أكون معكم في هذا المحراب ، سألت نفسي هل البقية الباقية مني قادرة على أن تحقق أمل الكرام الذين أحسنوا الظن بي ؟ هل البقية الباقية مني قادرة على أن تحملني لألحق بركبكم الميمون فأعاني معكم كما تعانون ، وأضطلع بينكم ببعض ما تضطلعون ؟ وقبل أن أصل إلى جواب عن هذا السؤال ، سمعت صوت السبعين يحذر من جهة وينذر من جهة أخرى ، لا لأن السبعين عليها بأس في ذاتها ، ولكن لأن العشرين الأخيرة منها ، كانت بالنسبة لي فترة تشتت وتمزق وضياع ، كنت مغترباً بالجسد بين الحين والحين ، مغترباً بالروح في كل الأحيان ، كنت مغترباً بالمعنى الذي أراده أبو حيان التوحيدي حين

قال: «أغرب الغرباء من صار غريباً فى وطنه ، وأبعد البعداء من كان بعيداً فى محل قربه ؛ لأن غاية المطلوب أن يسلو عن الموجود ، وأن يغمض عن المشهود ، وأن يقصى عن المعهود » . كلمات التوحيدى هذه قد تبدو خائفة حذرة مبهمة غامضة ، ولكن الطبع فوق التطبع ، وكان التوحيدى جريئاً بطبعه لم يلبث أن قال :

« يا هذا الغريب من إذا ذكر الحق هجر ، وإذا دعا إلى الحق زجر ، يا رحمتا للغريب ، طال سفره من غير قدوم ، وطال بلاؤه من غير ذنب ، واشتد ضرره من غير تقصير ، وعظم عناؤه من غير جدوى » ؟

والذى لا شك فيه أن التوحيدى نفسه كان مغترباً بالمعنى الذى تصوره عباراته هذه ، والذى لا شك فيه أنه إنما كان يعبر عن آلامه وآلام من كانوا على شاكلته من بنى قومه حين قال ما قال ، ذلك لأن عصره كان عصر طغيان فشا فيه ما يفشو عادة فى عصور الطغيان ، من ظلم وبغى وكذب وكيد ونفاق وضلال :

وهو يقول فى ذلك : « إلى متى نعبد الصنم بعد الصنم ؟ إلى متى نقول بأفواهنا ، ما ليس فى قلوبنا ؟ إلى متى ندعى الصدق والكذب شعارنا . . . . إلى متى نستظل بشجرة تقلص عنا ظلها ؟ إلى متى نبتلع السموم ونحن نظن أن الشقاء فيها ؟

من خلال هذه السطور نستطيع أن نرى التوحيدى وهو يلقى القفاز فى وجه الطغيان ، ونستطيع أن نراه فى الوقت نفسه وهو يضع أوراقه مكشوفة على مائدة المعرفة ليقرأها من شاء متى شاء .

ومن خلال هذه السطور أيضاً نستطيع أن نرى التوحيدى وهو يجول جولة رائدة رائعة فى علم النفس قبل أن يعرف علم النفس ، وفى علم الاجتماع قبل أن يعرف علم الاجتماع ، وفى علم* نفس الجماعات قبل أن يعرف علم نفس الجماعات .

وقد أتاحت له هذه الجولة أن يكشف النقاب عن مرض اجتماعى خطير هو الاغتراب أو الانفصال الذى يفصل المواطن عن وطنه حين يسوء حال هذا الوطن وتضطرب أموره ويجرى الفساد فى أنحائه وتضيع كلمة الحق فيه .

ومضى التوحيدى ومضت بعده قرون ، وجاءت فى عصرنا الحاضر أجيال ساخطة على النظم التى تحكمها ، رافضة لها متمردة عليها . وأخذ علماء الغرب يبحثون فى هذه الظاهرة ليصلوا إلى علتها . فإذا بفريق منهم لا يرى لها علة إلا العلة التى كشفها التوحيدى. ولا يجد لهذه العلة اسما إلا الاسم الذى قال به التوحيدى وهو الاغتراب ، ترجموه إلى الإنجليزية فصار (alienation) وإلى الفرنسية فصار (alienation) . ولا أظن أن توافق الخواطر هو الذى أدى إلى هذا اللقاء

بين الشرق والغرب لا على نوع العلة فحسب، بل على نوعها واسمها معاً. وإنما هي بذرة أو حبة مباركة التقطها علماء الغرب فيما التقطوه من التراث العربي ولا عليهم إذا أفادوا منها متى كانوا قد سبقوا غيرهم إلى كشفها والإحاطة بأسرارها.

أخشى أن أكون قد استطردت، لكن الهدف هو أن أشعركم ببعض ما أعانيه. ولو التزمت الترتيب العاطفي لا الترتيب المنطقي لبدأت حديثي بفجيعتي في أخي وأخيكم عزيز أباظة. أقول فجيعتي وأنا أعلم أن موت عزيز قد فجع مصر كلها، بل فجع العالم العربي كله، وقد لا أبالغ إذا قلت أن موت عزيز حرى أن يفجع كل إنسان بما هو إنسان في كل مكان.

أقول فجيعتي مع ذلك، ورغم ذلك؛ لأن عزيزاً لم يكن زميلا فحسب، وإنما كان صديقاً عاشت صداقته خمسين سنة عطرة نضرة، لم تلحق بها شبهة ولا شابتها شائبة وإن أنس لا أنسى نداءه لي حين كان يلقاني فيقول: « يا صديق العمر ». إنى لأتفجع على « عزيز »، وإنى لأعلم أنكم تتفجعون معى، لأن خسارة مجمعنا بفقده خسارة لا تعوض، فقد تعددت مزاياه، وتنوعت مواهبه، كان عالماً وهو أديب، ناثرا وهو شاعر، كاتباً وهو خطيب. ولقد اجتمعت له هذه المزايا كلها لا لتختلف ولا لتتنافر، ولكن لتأتلف وتتراحم، كما لم تأتلف وكما لم تتراحم لدى أى كاتب آخر:

وإذا كان قد حلق في سماء الشعر وانتهى فيه إلى القمة، فاستحق عن جدارة أن يكون أميرا عليه بعد شوقي، فذلك لأن الشعر عاطفة قبل كل شيء، وعاطفة « عزيز » هي التي فجرت ينابيع الشعر في قلبه، ومن هنا كان شعره المهموس الذى يعبر عن وجدانه الذاتي شعراً لا يجارى. ومن هنا أيضاً كانت الأنات آية من الآيات؛ وبعد العاطفة يأتي الخيال فيما يقتضيه الشعر: و « عزيز » كان له من حسن التخيل أوفى نصيب، أما اللفظ الرشيق، أما التصوير الدقيق، أما التشبيه البديع، أما النغم الحلو، فقل في ذلك كله في جانب « عزيز » أكثر مما قيل وأكثر مما يمكن أن يقال في جانب أى شاعر آخر من شعراء عصره:

السيد الرئيس، إخواني:

يقع على نزولا على تقاليدكم أن أستحضر اللغة لتكون معنا بأن أعرض عليكم مسألة من مسائلها. وقد اخترت لهذه الغاية مسألة اللغة والحضارة، ذلك لأنني رأيت بين المفكرين من يقول إن اللغة مرآة تعكس حضارة عصرها، وتسير في ركابها. تابعة لها تسمو بسموها، وتهبط بهبوطها، وهذا القول قد يفتح الباب للظن بأن دور اللغة في بناء الحضارة أدنى إلى السلب منه إلى الإيجاب، وهو قول تنقضه الحقيقة العلمية؛ ولكى ندرك هذه الحقيقة يكفينا أن نعرف ماهى

الحضارة ، ثم نعرف مبلغ اعتمادها على الفكر ، وأخيرا نعرف مبلغ اعتماد الفكر على اللغة .

أما الحضارة فهى كما يقول المعجم الوسيط : «مظاهر الرقى العلمى والفنى والأدبى والاجتماعى فى الحضر » :

أما اعتمادها على الفكر ، فآيته أن الحضارة لم تخط خطوة واحدة فى تاريخها إلا كانت وراءها فكرة تحركها وتمسك بزمامها . !

وأما اعتماد الفكر على اللغة ، فإن الفكرة تظل حائرة فى ذهن صاحبها ، حتى تجد اللفظ المناسب لها فتستقر وتثبت وتتحدد عندئذ ، وعندئذ فقط يمكن الاحتفاظ بها فى الذاكرة كما يمكن الانتفاع بها فى الفهم والتفاهم .

إذا كان ذلك ، وكان لا بد للحضارة من الفكر ، وكان لا بد للفكر من اللغة ، أقول إذا كان لا بد للحضارة من الفكر ، لأنه هو الذى يحركها ويمسك بزمامها ، ولا بد للفكر من اللغة لأنها هى التى تجسده ، كان مقتضى ذلك ولازمه أن تكون اللغة ركناً من أركان الحضارة ، لا مجرد مرآة تعكسها أو مجرد تابع يسير فى ركابها .

واللغة المقصودة هنا ، هى الفصحى ، والفصحى وحدها دون سواها ، لأن غاية العامية وقصاراها أن تعبر عن حاجات البيت والطريق والسوق ، أما حاجات العلوم والفنون والآداب وما إلى ذلك من وجوه المعرفة ، معرفة الإنسان فليس لها إلا الفصحى ، وحيث تتصارع اللغتان ، والصراع هنا حتم يفرضه قانون تنازع البقاء وحيث يقع هذا الصراع بين اللغتين : الفصحى والعامية ، فإن ما تكسبه الفصحى يكون كسباً للحضارة ، وما تكسبه العامية يكون عبئاً على الحضارة وقيداً يقيد خطاها .

ولما كانت الأمية هى مصدر العامية ، فقد صار محو الأمية علامة من أبرز علامات الحضارة ، ومقياساً من أدق مقاييسها ، وإذا قسنا حضارتنا بهذا المقياس ، فإننا ننتهى مع الأسف الشديد إلى نتيجة تفدح النفس وتقهر القلب ، لأن الأميين عندنا يمثلون ثلاثة أرباع السكان ؛ كانوا كذلك منذ عشرين عاماً ، وهم كذلك الآن ، ولا تسألوا أين أجهزة التعليم ؟ لأن الجواب حاضر ، تقف عاجزة العجز التام عن أن تنال من هذه النسبة منالا .

أما شاهدى على هذه النسبة فهو بحث قيم كتبه الكاتب الأديب « الأستاذ لويس عوض » فى صحيفة « الأهرام » ، فى عددها الصادر فى السادس والعشرين من فبراير سنة واحد وسبعين ، وقد جاء فيه ما يأتى :

« ورثنا عن مصر الملكية نسبة من الأمية قوامها ٧٥ ٪ من مجموع السكان ، وكان يقدر بنحو ٢٠ مليوناً ، ونحن الآن بعد ٢٠ عاماً ورغم ارتفاع ميزانية التعليم إلى نحو مائة وعشرين مليوناً من الجنيهات سنوياً

لا نزال نحافظ على نسبة من الأمية قوامها نحو خمسة وسبعين فى المائة من مجموع السكان » .

قد لا ترضينا هذه الأرقام لأنها لا تساير آمالنا ؛ ولأنها تخدش كرامتنا واعتزازنا بأمتنا ، لكن الأدلة أجمعت على صحتها . فقد عهدت فى كاتبها الأمانة والدقة والشعور بالمسئولية ، وهو إلى ذلك كاتب ملتزم ، وقد نشرتها صحيفة الأهرام وهى ملتزمة أيضاً . والالتزام له مفهومه الذى لا يخفى عليكم : وقد لاذت أجهزة التعليم أمامها بصمت مطلق فلا هى أنكرتها ولا هى نازعت فيها .

وإذا كان ذلك ، وكانت هذه الأرقام صحيحة ، كان لى أن أقرر بناء عليها والأسى يملأ قلبى أننا نعيش فى مجتمع أمى ؛ لأن العبرة فى الأحكام على المجتمعات بالكثرة لا بالقلة : نعم ، نحن نعيش فى مجتمع أمى ، وهذا يعنى أننا نعيش فى مجتمع أطبق عليه الجهل ، وهو يعنى أننا نعيش فى مجتمع يغشاه الظلام فى أوضح ساعات النهار .

ومن هذه الحقيقة المؤلمة نستطيع أن نتبين العلة المسئولة عن سائر العلل التى نشكو منها فى حياتنا كلها :

فالأمية هى المسئولة عن الانفجار السكانى الرهيب الذى يهددنا بأوخم العواقب . وقد ثبت أن متوسط إنجاب الزوجة الأمية فى الريف تسعة أطفال ، بينما متوسط إنجاب الزوجة المتعلمة يتراوح بين أربعة وخمسة أطفال :

والأمية هى المسئولة عن هبوط مستوى الإنتاج ، لأن العامل المتعلم ، زارعاً كان أو صانعاً ينتج أضعاف العامل الأمى . ومن هنا تغيرت النظرة إلى العلم فى العالم كله شرقه وغربه ، فقد أصبح العلم وجهاً من وجوه الاستثمار ، وكان من قبل خدمة من الخدمات :

والأمية هى المسئولة عن هبوط مستوى الثقافة العامة ، لأن مصانعة الكثرة الجاهلة ومجاملتها لا تكون إلا على حساب من أقدار القلة المتعلمة ومواهبها ، وفى هذا تفسير لهجرة العقول التى نراها بالبصر ولا نرى بالبصيرة ما وراءها من أسباب ، ولا ما ينبنى عليها من نتائج :

والأمية هى المسئولة عن شعب لا يفقه ولا يفهم حقوقه السياسية ، فلا عجب إذا لم يشارك حكامه فى تقرير مصيره ؛ ومن باب أولى لا عجب إذا عجز عن أن يحاسب حكامه أو أن يحسن الحكم عليهم .

والأمية هى المسئولة عن أمة تتحول إلى شعب ، وشعب يتحول إلى جماهير ، وجماهير تتحول إلى غوغاء :

إننا نخوض حرباً ضارية ضد عدو شرس عنيد بغيض ، وإن لهذه الحرب علينا أن نقدم لها كل ما فى القلوب من إيمان ، وكل ما فى الصدور من شجاعة ، وكل ما فى اليد من مال ؛ ولكن ذلك كله لا يجوز أن يصرفنا لحظة عن حرب نشنها ضد الجهل والظلام :

سيدى الرئيس ، إخوانى :

يبقى أن أحدثكم عن سلفى ، وأخشى أن أكون قد تحاملت على أوقاتكم ؛ أحدثكم عن سلفى المرحوم الدكتور محمد عوض محمد ، والحق أننى لم أكن قريباً منه حال حياته ، لكننى كنت أسمع عنه وأقرأ له ، وبعد أن استأثرت به رحمة الله ، نظرت فى آثاره ، فإذا أنا أمام سيرة تنبعث منها الأضواء من عدة جهات ، فقد كان ، عليه رحمة الله ، رائدا من رواد المدرسة الوطنية التى سبقت نهضة سعد زغلول ، وكان أسلوب هذه المدرسة فى إيقاظ الوعى الوطنى أن تثير المشاعر ضد الغاصب المحتل ؛ ويبدو أن صاحبنا ، على صغر سنه ، كان نشاطه ملحوظاً فى هذا المضمار ، وبدا خطر هذا النشاط لسلطة الاحتلال بعد أن اندلعت الحرب العالمية الأولى ، فاعتقلته وقذفت به إلى « مالطة » ، حيث قضى أربعة أعوام ، وكانت « مالطة » حينذاك ، محبس كبار الأحرار .

هذا وجه من وجوه الإشعاع فى هذه السيرة العطرة لسلفى « عوض » .

الوجه الثانى : هو العلم ، فقد كان جغرافياً نابه الذكر ، حاضراً فى الجغرافيا ، ووضع فيها كتباً قيمة لفظاً ومعنى ، ولم يقع فيما يقع فيه بعض المتخصصين الذين سمحوا لمادة التخصص أن تستأثر بهم وأن تستنفذهم وأن تصرفهم عن غيرها من مواد المعرفة ، فضاقت آفاقهم ، وصغرت أحجامهم ؛ على النقيض من ذلك كان « عوض » صاحب ثقافة عامة ، غنية ، غزيرة ، متنوعة ؛ فهو مثلا يكتب عن الرق ، والمسافة بعيدة جداً بين الجغرافيا والرق ، وهذه الثقافة الغنية المتنوعة هى التى أتاحت له ، عليه رحمة الله ، أن يكون واحداً ممن وضعوا ميثاق الأمم المتحدة ، وأن يكون واحداً ممن صاغوا بعد أن ناقشوا شرعة حقوق الإنسان . هذه الثقافة الغنية الغزيرة هى التى أتاحت «لعوض» فى خطوة أولى أن يكون عضواً فى المجلس التنفيذى لليونسكو ، وأن يكون بعد ذلك فى خطوة ثانية نائباً لرئيس هذا المجلس ، وأن يكون بعد ذلك فى خطوة ثالثة رئيساً لهذا المجلس نفسه .

الوجه الثالث من وجوه الإشعاع فى هذه السيرة ، هو الأدب بنوعيه ، الخاص والعام ، لأنه كان تارة يقدم الفكرة ، تؤيدها العاطفة ، فيكون أدبه عاما كأدب المؤرخ وأدب الناقد ، وكان تارة يقدم العاطفة تؤيدها الفكرة فيكون أدبه خاصا كأدب الشاعر وأدب القصة . وكان إنتاجه من النوع الأول أكثر كثيرا من إنتاجه فى النوع الثانى ، لأنه كان يميل إلى النقد قصد الإصلاح ، وكان نقده فى الغالب يدور فى مدارين : الاجتماع والسياسة ، وكان يحلو له بين الحين والحين أن يسخر ، ولكن سخريته كانت دائماً تتسم بالحياء ، وتتحدث من وراء حجاب وكان لها من الأسطورة والرمز والحوار ، فضلا عن الكناية والاستعارة والمجاز ما أغناها فى هذا الباب .

هذه سيرة عوض كما تمثلها فى آثاره ، أما سيرته فى المجمع فأنتم أعلم بها منى ، رضى الله عنه وأرضاه :

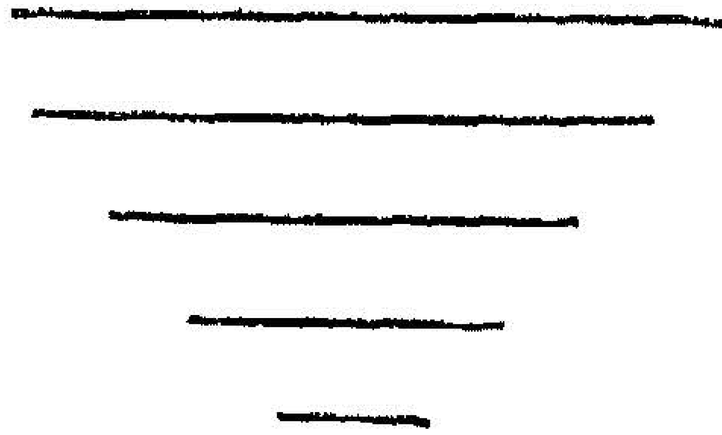
السيد الرئيس :

كان لك تقديرى وإعجابى قبل أن أراك ، وقد رأيتك فرأيت الحكمة مجتمعة مع القدرة ، والخلق ، وهذه ألوان نادرة قل أن تجتمع فى علم واحد ، وإن الذى بينى وبينك ياسيدى أكثر كثيرا وأعمق جدا من الطربوش ؛ لأن الطربوش رمز فقط ، وهو اليوم يرمز إلى كثير تفهمه أنت وأفهمه أنا ، وأرجو أن يفهمه معنا كثيرون .

أما أنت «ياعبد العزيز» ، ياشيخ القضاة ، فما عهدتك مجاملا قط فى دار القضاء ، ولكنك جاملتنى اليوم من غير شك فى هذه القاعة ، ولا عليك ، فالمجاملة هنا محمولة على معنى الوفاء ، والوفاء وجه من وجوه البر أو وجه من وجوه العدل .

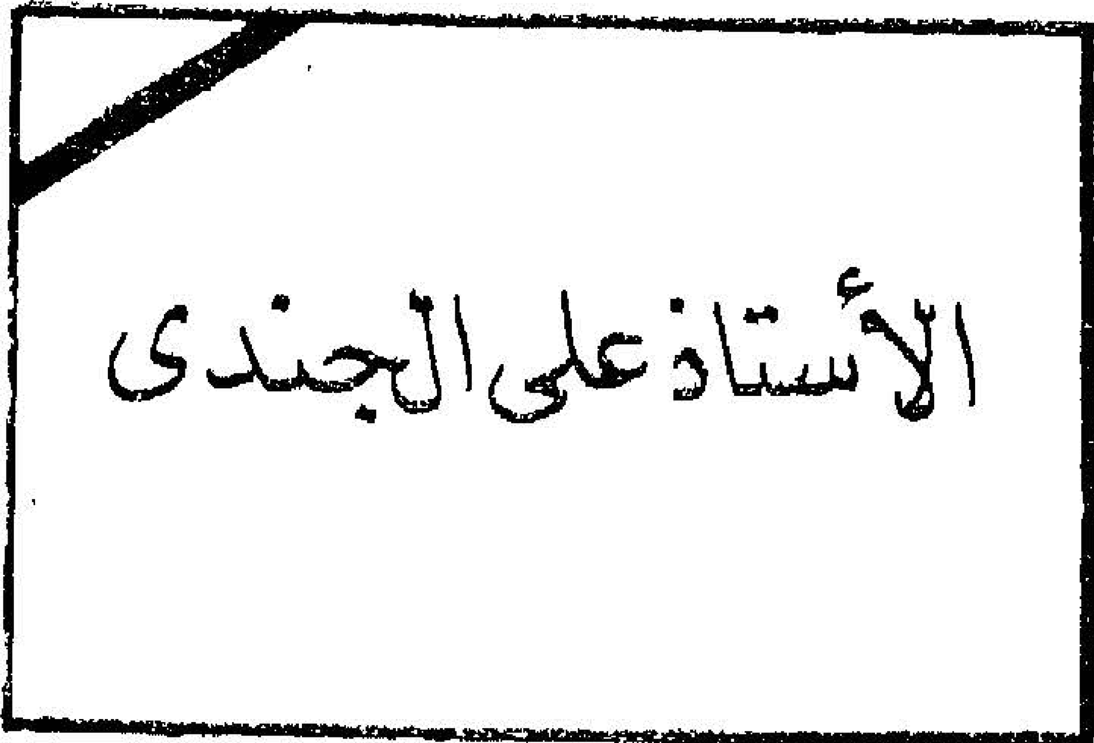
أما أنت « ياثروت » ، فإنى قسيمك فى بلواك ، شريكك فى مصابك ، وإنى أسأل الله أن يهيئ لك ولذويك أسباب العزاء .

وأما أنتم أيها السادة ، فالشكر لكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .



فى الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٢٠ من شوال سنة ١٣٩٣ هـ (الموافق ١٤ من نوفمبر سنة ١٩٧٣ م) أقام المجمع بداره بالجيزة حفل تأبين للمرحوم على الجندى عضو المجمع ، وفيما يلى ما ألقى فى الحفل :

كلمة الافتتاح للأستاذ زكى المهندس فى تأبين المرحوم :



زملائى .

سيداتى وسادتى :

إنه ليعز على المجمع أن يجتمع اليوم لتأبين زميل كريم ، وأستاذ فاضل ، وشاعر لامع هو المغفور له ، على الجندى :

لقد كانت وفاته الفجائية صدمة هزت أعصابنا وتركت فى نفوسنا أشد الحزن وأعمق الأسى : لقد كان الفقيد قبل وفاته بيومين اثنين بيننا سليما موفور الصحة لم يبد عليه أقل أثر للضعف ، بل لقد كان ليلة وفاته يتحدث إلى الزميل الأستاذ عباس حسن حديثا فيه دعابة وفيه مرح ، وقد اعتزما أن يلتقيا فى صبيحة تلك الليلة لقضاء بعض الشئون ، ولكن مالبث زميلنا الأستاذ عباس أن روع — كما روعنا — بوفاته فى الصباح الباكر .

ويبدو أننا في غمرة الحزن والأسى ننسى أنه ليس للموت مواعيد ، وليس للأجل مواقيت ، فكم من رجل يخرج من بيته سليما معافى ثم يدركه الموت فلايعود إلى داره إلا محمولا ، وكم من رجل يمسى وفى صدره آمال كبار ، ثم يصبح فاذا هو خبر من الأخبار . هذه إرادة الله الذى لاراد لقضائه ولا معقب لحكمه :

ويبدو أن هذه الوفيات الفجائية قد أصبحت من سمات هذا العصر الحضارى الذى نعيش فيه ، فقد اشتد ضغط الحياة ، وتنوعت تكاليفها ، وازدادت سرعتها ، وأصبح الإنسان يطمح إلى تحقيق أهداف بعيدة لاتقوى صحته على احتمالها ، ومن أجل هذا كثرت الذبحات الصدرية ، والنوبات القلبية ،

والانهيارات العصبية ، والضغط العالى والواطى وما إليها من الحالات التى لم يكن لأجدادنا عهد بها .

هذه أيها السادة هى ضريبة الحضارة ، ويجب أن نتقبلها راضين أوكارهين.

ومع هذا فإننا نؤمن إيمانا راسخا عميقا بأن كل حى إلى فناء، وأن كل نفس ذائقة الموت وأن لكل إنسان أجلا محتوما وقدرا مقدورا « فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون » صدق الله العظيم .

رحم الله الفقيد رحمة واسعة ، وأسكنه فسيح جناته ، وجزاه عما قدم للأدب واللغة بخير مايجزى به عباده المخلصين العاملين .

●●● كلمة الأستاذ عباس حسن :

بسم الله نبتدئ ، وبحوله نستعين ، وبحمده نلهج فى السراء والضراء ، وبحكمته البالغة نؤمن فى كل ما تجرى به المقادير ، ولأنبيائه ورسله أكمل الصلاة وأزكى الدعاء وأصدق الإكبار والتقديس ، ولمن اهتدى بهديهم وترسم خطاهم أصدق مراسم الود وأخلد آيات التقدير . ترددها الألسنة فى حياتهم ، وتجددها الذكريات البارة الخالدة بعد مماتهم ويظل تاريخهم منارا يستضىء به السائرون فى ظلمات الحياة ، وهدى يسترشد به الضالون فى متاهاتها . وها نحن أولاء نتلاقى اليوم لنتذاكر ونردد مآثر علم من أعلام الهداية ودعامة من دعائم النفع الأصفى والخير الأعم هو الأستاذ: « على الجندى » أثابه الله على ماقدم ، وأفاض عليه من رحمته ورضوانه ما يفيضه على المصطفين الأخيار من أهل جنته ودار خلوده . فما أجدر فقيدنا أن يكون فى زمرة من أنعم الله عليهم بالرضا وسلكهم فى مسالك الصديقين والشهداء والصالحين .

وما عسى أن أقول فى وصف فقيدنا من صادق القول وخالص الحق بعد أن فقدت الألفاظ فى عصرنا — بل قبل حاضرنا — صحيح الدلالة ، ودقيق المعنى ، وخصيصة التحديد ، وانطلقت الألسنة تردد فى الثناء على من يستحق ومن لايستحق عبارات أيسرها : أنه علامة زمانه ، وفريد عصره وأوانه ، وأنه أشجع الأبطال ، وأذكى الرجال وأعلم العلماء وأبرع الكتاب وأشعر الشعراء وماشئت من صيغ التفضيل وأفاعله فى غير حذر ، ولاتحفظ ولاتحرز ، حتى أخذ عليهم هذا بعض القدامى فسجل أن المديح المردد قد استفاض حتى انتهى إلى ابتذال اللفظ وموت المعنى ونفور النفس كما سجله شاعرهم الذى يقول :

هل غادر الشعراء من متردم ؟

فما عسى أن أقول اليوم فى موقف التأبين ؟ وما عسى أن أصنع ؟

لامناص من الترديد ، ولى فيه شافع بل دافع ؛ ذلك أنى أعرض مآثر فقيدنا على من يعلم حقيقتها ويقطع بصدق القول فيها لاتشوبها شائبة ادعاء ، ولايدانيها من قرب أو بعد زيف أوتضليل، فماذا عن فقيدنا الراحل أسبغ الله عليه رحمته ورضاه ؟

لقد زاملته فى عهد الطلب ، وصاحبته بعد التخرج سنوات التدريس فى التعليم ، ثم فى كلية دار العلوم . وتلاقينا بعد ذلك عضوين فى مجمعكم الموقر وقضيت فى هذه الملازمة والمصاحبة نصف قرن أو يزيد . وقل أن تتهيأ هذه المرافقة لكثير من الناس. وأشهد أنى بعد طول المصاحبة فى ميادينها المختلفة ومسالكها أو مزالقها الوعرة الخطيرة لم أر منه إلا مايسر الصديق ، ويرضى الخلق الأسمى ، ويكبت الماجن ، ويحمل الحاقد قهرا على محبته وإكباره . عرفته سمح الطبع مأمون البادرة بل يُظلم أحيانا فيغتفر ، حلو الفكاهة ، حاضر البديهة وقّاد القريحة يزينه فى شبابه شيب جميل على وجه أجمل ، وعقل أكمل : ورأيته فى عهد الطلب مجليا سباقا قلما تخلى عن مكان الصدارة ، يزينه أدب جم ، وحياء محبب ومنافسة فى كرائم الأمور ، وترفع عن صغائرها . يتوج هــذا كله حرص على الدين ، واستمساك بأحكامه ، وانقياد كامل لكل مايقضى به فى غير تزمت مقيت ولا تحلل بغيض .

وزاملته مدرسا فى معاهد التعليم العام فإذا اسمه يتردد فى مقدمة الأفذاذ مادة وصناعة وتأليفا وأمانة رواية . لم تتخل عنه مزاياه الخلقية ، ولم يتخل عن الحرص عليها ، والاستمساك بها . وهو إلى ذلك كله جم التواضع سمح الطبع لم يتحدث يوما عن نفسه ولم يردد على لسانه لفظة « أنا » ولم يجبه متحدثا بما يسوء ولم يرد عليه بعض ماقال .

وتراه يصغى للحديث بسمعه وبقلبه ، ولعله أدرى به ، ولا تراه إلا باسم الثغر ، متهلل الوجه ، إن فاخرك لم يغضبك ، وإن مازحك لم يجرحك .

وإذا رأيت شقيقه وصديقه
لم تدر أيهما من الأرحام

ينطبق عليه ماقاله بعض السابقين فى صديق له وقد سئل لم تحبه ؟ فقال : إنه الصديق الذى لايضجرك محضره ، ولايسوءك كلامه ولايستخرج ماعندك بالملق والمداهنة ، ولا يدنس لسانه بغيبة ، ولا يمشى بين الأخلاء بالسعاية ولايتوانى فى المجاهرة بالحق ولو صدم به الجبابرة العتاة ، ديدنه : قول القائل :

ولست أبالى حين أقتل مسلما
على أى جنب كان فى الله مصرعى

وفى تلك الحقبة التى قضاها فى مدارس التعليم العام أمد المعلمين والمتعلمين بمؤلفات مدرسية متعددة نهضت بالتعليم والدراسة ، وأعانت المعلمين والمتعلمين ورددت ألسنتهم بعظيم مزاياها وجليل آثارها .

حتى إذا انتهى به المطاف إلى كلية دار العلوم ووكل إليه تدريس البلاغة والنصوص تهلل وابتهج ، إذ وجد الميدان الأرحب الذى يناسب مواهبه وذخائره ويتسع لطرائقه وتجاربه فى التدريس وفى التأليف . وفى سنواته القليلة خرج علينا بعدة كتب فى البلاغة كانت طرازا جديدا فى مجالها ؛ وذخائر نفيسة فى نواح بلاغية وأدبية؛ ذلك أنه اختط فى تأليفها طريقا جديدا ، وأحكم الخطة فيها أيما إحكام ؛ فكانت صورا ممتازة من الضوابط البلاغية القاعدية ، تساوقها الأمثلة من الأدب الرفيع ، فقارئها ودارسها ينتهى بها أو تنتهى به إلى تحقيق غرضين جليلين : هما الضوابط القاعدية ، والروائع الأدبية . ولعل الموقف يقتضينى أن أذكر بعض الأمثلة من ذلك الفيض الهتون الذى تموج به كتبه ، ومنها كتاب فى جزأين خصصها بفن الأسجاع وحده ، فمن أمثلة الجناس قول الفرزدق فى زين العابدين :

هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا التقى النقى الطاهر العلم

ومن أمثلته للجناس المسجوع ، وما أثقل هذا النوع ، قول بعض الوزراء لأحد عماله : كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما اعتدلت وإما اعتزلت ». وما كتبه آخر : ترفق توفق . وما كتبه ثالث : « للمحسن ما يقنعه وللمسىء من النكال مايقمعه ». ومن أمثلته للتشبيه وقد كان من أمثلته فى عصرنا « زيد كالأسد » و « كأنما الوجه قمر » ، فجاء فقيدنا فعرض عشرات جديدة محببة منها فى التشبيه المركب :

يهيجنى الحمام إذا تغنى
كما سجع النوائح بالمراثى

ومن الأمثلة القديمة للكناية فى عهدنا السالف « زيد كثير الرماد ، طويل النجاد » فاستبدل بها عشرات طريفة منها ومن التورية كقوله :

وتنبهت ذات الجناح بسحرة
بالواديين فنبهت أشواقى
ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن
يعقوب والألحان عن إسحاق

وعلى هذا النمط سرى فى اختيار أمثلته المختلفة فى أبوابها المتعددة وقواعدها المتنوعة . وبودى لو يتسع المجال ولكنه وأسفاه لا يتسع هنا لاستعراض كثير من طرائف الأمثلة ونواحى التجديد لنتبين أن كتبه بحق زاد فى القواعد البلاغية فريد ، وزاد لغوى ميسر وذخيرة أدبية غالية .

وحسبى أن أكتفى من هذه الكتب البلاغية بذكر ما رأيته منها وهو : (١) البلاغة الغنية (٢) فن الأسجاع فى جزأين (٣) فن التشبيه فى ثلاثة أجزاء (٤) فن الجناس .

تلك كلمة عن فقيدنا العالم ، أما عن فقيدنا الأديب فأوجز مايقال فيه أنه إحدى الأعاجيب حفظاً واستظهاراً وشاعرية ، فمحفوظه لا يكاد يحد أو يعد إلا بآلاف الأسطر والأبيات ، وهل أدل على ذلك من أن تذكر أمامه أمراً فما تكاد تنتهى منه حتى ينقل إلى سمعك ما قاله الأدباء قديمهم وحديثهم

— فيه شعراً أو نثراً ، حتى لتكاد تتوهم أن الذخائر التي يحفظها رهن يمينه ووديعة راحته أو على أطراف أنامله ، يعرضها حين يشاء ويدعوها حين يريد فهي أسرع ما تلبي النداء في غير توان ولا إمهال ، وتلك خصيصة بارزة من خصائصه يعرفها أصحابه ورفاقه :

وأما شعره فسل عنه دواوينه الأربعة بقصائدها التي تفيض بالروائع والبدائع وتضرب في مناحي الحياة المختلفة حضرها وريفها ، مصنوعها ومطبوعها ، وهي في كل ضروبها ضروب من الفن الأمثل والنسق الأعلى ، وحسبك من عيون قصائده — وكلها عيون — قصيدته في وصف الإسكندرية وقصيدته في العزة ، وقصيدته في اليتيم ، وكان بودي أن أعرض الساعة لخصائصه الفنية ، وأتناول أدبه بالدرس والنقد والتحليل ، ولكن المجال لا يتسع لهذا هنا ، وأكتفي بعرض نماذج قليلة . قد تكون رمزا لغيرها :

من قصيدة : بين أعمى البصر وأعمى البصيرة * ! !

صدقتَ أنا الأعمى! وإن كان لي نظرٌ ... وليس العمى أن تفقد العين نورها
يكاد يرى المخبوءَ في باطن الحجرْ ... ولكنه نور العقول إذا استتر
وأنت بصير تلحظ الشيء واضحاً ... وكائنْ نرى أعمى من الناس بيننا
بعين قَطامِيٍّ وإن خانك البصر ... ومقلتهُ لاتشتكي الطولَ والقِصر

من قصيدة : صورة تذكر بخالقها ! !

(الجمال الصريح ما استنطق الأفواه بالتسبيح)

ليت شعرى ! ما رابني من جمال ... ذكّرينا « ياجُمْل » بالله ، فالله
هو لله حجّةٌ بيضاءُ ؟ ! ... جمـــالٌ هامتْ به الأصفياء
رُبَّ حُسنٍ هدى إلى خالق الحسن ... حيارىَ لم يهدهم أنبياء
ودعاء باسم الملاحة يُزْجِي ... وارجعينا إلى الحيـاة ! فقد مُتْنـا
تتـلقّـاه بالقبـول السماء ... وإن ظُـنَّ أنـنـا أحيـاء

* * *

(*) كان يسير في النهار المبصر شارد الفكر ، فصدم إنسانا كفيف البصر : فقال له الرجل — وهو يضحك : هل أنت أعمى ؟ !

فأطربته هذه اللفتة ! فأقبل عليه مصافحاً معتذرا ! ورأى زيادة في مجاملته أن يهدى إليه هذه الكلمة .

أى علىّ . . :

عليك تحيـــة الرحمن تترى
برحمـات غواد رائحـات

فعزاء للمجمع فى نابغ من أعز رجالاته ، وأظهر أعضائه ، وعزاء للأسرة فى زعيمها الأوفى وكبيرها المرجّى ، وعزاء للغة والأدب والأدباء فى أوضح أعلامها .

أى علىّ . . . سنذكرك ماحيينا :

فقد ثبتت فى القلب منك محبة
كما ثبتت فى الراحتين الأصابع

ثم فى جنة الخلد راضيا مرضيا ، وانعم بجزاء ماقدمت يداك ، واسعد بما وعد الله به عباده الصادقين المخلصين ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبدا ، إن الله عنده أجر عظيم .

●●● قصيدة للأستاذ محمد عبد الغنى حسن :

مات الأديب الشاعر الراوية (*)

فى كل عين دمعةٌ جاريه
وكل نفس حسرةٌ باقيه

حين تنادَى الجمع مابينهم
مات الأديب ، الشاعر ، الراويه

مات ! فيا حزنى على واحد
فقدْتُ فيه كلَّ أحبابيَه

فقدتُ فيه ماضيا مدبرا
« والدارَ » ، و المجلسَ والعافيه

فى كل عين نبأ مفزع
عن أنفُس ذاهبة ماضيه

نكاد لا ننفُضُ عن راحل
غبارَهُ حتى نرى تاليه

نشيِّعُ الموتى ، ولا نرعوى
كأننا فى سكرة لاهيه

تدفعُنا الأرحامُ فى لحظة
ويحتوينا القبرُ فى ثانيه

ونحن مابين بداياتنا
ومنتهانا صورٌ فانيه

* * *

(*) تفضل الأستاذ محمد شوقى أمين بإلقائها فى حفل التأبين الذى أقيم بدار المجمع فى صباح الأربعاء ١٤ من نوفمبر سنة ١٩٧٣

مات الذى كانت رواياته
ذات أسانيدٌ لها عاليه

تراه من كثرةِ محفوظه
يدهش بالحافظة الواعيه

تعيد ماقد قرأت سابقا
لاضحلةٌ الغور ، ولا ناسيه

والنائياتُ الذكر إن يدْعُها
تصبحْ لديه سهلة دانيه

يظل يَرْوى . . . لا الوفاض انتهى
منه . ولاجعبته خاليه

أما الدراسات فكانت له
فيها البحوثُ الحرةُ الضافيه

فى « السجع » ؛ فى « التشبيه » آثارُه
ليست على طلاّبها خافيه

كم وَرَدوا من نبعها صافيا
من البيان العذب أو صافيه

أضْفَى على المتنِ بها رقةً
وأسبغَ الحُسن على الحاشيه . .

فلا ترى فيهن من منطق
جافٍ ، ولا من لفظة جاسيه

حتى « الشذا المؤنس » من ورده
مازال كالنرجس فى الآنيه . . .

فى « المجلس الأعلى » خُطانا به
رائحةٌ للشعر ، أو غاديه

وفى لجان الشعر كم جلجلتْ
منه ومنا ثورةٌ حاميه

يفترق الرأى : : : ولكننا
لم نفترقْ فى الحب من ناحيه

يهدرُ باللفظ : : : ولكنه
لَمْ يَرْمِ يوماً لفظة نابيه

فى منطق عفٍّ وفى غضبة
تعودُ من لحظتها راضية :::

إذا غضبنا فلأمجادنا
ودِيننا ، واللغة الراقيه

وفى سبيل الله ثوراتنا
والحضرِ المحبوبِ ، والباديه

* * *

و « مهرجان الشعر » كم ذُوِّبتْ
أنفاسُه فيه ، وأنفاسيه !

يبثُّنى — مستعبرا — ما به
أبثُّه — مسترحماً — ما بيه

نأسَى على الشعر الذى لم يعد
فيه رُواءُ الأعصر الخاليه

فلم يعدْ كأسٌ ولا شاربٌ
ولم يعدْ ساق ، ولا ساقيه !

ولم يعد هذا المذاقُ الذى
يلتذُّ طعم اللفظة الحاليه

ولم يَعُد تُغْرَى شفاهٌ به
ولم تعد أفئدةٌ صاغيه !

ولم تعد حتى الخِلالُ التى
قد سنّها الشعرُ لنا هاديه . .

كنا البقايا فيه من حفنة
لكل أمجاد لنا راعيه

لم نقْبل التجديـــــد إلا على
آثار أعراقٍ لنا صافيـــــه
ولم نـــــزل فى ظـــــلّ أمجادنا
نعيشُ فى نعمى ، وفى ْفيـــــه !

* * *

يامجمعــــــا للخُلد ! مابالـــــه
قـــــد دَهِمتْه زعزعٌ عاتيـــــة ؟
فى كـــــلّ يوم علَمٌ ينطـــــوى
فى كـــــل حـــــين قمة هاويـــــه
وللـــــردى عينٌ . . . ولكنها
على الـــــذُّرا مفتوحـــــة صاحيه
من ذا أعـــــدّ اليوم منْ عقدِكم
وكلـــــه حبّاتُـــــه غاليه ؟
أليمـــــة أن الردى غالـــــه
وبعـــــثرتْه ريحُـــــه الذاريـــــه

إن كان هـــــذا الموتُ قد راعكم
بضربـــــة من كفـــــه راميـــــه
ففيكم اليـــــومَ عزاءٌ لنـــــا
يا حَجَـــــرَ الإخلاص فى الزاويه
ويا أعـــــزّ الناس فى المنتـــــدى
ويا جمالَ الحـــــرف فى القافيه !

* * *

يا عَمَـــــد الفُصحى وأساسهـــــا
ويا ضياءَ الليلـــــة الداجيـــــه
ويا تجـــــاريبَ زمانٍ مـــــضى !
ويا تجـــــلّى ســـــاعة آتيـــــه !
لا خـــــير إن فلّ الردى جمعكم
وأدركتـــــكم سنّةٌ جاريـــــه
كفاكمو خُلـــــداً هنـــــا أنكم
تمضُون . . والفصحى بكم باقية . .

●●● كلمة الأسرة للأستاذ محمد الفاتح الجندى ((نجل الفقيد))

الأستاذ الجليل رئيس مجمع اللغة العربية بالنيابة

السادة الأجلاء أعضاء المجمع

سيداتى وسادتى :

لقد كان تكريمكم لا تأبينكم اليوم لعميد أسرتنا زميلكم المرحوم الأستاذ على الجندى خير شاهد على جليل وفائكم ، وأقوى دليل على نبيل مشاعركم وفيض أحاسيسكم التى عبر عنها زميلا الفقيد : العالم اللغوى الأستاذ الكبير عباس حسن ، والأستاذ الشاعر المطبوع محمد عبد الغنى حسن ؛ وذلك التكريم العلمى من قادة اللغة وسدنة الفكر فى البلاد العربية هو خير ما يواسى الأسرة ويخفف عنها مصابها الفادح ، وسيظل فقيدنا خالداً بسجاياه وسيرته وبآثاره الأدبية والعلمية التى تحدث عنها الأستاذان الفاضلان .

مامات من حاز الثرى آثاره
واستولت الدنيا على آدابه

وسيبقى فقيدنا حياً بهذا التكريم من رجال يعرفون الفضل لذويه ، ولا غرو فى ذلك ،

فأنتم صفوة رجال الفكر وقادة الرأي وأساتذة الجيل وحماة تراثنا العربي ، والمدافعون عن حياض اللغة العربية وآدابها وعلومها . . .

واسمحوا لى أيها السادة أن أبيح لنفسى فى هذه المناسبة أن أنقل إليكم أن أعز أمنية للفقيد الراحل وهى أمنية سجلها التلفزيون العربى قبل رحيله بأيام معدودات ، كانت هى الابتهال إلى الله سبحانه وتعالى بأن يوحد الله سياسة العرب وزعمائهم وأن يكتب النصر الأمة العربية على عدوها الصهيونى الشرس فى معركة الشرف والمصير وأن يمد فى حياته حتى يشهد يوم النصر .

ولعل فى بشائر النصر التى بدت فى العالم العربى فى هذه الأيام ماتقرّ به روحه وتسعد بها فى عالمها العلوى مع الصديقين والشهداء ، وهو ماتنبأ به الفقيد منذ عدة سنوات وعبر عنه فى هذه الأبيات :

أقسمت باللـــــه الـــــذى
فـــوق البرايا قـــد قهـــر
بالشمس بالقمـــر المنيـــر
وبالصباح إذا سفـــــر
بالذكـــر بالإنجيـــل بال
كتب المقـــدسة الأخـــر
بالبيت بيت اللـــه حـــج
لـــه الموحـــد واعتمر
أنـــا سنقذف باليهـــو
د إلى غيابـــات الحفـــر
بالجيش كالسيـــل الدفـــا
ق وكالخضم إذا اعتكـــر
ونعـــود للفردوس يحدونـــا
ويقدمنـــــا الظفـــر
ويقـــال : حزب الله مـــن
حزب الضلالـــة قد ثـــأر
ويقـــال : صهيون تـــلاشى
وابن ديان اندحـــر
ويقـــال : جيش العـــرب
فى حـــرب المصير قد انتصر

كما كان والدى ، رحمة الله عليه ، يأمل أن يرى بحوثه وآثاره المخطوطة التى انتهى من إعدادها فى أيامه الأخيرة متداولة بين الناس ، وإنى أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا ويعيننا على نشر تراثه الفكرى وإنتاجه الأدبى حتى ينتفع به الناطقون بالضاد فى العالم العربى والإسلامى .

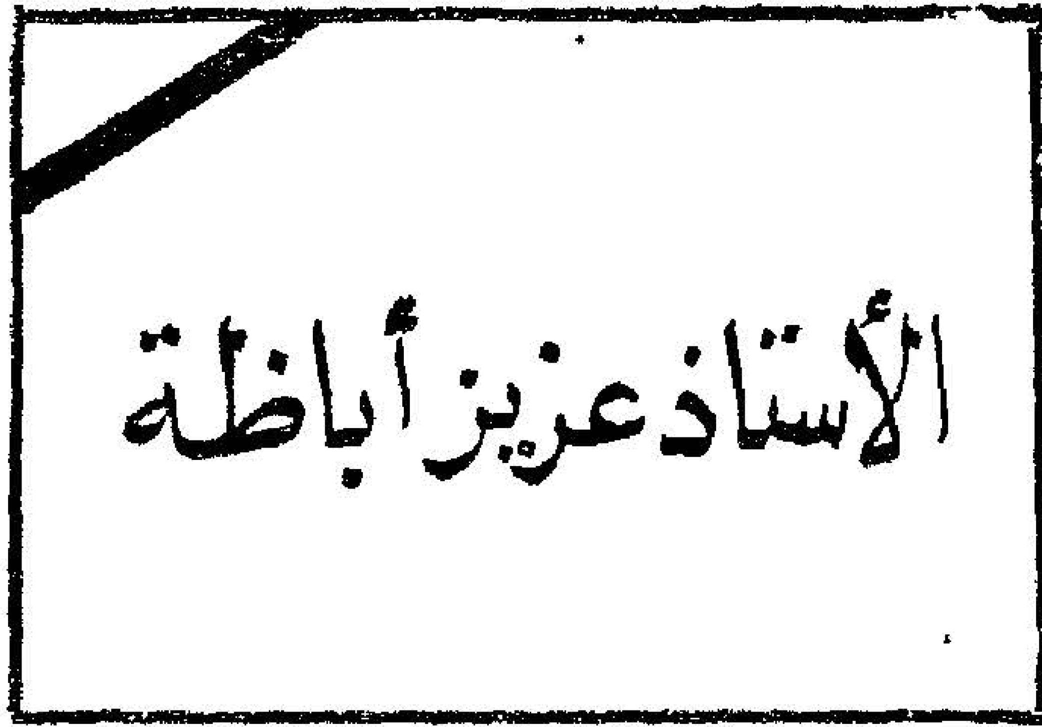
وبعد :

فإننى باسم جميع أفراد أسرة الفقيد أتقدم إلى السادة الأساتذة ، رئيس المجمع بالنيابة وأعضائه وجميع السادة الحاضرين بأسمى آيات الشكر والتقدير على ما حبوا به عميد أسرتنا من تكريم — نسأل المولى جلّ شأنه أن يثيبكم عنه وأن يجزيكم بما أنتم أهل له .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

في الساعة الحادية عشرة من صباح الاربعاء ٢٧ من شوال سنة ١٣٩٣ هـ (الموافق ٢١ من نوفمبر سنة ١٩٧٣ م) أقام المجمع فى داره بالجيزة حفل تأبين للمرحوم الأستاذ عزيز أباظة عضو المجمع ، وفيما يلى ما ألقى فى الحفل :

كلمة الدكتور أحمد الحوفى فى تأبين المرحوم :



سيادة الرئيس ،

سيداتى وسادتى :

عزيز علىّ أن أقف هذا الموقف لأؤبن عضوا بارزا من أعضاء مجمع اللغة العربية شارك جادا مخلصا فى أعمال المجمع أربعة عشر عاما ، كان فيها أثيرا عند زملائه جميعا ، أحبوه لفنه ، وقدروه لعلمه ، وأعزوه لدماثة خلقه .

وعزيز على أن أرثى شاعرا كبيراً من شعراء العروبة أثرى الأدب العربى بشعره وبمسرحياته ، ووقف صبورا جلدا مظفرا فى صد تيار العامية عن الشعر وعن الأدب كله .

لكن الأسى لا يرد قضاء ، ولا يعيد فقيداً ، فليكن عزيز أباظة حياً بيننا بآثاره ، وإنها لجديرة بأن تحيا وتبقى كما حييت وبقيت آثار البلغاء منذ العصر الجاهلى إلى اليوم .

وبحسبى فى هذا المقام أن أعرّف به وبشعره فى غير تفصيل وفى غير إجمال :

١ — حياته

ولد الفقيد فى ١٣ من أغسطس سنة ١٨٩٨ بقرية (الربعماية) مركز (منيا القمح) بمحافظة الشرقية ، وتعلم بالمدرسة الناصرية الابتدائية بالقاهرة ، ثم بالمدرسة التوفيقية والسعيدية الثانويتين بالقاهرة ، ونال شهادة الدراسة الثانوية سنة ١٩١٨ ، فالتحق بمدرسة الحقوق ، وتخرج فيها سنة ١٩٢٣ واحترف بالمحاماة ، ثم عين عضوا بالنيابة ، ثم عضوا فى مجلس النواب .

وفى سنة ١٩٣٣ عين مديرا لتحقيق الشخصية بوزارة الداخلية ، ثم وكيلا لمديرية البحيرة سنة ١٩٣٥ فوكيلا لمديرية الجيزة .

وفى سنة ١٩٣٩ عين مديرا للقليوبية فالفيوم فالمنيا ، ثم محافظاً وحاكما عسكريا لمنطقة القناة سنة ١٩٤١ ، ثم مديراً للبحيرة ثم أسيوط :

وفى سنة ١٩٤٧ اختير عضواً بمجلس الشيوخ ، وعمل بعد ذلك فى الميدان الاقتصادى :

وفى سنة ١٩٥٩ اختير عضواً بمجمع اللغة العربية ، وكان فى الوقت نفسه عضواً بالمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ، وعضواً مراسلا بالمجمع العلمى العراقى :

وقد شارك فى ثلاث لجان بالمجمع اللغوى هى لجنة القانون والاقتصاد ، ولجنة ألفاظ الحضارة ولجنة الأدب :

وقد منحته الدولة الجائزة التقديرية سنة ١٩٦٥ ، وجاء فى تقرير لجنة الجائزة بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية :

أن الأستاذ عزيز أباظة يمتاز فى إنتاجه الأدبى بما وفق إليه من الإبداع الفنى فى شعره الغنائى والمسرحى .

وكانت وفاته فى العاشر من يوليو سنة ١٩٧٣ م .

٢ — مؤلفاته

(أولا) فى مجال الشعر :

١ — أنات حائرة ، ديوان كله فى رثاء زوجته .

٢ — قيس ولبنى

٣ — العباسة

٤ — الناصر

٥ — شجرة الدر

٦ — غروب الأندلس

٧ — شهريار

٨ — أوراق الخريف

٩ — قافلة النور

١٠ — قيصر

وهذه كلها مسرحيات شعرية

(ثانيا) البحوث والكلمات والقصائد المتصلة بالمجمع اللغوى :

١ — كلمة عن سلفه أنوليتمان ألقاها فى احفل ستقباله بالمجمع . (دورة ٢٦ جزء ١١ للمجلس ، المجلة العدد ١٤) .

٢ — المسرح الشعرى ، بحث ألقاه بالمجمع . (د ٢٧ ج ٧ للمؤتمر — البحوث والمحاضرات) :

٣ — كلمة فى استقبال الدكتور محمود توفيق حفناوى (د ٢٩ ج ١٦ للمجلس — المجلة العدد ١٧) .

٤ — لغة الشعر — كلمة ألقاها فى مؤتمر المجمع ببغداد . (د ٣٢ ج ٦ لمؤتمر بغداد) .

٥ — الفصحى والعامية من زاوية جديدة . (د ٣٢ ج ٩ المؤتمر الثالث) :

٦ ــ قصيدة فى تأبين رئيس المجمع الأستاذ أحمد لطفى السيد : (د ٢٩ ج ٢٧ للمجلس ــ المجلة العدد ١٨) :

٧ ــ قصيدة فى تأبين عضو المجمع الأستاذ عباس محمود العقاد . (د ٣٠ ج ٢٧ للمجلس ــ المجلة العدد ١٩) :

٨ ــ تحية بغداد ــ قصيدة ألقاها فى الجلسة الافتتاحية لمؤتمر بغداد . (د ٣٢) .

٩ ــ قصيدة فى تأبين عضو المجمع الأستاذ محمد رضا الشبيبى . (د ٣٢ ج ٨ لمؤتمر القاهرة) .

١٠ ــ قصيدة فى تأبين عضو المجمع الشيخ محمد على النجار . (د٣٢ ج ٢٣ للمجلس) .

١١ ــ قصيدة فى تأبين الأستاذ مصطفى نظيف عضو المجمع . (نشرت بمجلة المجمع العدد ٢٨ فى نوفمبر سنة ١٩٧١) .

١٢ ــ قصيدة تحية لرسالة العلم (المجلة التى تصدرها جمعية خريجى كليات العلوم برياسة الدكتور عبد الحليم منتصر ــ مارس ١٩٧٣) .

١٣ ــ كلمة أعدها لاستقبال الأستاذ مصطفى مرعى بالمجمع اللغوى ، وألقاها بعد وفاته نيابة عنه الأستاذ ثروت أباظة فى يوم الأربعاء ١١ من ذى القعدة سنة ١٣٩٣ هـ الموافق ٥ من ديسمبر سنة ١٩٧٣ م .

٣ ــ شعره المسرحى

١ ــ المسرحية الشعرية إنتاج زاخر أو بستان ناضر يضم عشرات الألوان ، ففيها عشرات القصائد والمقطعات ، وفيها ألوان شتى من الموضوعات ؛ كالوصف والحرب والحماسة والحكمة والغزل ، وفيها ضروب من التكلم والخطاب والحوار والجدل ، وبها شعر ينطق به واحد ، وشعر تنطق به جماعة ، وشعر يعبر عن فرد ، وشعر يعبر عن أفراد أو عن أمة ، وهى من أوزان شتى وقواف عدة :

ومن هنا تجىء صعوبتها على الشاعر ، وتجىء دلالتها على مقدرة الشاعر .

٢ ــ ولقد أثبت عزيز أباظة بمسرحياته التسع ما أثبته شوقى من قبل بمسرحياته أن الشعر العربى قدير على الوفاء بما تقتضيه المسرحية من عرض للأحداث ، وتصوير للنفسيات ، وحوار على ألسنة الذكور والإناث والكبار والصغار ، وتعبير عن أخلاق الأخيار والأشرار والأقوياء والضعفاء والفرحى والحزناء والسعداء والأشقياء .

وبهذا بطل ما لاكته ألسنة وسطرته أقلام أن الشعر العربى كز عسر لا يطاوع الشاعر المسرحى ، وأن الخيال العربى ضحل لا يستطيع أن يحلق ولا أن يحلل ويركب ويبتدع الأحداث والأشخاص ، وأن البلاغة العربية ضيقة تعتمد على الإيجاز ولا تعرف التفصيل والتوضيح والإطناب .

٣ ــ وإذا كان الشعر العالمى قد أتى عليه دهر طويل وهو يصطنع الشعر وحده لغة للمسرحية فإن الرومانتيكية حاولت أن تنزل

الشعر من عليائه لتحل النثر محله ، وناصرها فى اتجاهها المذهب الواقعى والمذهب الطبيعى ، ولكن الشعر لم يستسلم لهذه المنافسة ، وآزره فى ثباته الذين نهضوا لمقاومة الواقعية والطبيعية .

وكان من الحاملين على الشعر المسرحى نقاد دعوا إلى إيثار النثر بدعوى التزام الواقع ، وبدا فى بعض الأحيان أن الغلبة لدعاة النثر وأنصار الواقع وبخاصة بعد أن راجت قصص تشيكوف وإبسن وأضرابهما ، حتى إن الشاعر الكبير إليوت - وهو من أنصار الشعر المسرحى - كاد يداخله اليأس من أن يسترد الشعر مجده المسرحى فقال :

« يظهر أن عالمنا المعاصر حافل بالفوضى ، وأن المجتمع الذى نعيش فيه تعوزه المقاييس الدقيقة ، فصارت وظيفة الشاعر المسرحى شاقة جدا أو مستحيلة » .

وكان لهذه الدعوة أو لهذا اليأس صدى فى مصر والعالم العربى ، فقال الدكتور طه حسين « إن الشعر لم يعد صالحا للمسرح » .

وسرعان مانشأت إلى جانب تلك الدعوة دعوة أخرى أشد خطرا ، وهى الدعوة إلى اتخاذ اللغة العامية لغة للمسرح ، بدعوى الحرص على محاكاة الطبيعة ومجاراة الواقع .

٤ - وماأيسر الرد على الدعويين : دعوى تنحية الشعر عن لغة المسرح ، ودعوى إيثار العامية على الفصحى .

ومن الوفاء لذكرى شاعرنا عزيز أباظة أن أنقل هنا بعض مارد به :

قال فى مقدمة مسرحيته شهريار : « إن الشعر يحفظ الاتزان بين الواقعية والشكل الخالص وبين العرض الحرفى والتجريد ، إنه يحقق الهدف الفنى الرائع ، فرسالته فى كريم أعراقها توطئ لنا سبيل فهم هذه الحياة وإدراك قيمها وجمالها .

ويبدو لى أن وراء الانفعالات المعروفة والدوافع الشعورية - تلك التى تقتصر المسرحية النثرية على عرضها - يبدو لى أن وراء ذلك تنبسط آفاق لاشعورية ليست بذات حدود ، إنها الانفعالات التى لانستطيع أن نجلو عواملها إلا إذا تجردنا من أنفسنا ، وسمونا فوق أفعالنا وتجاربنا ، إنها الحقائق الخالدة التى لايسجلها إلا الشعر بإيقاعه .

وقال أيضا : « قال أنصار الواقعية فيما قالوا : وما التراكيب الفصيحة ؟ وما الأسلوب الشريف ؟ الكلام بغيرهما أبين ، والفهم أدنى وأيسر .

ثم برزوا مسفرين مصرين مجاهرين ، فدعا فريق منهم إلى أخلاط من التعابير المتهافتة الغثة من الشعر المنثور والنثر المشعور يقيمونه باسم الحقد والعجز على أنقاض الشعر الأصيل .

ودعا فريق آخر إلى العامية يكتب بها الناس قصصهم ومسرحياتهم لتقوم باسم التقدمية أو الشعوبية على أنقاض تلك الذخيرة الربانية من النثر العربى المحكم ، وساقوها دعوة أدبية فنية ، وهى دعوة

أثيمة خبيثة تكمن وراءها مساندات مظاهرات نفوس سقيمة عطاش لهدم كل ما هو مأثور من ترات العصور ، وكل قيم من ذخائر الحضارات التى هذبها الزمن وأغلاها العتق :

من الحق لكم ومن الحق عليكم أيها الخالدون أن تجهروا بأصواتكم – وهى فى هذا المقام من أصوات النبوة – مطالبين كل دولة عربية أن تطهر صحفها وإذاعتها ومسارحها الجادة من خبثين قاتلين : خبث مساندة العامية وإشاعتها باسم التخفيف والتيسير ، وخبث مجاهرة الأدب بعدوان سافر يهون من أقداس شعره ونثره باسم التجديد والتطور ، فإن فعلتم – وإنكم لفاعلون – فنحن الأعاون ، والله معنا »[1] .

أرأيتم إلى اعتزازه بالعربية الفصحى لغة للأدب ؟

ثم أرأيتم إلى حملته على العامية وأنصار العامية ؟

وإلى دفاعه عن الشعر لغة للمسرحيات الجادة ؟

وما من شك فى أنه محق فيما قال ، لأن الذين دعوا إلى العامية لغة للمسرح بدعوى مجاراة الطبيعة والواقع واهمون ، فإن الواقع الذى ينبغى أن يتوخاه مؤلفو المسرحيات ليس هو واقع اللغة التى يتفاهم بها الناس فى حياتهم اليومية وشئونهم المعتادة ، بل هو الواقع الفكرى والعاطفى والنفسى للشخصيات ، بحيث لا تصدر الحكمة عن أحمق ، ولا تنطلق الفلسفة من جاهل ، ولا يجئ الهدى على لسان ضال ، ولا يبدو الجبن من بطل . . . الخ .

وعلى الذين يتحمسون للواقع أن يسألوا أنفسهم أسئلة شتى ، منها :

هل يتناسب الواقع ورقعة المسرح الصغيرة التى لا تمثل شيئاً من ميادين الحياة الفسيحة الرحبة ؟

وهل يتفق الواقع وتلك الأزياء والمناظر التى يشهدها النظارة على خشبة المسرح ؟

وهل يتشابه الواقع وهذه المشكلات والعقد والحلول التى تعرض فى ساعتين أو ثلاث وقد حدثت فى شهور أو أعوام ؟

على أن التزام الفصحى يتيح لأبناء الأمة العربية جميعاً أن يفهموا ويتذوقوا ما قرضه شاعر المسرحية ، لأن الفصحى لغتهم الأم التى يتوافون عليها ويتفاهمون بها ويتواصلون بأسبابها ، أما العامية فهى أشتات وأصناف تختلف باختلاف الأقاليم ، بل تختلف فى الإقليم الواحد .

فلا عجب أن اتسمت مسرحيات عزيز أباظة بالبيان المتخير الأخاذ ، وبإجراء الحديث الواحد على وزن واحد ، وبالحرص على سلامة التعبير من اللحن أو الركاكة ، حتى إنه قلما قصر ممدودا أو مد مقصورا مع علمه أن هذا فى الشعر رخصة .

(١) البحوث والمحاضرات ١٥٦ ، سنة ١٩٦٠ – ١٩٦١

وإذا كان فى مسرحية (أوراق الخريف) قد استخدم كلمات مما يدور على ألسنة العامة ، فإنه قد قصد إلى تسهيل الفصحى من ناحية ، وإلى الدلالة على صحة هذه الكلمات من ناحية ، مثل :

حسادة ، زوق ، عجايب ، البخت ، مهسوس الذرة ، تعكير المزاج ، من غير كلام .

٤ — العروبة فى شعره

كان عزيز أباظة شاعرا معتزاً بعروبته لغة ودماً ووطناً ووجداناً وحضارة وآلاما وآمالا وثقافة .

وللعروبة فى شعره مظاهرجهر بها مرات على لسانه ، أو أدارها على ألسنة الشخصيات فى المسرحيات .

١ — فقد زار قرطبة ، وطوف بأرجائها ، وتلبث عند معالمها العربية ، وأطال الوقوف فى مسجدها وقبالة مئذنته ، فخيل إليه أن قلبها ما يزال يعتصره الألم ، وأن حسراتها على عصرها العربى الذهبى ثائرة لم تخمد ، وتذكر قصر الزهراء الذى كان قطب السياسة العالمية فى عهد عبد الرحمن الناصر ، وتخيل عظمة قرطبة وآدابها وعلومها وحضارتها والوفود التى كانت تهرع إليها ، لترتوى من مناهلها ، فقال فى قصيدته (وقفة على قرطبة) :

يا جارة المسجد البالى ومئذنـــة
الله كان يناجَى من مشارفهـــا
ماذا دهاها فأمست وهى ناهـدة
فى غير ما ألفتْــه من معاطفها ؟
وقفت فى طلل الزهــراء مختشعاً
والنفس تهب لعاتٍ من عواصفها
أرنو فيرتد طرفى راعشاً وجـلا
كهائب اللجــة الكبرى وخائفها
طوّفت بالطلل الأســوان أسأله
أين الخلافـة فى حِضنَىْ خلائفها ؟
أين ابن بجدتها شعَّت حضارتـه
سناً على سالف الدنيـا وآنفها ؟
الناصر الظافـر المخشى جانبــه
فى حيثما دب ساع فى تنائفهـا
الباذل العلم عن أعلام جامعــة
تدنى الثمار مزكَّاة لقاطفهـــا
لا ظل روما ولا أفياء قدوتها
بمجزئ العقــل عن ملتف وارفها
ذكرت يوم الوفـود الضخم ساعية
للقصر ترفل فى ضاحى ملاحفها
فزف كل كبير من عواهلهـــا
وخفَّ كل وقور من أساقفهـــا
ساقوا الهدايا وساقوا بينها خطباً
أنساهم الروع طرفاً من طرائفها

ثم تبدو الحسرة فى قوله :

لم يترك الدهر من راووق أندلس
إلا شُفَافـة راحٍ من عوارفهـــا
لهفى على حسنها الذاوى وزهرتهـا
وحاليات الحواشى من رفارفهـــا

وقلت : أين حضارات ومعرفـــة
أظل هذا الورى مَوْشِىُّ وارفها ؟

وأين هَدْى تَهدّى من صحائفها
وأين نور تجلى من مصاحفها ؟

يا ويحها ذكريات هِجْن بى حرقاً
تنساب فى راسب الذكرى وطائفها

٢ – ودعا إلى وحدة العرب ، وحرص عليها ، ونفرهم من الفرقة والانقسام والتخاذل ، ففى مسرحية (غروب الأندلس) أدار حوارا بين محمد بن سعد الزغل شقيق السلطان أبى الحسن وولى عهده وبين ابن سراج وعائشة وموسى بن أبى الغسان ، فصور أسى الزغل من الفتن المشتعلة بين العرب ، وبغضته لتأريثها ، واستنكاره الجنوح إلى مثيريه على الولايات العربية المجاورة ، فى الوقت الذى يجب فيه على العرب أن يتآزروا كالبنيان المرصوص ليردوا هجمات الفرنجة ، فيصونوا حصن العروبة ، ويفتدوا عزة الإسلام ، :

عرضتم لضخم الأمر لم تتذاكروا
عواقب قد تبدو لكم وتغيب

أتأريث أضغان وإيقاظ فتنـــة
تدك قوانـــا والعدو رقوب ؟

إذا لم نقف صفاً هلكنا وأطبقتْ
قواطـــع تفرى ملكنا ونيوب

فلا تطمسوا الإسلام إن شروقه
سيغشاه ممـــا تزعمون غروب

وصور فى مسرحية (العباسة) سخط زبيدة على تفرق العرب بالشام ، وكيد بعضهم لبعض وعجبها من العصبية الحمقاء بين اليمانية والنزارية وهم جميعا أبناء عمومة يستظلون براية الإسلام :

وهل كان بالشام غـير الشقا
ق كل شقاق له مقطع

غســـانية أو نـــزاريـــة
وبينهما رحـــم تجمـــع

ولو أنهم تُركوا راجعوا الـ
أناة وعن جهلهم أقلعـــوا

٣ – وأشاد بوحدة الدم ووحدة الدين والوجدان المشترك فى وثيق العلائق بين العرب وإن تعددت أقاليمهم وتناءت ديارهم ، فصور هذا فى مسرحية (غروب الأندلس) على لسان الأميرة عائشة زوجة السلطان أبى الحسن فى حديث بينهما وبين السلطان الغورى حينما جاءت من الأندلس إلى مصر لتستنجد به على الفرنجة :

حيِّيت ياملك الملوك ولم تزل
أعلامهم وأعزهم سلـــطانـــا

وبقيت للأمم الشقيقة موئـــلا
فى إدِّها ومناصراً معوانـــا

قد آن أن أمضى إلى وطنى وإن
كانت دياركم لنا أوطانـــا

الدين قربى والعروبـــة لحمة
ولعـــل أقوى الآصرات أسانـا

تلك الوشائج وحدت ما بيننا
وأن اختلفنا رابة ومكانـــــا

فرد عليها الغورى مستجيباً ملبياً نداء العروبة ، معتزما على نجدة عرب الأندلس بجيش عربى لجب مظفر يدحر أعداء العروبة والإسلام :

سنشهرها حربا ضروساً مبيدة
ونبعثه جيشاً كثيفاً عرمرما

يرد عن الإسلام كيد عدوه
ويحمى حمى دولاته أن تهدما

٤ — وإن الاعتزاز بالعروبة وإعزازها والحرص على حمايتها التتجلى فى كثير من مشاهد مسرحية (العباسة) كقوله على لسان الرشيد للشاعر منصور النمرى :

بل قل فما فضل أمة
إذا لم يؤرخ مجدها شعراؤها

إذا العرب استعلت بفن شأت به
سواها فهذا شعرها وغناؤها

وفى المسرحية تصوير لزبيدة وهى تحض هرثمة على التنكيل بالبرامكة ، خشية على الملك العربى أن يقوضوه وعلى الإسلام أن يرنقوه ، بعد ماتبين لها وللعرب أن البرامكة أبطرهم الجاه والسلطان والثراء ، فجعلوا يكيدون للعرب ، ويتطلعون إلى بعث ملك كسرى :

لاتناموا عن جعفر فله كالذ
ئب عين يقظى ونوم مطار

لست أطوى له سخيمة صدر
لا ولا بينه وبينى ثار

غير أنى أخشى على الملك منه
وعلى عترة النبى أغار

وفيها تصوير للقائد العربى الفضل بن الربيع ناقما من البرامكة ماتنقمه زبيدة فى قوله للأمير جعفر بن الهادى :

فقل لأهل الزيغ من فارس
من كل زنديق الهوى مشرك

لن تبلغوا فى العرب أوطاركم
سيمحق الله بنى برمك

وفى المسرحية صور من شكاوى الشعب إلى الرشيد مما يقترفه البرامكة وعمالهم من قسوة وظلم ومحاباة ، مثل قول أبى الجهم :

أمين الله أدركنا
فإنا مسنا الضر

نعيش العيشة الدنيا
ويهنا الأجنب الغمر

وقول مخلد :

أترضى أن يجيعونا
وأنت الوفر واليسر ؟

وأن نمسى بلا رى
وأنت البحر والقطر

وقول أبى الجهم مرة ثانية فى تفصيل مثير :

وذنبانا هما الهون
لدى الظالم والفقر

فلسنا من بنى برمـ
ـك لا يعصى لهم أمر

نماهم للعلا كسرى
ومانى ومنو جهر

ولكننـــا مـــــن العرب
وحظ العرب مُنْـــــــزورْ

قريشٌ هـــل لهـــا وزنٌ
لـــدى الأعلاج أو قـــدْرُ ؟

ومثل إثارة أبي الجهم لنخوة الرشيد فى قوله :

ولكن ميـــــزوا جنســـا
من الناس عـــلى جنس

وفى الحـــق فأيـــن العُـرْ
ب مـــن مشيخة الفـــرس ؟

ثم تعقب عجوز على هذا بقولها للرشيد :

أجِرْنا بتَّ مـــأجورا
مـــن الله ومشـــكورا

فيلتهب الرشيد حنقا على البرامكة ، ويبدو حنقـه وعزمه على التنكيل بهم فى قوله لجعفر البرمكى :

وسلبتمُ جـاه الخليفـة جهرة
وتركتموه دميـــة فى هيكـــل

أترفتم مثل الملوك وأمتى
جَوْعَى تدافع فى الحضيض الأسفل

٥ ـ كانت عروبة عزيز أباظة عقيدة تجلت فيما أسلفت من مظاهر ، وتجلت فى معرض آخر هو المقابلة بين الشعر العربى والشعر الغربى ، فقد كان له بحث منذ ثلاثة عشر عاما وازن فيـه موازنة سريعة بين الأدب العربى والأدب الغربى ، ثم أعد موجز هذا البحث للنشر فى آخر أيام حياته وإن لم يظهر إلا بعد وفاته (١) :

قال إن الشاعر العربى يؤثر الإيجاز الجامع لأطراف الفكر أو الشعور ، وضرب أمثلة لهذا منها أن شكسبير أطال فى تصوير جنون الغيرة فى مسرحية (عطيل) حتى انتهت غيرة الزوج بقتل زوجته البريئة ، ثم بندمه ، ولكن الشاعر العربى ديك الجن ألم بهذا فى إيجاز فى قوله :

رويتُ من دمها الثرى ولطالما
روىَّ الهوى شفتىَّ من شفتيها

حكَّمت سيفى فى مجال خناقها
ومـدامعى تجرى على خديها

وراسين جمع فى (أتالى) أطراف الحقد الأسود ، وعرض للانتقام والمقت على الرغم من الود والرياء والصفاء المستحدث ، على حين أن الشاعر العربى وجد مقنعا فى قوله المركز :

وقد ينبت المرعى على دِمَنِ الثرى
وتبقى حزازت النفوس كما هيـا

وموليير تحدث فى سخرية عن البخل والتقتير ، واستقصى ظواهر تلك النفس المريضة وبواطنها ، ولكن ابن الرومى أرسل فى بيت واحد صورة ناطقة حية للبخيل

---

(١) مجلة قافلة الزيت ـ جمادى الثانية ١٣٩٣ (يوليه ١٩٧٣ م) .

لايغض من كمالها أنها موجزة لامشاهد فيها ولا فصول :

ولو يستطيع لتقتيره
تنفس من منخر واحد

ثم قال إن الأدب العربى سبق إلى الإشادة بالحرية والديمقراطية والاشتراكية والتعاون والسلام وضرب أمثلة لهذا ، منها قول أبى العلاء :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وقول الشاعر :

الحالطين غنيهم بفقيرهم
حتى يصير فقيرهم كالكافى

وقول معن بن أوس :

دعانى يشب الحرب بينى وبينه
فقلت له : لابل هلم إلى السلم

٥ — الإسلام فى شعره

أما مظاهر الإسلام فى شعره فهى كثيرة تبدو فى ضروب شتى من حالات اليسر والعسر والفرج والضيق والقوة والضعف .

١ — فالجهاد للذود عن الإسلام وحماية المسلمين فريضة يتسابق إلى النهوض بها المسلمون ، ويتنافسون عليها ، معتقدين أن الله ينصر من ينصر دينه ، وأن قواه الخفية الغلابة تمدهم بجنود لايرونها .

يتجلى هذا فى حوار بين القاضى سنجر والملك وابن مطروح من مسرحية (شجرة الدر) :

ابن مطروح للملك :

حييتك مصر فقد حميت ذمارها
والخطب فوار المراجل حامى
ودفعت عنها المعتدين وسمتهم
عنتاً فصنت كنانة الإسلام

الملك يرد على مدح ابن مطروح :

لم أرم — شاعر مصر — حين رميتهم
بل كان ربك ذو الجلال الرامى

والمجاهدون الذين افتدوا الإسلام بدمائهم وأرواحهم ، وانتصروا على أعدائهم ، لاينسون وهم يباهون بانتصارهم أنهم نصروا دينهم إذ وقوا من الغزو بلادهم ، وكفلوا لوطنهم الحرية والقوة والعلاء ، يقول أقطاى لقلاوون فى مسرحيته (شجرة الدر) :

قل لى : أما نحن الذين تحررت
مصر بحر سيوفهم ودماهم ؟
ذاق الصليبيون غضبتنا فما
صبروا على الموت الذى غشاهم

ويقول قلاوون لبيبرس وأقطاى :

أقطاى نحن ثلاثة لم نختلف
فيما مضى فلنبق متفقينا
أسيافنا لم تجل عن أغمادها
إلا وقت عرضا لمصر ودينا

٢ — ولما ضل بعض الحكام المسلمين سواء السبيل فحالفوا الصليبين على مصر ، واستعانوا بهم ، حزت الآلام فى نفس شجرة الدر وودت لو أنهم استعانوا بالخليفة وحده :

لو أنهم قصدوا الخليفة وحده
قانا — وإن لم ينصفوا — لم يسرفوا

لكنهم ركنوا إلى أعـــــداثنا
مستنصرين بهم ولم يتعففـــوا

وعدوا الفرنجة بعض مصر فقل لهم
الله مانع مصر مهما تُرْجِفــوا

وإن شجرة الدر لتعجب من عدائهم لها وتغاضيهم عن تطبيقها للشورى التي أمر الله بها ، وتعاميهم عن دحرها للصليبيين وحمايتها للإسلام :

أفنـــاقمون على أني قبلت
الشـــورى وأحكام الكتاب أمامي ؟

أم غاضبون لأني أوقعت بـــال
إفـــرنج فاعتصمت عرى الإسلام

٣ — وهو يصور مكانة العلماء علية لايصح أن يمسها أحد ، ويحقر من يتخذ الدين منهم أحبولة للكسب أو الجاه أو الثراء ، فإنه لما حاول المفتي أن يخدع شهريار فخابت مشورته ، قال له :

انصـرف يامحقـر العلم شر الـ
ـعلم ماكـان نهزة للثـــراء

إن للمسلمين دينـا جليـــا
صافي النبـع من رحيق السـماء

قـد لصقتم (١) به اللصائق حتى
تبرفوا في جهـالة الجهـلاء

٤ — وهو يردد في مسرحياته إيمانه العميق بأركان الإسلام وتعاليمه وآدابه . من ذلك أن الله سبحانه وتعالى علام الغيوب ، ومدبر الكون ، ومانح القوى والقُدر ، علمه سابق ، وقضاؤه واقع .

نجد هذا في قول سنجر للأمير في مسرحية (شجرة الدر) :

مولاي لايزعجـك ما بُلِّغـت من
نبـأ فإن الغيـب سر مضمـر

قـل للمقدر للعبـاد حظوظهم
الله فوقـك قادر ومقـــدر

ونجد إيمانه بالبعث في قوله بمسرحية (أوراق الخريف) :

قولي لهـا سأظـل حافظ عهدها
حـتى تجمعنـا الحياة الثانيـة

وكذلك إيمانه بالقضاء والقدر في قوله بمسرحية (أوراق الخريف) :

مهيب : أتؤمن بالمقادر ؟
قاسم : (في دهشة) غير شك :
مهيب : وتؤمن من أنها فرضت كتابا .
قاسم : أجل :
مهيب : وتحس أن هناك حدا لحول المرء من عاناه خابا ؟

ويؤمن بأن الله تعالى هو الهادي اللطيف العليم الخبير الذي يستجيب دعاء عباده ، قال على لسان العباسة :

يارب أدركني بلطفك واهـدني
سنن السداد فقد سألـت كريما

(١) الصواب ألصقتم .

وهو تعالى العادل المجير الناصر ، قالت علية لعتبة فى مسرحية (العباسة) :

حسبك الله لقــــــد زد
تِ لظى القلـب استعـارا
إن لله لعـــــدلا
إن طغى الـدهر وجـارا

وكثيرا ما نجد القسم بالله أو ببيته العتيق فى مواضع شتى ، حيث يقسم الشخص صادقا فيما يقول غير متخذ من قسمه وسيلة للتضليل والخداع وستر الافتراء . فالعباسة تعاتب الرشيد ، وترد على ، زبيدة إذ اتهمتها بكراهيتها فتقول :

حلفتُ بالبيت العتيق والحق يحلف
ماشفنى من فعلها حقد ولكن أسف

وجعفر يؤكد حبه للعباسة ، فيقسم بالكعبة مثابة المسلمين ومحجهم :

أقسمت بالبيت تخـــدى
عيس لــه وتخـــب
أعناقها مهطعـــات
لقــدسه تشرئـــب
والمحرمـــون عليهـــا
ساقوا وألقوا ولبـــوا (١)
لأنتِ حلمى المرجّـــى
فى خاطر الـدهر يخْبـــو

٥ — ويقتبس من القرآن الكريم ، كقوله فى مسرحية (العباسة) على لسان العباسة لأختها :

« ورضا الرحمن يؤتيه من الناس السعيدا »

وقوله فى (قافلة النور) على لسان جابر لمنذر :

وقـد أقمنـا صلاتنـا وقضينا
ذمـة الله فاقض ماأنت قاض

وقوله على لسان سلفراس :

لكم هديـكم فاتبعوا هديـه
ولى دين آبائى الكابرينـــا

وقوله على لسان شهريار مناجيا ربه :

يارب رُب مســـــىءٍ
بغى فتـــاب وكـــبر
ماكنتَ موبـــق عبـــد
وإن طغـى وتجـــبر

وقوله على لسان شهريار فى نقمته من شهرزاد :

اغريت بى الحـــير
ة كالليل إذا يســـرى

٦ — وكثيرا ماحلق فى جو عال من الروحانية ، إذ صور مواقف الخشية من الله ، والاستغفار من الذنب ، أو صور الحنين إلى بيت الله وإلى مثوى الرسول عليه الصلاة والسلام :

---

(١) ساقوا الهدى وألقوا الجمار ، والصواب لبوا بفتح الباء لا بضمها .

قال على لسان (وداد) فى مسرحية (أوراق الخريف) :

يارب هل أنت راض
أو غاضب ، من مجيبى ؟
يارب إنك عدل
ورحمة من قريب
فهل ضللتُ سبيلى
وهل غوىً أسلوبى
لا : لست أخشاك مهما
أضعف فأنت حبيبى
ما كنت رب مراء
بل أنت رب قلوب

وقال على لسان حادى القافلة المتجهة من الحيرة إلى الحجاز فى مسرحية (قافلة النور) :

يانفس إن أفضيت للمنوره
وراوحتك الروضة المنضره
حوت سنا الله وضمت منبره
وبضعة من ذاته المطهره
ألقيت يانفس غبار الأثره
وانجلت كالطيف عنك القتره
وطفت من مأثرة لمأثره
وذقت من مغفرة فمغفره
من قبل أن تقدمى بمعذره

ولم تكد حسن شاه حاضنة بنت سلفراس والى الحيرة تسمع هذا الحداء — وكانت أسلمت — حتى أجابت على الحنين إلى مدينة الرسول بحنين مثله فقالت :

يا حادى العيس حملن البرره
إلى عوالى يثرب المزدهره
سر راوحتك الديم المستغزرة
وخلنى لأدمعى المنفجره
يثرب فى أخيلتى المصوره
إن لم تكن لؤلؤة فجوهره
السكون داجى الليل وهى المقمره
ألمحها فى النسمة المعطره
وفى الوجوه الطلقة المستبشره
وفى هوى عف ونفس خيرة
وفى حياء الغادة المخدره
وفى بريق النظرة المبشره
هذى المنى ، لو أنها ميسره

٦ — أسلوبه

كانت موهبته الفطرية ، ودرايته بمتن اللغة ، وذوقه المرهف ، وغيرته على الفصحى ، وحفاوته بها ، وحبه لها ، هى الدعائم الوطيدة التى قامت عليها خصائص أسلوبه :

١ — فهو حريص على التأنق فى اختيار الكلمة ، مشغوف بالرصانة فى نظم العبارة ، نفور من العامية ، ومن الركاكة ومن الإسفاف ، حتى إنه ليتجافى عن الكلمة إذا ما أحس أنها فقدت رونقها لكثرة ما لاكتها الألسنة أو تداولتها الأقلام . لهذا كان يكثر من ترديد النظرات الفاحصة فى كتب الأدب والمعاجم ليقتنص كلمات من الفرائد الحسان يرددها فى شعره ليكشف عنها أستار الإهمال أو النسيان .

وفى غير ما تعصب أو تحيز أو جنوح إلى جدال أو مكابرة أو عناد أقول : إن فى شعره وفى شعر كبار الشعراء من سابقيه ومعاصريه علوا عن المستوى العام للقراء ، ولكن هذا لا يصح أن يتخذ ذريعة إلى لوم أو انتقاص ، لأن الأدب أو الفن أو العلم على اختلاف ضروبه وتعدد ألوانه لا ينبغى أن يكون فى مستوى واحد من التدانى أو التوسط أو العلاء ، ذلك بأن له درجات من الأقدار والمستويات ، بل إن لكل مستوى من هذه المستويات درجات متباعدات متفاوتات .

وإنه لمن الشطط أن نكلف الشاعر العملاق التزام مستوى عام واحد ، لأننا بهذا الإلزام نقل حريته ، ونحتجزه فى نطاق ضيق لا يتعداه ، ونحول بينه وبين التحليق والابتكار .

والعجب أن الذين ينكرون على الشاعر تجويده وسموه وعزوفه عن المستوى العام لا ينكرون أن الرسم والموسيقى والغناء لها بطبيعتها وبطبيعة القائمين بها درجات متفاوتات .

وعجب آخر أنهم يجحدون المستويات فى لغة الأدب ولا يجحدونها فى لغة العلوم ، لأن الحقائق العلمية التى تنشر على الجماهير يعمد كاتبوها إلى التبسيط ليتفهمها كثير من القراء ، فإذا ما قصدوا بها طبقة أرقى كان التبسيط أقل مقدارا وأضيق نطاقا ، وهكذا حتى تصير ملائمة للمختصين بهذه الدراسات . فلماذا لا يكون من حق الشعراء كلهم أو بعضهم أن يعبروا عن أفكارهم وعواطفهم بأساوب سام فيه غموض على العامة ، لكنه واضح للمثقفين أثير عندهم ، تستحليه أذواقهم وتهش له نفوسهم ؟

على أن استمساك عزيز أباظة بالفصحى وكلفه بالانتقاء ليس معناهما كلفه بالإغراب ، بل معناهما اتخاذ اللغة العربية متناولا نحوا وصرفا وسيلة للتعبير عن العاطفة أو الفكرة ، وتنحية العامية عن الأدب الرفيع ، حتى لا تقع العين فى حديقة الشعر أو بستان النثر إلا على وردة متفتحة ، أو جلنارة متوهجة ، أو أقحوانة مشرقة ، أو آذريونة نضرة ، أو شجرة ثمرة ، أو دوحة وريقة أو نخلة رشيقة ، أو كرمة دانية القطوف ، أو عشب كالديباج .

من ذا الذى يقرأ أو يسمع هذه الأبيات ولا يشعر بانتقاء اللفظ وجزالة التركيب :

قال على لسان الرشيد فى مسرحية (العباسة) وهو يريد الوقيعة ببنى برمك لطغيانهم السياسى لكنه يتردد مخافة مما أشيع عن قصة أخته العباسة :

وإنى لأخشى قالة السوء فى غد
تقاذف كالدفاع فى البيد والمدن
بأنى من أجل العرض أثخنت فيهم
وللعرض قراضون بالثلب والطعن

وقال على لسان عائشة فى مسرحية (غروب الأندلس) :

الملك يلهـــو والحوادث حولـــه
متظاهرات والخطـــوب سراع

والقصر تفهـــق بالخنا قاعاتـــه
ويبيت يـــروى إثمها ويذاع

والشعب مكدود القوى متخفر
إن الضعيف يصول حين يراع

الجوز مضروب السرادق حوله
والهون والحرمـــان والأوجـــاع

قـــل للملوك اخشوا شعوبكم إذا
غضبوا وهم سغب البطون جياع

وقال على لسان بثينة فى مسرحية (غروب الأندلس) :

أرى الأرزاء مسرعة خطاهـــا
ونحن إزاءها نمشى الهـــوينا

إذا لم نسبق الأحداث وثبا
تصلينا لظاها فاكتوينـــا

٢ — على أنه أضاف إلى هذا التأنق كلفا بجرس الجملة وموسيقاها ، وشغفا بتحسس المواءمة بين الكلمة وسابقتها ولاحقتها ، وبين العبارة وما تقدمها وما تأخر عنها ، كقوله على لسان حسن شاه فى مسرحية (قافلة النور) :

مشوا فى سناه ولبوا نـــداه
وعبوا هداه كتـــابا مبينـــا

ومن ذا الذى يقرأ هذه الأبيات أو يسمعها ولايستشعر الرنين بين الحروف المتحدة المخرج أو المتقاربة المخارج ، أولا يحس موسيقى الأسلوب الناشئة من تتابع كلمات متوائمة الجرس متلائمة الوقع ، قال فى (وقفة على قرطبة) :

ماذا دهاها فأمست وهى ناهدة
فى غير ما ألفته من معاطفها

طوفت بالطلل الأسوان أسألـــه
أين الخلافة فى حضنى خلائفهـــا

أين ابن بجدتها شعت حضارته
سنا على سالف الدنيا وآنفها

الباذل العلم عن أعلام جامعة
تدنى الثمـــار مزكاة لقاطفهـــا

فزف كل كبير من عواهلها
وخف كل وقور من أساقفهـــا

وإذا كان الجرس بينا فى البيت الأول بين (دهاها وناهدة) وبين (ألفته ومعاطفها) وبينا فى البيت الثانى بين (الأسوان وأسأله) و (الخلافة وخلائفها) ، وفى البيت الثالث بين (ابن وبجدتها) و(سناوسالف) وفى البيت الرابع بين (العلم وأعلام وجامعة) وفى البيت الخامس بين (زف وخف) وبين (كبير ووقور) فإن هذا كثير فى شعره مثل قوله :

يارب رب مســـــــىء
بغـــى فتـــاب وكـــبر

٣ – وشعره حافل بالتشبيه والاستعارة والمجاز والطباق ، فى مهارة ولباقة وطواعية ، كقوله :

أرنو فيرتد طرفى راعشا وجلا
كهائب اللجة الكبرى وخائفها

وقوله :

وأنت نمسى بلا رى
وأنت البحر والقطر

وقوله :

لم يترك الدهر من راووق أندلس
إلا شفافة راح من عوارفها

وقوله :

حيتك مصر فقد حميت ذمارها
والخطب فوار المراجل حامى

وقوله :

طوفت بالطلل الأسوان أسأله
أين الخلافة فى حضنى خلائفها ؟

وبعد

فماذا نستوحى من احتفالنا بذكرى عزيز أباظة ؟

إننا نستوحى دروسا وعبرا عظيمة .

١ – فتزداد ثقتنا بلغتنا وبشعرائنا وأدبائنا الذين كتبوا بالفصحى منذ زمن بعيد ، ومازالوا يكتبون ، فأثبتت الفصحى على أقلامهم أنها ثرية مرنة طيعة قابلة للتطوير والتجديد ، قادرة على التعبير عن أنماط فنون الأدب وشئون الحياة .

٢ – ونعلم أن الشعر العربى ليس عاجزا عن مسايرة المسرح كما قيل ، فقد استطاع أمير الشعر أحمد شوقى أن يبطل هذه الدعوى بمسرحياته التى ابتكرها ومهد بها الطريق لمن جاءوا بعده واقتفوا أثره ، فلما قضى حمل الراية بعده بيد فتية قوية عزيز أباظة :

٣ – ومن الوفاء لعزيز أباظة أن أنوه بوفائه وبتقديره العظيم لشوقى ، فى قوله : « ثم أراد الله للشعر المسرحى أن يعرف فى العربية ويزدهر ، فهدى إليه شوقى شاعرنا الخالد فعالجه ، واستطاع قبل أن يختاره الله لجواره ببضع سنوات أن يزف للشرق العربى [مسرحياته النفائس ، ولست هنا بسبيل تناول مسرحية الشعر عند شوقى بالدراسة والتحليل والنقد ، فإنه لن يرضينى – وأنا من أكثر الناس إعجابا به ، وإكبارا له ، واستمدادا منه – أن أجعل دراسة مسرحه قسما من بحث ، أو بابا فى فصل ، ولن يواتينى الوقت حتى إذا أنا حاولت ، ولكن ذلك لن يقف بى أن أشهد بين أيديكم أن شوقى صاحب شعر التمثيل كاد يرتفع إلى عليا المشارف التى تفرعها شوقى قيم شعر الغناء .

وأشهد بين أيديكم إلى جانب ذلك أن شوقى فى مآسيه المتعددة وفى ملهاته الواحدة استطاع أن يدرس على طريقته جوانب من النفس الإنسانية ، وأن يعرض لمشاعرها بالتحليل الموفق ، والعرض المنمق ، واستطاع أن يتناول الأحاسيس والنزعات القومية ،

وأن يشيد بها فى نماذج قوامها الصدق وملاكها الجمال، واستطاع كذلك فى أغلب مسرحياته أن يفرغها فى القوالب الحية من الفن المسرحى، وأن يتحرر إلى حد كبير من سلطان طاقته الغنائية الفارعة حتى يتسلل الحوار غير فأضل على مقتضياته، وغير مخل بالمعنى الذى يتدافع فيه، وغير مسىء لأسلوب العرض، وغير معوق لتتابعه وصلاته وتدفق حركاته.

٤ — ولست أنسى أن هذه الذكرى تلهمنا أن نشيد بجهود شعرائنا وكتابنا فى مصر وفى الأمة العربية، وإنها لجهود عظيمة مخلصة جديرة بالتقدير والثناء، ذلكم بأنهم منذ مشرق هذا القرن طالما هتفوا بالقومية العربية وبالوحدة العربية، وطالما تغنوا بما للعرب من ماض مشرق مجيد يجب أن يتأسوا به، وطالما برموا بما قاساه العرب من حاضر جزين خزيان لابد أن يتحرروا منه، وطالما جلجلوا بما يشرئبون إليه من مستقبل كريم بسام، عليهم أن يجدوا لتحقيقه، فكانت هذه اليقظة العاملة، وكانت هذه النهضة الشاملة، وكانت هذه الصوَّتى الهادية إلى طريق الوحدة والقوة والعزة.

ومامن شك فى أن للأدب فضلا فى هذا كله لايجحد، وسبقا واضحا مشهوداً لايستبعد. فعلى الذين يُنْغِضون إلى الأدب رؤوسهم أن يعلموا أثره العظيم فى حياة الأمم، وأن يعرفوا مكانته وأن يقدروا سدنته أحياء وموتى:

سيدى الرئيس:

سيداتى وسادتى:

إذا كان عزيز أباظة فارقنا، فإننى أتخيله بقامته الفارعة، ووجهه المشرق، وخطواته المتئدة وصوته الجهورى، أتخيله مازال يخطر بيننا فى المجمع، أو يناقش فى كلمة، أو يحاور فى فكرة، وأتخيله هنا على هذه المنصة نفسها يرثى زميلا ودع الحياة، فيسكب من ذوب قلبه ومن عصارة نفسه:

ثم قضت إرادة الله أن يبعد من كان دانيا، وأن يصمت من كان صادحا تاليا، وأن أرثى من كان بالأمس راثيا، وعزاؤنا أنه حى بيننا بآثاره وبذكراه إلى ماشاء الله:

---

(١) البحوث والمحاضرات لمؤتمر المجمع ١٩٦٠ — ١٩٦١ صفحة ١٥٠

●●● قصيدة الأستاذ العوضى الوكيل :

تهاوى دراكا كالنجوم الزواهـــــر
صحابك ، فاصبر – إن قدرت – وصابر

خلا الدرب إلا من خطاى وئيـــدة
وأقفـــر إلا من شحوب مشاعرى

وأبقيت وحدى أجرع الحزن بعدهم
وأرشف كأس الدمع رشف المعاقر

وأمست تهاويل الغـــروب تروعنى
كأن فؤادى فى مخـــالب كاسر

أفى كل يوم صاحب بعد صاحب
توسده كفاى ليل المقابر

أأدفـــن قلبى فلـــذة بعـــد فلذة
فيالك من جـــد على الدهـــر عاثر

مضوا والصبا ، واستبقوا الحزن طاغيا
وذكرى تشب الشجو فى كل ذاكر

وكنت أظن الدمع عونا على الأسى
فمزقنى فيض الدموع البـــوادر

فياليت شعرى هـــل تهزم صدره
بفحواه شدوا وهو بين الحفائـــر

وهـــل شهدته مقلتاه فغـــردت
جوانحـــه لحنا كلحن القياثر

وهل هزه يوم العبـــور فجمجمت
تجاليد روح فى الصفائح طاهـــر

فغنى لوصالين فى الروع خطـــوهم
وغنى لبنـــائين صم المعابـــر

وهـــل خفقت أعلام سيناء فانتشى
كما رشف الندمان جـــريال عاصر

أحب ثـــرى مصر ، وغنى بقدسه
فلاحت لـــه حصباؤه كالجـــواهر

وأذكت ليالى الرقمتين فـــؤاده
على شط مصر فى الضفاف النواضر

مضى الشاعر الشادى الذى طار شعره
فألهم فى أفنانـــه كل طائـــر

* * *

مضى الشاعر الشادى بأحلام قومـــه
حميدا ، وأبقى لوعة فى السوامـــر

مضى لم ير النصر الذى بشرت بـــه
أناشيده فى كل بـــاد وحاضر

أيا شيخة الفصحى ، وحراس قدسها
بتلك العقول الملهمات العباقـــر

تذودون عنها كل بـــاغ يرومها
بسوء وترميها بحقـــد المكابـــر

ولم أر كالفصحى فإن بيانهـــــا
ليبرز أخفى ما اختفى فى السرائـــر

لعمـــرك ما عيت بمعنى ، وإنمـا
هو العىّ فى بعض النهى والخواطـر

ورام رماها بالقصور عن المـــدى
وما هو إلا قاصر أى قاصـــر

* * *

عجبت لقوم جددوا الشعر ضلـــة
فجاؤا بشعر سائب متناثـــر

تجافـــوا به عن كل معنى وفكرة
كأن المعانى حجبت بستائـــر

ويصغى إليهم سامع القوم سائـــلا
أذلك شعـــر أم تعازيم ساحر

رماهم عـــزيز بالمقال فأجفلـــوا
وأعـــول منهم زاحر بعد زاحر

وكـــر عليهم بالقصيد يصـــوغه
فيبـــدع فى التصواغ إبداع قادر

أقام عليهم حجـــة الفن باذخـــا
بشعر كسر الراح فى روح ساكر

مضى الشاعر الشادى الذى طار شعره
فألهم فى أفنانـــه كل طائر

مضى الحارس اليقظان وانتابه كرى
يفىء إليـــه كل غاف وساهـــر

* * *

صديقى ، وشيخى ، قد رحلت وإنما
أغالب فيك الحزن والحـــزن قاهرى

وأشهد فيك الخطب أنّى حملتـــه
وإن لم أكن – لما دهانى – بصابر

●●● كلمة الأسرة للأستاذ ثروت اباظة :

طالمـــا بت بـــواد مذنب
فاصعد اليومَ إلى الـوادى الأمين

عنـــد جنات موشاة الحـــلى
بين أنهـــار وأبرار وعـــين

ضيفَ ذى العـــزة جلت وعلت
بارئ الأنفس من حمـــأ وطين

غافـــر الذنب رحيم منعـــم
قـــابل التّوب غياث المستعين

لم يمت من زايـــل الدنيا إذا
صب فى مسمعهـــا بعض الطنين

يا عشياتى التى أجـْـــزعها
سامداً أدعم رأسى بيمينـــى

زاكىَ اللوعـــة ملتاح الجوى
وأكف الأدمـــع محموم الأنين

لا تقولوا : من أخو البث الذى
هاجنا ؟ من صاحب اللحن الحزين ؟

النفاثات نفاثـــاتى أنـــا
والشئون المستهلات شئـــونى

يا أودائى الـــذين ارتحلـــوا
هـــزنى الشوق لكم فانتظرونى

رحمه الله لقد أبى أن يجشمكم عناء رثائه فرثى نفسه إليكم فى آخر قصيدة ألقاها فى مجمعكم ، رحمه الله :

فقد كان لنا — نحن أهل بيته — عمادنا الذى تقوم عليه خيمتنا، وعميدنا الذى تدور حوله مسابحنا ، وعمودنا الذى يلتف حوله ندينا ، فقد صرنا ولا خيمة لنا ولا عماد ولا مسابح لنا ولا عميد ولا ندى لنا ولا عمود :

لنا وقد كان لمصر وكأن شوقى لم يقل أبياته إلا ليقولها من بعده عزيز أباظة :

رب جــــار تلفتت مصر توليـــه
ســـؤال الكريم عن جــــيرانه
بعثتنى معــــزيا بمآقى وطـــــنى
او مهنئــــــاً بلسانــــــه
كان شعــــرى الغناء فى فرح الشرق
وكان العـــــزاء فى أحزانــه

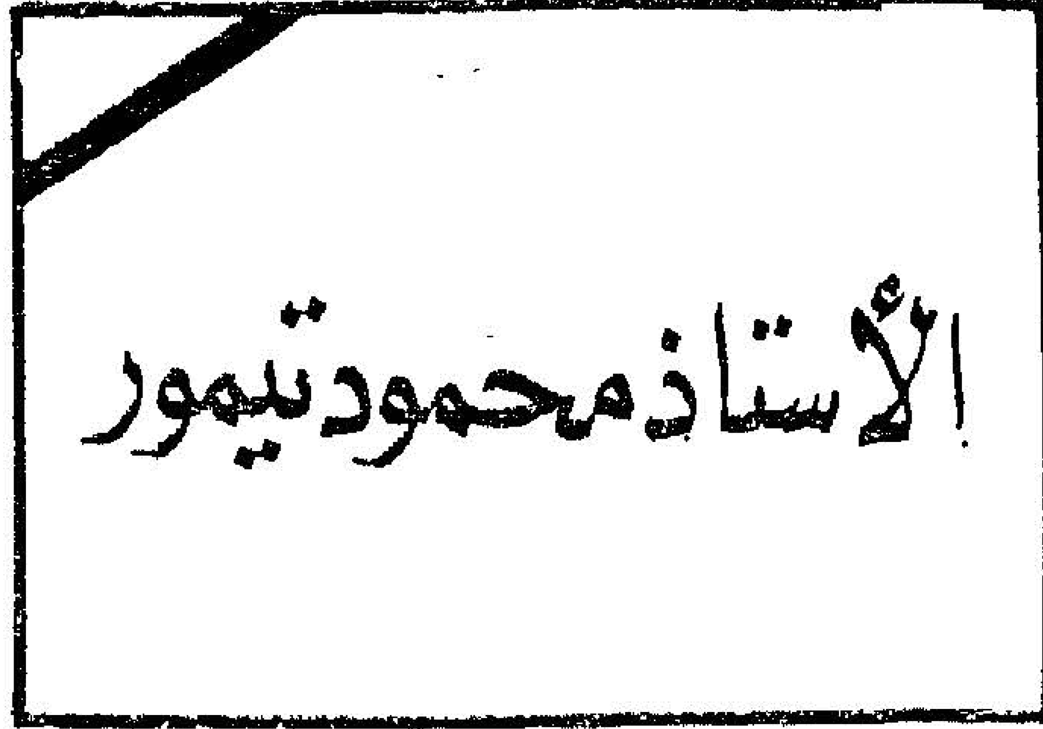
وكان لكم أنتم يا رجال الخلود شعركم ، ومجمع حبكم ، كما كنتم جماع حبه ونبض فؤاده ومبعث اعتزازه وإكباره .

واليوم لم تبق إلا كلمة عزاء تقولونها وأنا أدرى أنه أكبر عندكم من العزاء : وكلمة شكر أقدمها إليكم ، ومن أنا حتى أقدم إليكم الشكر ؟!

فيا سدنة الأدب ويا رواد الكلمة ، ويا عمالقة لغة القرآن لاتقولوا عزاء واستميحكم المغفرة ، فإنى لن أقول شكرا .

فى الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٤ من ذى القعدة سنة ١٣٩٣ هـ (الموافق ٢٨ من نوفمبر سنة ١٩٧٣ م) أقام المجمع بداره فى الجيزة حفل تأبين للمرحوم الأستاذ محمود تيمور عضو المجمع ، وفيما يلى ما ألقى فى الحفل :

كلمة الافتتاح للأستاذ زكى المهندس فى تأبين المرحوم :



سيداتى وسادتى :

إنه ليحز فى قلوبنا نحن أعضاء المجمع أن نرى الموت يتخطف زملاءنا واحداً وراء آخر ، وفى فترات متقاربة . فما تكاد تجف دموعنا على زميل راحل حتى تعود فتنهمر على زميل آخر . ففى سنتين اثنتين فقد فقد المجمع عدداً كبيراً من أعضائه العاملين الذين كنا نعتز بهم ونعتمد فى تحقيق رسالة المجمع على جهودهم ونشاطهم ... مصطفى نظيف ، عبد الفتاح الصعيدى ، عبد الرزاق السنهورى ، محمد عوض محمد ، مصطفى القللى محيى الدين عبد الحميد ، على الجندى ، عزيز أباظه ... وها نحن اليوم نضيف إلى هذه القائمة الحزينة اسمين من أحب الأسماء إلينا ومن أعزهم علينا : محمود تيمور ، وطه حسين .

لقد كانت فجيعة المجمع فى تيمور فجيعة قاسية أليمة. لقد فقدنا فيه ثروة أدبية لغوية ضخمة ليس من السهل أن تعوض .

فقد شارك الفقيد فى كثير من أعمال المجمع ولجانه ، وكان له فيها آراء ومقترحات كان لها الأثر فى توجيه أعمالنا ، ولكنه فى السنوات الأخيرة عكف على ناحية خاصة من نواحى النشاط اللغوى وقصر عليها جهوده المجمعية وهى تعريب ألفاظ الحضارة. كان الفقيد يؤمن إيمانا صادقا بأن تعريب هذه الألفاظ هى الرابطة الوحيدة التى تربط المجمع برجل الشارع أو بجمهور الشعب . وعكف الفقيد على هذه الناحية واستطاع أن يخرج هو ولجنة ألفاظ الحضارة التى كان يرأسها ، عشرات المئات من هذه الألفاظ الحضارية ، تناولت ملابس السيدات وملابس الرجال وأثاث المنازل وأدوات الزينة وأدوات بعض الصناعات ، وكذلك مصطلحات الفن من رسم وتصوير

ومسرح ، لكننا إذ نبكى الفقيد اليوم ، لا نبكى فيه عضوا مجمعياً نشيطاً منتجاً فحسب وإنما نبكى فيه علما من أعلام الأدب ورائدا من رواد القصه ، بل ونبكى فيه أديبا عالميا تجاوز نشاطه الأدبى حدود البلاد العربية ، فترجمت معظم قصصه إلى مختلف اللغات ، وكرم فى كثير من المحافل الدولية الأدبية . أما أخلاق الفقيد فحدثوا عنها بما شئتم وكيف شئتم فقد اجتمع له من الصفات والخلال والسجايا ما قل أن يجتمع لكثير من الناس. شخصية رقيقة مهذبة ، هدوء مع اتزان ، أدب جم مع عفة فى اللسان ، تواضع فى عزة نفس وإحساس مرهف :

لقد عاصرنا الفقيد فى المجمع أكثر من أربع وعشرين سنة، فما أذكر أنى رأيته يوما غاضبا من أحد ، أو ساخطاً على أحد، وإنما كان محباً للجميع محبوبا ومحترماً من الجميع .

رحمه الله وطيب ثراه وجعل الجنة مستقرة ومأواه .

أما الآن أيتها السيدات والسادة ،فسيتولى الزميل الاستاذ محمد خلف الله أحمد ، تأبين الفقيد نيابه عن المجمع ، ثم يليه الزميل الدكتور إبراهيم أدهم الدمرادش فيلقى كلمة الشعر ، ويليهما الأستاذ أحمد فؤاد تيمور فيلقى كلمة الأسرة . وليتفضل الأستاذ خلف الله مشكوراً .

●●● كلمة الأستاذ محمد خلف الله أحمد :

أى صديقنا ، وزميلنا ، وأديبنا الكبير «محمود تيمور» .

سلام عليك ، وأحسن الله عزاء المجمع فى فقدك .

وجزاك الله خيراً عن وطنك «مصر» بقدر ما أخلصت لها ، وأضفت إلى أمجادها بفنك العبقرى وأدبك الإنسانى :

وشكر الله لك ما قدمت للعروبة لغتها، وأدبها وحضارتها ونهضتها الحديثة :

أى زميلنا العظيم :

لقد فجعنا الموت فيك ، وفى نخبة من الأصحاب ، توالت بك وبهم الركاب ، فى أشهر متتابعات ؛ فجل الخطب ، وفدح الأمر ، وكاد الأسى يغلب التأسى ، وإنا لفراقكم لمحزونون ،ولكننا بقضاء الله راضون وبالصبر متواصون ، وإنا لله وإنا إليه راجعون :

أخى الأكبر تيمور :

إن كنت أرثيك اليوم باسم مجمع اللغة العربية، الذى كنت علما من أعلامه، وأسجل ما يسمح

به موقف التأبين من أياديك على الأدب واللغة وأنشر صفحات من جهودك فى تحقيق رسالة المجمع ، فإنى أبكى فيك اليوم صديقا أصفيته وأصفانى الود ، وحظيت منه — على مدى ثلاثين عاما — برعاية الأخ الأكبر لأخيه وتعهده إياه بمدد متلاحق من ثمار إبداعه الأدبى والعلمى ، كل حلقة فيه ستبقى — ما حييت — ذكرى إخاء سمح ووداد خالص :

وسأظل أذكر — ياأخى — مجالسنا وندواتنا فى أسرة «آداب الإسكندرية» ، والهيئة المحلية لرعاية الآداب والعلوم الإجتماعية بها ؛ فقد وقد كنت تخصها بمزيد من حبك وعنايتك ، وتخفُّ لاستجابة دعوتها ، محاضراً ، أو متحدثا ، أو محكِّما فى مسابقة أدبية ، وكان شبابها وكهولها يلتفون حولك ، سعداء بلقائك ، ظماءً إلى سماع حديثك ، حراصاً على ألا يطول انقطاعك عن زيارتهم . ومنذ جمعت القاهرة شملنا فى مجمعها وهيئاتها الفكرية والأدبية ، على مدى الخمسة عشر عاما الأخيرة ؛ نما حبى وتقديرى لك ، وزاد رصيدى من جميل الذكريات ، وفى الذكريات سلوى وعزاء .

رحمك الله ياصديقى ، وأكرم فى الفردوس مثواك ، والسلام عليك .

سيدى رئيس المجمع بالنيابة ، سيداتى وسادتى ،

إن الزميل الراحل الذى اجتمعنا اليوم لتأبينه ، ولد فى السادس عشر من يونيو سنة أربع وتسعين وثمانمائة وألف ، وانتقل إلى جوار الله فى الخامس والعشرين من شهر أغسطس الماضى من سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة وألف — عن تسعة وسبعين من الأعوام ، يمثل ثلثها الأول مرحلة الإعداد والتفتح للرسالة التى اضطلع بها الفقيد على مدى خمسين عاما ، وورث بها الفكر العربى قرابة ستين كتابا فى مختلف ميادين اللغة والأدب .

وقد سجل لنا الفقيد فى بعض كتبه ؛ مثل : «شفاء الروح» اتجاهات الأدب العربى فى السنين المائة الأخيرة ، وفى بعض مقالاته وأحاديثه التى نشرت فى الصحف والمجلات — معالم المرحلة الأولى من حياته ، والعوامل التى وجهته إلى أدب القصة والمسرح ، والمؤثرات التى عملت عملها فى إنماء موهبته الأدبية ، وأهم الكتب التى فتحت الآفاق الفنية أمام ذهنه وخياله ، وأشهر الكتاب الوطنيين والعالميين ، الذين أعجب فى شبابه بأدبهم ، وحاول أن يحذو حذوهم .

وكان من بين ما أبرزه فى بيئته الخاصة : أثر والده العالم المحقق «أحمد تيمور» ، ومكتبته الحافلة بكل نفيس من كنوز التراث والثقافة ومجالسه التى كانت تنتظم بعض أكابر العلماء والمفكرين فى عصره : كالشيخ محمد عبده و«الشنقيطى» ، و«رشيد رضا» ، ثم أثر شقيقه «محمد» ، الذى تطلع إلى بدء عهد جديد فى حياة الأدب المصرى ، والذى مات فى شبابه ، بعد أن شارك بنصيب وافر ، فى التمهيد لنهضة الفن القصصى والمسرحى ، فى الأدب العربى الحديث كما أبرز الفقيد أثر الحياة التى أتيح له أن يحياها فى الريف ، وماكان لها بعد من صدى — فى رسم شخصياته فى قصصه الأول :

وأخبرنا – فيما سجله من عناصر ثقافته وفنه – أنه كان فى شبابه يستمتع بأدب « المنفلوطى » [1] إمام الرومانسية الأدبية فى مصر، فى الربع الأول من القرن الحاضر، وأن والده وجهه إلى قراءة « ألف ليلة وليلة »، فطالعه بأكمله، وكان يجمع من يرغب فى الاستماع إليه من أهل المنزل ويعيد عليهم تلاوة ما قرأ، وأنه كانت له ولأخيه « محمد » محاولات ناشئة فى التحرير والتمثيل فى محيط الأسرة ومعارفها، وأنهما حفظا – وهما صغيران – معلقة امرئ القيس، وكان ذلك بتوجيه من والدهما .

وقد قرأ محمود – بتوجيه من أخيه – «حديث عيسى بن هشام» لمحمد المويلحى» ورواية «زينب» لهيكل، وأغرم بقصص الكاتب الفرنسى الشهير «موباسان» الذى توفى قبل ميلاد تيمور بسنة واحدة، واتصل بالقصص الروسى وخاصة قصص « تشيكوف » «وتورجنيف» وأتيح له أن يسافر إلى أوربا، فقضى فيها مدة معظمها فى « سويسرة »، عكف فيها على الاتصال بالأعمال القصصية، وعلى تعميق ثقافته الفنية والأدبية .

* * *

هذه أهم المعالم الأولى فى تكوين فقيدنا وإعداده لرسالته، ومن حسن حظ التاريخ الأدبى أن الفقيد قد سجل خطوطها الرئيسية بقلمه ويسر بذلك مهمة المؤرخ والناقد وكاتب الحياة فى التصوير والتحليل والتعليل للظواهر الأدبية .

ولعلنا نستبق ما سيجئ من حديثنا لنقول : إن هذين العنصرين البارزين من عناصر التكوين والتنمية لشخصية «تيمور» الثقافية والفنية، قد ظلا يعملان عملهما إلى آخر حياته . فقد كانت له طوال الثلاثين سنة الأخيرة أسفار إلى الخارج للاصطياف أو التماس السلوى بعد وفاة نجله محمد سعيد فى شبابه أو طلباً للعلاج لنفسه أو لأسرته وزادته تلك الأسفار تنوعاً فى مطالعاته، واتساعاً فى تجاربه وصقلا لقوة الملاحظة عنده، ورصيداً من المشاهد والمناظر وأنماط السلوك، وأثمرت – فيما أثمرت – بضعة كتب فى أدب السياحة والرحلة تعد نماذج فى براعتها وصدق فنها، وتؤلف خطاً هاماً من خطوط منجزاته .

أما حرص الفقيد على تنمية ثقافته، فقد ظل ملازماً له طوال حياته وظلت الكتب القديمة والحديثة والمعاصرة من خير جلسائه . والمتتبع لسلسلة أعماله يلحظ شواهد تلك الصحبة الدائمة، فى أسلوبه، وفى مسرحياته، وفيما يرد من إشارات ومقتبسات فى بحوثه ومحاضراته التى تؤلف خطاً ثالثاً فى منجزاته – ثم فى صوره الأدبية الوصفية التى رسمها لبعض الشخصيات البارزة المعاصرة فى عالم الفكر والأدب والفن وفى كتاباته التى كان يتابع فيها إنتاج القصاص المحدثين والمعاصرين بنقده، أو يقدم له أو يعرف بأصحابه، وهذه الصور الوصفية والكتابات الناقدة تؤلف مجالا رابعاً من مجالات النشاط الفنى للكاتب الكبير . ويبدو أنه كانت للفقيد فى تثقيف نفسه عناية خاصة بأن يكون ترتيل آيات

من القرآن الكريم أول مايفتتح به يومه حين يصبح . وآخر ما يختتمه به حين يمسى ، وقبل أن يسلم أجفانه للنوم . وكان يجد فى ذلك توفير الصفاء والنقاءلروحه، حتى تشف وتخف وتسمو إلى الآفاق العليا ، حيث ينابيع التطهر والصفاء والسعادة. وقد كشف عن سر هذه التجربة فى كتابه : « شفاء الروح » ونصح لأخيه المؤمن أن يأخذ بحظ من هذه التجربة ، وهو يختم نصيحته هذه بقوله :

أخى المؤمن :

مزية جليلة أن يكون ذلك الذخر الخالد من كلام الله تراثاً دانياً منك، تلتمس فيه علاج نفسك وصفاء روحك ، وتمتلك به ناصية السعادة بمعناها الأسمى ؛ ذلك لأن هذا القرآن الكريم ينأى بك عن مكاره الأرض ليصل بينك وبين السماء :

إنى ألمح هنا سرا من أسرار تلك السماحة الباسمة المطمئنة الوئيدة الخطو ، التى كانت تهل علينا من ساحة دار المجمع إلى قاعة المجلس ، فإذا هى« محمود تيمور » يدلف إلى مكانه المعهود فى حياء وإشراق ، ليشارك فى أنشطة المجمع ، وليعرض عليه صيده الثمين من ألفاظ الحضارة ، ومن البحوث الممتعة فى الأدب واللغة .

وفى لغة تيمور وأسلوبه فى كثير من أعماله الأدبية نضرة من أثر ذلك النبع السماوى الصافى

* * *

سادتى :

مضت مرحلة الفتوة والشباب بإرهاصاتها الفنية ، وسار محمود تيمور فى مراحل تعليمه وجاءت نقطة التحول فى حياته — كما يقول حين أصيب بمرض التيفويد — وهو فى التعليم العالى فى سن العشرين ، وطال المرض وألزمه الفراش ثلاثة أشهر ، فلما أبل منه ، حال ضعف بنيته دون استئناف الدراسة ، وشعر باشتداد ميله للأدب ، فرسم لنفسه فيه دراسة شبه منظمة ، اتسمت بالجد والاستيعاب ، وسار فى مطالعاته فيه بهداية شقيقه . وحين كتب « محمد تيمور » أقاصيصه بعنوان « ما تراه العيون» ، ناحياً فيها نحو المذهب الواقعى ، مصوراً فيها مناظر مختلفة من البيئة المصرية وأشخاصها فى أسلوب سهل رشيق ، أعجب بها « محمود » ، فكتب على غرارها باكورته فى القصة « الشيخ جمعة» مترسما فى كتابته المذهب الواقعى :

وفى عام ١٩٢٥ رأى أنه قد تجمعت عنده مادة من القصص يصح إظهارها فى كتاب ؛ فطبع «الشيخ جمعة وقصص أخرى».

من هنا ، وفتيدنا فوق الثلاثين بقليل ، يبدأ العمر الفنى للأديب القصصى الكبير ، ويتطور فنه ، ويتنوع إنتاجه بين أقصوصة وقصة ومسرحية ، وأدب أسفار ، ولقطات وصفية ، ودراسة لفن القصص ، ولبعض قضايا اللغة العربية ؛ وتأخذ شهرة أديبنا فى الاتساع ، وتبرز فى المحيط العربى : « شفاه غليظة » و « سلوى فى مهب الريح» و«حواء الخالدة » و« المخبأ رقم ١٣ » و«كل عام

وأنتم بخير » و « إحسان لله » و « ابن جلا » و « اليوم خمر »، و « أبو الهول يطير » و « ملامح وغضون » ، و « شباب وغانيات » وغيرها مما وصل بتيمور إلى مرحلة الاعتراف الرسمى بمكانته ، علماً بين أعلام الفكر ، ورائداً لفن القصة فى الأدب العربى الحديث . وتجاوزت شهرة « تيمور » الأدبية حدود الوطن العربى فترجمت بعض أعماله إلى لغات أجنبية وتسامع به بعض علماء الاستشراق والمعنيين بالآداب العربية ، وكتب عنه بعضهم — مثل « كراتشكوفسكى » الروسى و « عبد الكريم جرمانوس » المجرى — كتابة تؤرخ مولد القصة المبتكرة ذات الطابع العربى الصميم ، وتشهد بارتفاع تيمور إلى مصاف الفلاسفة الأدباء ومعلمى الثقافات .

ومن أوائل ما يطالعنا من الاعتراف الفنى والرسمى بتيمور فى بلده مصر — ومن المظاهر الأولى فى صلته بالمجمع — أن اختارته وزارة المعارف والمجمع اللغوى فى سنة ١٩٤٢ عضواً فى لجنة مسابقة القصة التى نظمتها وزارة المعارف ، ودعت فيها الأدباء إلى تأليف قصـــة ينتفع بها الطلاب وأمثالهم من المثقفين ، ثم أحالت أمر هـــذه المسابقة إلى المجمع لتتولى التحكيم فيها هيئة ممن ندبتهم الوزارة لهذه المهمة بالاشتراك مع لجنة الأدب والنصوص بالمجمع ، وبلغ عدد أعضاء تلك الهيئة أحد عشر ؛ بينهم لطفى السيد ، وهيكل ، ومصطفى عبد الرازق ، وطه حسين والجارم ، وتيمور ، كلهم من قادة الفكر والأدب فى تلك المرحلة (مجلة المجمع عدد ٥)

وفى سنة ١٩٤٧ وافق مجلس المجمع على اقتراح لجنة الأدب فيه تتويج جميع الإنتاج القصصى باللغة العربية الفصحى لمحمود تيمور ، ومنحه وحده جائزة القصة فى المسابقة التى كان المجمع قد أعلن عنها من قبل فى ميدانى القصة والبحوث الأدبية ، وفى شهر مارس من ذلك العام أقام المجمع حفلا عاماً بقاعة الجمعية الجغرافية لإعلان تلك الجوائز (مجلة المجمع العدد ٧) وألقى « فريد أبو حديد » كلمة القصة فى ذلك الحفل وفيها عرض للقصص وتاريخه وأهدافه ، ونصيب الأمم القديمة فى نشأته وتطوره ، كما أشار إلى طائفة من أعلام القصة وانتهى إلى التعبير عن اغتباط مصر بظهور طائفة من نوابغ أدبائها الذين توفروا على الإنتاج الأدبى فى شتى الفنون ؛ من شعر وأدب وقصص وأعلن أن المجمع اللغوى قد اختار فى هذا العام من بين المبرزين فى القصة ؛ الأستاذ محمود (بك) تيمور ، فأهداه جائزة القصص . إشارة منه إلى هذا المعنى ، واعترافاً بما للأستاذ الكبير من أثر محمود فى فن القصة فى أدبنا الحديث . وقد أحصى المتحدث مؤلفات تيمور إلى ذلك التاريخ فكانت خمسة وعشرين كتاباً ، وبعد أن أشار فى إيجاز إلى الفرق بين آثار تيمور الأولى وآثاره الأخيرة قرر أننا لسنا نبالغ إذا قلنا إن تيمور اقد بلغ فى بعض قصصه الأخيرة مرتبة عالية ، يحق لنا أن نفاخر بها

وأجمل «أبو حديد» ما تمتاز به طريقة تيمور في ثلاث :

الأولى : أنه يرسم أشخاص قصته حتى إنك لتحس أنفاسهم، وتلمح الحياة في سهولة حركاتهم .

والثانية : أنه يكتب في لغة سلسة لاتحجب شيئاً من معانيه .

والثالثة : أن فنه يشيع فيه روح وديع من الإنسانية لا تحس معه مرارة في وصف حتى ليكاد يحبب إليك الضعف الإنساني.

وكأنما كان تتويج المجمع جميع الإنتاج القصصي لمحمود تيمور ومنحه وحده جائزة القصة ، جواز مروره لعضوية المجمع بعد ذلك بسنتين ، فقد ائتمر به صديقان له : «أحمد أمين وطه حسين» فرشحاه ،ولم يكادا يعرضان هذا الترشيح حتى أجمع المجمعون على اختياره ، وإذا هو — كما يقول « طه حسين» في استقباله — قد التهمه المجمع التهاماً ، كما التهمته اللغة العربية الفصحى التهاماً من قبل. كانت جلسة الانتخاب في أواخر عام تسعة وأربعين وتسعمائة وألف ،وكان حفل الاستقبال في جلسة علنية في السادس والعشرين من شهر يناير سنة خمسين وتسعمائة وألف ،وناب عن المجمع في هذا الاستقبال « طه حسين » ، وتضمنت كلمته لمحة لتاريخ أسرة تيمور ، وحبها للعلم والأدب ، وما كان للجد والأب والعمة والشقيق من أثر في ميادين الفكر والشعر والقصص والتمثيل ، وامتياز « محمود تيمور » في فن القصص على مفهومه الحديث امتيازا سجل به لنفسه خلودا في تاريخ الأدب العربي ، ووصف تيمورا بأنه كاتب حلو النفس ، عذب الروح ، خفيف الظل لا يثقل على قرائه مهما يطيلوا عشرته . ويؤكد طه حسين أنه حين تلقى « سلوى في مهب الريح » وهو في فرنسا مشغول بما كان يعكف عليه من قراءة الأدب الفرنسي مابدأ يقرأ قصة تيمور حتى أتمها على طولها ، ولم يقطع القراءة إلا حين لم يكن من قطعها بد . وأعجب طه حسين — فيما أعجب به — من قصص تيمور « بشفاه غليظة » . وطاب لطه حسين في فن هذه القصة أن يلحظ أن الذي استهوى بطل القصة وملك عليه لبه وفؤاده كله هو شيء في إحدى الشفتين ، نتوء ضئيل جدا في وسط الشفة ، لا ينفرج ولا يتسع ولا يتيح لهذه الشفة أن تستوى إلا حين تضحك الفتاة أو تبكي أو تأخذها ثورة من ثورات العاطفة .

و «طه» إذ يكشف هذا السر بخبرة القصصي الناقد المحنك ، يتجه إلى تيمور ، فيقول له :

هذا النتوء اليسير كان مدار قصتك كلها ، من أولها إلى آخرها : شيء يسير جدا في شفة فتاة من الفتيات ، رآها محام ففتن بها وهام بها الهيام كله . . . . . . وكذلك أنت في كثير جدا من قصصك ، أو في كل قصصك تصل أو تستكشف شيئاً يسيرا ،

وتجعله مداراً للقصة ، تعود إليه كأنه لحن من هذه الألحان اليسيرة التي يبنى الموسيقى عليها قصته . فأنت تجد فى قصصك فكرة أو صورة أو خاطرة دقيقة يسيرة ، تدور عليها قصتك فتستهوى وتخلب وتستلب القلوب (مجلة المجمع عدد ٨) .

هذا التأكيد للتتويج المجمعى لآثار تيمور القصصية تبعه تأكيد ثان من الدولة فى السنة التالية حين منحته جائزتها فى الآداب على مجموعتى قصصه : «إحسان لله» و«كل عام وأنتم بخير» . وظفر تيمور فى تلك السنة أيضاً بجائزة واصف غالى فى باريس ، على كتابه المترجم إلى الفرنسية «عزرائيل القرية» .

ولم يكن تتويج آثار تيمور القصصية فى سنتى ١٩٤٧ و ١٩٥٠ آخر عهد المجمع بتكريم تيمور حياً ، فقد رشحه بعد ذلك فى سلسلة ترشيحاته السنوية لبعض أعضائه لجائزة الدولة التقديرية فى الآداب ، وشاركت المجمع فى هذا الترشيح بعض الهيئات الأخرى ، وأقر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية منح تيمور تلك الجائزة فى سنة ١٩٦٢ وجاء فى تقرير لجنة الفحص بالمجلس : «وله نيف وخمسون كتاباً ، طبع بعضها عدة طبعات ، واستمتع بقراءتها عشرات الآلاف من قراء العربية ، واهتدى بهديها الفنى عديد من كتاب القصة والقصة القصيرة وامتد تأثيره من البيئة المصرية إلى أجزاء الوطن العربى الكبير ، وقد أحله النقاد منزلة ممتازة بين رواد الأدب العربى الحديث وموجهيه وامتدت شهرته عن طريق كتبه المترجمة إلى مختلف الألسنة والبلاد ، فقد ترجم عدد كبير من أعماله إلى عدة لغات أوربية وآسيوية ؛ كالإنجليزية والفرنسية والروسية والصينية والإندونيسية والأردية .

وهو بذلك ذو منزلة رفيعة ممتازة فى حياتنا الأدبية (جوائز الدولة — المجلس الأعلى ١٩٦٢) قد أيد هذه الألوان من التكريم الفنى والعلمى شكول من التكريم الرسمى فيما منحته الدولة إياه من الأوسمة الرفيعة .

سادتى :

نستطيع أن نقول إن العمر الفنى للفقيد — وقد اعتبرنا بدايته سنة ١٩٢٥ — قد بلغ تمام رشده ونضجه حوالى منتصف القرن الحاضر .

وقبل أن تسلمنا هذه المرحلة إلى العشرين سنة الأخيرة من حياة فقيدنا والتى تبدأ مع بداية ثورة التحرير المصرية ، نتلبث قليلاً لنشير إلى معلم من معالم المرحلة الماضية ليس بالقصة ولا المسرحية ولا الدراسة العلمية ، ولكنه كتاب رحلة من أبرع ما عرفه أدبنا العربى فى هذا الباب ومن أشده استحواذاً على النفوس : فناً وأسلوباً ؛ وقد شاء القدر أن يقوم تيمور بتلك الرحلة إلى أمريكا بعد سنوات قليلة من فجيعته وفجيعة الأسرة بفقد نجلها «محمد سعيد» فى ريعان شبابه إثر مرض وقف الطب إذ ذاك عاجزاً عن علاجه .

وكتاب الرحلة هذا — وعنوانه «أبو الهول يطير» — سجل فني سجل فيه كاتبنا وصفاً تصويريا لمعظم ما رأى في طريقه وفي أثناء إقامته في نيويورك لعلاج السيدة قرينته. وصدره بإهداء مؤثر، يقول فيه:

« إليك . . . .

إليك يا أعزّ من أحببته، ويا أعز من فقدته.

إليك أنت، يا من لا أسميك . فإن اسمك لم يعد يجرى على لساني منذ أضعتك.

إليك أخط هذه الرسائل.

إني لأبعثها واحدة تلو الأخرى، لعلى أتنسم من توجيهها إليك برد السلوى؛ وإنها لتطالعك في عاليك العلوى، لعلها تحمل إليك خوالج القلب ونجوى الضمير!

تهتاج بين جوانحي رغبة متقدة في الكتابة إليك، في مخاطبتك؛ في فك الإسار عن نفسي التي تتنزّى في القيود والأصفاد . . . ».

. . . . وتسير الرسالة على هذا المنوال الحزين حتى تقول:

« تلك هي الرحلة الأولى التي تتخلف فيها عن مرافقتي، فلقد نعمت بصحبتك في أسفاري جميعاً.

أنت تتخلف عني اليوم على الرغم منك، وأنا أرحل الساعة بدونك على غير إرادة مني، إنها يا بني مشيئة القدر، ومن يردّ القدر إذا شاء . . . »

. . . . إني لأزمع الرحيل لا تسرية عن النفس، ولا إشباعاً لفضول، بل لأرافق شخصاً عزيز المكانة في قلبينا، يلتمس الشفاء في تلك البلاد القاصية ».

أما كان أحرى أن تكون مكاني ترعى هذا العزيز في غربته وتدعني مكانك أتوسد الثرى عنك! . . . ».

ويبلغ الإهداء ذروة المأساة حين يصل إلى ذكر المرحلة الأخيرة من مرض ابنه، ويهمس الأب الحزين في حسرة واستسلام:

« لقد تطايرت من بيننا يا بني كما يتطاير العطر من قارورة رُفعت سدادتها فلم نعد نراك بأبصارنا، ولكننا ظللنا نشمُّك طيباً يشيع فيما حولنا من أجواء ».

وتبدأ الرسالة الأولى من رسائل الرحلة مؤرخة ٤ من أبريل سنة ١٩٤٦، وتشعر وأنت تقرأ الأسطر الأولى منها، أن الأب الحزين الصابر يُصرّ على أن يتحدث إلى ابنه في كل صغيرة وكبيرة من شئون الرحلة، حتى لا يفوته منها شيء، وكأنه على عهده يرافق أباه، ويشهد المشاهد معه، بما فيها من جمال ومتعة، وما فيها من غرائب ومفارقات، وما تثير من شجون وذكريات، وما يتمثل في سلوك الأشخاص الذين يتحركون على مسرحها من بواعث الفكاهة والسخرية أحياناً، ومن مسبِّبات الألم والضيق أحياناً أخرى.

تصف الرسالة ما يحيط بالمسافر ، بعد أن تحدد ميعادسفره ،من مشاغل متزاحمة ، ومن إجراءات معقدة، يتعلم فيها المبتلى بها كيف يكون هجاماً لجوجاً ملحاحاً ؛ والمتاعب التى يصادفها حين يصل إلى الجمرك « تلك المؤسسة التى أنشأها قوم حاقدون على البشرية ، اتخذوها أداة تنكيل وسوط عذاب ، وضابط الجمرك الذى ترتفع يده بالخاتم العظيم ، تضرب هنا وهنالك فى مهارة حرية بالتقدير . . . إنه ليضرب ضرباً محكماً كأنما يسدد الطعن فى ميدان القتال . أخذ الضابط الهمام يجفف ما تغدد من جبينه فى زهو النصر الغلاب . . ألم يؤد عملا بالغ الجلالة ، عظيم الخطر ! إن ورقة تخلو من ضربة واحدة من خاتمه العظيم كفيلة أن تقضى على صاحبها التاعس بالحرمان » .

وتحين ساعة الوداع ! ويقول كاتب الرسالة :

« وشعرت بغتة كأن قلبي تهصره يد قاسية . . .

وثارت بى فجأة ذكريات . . . ذكريات يزحم بعضها بعضاً . . . ذكريات شتى جليلة . وتافهة . . .

فى هذا الموقف الدقيق تتخايل لنا حادثة قديمة ليست بذات بال ، أو يبدو لنا وجه نعجب كيف انفسح له مجال الظهور ! وتتداعى المشاهد فى مخيلتنا وتتلاحق سراعاً حتى تتجمع كلها وكأنها تدور حول محور واحد ، ولا تفتأ تدور ، وننظر إلى المودعين نظرة ساهمة ، ونبدأ نودعهم مصافحين أو مقبلين ، وتثور فى النفس رواقد الشجون ، وينكشف للمرء منا تفاهته العجيبة ، وتنهار فى لحظات تلك الشجاعة التى نتغنى بها مفاخرين ، فنغدو نحن الرجال ، أمام وداع طفل صغير ، قد تصاغرنا ، وأصبحنا فى مثل حجمه وعقله وشعوره :

أى بنى !

« إن وداع الأحياء رائع مثير لأخفى كوامن الشعور ، ولكن ثق أنه لا يقاس بشىء أمام وداع الراحلين » .

وتأخذك الرسالة الثانية معها على هذه الصورة حتى تصل بك إلى مطار « أثينا » ثم بعد استراحة قصيرة إلى باريس مارة فوق سويسرا ، ولا يفوتها أن تلقى معك نظرة على ما يتيحه المرور من جلال وجمال ، حيث الجبال الشوامخ تعتم قممها بناصع الجليد ، كأنها نساك من الشيوخ متعبدون ، عليهم جلالة ومهابة ، ترفعوا عن زحمة الحياة ، وضجيج الأرض فخلوا إلى أنفسهم معتكفين . . ولا تلبث أن تلوح للأنظار باريس العظيمة ، غانية المدائن وفاتنة الحواضر ، ومحط الرحال من كل صوب وحدب ؛ ويستعد أبو الهول للهبوط ، ويتحسس صاحبنا وجهه فيصطدم بشعرات لحيته الخشنة تملأ عارضيه (وكان قد تحسس نذرها من قبل فى طريقه إلى أثينا) فيقول : ويلاه من تلك اللحى الكريهة التى تطلق لنفسها حرية النمو فى غير حياء

ولا تورع ! . . لقد نسيتك يا صاحبى : سأقصد توا إلى المغسل لأزيلك فى طرفة عين » ! .

وتصف تلك الرسالة بعض مشاهد باريس، وقد تغيرت الحال ومظاهر المعيشة فيها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . ويسير صاحبنا — فى فوج من زملاء الرحلة مترجلين — إذ ليس ثمة من سيارة ترى ؛ ويبدأون يخترقون ساحة « الكونكورد » فإذا بها قد ران عليها خمول :

« وبدت المسلة المصرية ، وسط ذلك التجهم ، شامخة متطاعة فى ترفع وإباء ، كالنبيل المصفَّد بالأغلال . .إنها هى وسط الظلام والسكون ، كما كانت هى وسط الأنوار السواطع والحركة الدائبة .. هى تلك الصَّموتُ الأبيَّة تنتظر فى صبر وأناة ساعة الخلاص ، ساعةَ الأوبة إلى الوطن » :

ولا ينسى « تيمور » — فى وسط ذلك كله — أن يرتب لك لقاء مع روح المقاومة الفرنسية فى أيام الاحتلال الألمانى على لسان نادل القهوة . وتسنح للكاتب فرصة السخرية المنتقمة من حوذى محطم أرهقهم عسرا فى مساوماته على أجرة الركوب فى مركبته التى لا بد أنه ابتاعها من سوق الأسقاط وباليات السلع !

ويتهيأ الركب لعبور المحيط الأطلنطى أو كما يسميه العرب « بحر الظلمات » ، ويستعدون لرحلة لا تستغرق أقل من إحدى عشرة ساعة ، ويتسامى بالمسافرين صديقهم الكبير يضرب بهم فى عرض الأفق ، وقد اتقد حمية وحماسة ، ويرون السحب تنبسط على صفحتى المحيط وتغدو كأنها بساط من جليد :

وتبلغ الرحلة «نيويورك» ، وتثور بالكاتب — كما يقول — ثورة تطلع وفضول ، فكان يبعثر النظرات حوله فى تعجل ، يخشى أن يفلت منه شئ ، حتى تطالعه ناطحات السحاب بقوامها الفارع تستعلى ، ولا تنى تستعلى ؛ فهى تفصح لك عن مركب النقص فى النفس الأمريكية تكمن فيها نزعة تلك الأمة الفتية الناهضة التى أصابت ثروة واقتدارا ومكانة ، نزعة كأنها تريد أن تصرخ قائلة :

لست إلا أمة عظيمة !

وتجد عبقرية الكاتب المصوِّرة — فى أمريكا — مجالها الواسع فى التسجيل والوصف والمقارنات بين الشرق والغرب ، والحديث عن الرجل والمرأة ، وما يسميه الأمريكيون جمال الجاذبية الأنثوية ، والفرق بينه وبين الجمال المصرى النسوى ، الذى أنضجته شمس الصحراء ، وغذته خصوبة الوادى ، ورواه رحيق النيل ، وشاعت فى سماته أحلام الشرق وأخيلته فأصبح «كوكتيل» الجمال الشرقى ، وغدا سحرا لا يفوق مستواه أى مستوى آخر للجمال العالمى :

وتأخذ معالم « نيويورك » ثم « وشنطن » بعدها أماكنها فى كتاب الرحلة بفنادقها

ومسارحها ودور السينما فيها ، والمتاحف القديمة والحديثة ودور الكتب ، وتسنح الفرص بين حين وآخر لاهتزازة قومية تثير فى نفس الكاتب الزهو والاعتزاز بوطنه ومجده القديم وحضارته أم الحضارات، ويستيقظ بين جوانحه اغتباط حين يزور ركناً مصرياً فى أحد المتاحف ، أو يطّلع فى إحدى دور الكتب على مخطوطات وكتب من نفائس التراث العربى الإسلامى :

ويتم علاج الشخص العزيز ويأخذ المسافران طريق الأوبة ، ومنذ أن فصلت الطائرة عن «أثينا» متجهة نحو مصر ظل صاحبنا لا يستشق إلا جوا واحدا ونسيما واحدا ، ما أطيب شذاه ، وما أكرم رياه ، ينفذ إلى سويداء القلب ، ذلك هو نسيم « مصر » ، وعطر الوطن ، ثم لا يلبث أن يستمع إلى صوت منبعث من قرارة وجدانه يتساءل :

« مالى ، وقد رحلنا عن « أثينا » واقتحمنا سماء بحر الروم ، واتجهنا صوب وادى النيل أحس وحشة غريبة تهب دفعة واحدة من جوف ذلك الغسق الذى تشق أستاره ، وتهيب بقلبه : أفصح أيها القلب . مما بك الساعة !».

ويصل الغائب الوطن ويقف على قبر ولده ويطوف بمزاره ، ثم يرجع إلى داره ليخط إليه كلمات عجالا ، هى أخرى كلماته إليه فى هذه الرسائل .

وينتهى كتاب الرحلة برسالة من صفحتين إلى شريكة عمره، ورفيقته فى السفر والحضر، تحية محبة ورمز تقدير .

هذه الرحلة تحولت فى يد تيمور إلى شبه قصة تحقق فى نفس قارئها المتعة الفنية ، واللذة العقلية معاً ، وتثير عنده فى الوقت ذاته مشاعر الأسى والمشاركة الوجدانية .

والمحور الذى يمسك قصة الرحلة ويربط بناءها ، هو ذلك الغائب بجسمه ، الحاضر بروحه ، الذى لازم أبويه طوالها يتحدث إليهما ويتحدثان إليه ، ويشاركهما الذكريات والمشاعر التى أملت رسائلها . وهى كسائر أعمال « تيمور » نموذج فى الوضوح الفكرى والتعبيرى ، وفى غنى الثروة اللغوية التى تنجزها الاستجابة لتصوير الأشياء والأشخاص والمشاعر والمشاهد فى تنوعها ، بين شرقية وغربية ، وقديمة وحديثة :

* * *

ولتيمور فيما أخرج من سلسلة أدب الأسفار نموذج آخر ، أحدث من سابقه عنوانه : « جزيرة الحبيب ومشاهد أخرى — سياحة فى إيطاليا » ، ظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٦٣ أى قبل رحيله عن دنيانا بعشر سنوات يبدؤه بنبذة طريفة فاتحة لشهية القارئ عن بعض الفوارق الأساسية بين الحياة فى سويسرا والحياة فى إيطاليا ، يقول فيها :

« فالحياة فى سويسرا كأنها لحن قوى عنيف من الألحان الموسيقية الجسام التى تتطلب الإنصات فى توقر وخشوع ؛ ولكن الحياة فى إيطاليا ترنيمة رقيقة مرحة ، تترنح على نغمتها الأسماع فى كل آن وفى كل مكان .

وإن تلك الفوارق لتبدو حتى فى ألوان الطعام ... الصحن فى سويسرا كأنما يقول لك : ماذا تبغى أكثر من غذاء نافع يوفر لك الشبع والعافية ؟

أما نظيره الإيطالى فيقول لك : هنيئاً مريئاً بما تنعم به من لون شهى المذاق يواتيك باللذة والإمتاع !

وعلى رأس المجالات التى تتجلى فيها هذه الفوارق مجالُ الجمال .. هو فى سويسرا — جمال هندسى منطقى ، يقوم على التنسيق ، فيخاطب العقل ، ويبعث على التقدير والإكبار ، وهو — فى إيطاليا — جمال ثورى عاطفى ، يوقظ الفتنة ، فيناجى القلب ، ويبعث فى الجوانح حرارة الشوق والهيام .

و«جزيرة الحبيب» التى استمد منها الكتاب عنوانه هى جزيرة «كابرى» ، تلك الجزيرة الصغيرة فى خليج «نابولى» والتى خلدت جمالها كثير من الأغانى الغربية العاطفية الراقصة ؛ وقد تعهدها القوم ، فأحالوا حظها الوافر من جمال الطبيعة سحراً وفتنة . وهذه الملاحظة تثير فى نفس كاتبنا سؤالا ملحاً : إن مواطن من الفتنة والسحر تختبئ فى أرجاء الإقليم المصرى ، فمتى يتاح لها أن تدخل معهد التجميل لتخرج عرائس فى زينة وزخرف تغلى لها المهور من كل خاطب ود ؟

وانشغال الكاتب بوطنه ، وحنينه إليه ، واعتزازه بعراقة تاريخه وحضارته سمة بارزة من سمات هذا العمل الأدبى ، فالكاتب أينما سار ، تتراءى له من جانب الوطن أطياف ، تهز منه كوامن المشاعر ، وتثير فيه غوالى الذكريات فيهتف من أعماقه : «رعاك الله أيها الوطن العزيز ، ما خطونا فى ديار الغربة خطوة ، إلا آنستنا منك آثار تذكرنا بك ، وتشدنا إليك ، وتزيدنا من ولاء لك وتمجيد ، فأنت على البعد والقرب ملء وجداننا ، مادبت فينا حياة» .

ويزور الكاتب حديقة روما ، وفيها مئات من التماثيل يتجمع بعضها فى بقعة ، ويتفرق بعضها فى شتى الأرجاء ، ولكل فئة من العظماء نصيب ملحوظ بين هذا الحشد من التماثيل ، فيبهر سائحنا بما يرى من روعة وجو روحانى ، ولكنه لا يلبث أن تغشاه سحابة من الكآبة ، إذ لا يجد عربياً من قومه أتيح له أن يتبوأ مقعداً بين أولئك الأفذاذ الخالدين ، ولكن هذه السحابة تنقشع عنه حين يعلم أن «شوقى» شاعر العروبة والإسلام ، قد أخذ مكانه الجدير به بين الأنداد والنظراء من الشعراء ، فيقول : إنه فى الحق لانتصار للشرق بأسره قمين بالزهو والاعتزاز .

ومن سمات فن تيمور فى «جزيرة الحبيب» بل فى أدبه جملة — كثرة التشخيص للأشياء المادية ، ومخاطبتها ، وإدارة حوار معها ، كأنها أناسىّ تسمع وتعقل وتستجيب للهمس والمناجاة . وينجح تيمور فى هذا الكتاب النجاح كله — يسعفه فى هذا حس مرهف ، وقلم

ملهم ، وثقافة فنية عميقة واسعة ،فينقل إليك فى أعذب صورة من صور البيان ذلك الجو الحافل بالآثار ، ومواطن الجمال ومشاهد الذكريات ، حتى لكأنك معه تشاهد وتستمتع وتتأمل ، وتتنقل بين جلال الماضى وجمال الحاضر . ويرتفع نفس الكاتب فى بعض مواطن الجمال الطبيعى ، إلى أسلوب تحار فى تحديده : أهو نثر شاعرى ، أم شعر فى قالب منثور ؟!

سادتى :

تحفل العشرون سنة الأخيرة من حياة تيمور ، بأعمال أدبية متنوعة ، تبدو عليها سمات العبقرية الفنية الناضجة والأستاذية النقدية الهادية ، والخبرة اللغوية والأدبية الراشدة، والتحليل النفسى العميق، والتصوير الكاشف لبعض مشكلات المجتمع المعاصر ؟

ومن هذه الأعمال روايته القصصية « إلى اللقاء أيها الحب » يعرض فيها مشكلات فتاة العصر الجديد ، فيما تعانى من اضطراب فى حياتها العاطفية ، وفيما تتعرض له فى حياتها العامة، وعملها فى مختلف الأوساط، من شبه ومغريات، وألوان من الصراع النفسى. تسير نشأة الفتاة فى أسرتها فى جو متناقض يتنازعه صوتان : صوت التطور ومسايرة العصر فى شخص عمتها « تفيدة » المثقفة الذكية ، التى تعطف على الفتاة وتتفهم مشكلاتها ، والتى كانت لقاءات الفتاة معها متعة أى متعة، حيث تقضيان الوقت فى مفاكهة ومطالعة وحوار ، فإذا صمتتا كان صمتهما إصغاء إلى أقراص الحاكى ، تطرب السمع بأنغام الموسيقى وألحان الغناء ؛

والصوت الآخر صوت التقاليد ، ممثلا فى شخص أمها القليلة الحظ من الثقافة والذكاء ، والتى تريد لابنتها أن تسلك مسلكها هى فى الحياة : وتصر على أن تستبقى لنفسها حياة السراة المترفين ، على الرغم مما وصلت إليه الأسرة من ضيق وإفلاس ؛

تنقلت الحياة بالفتاة فى ميادين عمل مختلفة : مرة أمينة سر لرئيس مكتب شركة تأمين ، ومرة محررة فى القسم الإفرنجى لجريدة « الليالى الملاح » ومنشئة لركن ناجح فيها عنوانه « أحاديث بنت البلد » ، وقد لاقت فى مختلف أعمالها ضروبا من سلوك الرجال نحوها ، وأطماعهم فيها ، ومرت عليها فى مختلف الأوساط نماذج وأشكال من الشباب فى علاقاتهم ، ومناحى تفكيرهم ، ومواقفهم من الحياة ، وأورثتها تجاربها المرة ، شعوراً بالنقمة من هؤلاء المتوقحين الذين يحبون المرأة لقمة سائغة تسد جوعهم الأثيم . ويمسك هيكل القصة علاقة من الحب بدأت تعارفا ووددا ثم نمت مع الزمن ومن خلال الأحداث حبا فرابطة زواج ؛

وتبدو براعة الكاتب الكبير فى هذه الرواية وفى أخواتها فى تجسيد المعانى والمشاعر ، وفى تسيير الأحداث فى حركة طبيعية ، وفى إدارة الحوار المستمر بين الأفكار وأضدادها ،

وفى إتاحة الفرص للمنافسات والأزمات العاطفية فى تعقدها وانفراجها، ويحس القارئ فى بعض فصول هذه الرواية صدى لبعض اهتمامات الكاتب فى فنه القصصى، كالنصح الذى يوجهه «سعدمدبولى» لصديقته المحررة بأن تقتحم ميدان البيئة الشعبية، وتزور الأحياء الوطنية، وتجوس خلال الأسواق وتتعرف إلى أهل البلد، وتختلط ببنات البلد، لتدرس كيف يحيين، ومامشكلاتهن، إن ذلك ميدان فسيح لو طرقته لتفتحت لها دنيا جديدة زاخرة، ولكان ذلك ينبوع إلهام لفن صادق ينبض بالحياة. ويفسح تيمور فى هذه الرواية مكانا للمحات وإيحاءات ذكية، منها طرفة فى شكل مقطوعة من الشعر الحديث، يضعها على لسان فتاة شاعرة، فى عامها الرابع عشر تسمى نفسها «شاعرة المذهب الوجودى ومافوق الواقعى»، ويهيىء لها أن تلقيها فى حفل فى «كازين الصقر الذهبى»، أقيم لانتخاب ملكة عارضات الأزياء، ويصفق الجميع المحيطون بالفتاة، ويرتفع التهامس بينهم يتواصفون نضارة الفتاة، وما تمتاز به من رشاقة الحركة، وخفة الروح، ولكنهم مروا بقصيدتها مرور الكرام، فلم يذكروها بخير أو بشر.

ومن إيحاءاته الكاريكاتورية صورة يرسمها على لسان بطلة الرواية، لموقف مدير تحرير الجريدة، وهى عنده تعرض عليه بعض الأوراق، وكان يتودد إليها ويلوح لها برغبته فى الزواج منها؛ تدخل عليهما فتاة أمريكية فاتنة الملامح غالية فى زينتها وزخرفها. كأنها دمية من دمى المسارح تقدم نفسها باسم «مس ميلودى» مبعوثة جمعية الصحافة الأمريكية الحرة لدراسة مشكلات الشرق الأوسط! ويأنس مدير التحرير بالحديث إلى الزائرة الجذابة المرحة، وترتفع الكلفة، ويظل يتفرس فيها، فيتضرج وجهه، وتجحظ عيناه من محجريها جحوظاً عجيبا لم تعهده أمينة السر من قبل، حتى خشيت عليها أن يعروهما انفجار، وتنهض مستأذنة فى الانصراف لتخلى الجو لصاحب الجريدة ومبعوثة الصحافة الأمريكية يتبادلان الحديث فى حرية وطمأنينة، ويتدارسان مشكلات الشرق الأوسط فى جو هادئ!

ومن هذا الصنف من قصص تيمور مسرحية اجتماعية بالفصحى والعامية، عنوانها: «كذب فى كذب»، وأشخاصها يمثلون نماذج من السلوك القائم على الكذب والخداع، ومن الطريف أن تيمورا يطور أحداث المسرحية، ويحرك أشخاصها فى براعة فائقة، تقود البطل والبطلة فى النهاية إلى مرفأ الصدق الأمين، بعد أن ظل كلاهما يتغفل صاحبه، ويحاول إنقاذ نفسه بالزواج من الآخر. وتلك ظاهرة جديرة بالنظر فى موقف «تيمور» فى قصصه من الضعف الإنسانى.

ومن بين آثار فقيدنا فى خلال تلك السنوات العشرين الأخيرة مجموعات من الأقاصيص منها «ثائرون» (كتاب الهلال ١٩٥٥ عدد ٤٦)

و « ودنيا جديدة » (١٩٥٧) ، « وانتصار الحياة وقصص أخرى »(١٩٦٣) و « أنا القاتل وقصص أخرى » (١٩٦٩) و « أبوعوف وقصص أخرى » (١٩٦٩). وكل قصة فى هذه المجموعات تمذاق ، وبمشكلة معينة تعرضها ، أو خيال تجسده، أوعقدة باطنة تبرزها إلى عالم الوعى والشعور .

ويقدم المؤلف لمجموعة «ثائرون» بمقدمة يشير فيها إلى مادار بين طائفة من الكتاب من مساجلات حول الأدب . وهل هو تعبير عن النفس فى محيطها الخاص ، أو هو تعبير عن الحياة فى محيطها العام؟ وفى رأيه أن الأدب فى ظاهره غاية ، وفى جوهره وسيلة : هو غاية، لأن الأديب الفنان — فى أغلب حالاته — يعبر عن حياة تعتلج فى نفسه لايملك إلا أن يعبر عنها فى صراحة وخلوص ، وهو وسيلة إذا رمى فيه الكاتب — واعيا أو غير واع — إلى إصابة أهداف معينة ، كالتسامى بالحياة الإنسانية إلى آفاق أعم خيراً وأكرم مثلا ، وكالعمل لخدمة قضية من قضايا المجتمع ، أو لعلاج مشكلة من مشكلاته . ويشير المؤلف إلى أن القصة الأولى من مجموعة «ثائرون» (منها أخذت المجموعة عنوانها) « تصور عصراً من أخطر عصور تاريخنا الحديث ، عصرما قبل الثورة، وهى تدور حول فئة من الشباب الحائر ، يحيون فى عهد فساد وانحلال ، وبين جنوبهم روح الثورة، حتى يتلقوا ذلك الضوء الوهاج، يهدى لإقامة صرح الوطن الجديد . »

ومن القصص الممتعة فى المجموعات التى أشرنا إليها : قصة «المستعين بالله الكابتن هاردى» وقصة «انتصار الحياة » وقصة «الوطواط» ، و « حكاية أبوعوف » .

و«لتيمور» قصة ذات جو روحى نشرت منذ أربع سنوات ، عنوانها « معبود من طين » وهى تستمد إلهامها من الحياة الدينية فى مصر القديمة ، وما كان للكهنة بها من سلطان ، وما تتطلبه العقائد والأديان من جهاد فى سبيلها، وما تحتاجه النفس الإنسانية من ترويض وتهذيب ، ومن ابتهال إلى الإله الحق ، تستلهم منه طمأنينة اليقين : لتقاوم روح الشر التى تقبع جذورها فى قرارة الكيان البشرى .

وإذا انتقلنا من وادى القصص إلى وادى المسرحيات التاريخية ، وجدنا لتيمور طائفة منها ، تمثل اتجاها فنيا فى عرض أشخاص التاريخ عرضاً أدبيا، يعنى بما وراء الأحداث وأنماط السلوك من عوامل نفسية وبواعث لاشعورية، منها : «صقر قريش» (١٩٥٦)، و« ابن جلا » ، « وطارق الأندلسى » ، التى نشرت فى العام الحاضر (١٩٧٣) .

وفى كل هذه المسرحيات يتجلى نجاح تيمور فى نقل القارئ إلى العصر الذى عاش فيه بطل المسرحية ، بأشخاصه وأحداثه ولغته ، وبراعته ، فى إعطاء كل شخصية فى المسرحية حقها من التحديد والتقويم ، حتى لتتألف منها جميعا قطعة حية صادقة ، من حياة مجتمعها الذى عاشت فيه .

وبعد فقد شغلنا فى هذه الكلمة حتى الآن بالجانب القصصى والمسرحى ، وبأدب الرحلات فى عبقرية أديبنا الكبير . ولكن لتيمور منجزات أخرى لها شأنها ، ولها حسابها فى تقدير عظمة هذا الكاتب الرائد .

لقد شعر «تيمور» منذ أن اكتمل فنه ، ونضجت تجاربه ، وذاعت قصصه ، فى مختلف الآفاق الأدبية ، أن عليه واجباً من التعريف والتقديم والنقد البناء لأعمال زملائه ومريديه من كتاب القصة ، ومن الدرس والبحث النظرى ، المستنير بالخبرة العملية فى فن القصص وتطوره ، وخواصه ، وأصول نقده ، وفى الأدب ومذاهبه ، وصلته بالحياة . كما كان عليه — وهو المجمعى اللامع — أن يقوم لعضوية المجمع بحقها ، فيبحث ويحاضر فى فنون الأدب ، وفى اللغة ومشكلاتها ، والكتابة العربية وإصلاحها ، وألفاظ الحياة اليومية وتنميتها ؛ ولأعماله فى كل هذه النواحى حظها الوافر من الإجادة ونصيبها من التقدير .

فمن جهوده فى هذه الميادين كتاب بعنوان : « مناجيات للكتب والكتاب » ، بناه على أقسام أربعة : الأول مع القصاص العرب ، من أصحاب القصص المطولة ، وأصحاب القصص القصيرة ؛ والثانى مع القصاص غير العرب ؛ والثالث مع الشعراء ؛ والرابع مع المؤلفين ؛ وفى هذه الأقسام نلتقى بتقديم وتحليل واضح الفكرة والاتجاه لمجموعة من الأعمال الأدبية لبعض كتابنا وشعرائنا العرب : مثل يحيى حقى ، وفتحى رضوان ، وثروت أباظة ، وعبد الحليم عبد الله ، وبشارة الخورى كما نلتقى بتعريف بترجمات عربية لبعض أعمال كتاب غير عرب ، مثل : « مارك توين » « وهنريك إبسن » ، « ومارغريت ميتشل » :

وفى بعض فصول هذا الكتاب يكشف لنا تيمور عن موقفه من النقد ، وعن العناصر الأساسية التى تدخل فى تقديره الفنى للأعمال القصصية ، وهو يقرر أنه لم يزاول النقد فيما سلف من أيامه إلا فى الندرة ، إذ كانت نفسه تعزف عنه ، وأنه رضى زمنا بموقف المنقود لا الناقد ؛ ولكنه عدل أخيرا عن هذا العزوف ، ورحب بما طلب إليه من تناول بعض الأعمال القصصية بالحديث ، لا ناقدا بالمعنى الدقيق — كما يقول — ولكن قارئا يتحدث عما قرأ حديثا يعبر به عن إحساسه وحبه فيما يصنع أن يدعى لنفسه الصدق فيما يحس ، والإخلاص فيما يقول .

وتيمور فى هذا الكتاب ناقد معلم ، سهل التناول ، سمح التوجيه ، معنى بالجوهر ، عميق فى تحليله وبخاصة حين يكون العمل الذى يعرضه عميق الأبعاد فى فكرته وفى بنائه وفى عرضه للترجمة العربية لقصة « آدم وحواء » من تأليف الكاتب الأمريكى « مارك توين » مثل مما نقول ؛ ففى بدء حديثه يثير أعمق الأسئلة عن ألغاز الوجود ، ويشير إلى أن أهل الفكر هم رواد البشرية

فى البحث عن ذلك المجهول ، وأن قصة « آدم وحواء » ظلت الهدف المنصوب لأولئك المفكرين فيما يرتادون ، وأن أظهر جوانبها اثنان :

الأول: خلق حواء من ضلع آدم — فهذه الصورة تختزل لنا فلسفة الرجل والمرأة على وجه البسيطة منذ الأزل إلى الأبد، والآخر خطيئة آدم وحواء .

وفى النظر إلى هذه الخطيئة يستجمع « تيمور » كل شجاعته ليقول :

وإنى لأجرؤ فأزعم أنها خطيئة ملائكية مقدسة . . . . خطيئة قدرها الله لحكمة تجمع بين السمو وبعد الغور، وما هى إلا حجر الأساس فى عمران الوجود المعدود ، والدعامة الكبرى للكيان الاجتماعى الرفيع ، وبفضل تلك الخطيئة ظفرت الدنيا من الجنة بتلك البذرة الحية التى أثبتت على وجه الأرض شجرة الإنسان . . . ثم يستمر قليلا ليزيد ذلك الرأى توضيحا .

وله فى الحديث عن قصة «ذهب مع الريح» للكاتبة الأمريكية « مارجريت ميتشل » تحليل غاية فى الدقة والعمق الفنى :

وهناك لونٌ آخرُ من إنتاج تيمور الأدبى، قريب مما عرضنا له فى كتابه «مناجيات للكتب والكتاب » ، ذلك هو كتابه : « ملامح وغضون، صور خاطفة لشخصيات لامعة » ، ويتألف ذلك الكتاب من لقطات تصويرية بارعة ، لبعض الشخصيات الأدبية والمجمعية ، والفنية المعاصرة ؛ من بينها لطفى السيد ، وعبد العزيز فهمى ، وطه حسين ، وهيكل ، ومنصور فهمى ، وأحمد أمين ، واسماعيل تيمور ، وفكرى أباظة ، وأنطون الجميل، والشيخ أبو العيون، وزكى طليمات، ونجيب الريحانى . . وغيرهم .

ووجه البراعة فى تلك اللقطات أو الصور الوصفية أن الكاتب الفنان، ينوع أسلوبه فيها تنويه ماهرا ، وكأنما يختار — من كل شخصية يصورها — زاوية معينة هى أبرز الزوايا فيها، يستعين بها على تحديد الأسلوب الذى سيصطنعه فى التصوير. ومن أكثر هذه الصور إمتاعا — فى نظرى — صور : « لطفى السيد » « وعبدالعزيز فهمى» « وأحمد أمين » « والشيخ أبو العيون » ؛ ويبدو أن تيموراً - رحمه الله — كان يرضى هوايته فى الوصف التصويرى، حتى ولو على حساب شقيقه الأكبر «إسماعيل» الأمين الأول فى القصر ، فقد رسم صورة سريعة له استجابة لمن طلب منه ذلك ، وقدمها للقراء — كما يقول — على حقيقتها ، وهو موقن بأن الحساب عليها سيكون بسببها غير يسير ، على أنه فوّض أمره إلى الله . ومن بدائع تيمور فى هذه اللقطات أنه يعمد أحيانا إلى أن يجمع لك صديقين متلازمين فى لقطة واحدة ، فيقول - مثلا :

[هما اثنان :

أحدهما : سامق الهامة ، باسق القامة ، عريض المنكبين ، متدفع اليدين ، تلتمع

عيناه حزما واعتزاما، ويقتلع خطاه فى مسيره اقتلاعا، وبجانبه شخص متطامن ، ضئيل الظل، قريب بعضه من بعض ، تملأمنه عينيك فى لحظة ، ينقل خطاه كما يتواثب القطا ، ويقلب فيما حوله نظرة يقظى ، تسبر الغور، وتخترق الحجب .

فإذا راعك مرآهماجنبا إلى جنب فى الطريق، فأقسم — غير حانث — أنك ترى العقاد والمازنى ، ترى ذينك الصاحبين ، اللذين ترافقا فى دنيا الأدب وفى عالم الثقافة منذ عهد بعيد . . . »

وقد عاد كاتبنا الكبير إلى مثل هذه الصور الوصفية الثنائية فى مقالات نشرت فى الصحف فى السنتين الأخيرتين : منها واحدة بعنوان : « بين شوقى وعزيز » وأخرى بعنوان : «بين الأديب المغامر والأديب العليل» وأشار فى هذا المقال الثانى إلى أنه أخذ — منذ شهور — يعد أوراقه لهذه الصور الوصفية التى يجمع فى كل منها بين اثنين ، اتسعت بينهما دائرة المشابهات أو المقابلات.

وإذا أردنا استكمال الصورة المجملة التى نحاول أن نرسمها هنا لجهود الراحل الكريم — عرفانا بفضله ، كان علينا أن نشير — فى إيجاز يقتضيه المقام — إلى ألوان أخرى من أعماله الدراسية من كتب ومحاضرات وبحوث فى مختلف ميادين الأدب واللغة .

فللفقيد كتاب بعنوان « محاضرات فى القصص فى أدب العرب : ماضيه وحاضره » يضم محاضراته التى ألقاها على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية بمعهد الدراسات العربية العالية (١٩٥٨) . وقد ذهب فيها إلى أن للأمة العربية قصصها منذ أقدم العهود على طرازها الخاص ، وأن أدبنا القصصى الحديث يحمل لقاحه وبذوره من قصصنا العربى القديم، وأنه وليد الصلة بين الشرق والغرب وأن «ألف ليلة وليلة» ليس إلا بعض ما تزخر به كتبنا الثقافية من أقاصيص وأسمار :

وقد كانت معالجة الفقيد للموضوع — على مستوى الدراسات العليا — معالجة تتسم بالعمق والاستقصاء وسعة الأفق .

أما كتابه : «فن القصص — دراسات فى القصة والمسرح — » ويقع فى ثلاثمائة من الصفحات المتوسطة، فقد جمع فيه معظم ما يهم الدارس والقاص من الثقافة الفنية ، موضوعا فى شكل مشكلات تناقش، وظواهر تعلل، وحقائق فى دنيا الفن تبسط وتوضح ، ومقاييس وأصول ، أساسها الخبرةُ والنظرُ السليم ومعايشةُ الأعمال الممتازة لمشاهير الكتاب. وقد أدمج المؤلف فى هذا الكتاب مادة من فصول له نشرت سابقا ؛ ويتألف الكتاب من حوالى خمسة وعشرين قسما ، يرجع معظمها إلى موضوعين رئيسيين : الفن والقصص ، وتحتهما ، تندرج حقيقة الفن وجوهرُه ، والفنُّ للحياة، والفنانُ بين الواقع والإلهام ، وشخصية الفنان والفنُّ بين المسرح والسينما ، ونشوء القصة وتطورها ، والقصص المصرى الحديث ، والقصص الإنسانى ، وعوامل

النجاح فى تنشئة القاص » . وغيرها من الموضوعات .

و«تيمور» — فى عنايته بالناشىء القاص ، وبالرغم من نفوره من التقعيد والتقنين فى عالم الفن ، يستخلص بعض القواعد والقوانين فى كتابة القصة ، ويعد منها ثمانية يشرحها ويقدمها لا لتكون قواعد جامدة ، ولكن لتكون معالم على الطريق تهدى وتوجه .

ويشارك فقيدنا فى دراسات الأدب العربى الحديث فينشر فى سنة ١٩٧٠ كتاباً فى مائتين من الصفحات المتوسطة بعنوان: « اتجاهات الأدب العربى فى السنين المائة الأخيرة» ، عنى فيه — إلى جانب التاريخ الموجز لأدبنا الحديث — بالترجمة المجملة لنماذج من كتابنا وشعرائنا تمثل نواحى من التطور، واتجاهات من التفكير من بينها عائشة التيمورية ، وشوقى ، وحافظ ، وتوفيق الحكيم ، وعزيز اباظة ، ومحمود طاهر لاشين ، ومحمد السباعى . وأمين الخولى ... وغيرهم .

وقد استمتع المجمع فى مؤتمراته السنوية بالاستماع والمناقشة لطائفة جادة من بحوث تيمور ، من بينها فى ميدان الأدب « بحث فى الأدب الشعبى » . و«الفنان بين الواقع والإلهام»، «ومذهب الأدب الهادف ومكانه من الأدب الواقعى » .

وفى الناحية اللغوية : « لغة المجتمع » و « لغة القصص » و« وحدة الفكر العربى » و« مقومات العروبة »و«سلطان اللغة العربية » و« رأى فى الصراع بين العامية والفصحى »، و« مواليد جديدة فى لغة الحياة العامة » .

و« تيمور» فى بحوثه المجمعية ، وخاصة الأدبية منها — يصدر عن ثقافة فنية وأدبية وشرقية وغربية واسعة ، وقد عددت له فى أحد تلك البحوث (الفنان بين الواقع والإلهام) أربعة عشر اسما من كتاب العربية وشعرائها فى قديمها وحديثها، وقرابة عشرين اسما من الغرب : بين كاتب وشاعر وموسيقى ورسام ، وكاتبة وممثلة ، وقد جلبها كلها ليوضح بها بعض آراء ودعاوى فى قضية الواقع والإلهام ، محللا عملا لهذا ، مقتبسا رأيا لذلك ، مبرزا المفارقات والموافقات بين حياة الفنان ومجال فنه ، مشيرا إلى أن الفنان قرين الممثل على منصة المسرح : فنه كله فى استطاعته أن يندمج فى الشخصيات التى يتناولها ، مبيناً أن الفنانين يختلفون شكولا وألوانا ، مؤكدا أن العبقرية لا تدع للفنان حداً يقف عنده ، وأن أكذب شئ فى الفن هو التحديد ، وأنه لا حجر على العقول والأذهان ولا قانون للميول والاتجاهات ، وفى « صندوق الدنيا» متسع لأشتات المنازع الحافلة بالنقائض والأضداد .

وهناك جانب هام من جهود « تيمور» فى خدمة اللغة العربية ، وفى تحقيق هدف من الأهداف الرئيسية للمجمع هو تنمية اللغة العربية ، وتطويرها لتفى بمطالب الحضارة فى شتى مظاهرها وذلك يمثل المجال الخامس من المجالات الكبرى لمنجزات « تيمور » .

اتخذ « تيمور » من العمل فى هذا الميدان رسالة خصص لها شطرا كبيرا من جهده ، ووقته فى المرحلة الأخيرة من حياته ، وكان يحرص على ألا يمر مؤتمر سنوى للمجمع دون أن يقدم له حصيلة من ألفاظ الحضارة والحياة العامة ، مما خصه هو وحده ألفاظ الحضارة — وكان مقررها — ومما استخلصه هو من قديم ما طالع ، أو ما وقع له حديثا فيما قرأ ، أو اقترحه ، أو أجراه فيما كتب ، أو ما رأى تخصيص مدلوله العام أو تعميم مدلوله الخاص .

وكان يصدر فى هذا الجهد عن وجهة من النظر ، تمثل الآن الاتجاه العام للمجتمع فى أمر ألفاظ الحضارة ، عمادها الشعور بضرورة تنقية لغة الحياة فى المجتمعات العربية من العامى والدخيل ، والإيمان بأن لغة الحياة اليومية السليمة لا تفرض على الناس فرضا ، ولكن تؤخذ من أفواههم ، ومألوف كلامهم ، لترد إليهم ولتوضع فى متناولهم مزكاة من أهل الاختصاص أو مفصحة إن كانت فى حاجة إلى تفصيح ؛ والواقع يؤيد أن الوعى اللغوى فى الجماهير العربية قد استيقظ منها ونما نموا ملحوظا ، وأن حرص الجماهير — معاملاتها وحرفها وصناعاتها على استعمال اللفظ العربى المناسب — فى سهولته ووضوح دلالته وارتياح الذوق العام إليه ، يوشك أن يكون سمة بارزة فى حياتنا اللغوية الحاضرة .

وقد جمع « تيمور » جملة صالحة من ثمار جهوده فى هذا الميدان ، مما سبق أن قدمه للمجمع فى مؤتمرات ، ونشر ذلك فى سنة ١٩٦١ فى مصنف قيم بعنوان : « معجم الحضارة » يضم نحو ألف من ألفاظ الحياة العامة ، بوبت وعلق عليها واقترح لبعضها بدائل فيها مزية من إفصاح ، أو بنية سليمة .

سادتى :

إن فقيدنا « محمود تيمور » — كما تشهد آثاره وسيرة حياته — كان كاتبا رائدا فى فن القصة ، ومجمعيا مخلصا لرسالة المجمع ، ومواطناً معتزًّا بوطنه ، وأديباً باحثا حفياً بالفصحى وآدابها ، وإنسانا سمح الوداد ، كريم الشمائل ، يألف ويؤلف .

وقد ظفر فى حياته بالتكريم الجدير به ، أحبه الناس ، وقدرته الدولة فمنحته جوائزها ، وأوسمتها ، وأحله المجمع منه فى السويداء ، وترجمت طائفة من قصصه إلى عدد كبير من اللغات الأوروبية والآسيوية ، وعرف فيه كثير من شباب الكتاب موجها ومعلما ، ونشرت عن أدبه وسيرته دراسات جادة .

وإن من حق هذا الرائد علينا — وقد فارق دنيانا إلى جوار ربه بعد أن أدى رسالته — أن نضع أعماله موضع البحث والدرس العميق ، وأن نجلو من سيرته ومن شخصيته مثالا به يقتدى ، ومناراً به يهتدى ، والله سبحانه يرحمنا وإياه ، ويجزيه عنا خير الجزاء .

●●● قصــيدة الدكتور ابراهيم أدهم الدمرداش :

نجم هوى من قمة الجـــوزاء
بالرغم مـــن عليــائه وضياء
إن النجوم إذا علت وتلألأت
مهما تـــكن ، فمصيرهـــا لفناء
لا تفرحن إذا أتتاك ، بنعمة
أو تحزنن على فوات عطاء
إن الذين تغرهم دنيــاهــو
يستبدلون النـــار بالرمضــاء
لا تقبلن على الحياة تظنهــا
« ريّــا » فليست ، كالسراب ، بماء
رفع الأمانة بالوفاة وحملها
عند الوليد بضحكة وبكاء
حدباء ، هذى سوقنا ومصيرنا
للنار أو لمثوبة الشهداء
قد تحملين المؤمنين بربهم
والكافرين به بدون رجاء
عاد التراب إلى التراب كأصلة
والروح سر الله فى الأحياء
الجسم يفنى عن قريب بالبــلى
والروح تحظى بعده ببقاء
إن الحياة مفازة تجتازها
أرواح فى حجب من الأشلاء
هذا الرداء مطية منقادة
للروح نرسلها بدون عنــاء

إن أحسنت فلنفسها قــد أحسنت
حسناتها أو ظلمها بجـــزاء
حدباء ، إنك تحملين كبيرنــا
فى حلبة الأدبــاء والنبــلاء
لــو تعرفين مقامه وخــلاقه
لنثرتِ دراً ناصع الأضواء
يا تاركا دار البلاء مزوّدا
بالصالحات مشيعا بدعاء
من مثله قص الحديث رواية
وفكاهة فى حكمة الحكمـــاء
أو مثله ملك البيان وسحره .
ببلاغة عزت على الفصحـــاء
كل الشمائل فيه دون تكـــبّر
إن التواضع شيمة العظــــماء
لو عد أهل الفضل كان إمامهم
فى عِفّة وكرامة وإباء
من جاء يطلب حاجة من جوده
أعطاه ما فى بيته بســــخاء
ذرية من بعضها بعض لهـــا
فضل على الكتاب والقراء
من بعد « أحمد » عقّبت « محمد »
وتلاه « محمود » مــن الأبنـــاء
والشعر كان نصيب «عائشة» التى
جاءت بخير قصائد الشعراء
«تيمور» هذا الاسم يبقى درّة
بقلائد الشعراء والأدبـــاء

●●● كلمة شكر الأسرة للأستاذ أحمد فؤاد تيمور :

سيدى كبير الخالدين

سادتى ، أيها الخالدون

سيداتى ، آنساتى ، سادتى

أيحق لمثلى – أيها الخالدون – أن يقف على منبر مجمعكم الموقر ، منبر المدافعين عن الفصحى وحماتها ، يسمع صوته ، فيقوم بينكم متحدثا فى بلاغة وإفصاح ، وأنتم هنا أعلام البلاغة والإفصاح بيد أن تفضلكم بإقامة هذا الحفل لذكرى أحدكم الذى شرفنى القدر بأن أنتمى إلى الأرومة التى أنبتته ، هذا الظرف الفاجع هو الذى حدا بى ، على الرغم من عجمة لسانى معولا على ما اتصفتم به من رحابة صدر أن أتكلم شاكرا ، باسم أسرة الفقيد العزيز ، ما أديتموه إليه ، على لسان خطباء بررة أجلاء ، من تقدير ووفاء وإخلاص . وليس ذلك بمستغرب على الخالدين ، وهم دون مراء موازين التقدير والوفاء والإخلاص .

أيها الخالد بين الخالدين ، عمى الأعز :

كتب القدر على قلمى منذ عشرين عاما ونيف ، وأنا فى سن الصبا الباكر ، أن يخط بدم لا بمداد كلمات رثاء بمجلة المدرسة تحت صورة تزين الصفحة الأولى من صفحاتها وقد جللها السواد ، لعزيز على كلينا ، فبكيناه معا : أنت كأب ، وأنا كابن عم وزميل وصديق .

أكنت له عاطفة الأبوة وفجيعتها ، فكان من وحيه « أبو الهول يطير » وغيره من فن وأدب وشاطرته أنا على محبة وود زمالة السن ورفقة الدرس ، وصداقة العمر .

ويقف بى قلمى اليوم حائرا فى عجزه وأنت ما أنت فى مجمع الخالدين ، أن يمضى بى قدما فأحس به يتثاقل على أناملى لا يلين ولا يبين .

أستشعر وأنا أخط تلك الكلمات العاجزات القصار ، بأن من سبقوك إلى عالم الخلود فى برزخ الأرواح العلوى ، ليهيمون وجدا بلقائك من أب وأم وشقيقين ؛ وعلى رأسهم ابنك الأعز باسطا لك ذراعيه مرحبا بك فتذوب روحا كما فى معانقة جياشة ؛ فتقضى الوقت معه تسمعه كما أسمعته وهو طفل يرقد بين حضنيك تروى له اليوم ما رويت له بالأمس من أقاصيص وحكايات ؛ فتهدأ نفسه وينام متشبثا بك مطمئن القلب ، هانىء الوجدان .

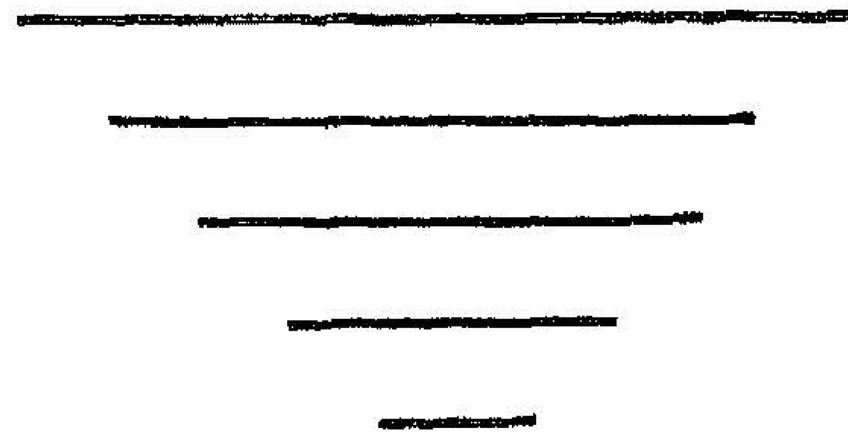
وإنى آخذ بين جمع المحبين شقيقى الحبيب الذى سبقك بالرحيل عنا منذ شهور تقضت ، ولا أدرى كيف تقضت . متلهفا لسماع أحاديثك عن الأحياء من ابن مكلوم وإخوة لم يجف لفقده فى مآقيهم الدمع بعد . وأراك تلتفت إليه ، فتحدب عليه حدبك

علينا فى دنيا الأرض ، فتأخذ فى روايتك تصوغ له وللمنصتين لك فى عالم الروح ما احتزنته لهذا الاجتماع من حديث وأقاصيص تهدى إليهم فى صياغتك الرشيقة ما أهديته إلى الأحياء ، باقة من فنك الأخاذ ، تعشقته أسماع الراحلين والأحياء ، وإن طالت بنا المسافات .. وإن ترسل علينا صوتك الهادئ الهاتف من علياء السماء .

هنيئاً لك ، يوم زاملت الخالدين ، وهنيئاً لهم ما يسود مجمعهم الموقر من ترابط فى إخاء وصفاء ، وإن اختلفت حول الكلمة المعروضة عليهم لإقرارها الآراء ، واحتدم من أجلها الجدل ، واشتد عليها النقاش :

وحمداً لكم ، أيها الخالدون ، ماتضمرون من تعاطف مكين ، وما تظهرون من تآزر وثيق ، فى سبيل نصرة اللغة ، وتعريب العلم ، وتزكية الأدب .

وسلام عليكم ، ورحمة الله ، ، ،

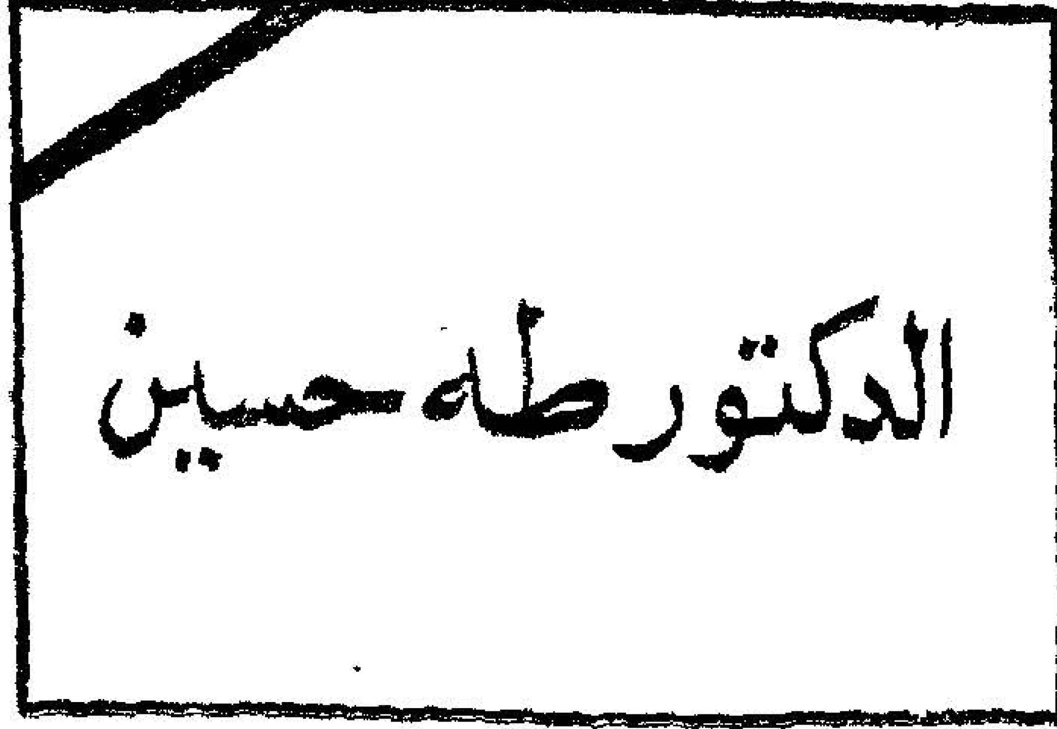


اقام المجمع حفل تأبين لرئيسه المرحوم الدكتور طه حسين ، فى الساعة الخامسة من مساء الأربعاء ٢ من ذى الحجة سنة ١٣٩٣ هـ (الموافق ٢٦ من ديسمبر سنة ١٩٧٣ م) بدار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والاحصاء والتشريع ، وفيما يلى ما القى فى الحفل :

كلمة الأستاذ زكى المهندس

نائب رئيس المجمع

فى تأبين المرحوم :



سيداتى وسادتى :

ما أشق على الإنسان أن يتحدث عن طه حسين ! !

إن مجال القول فيه مجال رحب فسيح لا يستطيع أحد أن يبلغ مداه .

إن كل ما قيل عن طه حسين وكل ما كتب عن طه حسين لا يعبر إلا عن بعض طه حسين ذلك أن طه حسين لم يكن كأحد من الناس ، إنه كان تاريخ العصر ، ورمز النهضة ، إنه خلاصة مركزة تباورت فيها كل معالم النهضة الأدبية والفكرية الحديثة .

لهذا كانت حياته أشبه ببحر عظيم ، من أى النواحى أتيته لا تستطيع أن تدرك عمقه ، ولا تستطيع أن تحصى ما أودعه الله فيه من خير ؟ ولهذا أيضا كان كل من يتصدى للحديث عن هذه الحياة الخصبة العملاقة يجد نفسه فى حيرة فلا يدرى ماذا يأخذ منها وماذا يدع ؟ ولا يدرى عن أى جانب من جوانبها يتحدث ؟

فهل يتحدث الإنسان عن طه حسين الأديب ؟ الذى ملأ الدنيا وشغل الناس بإنتاجه الخصب الممتع فى الأدب ، وفى النقد ، وفى التاريخ ، وفى التربية ، وفى القصة وفى مشاكل الناس ، وفى المعذبين فى الأرض ؟

والذى استطاع أن يطور من مناهج البحث الأدبى ، وأن يغير من مفاهيمها وأن يضع بين أيدينا لدراسة الأدب نهجا علميا يقوم على البحث والدرس والنقد والتحليل ، حتى نأخذ ونرد الفاسد ، ونصحح الخاطئ ؟

هل يتحدث الإنسان عن هذا الذى عنى بالتراث الأدبى القديم عناية فائقة ، ولكنه لم

يقف به عند تلك المسلمات القديمة التقليدية الموروثة .

ولم يقف عند مضارب الخيام والأطلال البالية وحداة العيس فى الصحراء ، ولكنه استمد منه ومن أدب الإغريق ومن أدب اللاتين القدماء ومن الأدب الغربى الحديث .

استمد من هذه كلها مادة بنى بها قصورا أدبية عربية جديدة ، بل بنى ناطحات سحاب .

لقد كان الفقيد فى عمله هذا أشبه بالنحلة تقع على مختلف الزهور تمتص رحيقها ثم تخرجه للناس عسلا شهياً .

هل يتحدث الإنسان عن طه حسين ، الفنان المبدع الذى انفرد بأسلوب من الكتابة لم يسبق إليه ولم يلحق فيه. أسلوب طبيعى يمتاز بالحرية والانطلاق والإشراق ، أسلوب تألفه كل أذن وترتاح إليه كل نفس. لقد كانت تأتيه الفكرة فيتناولها بأسلوب الفنان الأصيل ثم يعرضها ، وفى موجات متتابعة وصور متلاحقة ينبعث بعضها من بعض ، ويتولد آخرها من أولها ، وقد عيب عليه فى هذا شىء من التكرار ، ولكنه فى الواقع تكرار محبب إلى النفس ، يراد به تعميق الإحساس بالفكرة التى يتحدث عنها. وأسلوب طه حسين فى الكتابة لا يكاد يختلف عن أسلوبه فى الحديث فهو يتحدث إليك وكأنك تقرأ له ، وأنت تقرأ له وكأنه يتحدث إليك.

هل يتحدث الإنسان عن طه حسين الأستاذ والمعلم الذى تخرج على يديه أجيال متعاقبة من الكتاب والأدباء الذين نعتز اليوم بهم وبأدبهم .

أذكر أن بعض الكتاب شبه طه حسين بين تلاميذه بشجرة الزيتون تكسب التربة التى تزرع فيها قوة الخصب والنماء ، حتى لترى كل نبات حولها أخضر موتعا .

وكذلك كان طه حسين بين تلاميذه ، كان يحنو عليهم ، ويتابع حياتهم فى الجامعة وخارج الجامعة ، ويجتذبهم إليه بشخصيته القوية ، وبأسلوبه الساحر الفاتن .

هل يتحدث الإنسان عن صاحب الأيام الذى وضع بين أيدينا ترجمة ذاتية تصور لنا كيف تطورت حياته الأدبية والفكرية والاجتماعية ، وكيف استطاع أن يشق طريقه بين الظلمات إلى العظمة والمجد. إن أيام طه حسين يجب أن تكون مثلا للشباب تلهمه القوة والأمل .

وبعد فهذه أيتها السيدات والسادة لمحات خاطفة عن تلك الحياة الحرة المنتجة الخصبة حسبى هنا أن أقول فى رثاء طه حسين ما قاله شاعرنا القديم فى رثاء قيس بن عاصم :

فما كان قيس موته موت واحد
ولكنه بنيان قوم تهدما

سيداتي ، سادتي :

إن تاريخ عظماء الرجال يثبت لنا أن كل عظيم كان وراءه امرأة عظيمة ، والسيدة الجليلة (سوزان) حرم الفقيد ، قد ضربت لهذا مثلا آخر ، وأضافت إليه عبرة أخرى ، وإذا كانت مصر مدينة بنهضتها الأدبية والفكرية لجهود طه حسين ، فإن مصر لن تنسى كذلك جهود السيدة (سوزان) فى صنع طه حسين .

ألهمها الله الصبر ، ورحم الفقيد العظيم وطيب ثراه ، وجعل الجنة مستقره ومأواه .

والسلام عليكم ورحمة الله .

●●● كلمة الدكتور ابراهيم مدكور :

الأمين العام للمجمع

« طه حسين مكافحا »

سيداتى وسادتى :

كان صديقنا السيد الدكتور الزيات ، مستشار السيد رئيس الجمهورية ، حريصاً على أن يشترك معنا فى هذا التأبين ، وكانت له كلمة ، ولكن مهمة مفاجئة اضطرته للسفر إلى الخارج . وهو يبعث بصادق أسفه لحرمانه من الاشتراك معنا ، وينقل إلينا تحية زوجة الفقيد وابنته وولده وشكرهم الخالص ودعواتهم للمجمع والمجمعين بالتوفيق والسداد فى كل ما اضطلع الفقيد الكريم به من حرص على اللغة وتعهد لها .

* * *

هناك أناس خلقوا للكفاح ، يستعذبونه ويستطيبون كل شئ فى سبيله . يرون فيه أداء للواجب وإرضاء للضمير ، وسبيلا ناجعا للنهوض والإصلاح ، ويضربون فيه مثلا للجرأة والشجاعة : « وطه حسين » مكافح مناضل ، وتلك ظاهرة ملحوظة فى حياته كلها ، كافح فى صباه وشبابه ، كما كافح فى كهولته وشيخوخته ، وبرغم مرضه فى سنيه الأخيرة بقى قوله وفكره يحملان شارة الكفاح والنضال . كافح وناضل فى ميدان العلم والتعليم ، فى ميدان الأدب واللغة ، فى ميدان الوطنية والسياسة . وكلفه كفاحه ما كلفه من عنت ومشقة ، وجلب عليه ما جلب من خصومة وعداء ، ولا يخلو الكفاح أحيانا من غلو وشطط . وكان يرى أن الرجل ليس رجلا إذا استقامت له الحياة كلها ، فلم يكن له فيها خصم ، إنما الرجل كل الرجل هو الذى تستقيم له حياته كما يريد هو أن تكون وكما يريد ضميره القوى النقى أن تكون ، وكما يريد عقله الذكي أن تكون .

ويطول بنا الحديث إن وقفنا عند جوانب كفاحه المختلفة ، ويكفى أن نعرض نماذج منها . كافح فى صباه بعد أن فقد بصره ، وكأنما شاء أن يعوض ما حرمته الطبيعة منه ، فحفظ القرآن كله ولما يبلغ العاشرة . واستمر يكافح ليتزود علميا وثقافيا بأكمل زاد ، ويتسلح بأجود الأسلحة ، فالتحق بالأزهر وهو فى حدود الثالثة عشرة من عمره وتتلمذ على كبار الشيوخ حين ذاك ، أمثال الشيخ بخيت ، ومحمد العدوى ، ومصطفى المراغى ، وسيد المرصفى ، ولم يفته أن يستمع إلى آخر درسين ألقاهما الأستاذ الإمام فى الرواق العباسى . وكان يتابع دروسه صباحا ومساء ، لا يكل عملا ولا يدخر وسعا ، وقد عرف بين شيوخه بالجد والتحصيل ، وقوة الحجة والحذق فى الحوار والجدل ، وانتهى به جدله أن طرده شيخ الأزهر مع زميلين له ، ولم يعد إلى درسه إلا بعد أن شفع له لطفى السيد الذى رحب به فى « الجريدة » وشجعه ، وأخذ على عاتقه رعايته وتوجيهه .

وما أن فتحت الجامعة المصرية القديمة حتى طرق بابها ، وتابع دروس كبار أساتذتها ، فاستمع لأحمد زكى (باشا) ، وأحمد كمال (باشا) ، وإسماعيل رأفت (بك) ، ومحمد الخضرى ، ومحمد المهدى بين المصريين ، ولجويدى ونليتان ، وسانتلانا من الأوربيين : ولم ينقطع مع هذا عن الدروس الأزهرية ، وكان يستصحب أحيانا أستاذه وصديقه «سانتلانا» إلى درس الشيخ سليم البشرى فى التفسير ، ودفعه ولوعه بالجدل إلى أن يناقش بحضور الضيف الأجنبى الشيخ البشرى فى مشكلة الجبر والاختيار ، وكان له أيضا حوار وجدل مع بعض أساتذته فى الجامعة ، وأثار غضب الشيخ محمد المهدى الذى رفع أمره إلى مجلس الجامعة ، وطالب بفصله . ودفعته دراسته الجامعية إلى تعلم اللغة الفرنسية ، ولقى فيها عنتا كبيرا ، ولكنه لم يجودها إلا أثناء مقامه فى فرنسا . وختم مطافه فى هذه الجامعة بتقديم رسالة « فى ذكرى أبى العلاء » للحصول على الدكتوراه ، ونالها بتقدير «جيدا جدا» ، وكان يمكن أن يحصل على تقدير « فائق » لولا حفيظة الشيخ المهدى الذى لم ينس حملات تلميذه السابقة . وما إن نشرت هذه الرسالة حتى أثارت ضجة ، واتهم صاحبها بالإلحاد والزندقة ، ووجه سؤال إلى الجمعية التشريعية يطالب بحرمانه من حقوقه الجامعية ولو لم يتدخل سعد زغلول ، وكان رئيس الجمعية التشريعية حين ذاك ، لقضى على مستقبل الشاب النابه الجرىء .

ولم يقف طه حسين عند هذه الغاية ، بل تابع الكفاح ، وواصل الدرس والبحث . فأوفدته جامعته إلى فرنسا فى أواخر عام ١٩١٤ تحت نيران الحرب العالمية الأولى ، وقضى فى مونبلييه نحو عام ، ثم اضطر للعودة إلى القاهرة بسبب ضائقة مالية ألمت بالجامعة الموفدة . ولكنه لم يلبث أن عاد إلى فرنسا بعد شهرين ، واستأنف درسه هذه المرة فى باريس نفسها ، واتصل بكبار أساتذة

« السربون » فى الاجتماع والتاريخ ، أمثال « دوركايم » ، «وليفى بريل» « وسينيوبوس». وأولع بالحضارة اليونانية والرومانية ، وبدأ فى دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية ، وتمكن من الأخيرة بوجه خاص ، واستطاع أن يدرك فى يسر نصوصها ويستخرج منها مدلولاتها . وتزوّد بزاد وفير من الأدب الفرنسى. وفى عامين اثنين حصل على الليسانس فى الآداب ، وبعد ذلك بنحو عام أو يزيد تقدم برسالة فى « ابن خلدون » للحصول على الدكتوراه من جامعة باريس : فتوافر له بذلك درجتان فى الدكتوراه ، إحداهما من القاهرة ، والأخرى من باريس، ولم يبق إلا أن يعود إلى وطنه ليؤدى رسالته :

وقد عاد إلى مصر فى أواخر عام ١٩١٩ وسنه ثلاثون سنة ، بعد أن اكتمل نضجه العلمى والفكرى ، وبدأ نضالا طويلا واسع المدى ، متعدد الألوان ، عمّر نحو أربعين سنة ، وعوّل فيه بخاصة على سحر الكلمة ، وسلطان العقل، وبداهة المنطق. كافح داخل الدرس وخارجه ، فلم يستهن بدرس ألقاه ، بل كان يحفل له ما وسعه ، ويعدّه أكمل إعداد ، ولا أظنه ألقى درسا يوما دون إعداد : ولم يتهاون مع واجد من تلاميذه ، أخذهم جميعا بالجد ، وحاسبهم على أعمالهم فى غير هوادة وتخرّج منهم على يديه جيل اعتمدت عليه حياتنا الجامعية والثقافية . وكان لمحاضراته العامة جمهور كبير يرقبها ، ويقبل عليها فى حماس . أخذ مستمعوه بأسلوبه ، وفتنوا بنغمة صوته ، وحاكوه فى كثير من التعبيرات ، وكان لهذه المحاضرات صدى كبير لدى الخاصة والعامة . وفى عام ١٩٢٦ أخرج كتاب « الشعر الجاهلى» الذى لم يكن شيئا آخر سوى سلسلة من المحاضرات ألقاها بكلية الآداب ، وما أن ظهر هذا الكتاب، حتى أثار حملة شعواء اختلط فيها الأدب بالسياسة ، فعارضه من عارضه على أعمدة الصحف ، ووضعت عدة كتب للرد عليه ومناقضته . وقدم استجواب إلى مجلس النواب يرمى إلى محاكمة مؤلفه وطرده من الجامعة، ولولا معارضة « عدلى يكن » رئيس الوزراء ، وهو من نعرف فى شخصه ومنزلته ، لكان لهذا الاستجواب شأن آخر: ولم تكد تسكن العاصفة فى البرلمان حتى هبت فى النيابة العامة ، فحقق مع المؤلف وبحثت أقواله وآراؤه ، ولا يبدو أنه وجد فيها ما يدينه ، واكتفى بمنع تداول كتابه فى الأسواق . وبرهن طه حسين فى ذلك كله على صلابة ورباطة جأش بالغتين ، وخاض معارك فى جبهات ولم يمسسه منها سوء يذكر ، بيد أنه لم تكد تمر هذه الأزمة حتى تلتها أزمة أخرى فى الجامعة كانت أشد عنفا :

فعورض فى تعيينه عميدا لكلية الآداب وأجل إلى حين ، ويوم أن عين استمسك باستقلال الجامعة ودافع عنه بكل قواه ، ولكن دكتاتورية «إسماعيل صدقى» لم تتردد

فى أن تعدو على هذا الاستقلال ، فأبعدته عن عمله ، وأحالته على المعاش .

وكافح طه حسين أيضا فى ميدان الصحافة ، وصلته بها قديمة العهد ، ترجع إلى أوائل هذا القرن ، نُشِّئ فيها على أيدى رائدين عظيمين هما : عبد العزيز جاويش ولطفى السيد ، فجمع بين التطرف والاعتدال ، ولعله كان إلى التطرف أميل . وقد كتب أول ماكتب فى « مجلة الهداية » بتوجيه من « عبد العزيز جاويش » الذى وكل إليه أمرها . وشجعه على ماتتوق إليه نفسه من نقد جرئ وجدل عنيف . واضطر رائده هذا إلى أن يهجر مصر على غير انتظار ، فلجأ إلى رائده الثانى وأفاد منه كثيراً . والحق أن الجريدة على قصر عمرها كانت مدرسة كبرى تخرج فيها طائفة من أعلام الفكر والقلم ، وكان لها أثر عظيم فى حياتنا السياسية والاجتماعية والأدبية والثقافية . ونعتقد أنه لم يكشف بعد تماماً عن أثرها فى اللغة وأسلوب الكتابة المعاصر ، فقد أتمت مابدأه « رفاعة الطهطاوى » و « محمد عبده » من التخلص من السجع والجناس والمحسنات اللفظية ، وتخرج فيها طه ، وهيكل ، وعزمى ، ومنصور فهمى ، والزيات ، الذين كانوا قدوة فى الأداء الفنى السائغ السهل . وقد أخذ على طه حسين شئ من التكرار وبالغ فى ذلك خصومه ومنافسوه ، ولوكان فى وسعه أن يكتب لتفادى منه الكثير ، على أن هذه هنة هينة إلى جانب سلاسة أسلوبه وعذوبته ، ولعله تأثر فى هذه السلاسة بشيء من الأدب الفرنسى ، ولكن أسلوبه من أصفى الأساليب العربية المعاصرة ، ولايحمل أى طابع أجنبى ، وهو أقرب ما يكون إلى أسلوب كبار كتاب الصدر الأول ، أمثال « عبد الحميد » ، و « ابن المقفع » ، و « الجاحظ » .

وبعد أن رجع فقيدنا من أوربا عاد إلى شوقه القديم ، واتصل بصحيفة « السياسة » ، وهى إلى حد ما امتداد « للجريدة » وأسرتهما واحدة تقريبا ، وفيها التقى « طه » بزميله القديم « هيكل » ، واشترك معه فى إدارة الصحيفة ، وناب عنه أحيانا فى رياسة تحريرها . وكان له فى « السياسة الأسبوعية » مجال فسيح ، وكم كان قراؤه ينتظرون فى شغف « حديث الأربعاء » الذى فتح أبوابا ثقافية متعددة ، وقاد حركة نقد حية نشيطة ، وكم نود أن نحييها . وإذا كان طه حسين ، قد كتب فى « الجريدة » و « السياسة » هاوياً ، فإنه بعد إحالته على المعاش أصبح محترفا ، وطلب إليه الوفد عام ١٩٣٣ أن يرأس تحرير صحيفة « كوكب الشرق » ، وأصبح يؤيد حزبا سياسيا طالما حاربه فى عنف . غير أن تعاونه مع « حافظ عوض » ، صاحب امتياز هذه الصحيفة لم يدم طويلا واضطر أن ينفصل عنه ، وأن يشترى « صحيفة الوادى » ، وأن يديرها لحسابه الخاص نحو عام ، وكبدته خسائر فادحة . ثم قنع بعد هذا بمواصلة الكتابة للصحف هاوياً مرة أخرى فى بحوث ودراسات أدبية ، وربما كانت له علاقات منتظمة ببعضها « كالجمهورية » و « الأهرام » فى العشرينات الأخيرة .

وكافح طه حسين أخيراً فى ميدان السياسة ، وماأقساه من ميدان ! ورحم الله الأستاذ الإمام الذى قال فيه قولته المشهورة ولا أظن أن فقيدنا كان مذهبيا متحزباً تحزب التبعية والانقياد فيما أخذ به من اتجاهات سياسية ، وإنما هى تيارات ، أو بعبارة أدق صداقات جاراها يمينا تارة ، ويساراً تارة أخرى ، وما كان أشد تأثره بهذه الصداقات ، وما كان أسرع استجابته لها . وقد نال من هذه التيارات مانال من صعود وهبوط ، وتقدير واستنكار ، وحظى بالغضب والرضا السامى فى لحظات متباعدة أو متلاحقة . وكان شأنه فى البداية شأن كل مواطن مستنير عاش فى جو الثورة العرابية ، وأدرك حركة « مصطفى كامل » ، فهو ينكر الاحتلال البريطانى ، ويطالب بالاستقلال :

وفى اتصال فقيدنا « بعبدالعزيز جاويش » و « لطفى السيد » ما اجتذبه نحو السياسة ، كما اجتذبه نحو الصحافة ، على أنا لانلحظ له فى الحقيقة نشاطاً سياسياً واضحاً طوال مرحلة الدراسة والطلب ، لا فى مصر ولا فى فرنسا . ولم يبد هذا النشاط إلا يوم أن انضم إلى صحيفة « السياسة » ، واندمج مع أصدقائه الأحرار الدستوريين ، وحسب معهم . وانتهى به عمله الصحفى إلى الدخول فى مهاترات حزبية ماكان أغناه عنها ، وأثارها شعواء ضد الوفد والوفديين ، ولم يعف سعد زغلول من حملته برغم ما كان له من أياد عليه . ونتساءل هل اشترك فعلا فى التنظيم الداخلى لحزب الأحرار؟ وهل عد من أعضائه ؟ أغلب الظن أنه كان مجرد صديق ومناضل خطير ناصر الحزب مناصرة كبيرة . ولم يختلف عن ذلك كثيرا يوم أن انضم إلى صفوف الوفديين ، وحمل رايتهم ، ودافع عن مواقفهم ، وأصبح أحد وزرائهم . وود كثير من أصدقائه أن لو عاش للأدب والثقافة وحدهما ، وقد وصل فيهما إلى القمة ، وأحرز مجدا يزيد على مجد كثير من السياسيين . وودوا بخاصة أن لو لم يغل فى المضمار السياسى ذلك الغلو الذى أساء أحيانا إلى مقامه فى الأدب وبين الأدباء .

وفى عام ١٩٤٠ دخل طه حسين مجمع اللغة العربية فى زمرة كريمة من قادة الفكر والرأى ، نذكر من بينهم « لطفى السيد » و « عبد العزيز فهمى » ، « والشيخ المراغى » ، « وهيكل » ، « ومصطفى عبد الرازق » : دخله وقد جاوز الخمسين : وحق له أن يركن إلى شىء من الهدوء والراحة . ولكن أنى له وسجيته الكفاح والنضال : وهكذا نراه يعنى بالتنسيق والتنظيم ، ويسهم فى كثير من اللجان . ويحاول جهده أن ينهض بالعربية لتلائم حاجات العلم ومتطلبات الحضارة ، ويدخل مع زملائه فى جدل محكم وحوار ممتع . اشترك على أثر دخوله فى مكتب المجمع الذى عهد إليه بتعديل اللائحة الداخلية ، وكان همه أن يبرز فيها شخصية المجمع ، ويؤكد استقلاله ، ويوفر له وسائل العمل والإنتاج :

وكم طالب بأن تكون له مطبعة خاصة ، واقترح أن تضم إليه مطبعة دار الكتب بقسمها الأدبي ولا يزال المجمع يعاني من شئون الطبع ما يعاني إلى اليوم . وأراد «لمعجم ألفاظ القرآن» أن يقوم على أساس من المنهج التاريخي ، وأن يسلك به ما سلك في كتب العهد القديم ، وكان له في ذلك حوار متصل مع الشيخ المراغي . ولا نزال نذكر ما كان بينه وبين زميله « عباس العقاد » من محاورات كانت تبعث في جلساتنا نشاطا وحيوية ، وإذا حمي وطيسها تدخل فيها « لطفي السيد » فهدأت وسكنت .

وتحمس طه حسين لتيسير النحو تحمسا شديدا ، ورحب بالمشروع الذي بعثت به وزارة المعارف إلى المجمع ، ورغب في أن يوضع له كتاب يوضحه ويطبقه ، وأعلن أنه مستعد أن يتولى بنفسه وضعه . ويوم أن يئس المجمع من إخراج معجم « فيشر » التاريخي ، اتجه نحو فكرة وضع معجم كبير ، وأبى طه المكافح إلا أن يضطلع بعبء التنفيذ . وهذه مهمة عشت معه فيها ، وزاملته في تنفيذها . وأشهد أنه بدأ أولا في رسم منهج هذا المعجم ، وقضى عدة سنوات يتابع إعداد قدر من مواده ، ويراجعها في أناة وروية . واستطاع أن يخرج منها نموذجا في نحو ٥٠٠ صفحة ، وقد دفع به المجمع إلى الباحثين والمتخصصين ، راجيا أن يوافوه بما يعن لهم من ملاحظات وتعليقات ، وكان هذا النموذج أساسا سار عليه المجمع في إخراج معجمه الكبير . تلك أمثلة من جهوده المتصلة في مجمع الخالدين ، وقد كنا نحس جميعا أنه بماضيه الحافل ركن ركين من أركان المجمع ، وأن رسالته وثيقة الصلة برسالته . ولقد كانت رحلته فيه خصبة طويلة ، بلغت ٣٣ عاما ، وهي أطول رحلة لمصري من الخالدين .

هذا هو كفاح طه حسين ، ولا أظنني أغلو في شيء وإن قلت إن حياته كانت كفاحاً كلها ، كفاح في الإعداد والتكوين ، وكفاح في البذل والعطاء ؛ كفاح في الأزهر ، والجامعة المصرية القديمة ، والسربون ، وتلاه كفاح آخر دام نحو خمسين سنة ، تعددت ألوانه وتنوعت سبله ، فشمل الصحافة والسياسة ، والأدب واللغة ، والعلم والتعليم ، والجامعات الجديدة ، ووزارة المعارف . لجأ فيه أحيانا إلى قارعة أو قنبلة يلقيها فيهز المشاعر ويستلفت الأنظار ، ولاشك في أن كتاب « الشعر الجاهلي » من أولى هذه القنابل ، ثم جاءت مجانية التعليم الابتدائي والثانوي في خاتمة المطاف . وقد يكون من كفاحه ما ذهب مع الريح ، ولكن منه قدرا باقيا على الزمن . فهو دون نزاع من الأصوات القوية التي جهرت ، منذ أول العشرينيات الثانية من هذا القرن ، بضرورة فك الأغلال وتحطيم القيود الفكرية ، اعتد بحرية الرأي وتحكيم العقل ، استنكر التسليم المطلق ، ودعا إلى البحث والتحري ، بل إلى الشك والمعارضة ، وأدخل المنهج النقدي في ميادين لم يكن مسلما من قبل أن يطبق فيها . استن في الكتابة

والتعبير لونا عذبا من الأداء الفنى حاكاه فيه كثير من الكتاب ، وأضحى عميد الأدب غير منازع فى العالم العربى جميعه :

وشاء القدر أن يختم حياته بكفاح مرير ، فبلى بعلة طويلة تحملها بصبر الصابرين وجلد المجاهدين :

سيداتى ، سادتى :

ليس على طول الحياة ندم
ومن وراء المرء ما يعلم

يموت والد ويخلف مو
لود وكل ذى أب ييتم

تغمد الله فقيدنا برحمته ، وجزاه عما قدم لأمته ولغته خير الجزاء »

●●● كلمة الدكتور حسنى سبح :

رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق .

من بلاد الشام وبخاصة من دمشق ومجمعها ، أنقل إلى هذا الجمع الكريم مشاعر الحزن والأسى لوفاة عميد الأدب العربى فى هذا العصر المرحوم الدكتور طه حسين . وبفقده خسر العالم أديبا كبيرا وعبقريا فذاً هيهات أن يخلفه الدهر . ظل نصف قرن ونيفا ملء العيون ومطمع الأنظار . شغل العالم العربى بأمره ، بما طلع عليه به من آراء من بنات أفكاره وبما ابتدعه من أسلوب فى الإنشاء يكاد يكون نسيج وحده فهو الأسلوب الساحر ، سحر به الألباب ، وحبب إلى جمهرة الناس قراءة ما كان يصدره وينشره ، وما كان يمليه ويحاضر به تلاميذه فى صفوف التدريس ، ولقد أتى بالجديد من الدراسات فى الأدب غير مكتف بالقديم المتوارث ، وبما يلائم روح العصر من آراء فى النقد الأدبى بما لا عهد به للأجيال السالفة ، مازجاً مزجاً فنياً وعلمياً وبراعة فائقة بين الثقافتين العربية والغربية :

فطر فقيدنا على ذكاء مفرط ، وجبل على عزيمة خارقة ، فلم تقعده إصابته بالآفة المحتومة فى أيام صباه (على حد تعبيره) لم تقعده عن أن يبلغ ما تصبو إليه نفسه الكبيرة وما تطمح إليه روحه الوثابة من جد وعمل ، مستطيعاً بغيره كما عبر عن نفسه ومستبصرا ببصيرته .

فثار ثورته على ما هو متعارف ، ولم يشأ أن يكون مقلداً وتابعاً ، فأتى بما عُد خروجاً عن السنة المتبعة . ولم يعدم هذا الثائر فى عالم الأدب من بين الكثرة المعجبة به ، من قلة انتقدت عمله وناصبته العداء ، وما كان منه

إلا تلقى كل ذلك بصدر رحب غير مبال بما قيل ، ومتابعا السير .

ولعل المرحوم الأستاذ « محمد كرد على » الصحافى السورى القديم ، ومؤرخ الشام ، ومؤسس المجمع العلمى العربى بدمشق ، وممن أسهموا فى تأسيس مجمع فؤاد الأول فى القاهرة ، لعله من أوائل الذين قدروا الفتى العالم وشجعوا من كان يعرف بالشيخ طه حسين آنذاك ، ففتح له صدر مجلته «المقتبس» والتى أصدر المجلد الأول منها فى القاهرة ، ثم نقلها إلى دمشق ، نشر له مقالا فى مجلته سنة ١٩٠٦ بعنوان : هل تسترد اللغة العربية مجدها ؟ عدد فيه بعض الأسباب التى أدت إلى جمود اللغة العربية وتقصيرها عن مسايرة ركب الحضارة ، راسماً منهجاً عملياً للنهوض بها . ولو لقى ذاك المنهج القويم آذانا صاغية آنئذ (وقد مضى عليه ستون سنة ونيف) لكانت لغتنا العلمية فى يومنا هذا غير ماهى عليه .

ولما أصدر المجمع العلمى العربى بدمشق مجلته سنة ١٩٢١ تابع المرحوم الأستاذ « كرد على » ماينشره الدكتور طه حسين مقرظاً ومعلقاً ، مع شدة إعجابه بكل ماينشره إن فى الكتب المطبوعة أو فى المجلات والصحف .

ويطول بى المقام فى سرد كل ماكتبه فى هذا الشأن فأجتزئ ببعضه :

قال عنه مرة سنة ١٩٢٤ : من أكبر كتاب العرب المتخصصين فى عامة فنون الأدب ، وقد اشتهر بالأخص بطريقة فى النقد الأدبى مع ولوعه باقتباس مقدمات المدنية الغربية على اختلاف ظواهرها وأساليبها . وكتب بعد سنة : إن كل من شارك فى الأدب يعرف منزلته (أى الدكتور طه حسين) من النبوغ ، وكل من قرأ له مقالة ، وتدبر آيات فضله تتوق نفسه أبداً إلى أن يستكثر من تلاوة بنات أفكاره . أنا من المعجبين بأسلوب السيد طه حسين ومن يستحلى على الأغلب تكراره للمعنى الواحد فى جمل كثيرة ، وربما كان يجرى فى هذا النمط من الإنشاء على غير مثال يحتذيه ، وليس له من كتاب العصر بمنحاه ضريب ونظير على ماأعلم .

يبث طه حسين فيما يكتبه فى الصحف ويحاضر به طابته فى الجامعة المصرية ، روحاً جديداً هدته إليه الدراسة المنظمة ، وطول التأمل فى حال المدنيتين الغربية والعربية .

وعقب على كتابه (فى الشعر الجاهلى) سنة ١٩٢٦ فقال : معظم أمالى هذا الأستاذ النابغة من الأفكار الطريفة ، أخذ بقسط عظيم من التجدد ، فيه بحث ودرس ، وكتابه هذا سيحدث تأثيرا مهماً عند أنصار القديم فى الأدب . ثم انتهى إلى القول : بحثه علمى مجرد من التقاليد . . . . ولاشك أن كتابه سيجد من مخالفيه مقاومة شديدة يربح العلم الحديث عقباها كتابا آخر :

وقرظ الأستاذ « كرد على » كتبه (فى الأدب الجاهلى) و (على هامش السيرة) و (الأيام) سنة ١٩٢٦ قائلا : لو كتب كاتب

من أهل العصر الماضي ماكتبه طه حسين فى هذه الكتب ، فكتب ألوفاً من الصفحات ماأغنى غناء طه ولا أبدع إبداعه .

وآخر ماكتب الأستاذ (كرد على) عن طه حسين : من تحصيل الحاصل الإشادة ببلاء صديقى العلامة الدكتور طه حسين فى خدمة الآداب العربية وأثره المحسوس فى إدخالها فى طور جديد ، وبث أفكاره فى جميع طبقات القراء وكان مجلياً فى معظم ماخطته يمينه من بحث علمى وإبداع أدبى ، وكان عمله عدل علمه ، ظهر ظهوراً واسعا فى رئاسة الجامعة وفى وزارة المعارف . وماخلا مع هذا من حساد وأعداء ، لكنهم قلائل جدا إذا قيسوا بالمعجبين به ، والمستفيدين من نفثاته ، فهو بلا مراء حسنة من حسنات مصر فى هذا العصر ، وفضله على الأفراد والجماعة لا ينكره عليه إلا مكابر .

هذا بعض ماقاله صديقه المرحوم الأستاذ « كرد على » . أما رجال الفكر والأدب فى سورية ، فلم يكن تقديرهم له وإعجابهم به بأقل من ذلك ، فإن أنس فلا أنسى أبداً يوم لقيته أول مرة فى دمشق قادماً على رأس وفد مصر لمشاركة مجمع دمشق بالاحتفال بالعيد الألفى لأبى العلاء المعرى سنة ١٩٤٤ ، عندما وقف بقامته النحيلة على منصة مدرج الجامعة ليحاضر فى (الفصول والغايات) لأبى العلاء المعرى ، لا أنسى ذاك التصفيق الحاد الذى استقبله به جمهور مشاهديه فى القاعة فحسب بل العدد الكبير من الذين لم تتح لهم رؤيته من المستمعين الواقفين فى الباحات المحيطة بمبنى المدرج حيث نصبت مكبرات الصوت ، إذ لم يتمالكوا عند سماعهم صوته من متابعة التصفيق عدة دقائق .

وستظل كذلك رحلة من دمشق إلى حمص وحماة فالمعرة وحلب لنزور قبر أبى العلاء فى المعرة ويفتتح المكتبة التى أنشئت إلى جانب ضريحه ، ستظل ذكرى لا تنسى ، فلقد لقى فى كل بلد من هذه البلاد السورية التى حل بها ترحاباً لامثيل له .

ولقد كان رحمه الله شديد الحب للبلاد العربية ، ولعله كان يخص سورية ودمشق بالمزيد من الحب وكان كل مرة يلتقى فيها واحداً من طلابه فيها أوزملائه الذين يتصلون به كان فى كل مرة شديد الرغبة فى التعرف إلى ماظهر من أمرها وما خفى وما جل من شأنها ودق .

ولما عقد مؤتمر مجامع اللغة العربية فى دمشق سنة ١٩٥٤ ، حيّا المرحوم شعب سورية فى حفل الافتتاح قائلا :

« وإنى ما رأيت على طول معاشرتى للسوريين فى سورية وخارجها أحداً منهم ينسى العروبة وكرامة العروبة ومستقبلها . ما رأيت كالسوريين يذكرون هذا ويفكرون فيه كما يفكرون بأنفسهم ، كان الذى أوحى إلينا التفكير فى هذا المؤتمر ، رجلا من رجال سورية ، من دمشق عاصمة العروبة العظمى الصافية التى صفت فيها العروبة من كل شائبة

وخلصت العروبة للعرب خالية من أى أجنبي ودخيل، لم يكن بدمن أن يعود الحق إلى أهله ومن أن يكون تفكيرنا متجها إلى مكان انعقاد هذا المؤتمر وأن تكون دمشق الحبيبة أول مانفكر به . »

هذا هو فقيد العربية وكاتبها المبدع ومفكرها الكبير، أثار أدبها القديم وطور أدبها الحديث. طوّع أسلوبها ودأب دؤماعلى التزام الطرفين المتباعدين الراميين إلى ترسيخ حيويتها : إغنائها فى ذاتها من نحو ، ثم رعايتها وحياتها من نحو آخر. وأنكر واستنكر - رحمه الله - كل الاستنكار ترويج اللهجات والعامية وتشجيعها واستعمالها، لأن فى الدعوة إلى العامية فك أواصر الصلة بين أفكار العروبة ، بل والعالم الإسلامى أيضا .

وحرى بنا نحن أولاء ، وقد اجتمعنا لتأبين الفقيد ، أن نسعى إلى تخليد حياته المليئة بالجد والكد وبالعمل المثمر ، بكتاب يروى للأجيال القادمة قصة هذا النابغة الفذ ، شحذاً للهمم ، إذ مع أنه حرم من نعمة البصر وهو طفل، لم يقعده ذلك عن تحقيق ماتتوق إليه نفسه من طموح ، ومايريده للعربية من خير : إنى آمل أن نسارع إلى إعداد هذا الكتاب ونشره ، ثم إلى طبعه فى طبعات شعبية مبسطة ، لتأسى خطاه والنسج على منواله :

وبعد، فما كان للجسم النحيل الذى حمل تلك النفس الكبيرة الحادة آناء الليل وأطراف النهار ، ما كان لجسمه إلا أن ينوء دون تحمل ماحُمله. فتأثرت صحة أستاذنا لتسوء يوما بعد يوم، ومع هذا كله كان حريصا على أن لايخيب أمل كل سائل ومستفيد، كما حرص الحرص كله على ترأس مجلس اتحاد المجامع اللغوية العلمية فى داره عندما أقعده المرض واشتدت وطأته عليه، ليشرف على شئون الاتحاد ويوجهه بتوصياته .

وماأشبه حال الفقيد بالشمعة المضيئة التى تبدد الظلمة وهى تحترق وتذوب مستنفدة كل مافيها من وقود، فيد المنون لم تختطف الفقيد طه حسين ، كما يقال فى مناسبة كهذه، بل ظل يعمل مستنفدا كل ما ادخره جسمه من طاقة حتى انطفأت جذوة ذلك المصباح المنير وانتقلت روحه إلى بارئها .

رحم الله الفقيد وبوأه أرفع الدرجات وحفظ العربية وكتابها وآدابها خالدة إلى يوم الدين .

إنى لاأتوجه بهذا العزاء إلى مصر خاصة ، فالدكتور طه حسين ثروة العرب جميعا ، وكلنا فى هذا المقام يصح أن يكون معزيا ومعزّى .

وإنى باسم مجمع اللغة العربية بدمشق أتقدم بأخلص مشاعر المواساة والعزاء إلى أسرة فقيدنا الكبير ، آملا أن يكون فى هذه المشاركة من أقطار الوطن العربى كله مايساعد هذه الأسرة الغالية على الصبر والسلوان .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

●●● قصيدة الدكتورعبدالرازق محيى الدين

رئيس المجمع العلمى العراقى :

السادة الأعلام :

السلام عليكم ورحمة الله

وبعد، فنحن فى المصيبة شرع سواء ، والرزية لفقيد عميد لأدب العربى ،رزية الأمة العربية جمعاء. ومع ذلك فإن من واجبى أن أقدم لمجمع اللغة العربية بالقاهرة تعزية المجمع العلمى العراقى فى بغداد ، وأن أنقل مشاعر المثقفين فى العراق إلى مسامع المثقفين فى مصر وأن أرفع إلى الأسرة المفجوعة تعزية الأسر العراقية جميعا. ولقد كان بإمكانى بل لم يكن بإمكانى أن أقف عند حدود الكلمة الناثرة ، لأن الشعر مدين لطه حسين دينا لا ينسى .ومع أنى تركت نظم الشعر من سنين عديدة ، فقد استشعرت أن لابد لى أن أقول شيئا من ذلك .

ولذلك فإنى أستميحكم عذرا لو جاءت القصيدة على غير ما ترجون .

حى مع الناس أحياء بما شعروا
لا الرأى يبلى ولا ذو الرأى يندثر

يأبى الفناء كتاب أنت آسورته
تتلى ، وألواحه آراؤك الغُـرر

وأنت آية هذا العصر مبصـرة
ما تخطىء العين أو ما يجحد النظر

يبقيك هذا الذى أحييت من أدب
عفاه من عرفوا منه ومن نشروا

مما استراحوا له من قائم درجت
على سيادته الأوهـام والعصُـر

مرجمين رووا عمن رووا صعـدا
للغيب، ماستمطروا وحيا، ولاسطروا

مخلقات وأمشـاجا لو التحمـت
ببعضها ، لتعايـا الطول والقصـر

حتى انبريت لها بالشك تقتلها
علمـا فتحيا بها موءودة قبروا

يد صناع لو امتدت إلى يُبس
لأورق العود واحلولى له ثمر

ولو مشت لظلام الليل تقبسه
تنفس الصبح لم يأذن له سحر

سبحانك الله تؤتى النور فاقده
وتحجب النور عن قوم بهم بصر

يا أيها العَيْلم الهدار ما ركدتْ
رياحه ، أو سجت أمواجه الغزر

أتـوا سواحلك الدنـيا فخامرهم
أن يركبوا اليم فاجتازوا وما عبروا

مغررين رأوا نشزا فأطمعهم
ومادروا أنه موج وينحسـر

وأن غائرة في القاع فاغرة
تهوى بهم للأولى من قبلهم غمروا

وأن من يركب الشطآن عارية
غير الذى هو بالأمواج يأتزر

أنت ابن عشرين ما تُلوى فتنتصر
وابن الثمانين ما تطوى فتنكسر

صلب قناتك لم تغمز فإن عجمت
كعوبها انماز من غيظ بها شرر

ذودا عن الرأى أو نشرا لرايته
بالقول يفلج والأقلام تشتجر

فى حين للرأى أجناد وأسلحة
وفى الأساليب مهزوم ومنتصر

وللبيان على الألباب هيمنة
لم يرج إلا لمعقود بها ظفر

وفى القصائد أبكار محصنة
وللأعاريض فحل شاعر ذكر

فليت مستجلبات الشعر قد عقمت
وليت من فرطوا فى عقدها عُقروا

ياثانى اثنين للعلياء دونهما
تقعى الدهارير مما آدها السفر

ألف مضت وهى وحمى فيك مثقلة
حتى ولدت : فهل ألف بها أُخر

عهدان من عمر الآداب قد نعما
بالمبصرين هما الأوضاح والغرر

وغير ذينك أصداء وتسلية
يزجى بها الوقت أو يحلو بها السمر

ويسألونك ما طه ؟ ولو خبروا
ما عندهم منه ، لاستغنوا بما خبروا

والغيث يشربه الظمآن من قلل
وربما سأل الأنواء ما المطر ؟

هذا الذى أنا أُلقيه وتسمعه
له ، فلا العود من عندى ولا الوتر

والجامعات التى تعلوك شاهقة
مما بنى ، أو على آثاره عمروا

فالعلم زاد مشاع ليس يطعمه
من أترفوا ويمناه من افتقروا

والرأى صوت مصون ليس يمنحه
من زمروا ويقاضى فيه من جأروا

الرأى بالرأى لا سوط يهدده
ولا زبانية تشلى فتأتمر

والدين محض قناعات متى أُخذت
بالكره آمن من دانوا بمن كفروا

من جرّدوا الناس من رأى بأن حُجروا
عاشوا الحياة بلا رأى بأن حَجَروا

طه تحدث حديث الخلد من كثب
فالآن أنت بحيث الخُبر لا الخبر

أللذى ظن ظنا أو تخيله
شيخ المعرة من صدق الرؤى أثر ؟

أم حكمة الخلق أن نلهى بمفترض
فإن شهدنا يقينا نابنا خَصَر ؟

طه ، تحدث فهذا الحفل محتشد
كالعهد يشخص إكبارا وينتظر

عايشت جيلك أصفى ما تكون له
نبْعا ، وإن ساء وِرْدا بعض من صدروا

للجامعيين أبناء ، أبٌ حليت
به الرقاب ، وإن شبوا وإن كبروا

وللمجمعيين إخوانا أخ كرمت
به الأواصر واعتزت به الأسر
تخال من هيبة فى الحفل يحضره
أن الملائك فى وادى طوى حضروا
لا يرفع الصوت إلا ريث يسمعه
فإن أشاح فبهور ومبتسر
تغضى اللحاظ على علم ببغيتها
عنه فلم يوت إلا خلة نظر
أقصى الأمانى ممن أغدفوا رتبا
فى الفضل إطراءة من فيه تبتدر
عاشت على فضله من زاده زمر
وأفضلت ، وأتت من بعدها زمر
من ناقدين على منها جه نهجوا
وباحثين على أضوائه سفروا

حتى الذين أتوا نهجا يخالفه
عاشوا بأنهم فى خلفه اتجروا
نبت عميم تغشاه من احتطبوا
فألهبوا وسقوا خمرا من اعتصروا
مما يهون من خطب ألم بنا
أنا على خطة يسعى بها قدر
وأن مصر على ما عاهدت ووفت
تبنى الشوامخ ما قلوا وما نزروا
يا مصر لى بك قبل اليوم واحدة
أسرى بها النجم واستهدى بها القمر
غنت بمطران فاستهوت قصائده
بأن يعود لها من وصله وطر
سلمت ولتذهب الدنيا ، وهل ذهبت
دنيا بها مصر والفصحى لها وزر ؟!

●●● كلمة الأستاذ محمد رفعت :

عضو المجمع

((طه حسين وزيرا))

سيدى الرئيس ، سيداتى ، سادتى :

إن لفقد الصديق الحميم لحرقة ولذعة يحس بها الصديق المكلوم عند وقوع النازلة ، ثم لايزال فقد العزيز يؤرقه ويقض مضجعه ، حتى تدور عجلة الزمن ويتعاقب الليل عليه والنهار وتنقضى الأربعون أو نحوها ، وبعدها يستكين الصديق المفجوع ويستكين معه المحزونون جميعا إلى صبر جميل ، وذكرى عطرة تفيض بمآثر الفقيد وحسناته .

واليوم يعز على أيها السادة ويعزينى أيضا أن أحاول أن أحيط بطرف ولو يسير من سيرة الفقيد العزيز وزيراً للمعارف ، وقد كان لى شرف مرافقته فى هذا الدور من حياته ومن قبله ومن بعده . وطه حسين وزيراً ، لايقتضينا

ألبتة أن نرسم له صورة جديدة مكبرة ، فهو هو طه حسين قبل الوزارة وبعدها — طه حسين رب القلم ، وعميد الأدب وإمام الأحرار المستقلين ، وصاحب المعذبين فى الأرض ، ورائد من رواد الإنسانية جمعاء .

والناس من قديم دأبوا على أن يربطوا بين الوزارة والسياسة واعتبروهما صنوين متلازمين فى حين أن الوزراء إذا اجتمعت كلمتهم ، وتضامنوا سويا ، من أجل حكم البلاد ، لم تعد لهم سياسة خاصة ، وإنما عليهم جميعا أن يخلعوا بردة السياسة التى كانوا يتسربلون بها عادة ، وأن يتركوها على عتبة باب الوزارة عند « حافظ الأمانات » قبل ظهورهم على مسرح الوزارة ، وذلك لأن عليهم جميعا أن يلتزموا السياسة العليا للدولة التى هم فيها وزراؤها .

ويقول عالمنا الاجتماعى الأول ابن خلدون فى هذا الشأن : إن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها ، والسبب فى ذلك كما يقول ابن خلدون — أنهم معتادو النظر الفكرى والغوص على المعانى وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها فى الذهن لتصبح أمورا كلية عامة .

وإذا كان فقيدنا فى مسلكه السياسى قد ساير هذا الرأى فى مجموعه ، فإنه مما لا شك فيه ، أن طه حسين أيضا كان فى الطليعة من الكتاب العالميين المرموقين الذين تجاوزت رسالتهم الفكرية حدود الحيز الإقليمى الضيق ، إلى مجالات المدّ العالمى الكلى ؛ فقد كانت السمة الإنسانية هى الغالبة فى إنتاجه ، كما كانت معظم مؤلفاته مزاجا قويا من ذوب حضارتين عربية وغربية ، قد يراهما بعض الناس حضارتين مختلفتين مولداً ومنهجا ومادة ، ولكنهما كانتا فى تقدير فقيدنا فرعين أو شعبتين لنهر واحد تكمل إحداهما الأخرى ، وكلتاهما ترجع إلى نبع واحد هو الإنسانية والمعرفة .

ولست أجد مثالا أدل على ما امتاز به فقيدنا من تصعيد بآرائه إلى قمة النفع الإنسانى من قولته المشهورة أمام أحد المؤتمرات العربية المنعقدة بالإسكندرية :

« التعليم للفرد كالشمس والماء والهواء لا حياة له إلا بها » .

والشمس والماء والهواء كما يعرف الناس جميعا عناصر طبيعية متوافرة بنسب متفاوتة فى جميع أرجاء العالم ، وإن المجتمع أيا كان نوعه ومهما بلغ به العسف لا يستطيع منع هذه العناصر عن أى فرد يسعى إليها . وقد نشر كاتب أمريكى مرموق اسمه « دونالد روبنسون » كتابا فى الخمسينات تحدث فيه عن مائة من أبرز الشخصيات فى عالم ذلك الوقت ، واختار من بين المائة عشرة من العمالقة ذكر فى مقدمتهم « ونستون تشرشل » مثالا للبطولة « ثم « ألبرت أينشتين » مثالا للعبقرية العلمية ، واختار أخيرا فقيدنا « طه حسين » رمزاً للكفاح والشجاعة .

ولست أعرف على وجه اليقين كنه الظروف التى أحاطت فقيدنا عند إسناد وزارة المعارف إليه فى يناير عام ١٩٥٠ ، ولكننى أعلم علما لايساوره الشك أن الدكتورطه حسين كان قد نشر كتابه عن مستقبل الثقافة فى مصر عام ١٩٣٨ ، وقد عالج فيه جميع نواحى التعليم العام والجامعى العالى والدينى والرياضى ووصف لذلك كله مختلف الأدوية الناجعة للبرء من العلل التى سادت محيط التعليم ماظهر منها ومابطن :

فكان كتابه أشبه بالكرة البلورية فى يد الساحر ، رأى فيها المؤلف ملامح المستقبل المضىء الذى كان ينتظره ، والخطوط العريضة لحركة إصلاح جذرية يتولى هو بنفسه رسمها وتوجيهها. وما عليه إلا أن يلوذ بالصبر الجميل حتى تدق الساعة المرتقبة قريبا أو بعيدا. لذلك فإنى أقول إنه حين رشح فقيدنا وزيراً للمعارف ، كان كتابه عن مستقبل الثقافة بيمينه تحت إبطه سائر مؤلفاته الأخرى الأدبية والعلمية والاجتماعية ، وهى جميعاً التى رسمت بأن يكون طه حسين وزيراً للمعارف وكأنه المعنى بقول الشاعر :

أتته الوزارة منقـــــادة
إليه تجرجـــر أذيالهـــــا
فلم تك تصلـــح إلا لـــه
ولم يك يصلح إلا لهـــــا

ومهما يكن من أمر الذى قيل فيه هذا الشعر ، فإنى أرى فى الشطرة الأخيرة من البيت الثانى إجحافا بحق فقيدنا وانتقاصاً صارخا لمواهبه . فقد اضطلع - رحمه الله - قبل الوزارة بمسئوليات جسام ليست أقل خطرا من الوزارة، فقد كان عميدا للأدب العربى غير منازع ، وكان مؤسسا ومديرا لجامعة الإسكندرية، ورئيسا للتحرير فى أكثر من صحيفة ومجلة ، وعليها جميعا أفاض من حماسته وواسع علمه ، ونافذ بصيرته ، مما جعلها منارات يهتدى بها ، وأمثلة تحتذى .

وعلى كرسى الوزارة وجد فقيدنا نفسه لأول مرة يعتلى المركز الأعلى للثقافة فى البلاد ، وأراد أن يتفرغ لمعالجة المسائل الكبرى ، فلم يرهق نفسه كثيرا فى الشئون الإدارية ،

وهى بطبيعتها أمور مكتبية ميسرة ، قضى فيها فقيدنا وفق مزاجه الخاص غير عابئ بلائحة أو قرار ، ولاخاضع لقانون أو مرسوم . وكانت كلمة الوزير فيها هى العليا . ثم اتجه - رحمه الله - بكامل عزمه ، وماضى عزيمته نحو إنجازاته الكبرى :

وكان أولها قرار المجانية بالمدارس الثانوية ، ، والمجانية فى التعليم أيها السادة ، لم تأت طفرة ولافجأة ، . وذلك أن الحكومات المصرية ، أياكان لونها ، قديمها وحديثها ، درجت فى أحيان كثيرة على التأنى والتريث فيما تعتزم تحقيقه من مشروعات . ولست أدرى إذا كان هذا التباطؤ مصدره التأكد أو التردد بالخوف أو دقة الحال ، فليكن مصدره إحدى هذه الخصال أو جميعها وإنما

أذكر أن أول من أشار بقبول عدد محدود جداً من طلاب التعليم العام غير المقتدرين مجانا ، هو الزعيم الوطنى الخالد «سعدزغلول» حين كان وزيرا للمعارف فى أوائل هذا القرن ، هذا على كره من مستشاره الإنجليزى « دنلوب » ، ثم سار الوزراء اللاحقون من بعده على هذا المبدأ وبنسب متفاوتة ، إلى أن تولى وزارة المعارف المرحوم « أحمد نجيب الهلالى » فى عام ١٩٤٢ ، فهاله أن وجد ، بعد الدرس والاستقراء، دخل الدولة من رسوم التعليم فى المدارس الابتدائية الأميرية فى ذلك الوقت لم يزد على أربعمائة ألف من الجنيهات ، فقرر على الفور مجانية التعليم الابتدائى ، ثم تولى فقيدنا وزارة المعارف عام ١٩٥٠ ، وقد جاء فى خطاب افتتاح البرلمان حينئذ أن الحكومة ستقرر مجانية التعليم بالمدارس الثانوية وباقى مستواها ، ومع أن الدكتورطه كان قطعا صاحب الفكرة والداعى إليها ، فإنه أبى إلا أن يقول فى خطاب له ألقاه بنادى المعلمين فى الشهور الأولى من وزارته ، قال رحمه الله : وإن كل ما قلتموه ، وكل ماقيل اليوم ، وكل ماسيقال غدا وبعد غد ، عن المجانية لاينبغى أن يساق إلى ، وإنما ينبغى أن يساق إلى غيرى وإلى الوزراء الذين شجعونى على أن أحتمل هذه المحنة (هذه بطبيعة الحال كانت مجرد تحية ومجاملة لزملائه فى الوزارة) .

أما الحقيقة فقد عبر عنها قبل توليه الوزارة باثنتى عشرة سنة ، قال :

« ليس ينبغى أن نطلب إلى الديمقراطية أن توزع على الناس أقواتهم وتشبع فيهم اللذة والنعيم وهم هادئون مطمئنون . فهذا شيء لن يتاح لنظام إنسانى ، وإنما موعد الناس به الجنة التى وعد الله بها عباده الصالحين . أما الذى يطلب إلى الديمقراطية ويفرض عليها فرضا ، وهو أن تمنح أفراد الشعب وسائل الكسب ، وأولها هو التعليم الذى يمكن الفرد من أن يعــرف نفســه وبيئته والوطنيــة والإنسانية » .

وكان طبيعيا بعد تقرير المجانية فى مدارس التعليم العام أن يزداد الطلب على هــذه المدارس زيادة غير معهودة مما جعل بعض الناس يتناولون هذه المجانية بالذم والنقد اللاذع ، لأنها فتحت أبواب المدارس الأميرية على مصراعيها لكل (من هب ودب) كما يقولون دون تشييد للمبانى اللازمة و إعداد للمدرسين نوعا وعددا . وقد واجه فقيدنا المشكلة بما عرف عنه من الحزم ومضاء العزيمة فقرر أن يرصد فى الميزانية بند خاص لبناء المدارس ، كما أمر بأن يكلف فورا ملاك المبانى أن يقيموا فى أبنية المدارس فصولا دراسية جديدة تتسع للمستجدين من التلاميذ ، وأن يعين خريجو كليات الجامعات فى وظائف التدريس رأسا ، أى دون أن يمروا بمعاهد التربية . وكان رأيه فى اكتظاظ ومايتبع ذلك عادة من هبوط فى المستوى العام للتعليم ، وكان رأيه فى ذلك كله أن مدارس التعليم العام يجب أن تكون كالمصفاة لاتبقى إلا على الصحيح السليم .

ثم يأتى موضوع الامتحانات ، وكان فقيدنا يرى فيها ظلماً كبيراً لأطفالنا الذين لايكادون يحسنون أن يمسكوا بأقلامهم ليكتبوا ، فكيف بهم إذا نحن طالبناهم بقراءة أوراق أسئلة الامتحان وفهم معانيها ثم يكتبون الإجابة عليها . وقد قال فقيدنا فى موضوع الامتحانات وضرورة قصرها على أقل القليل :

« أنا أعلم أن الامتحان شر لابد منه ، ولكن الغريب أننا لانتخفف من هذا الشر ولا نكتفى منه بأقل قدر ممكن ، وإنما نتزيد منه ونثقل به المعلمين والمتعلمين فنضطرهم إلى الشر ما وسعنا ذلك » . وقد ترجم فقيدنا آراءه فى هذا وغيره عندما كنا نجتمع فى أمسيات نعقدها فى داره لإعداد قانون جديد للتعليم العام . فكان من أهم مواده ما استقر عليه الرأى فى إلغاء امتحانات الانتقال

بالمدارس الابتدائية من فرقة إلى فرقة أعلى ، ولايفوتنى أن أشهد برأى فقيدنا فى وجوب الاهتمام بتعليم اللغات الأوربية الحديثة ، فقد أعاد إنشاء مدرسة الألسن ، وجعل الالتحاق بها نتيجة مسابقة فى اللغة التى يريد الطالب أن يتخصص فيها . وقال فى شأن مسايرة الحضارة الحديثة : « ليس على الشخصية المصرية خطر من الحضارة الحديثة ، ولست أدرى لم تضيع شخصية المصريين إذا ساروا سيرة الأوربيين ولاتضيع شخصية اليابانيين مع أن لمصر من المجد والسليقة ماليس لليابان مثله ؟ » ؟

وأخيرا ترك طه حسين كرسى الوزارة الذى شرف اعتلاءه فقيدنا مـــدة عامين أو أكثر . وكان هذا فى أوائل عام ١٩٥٢ – تركه لالزهد فيه أو لضيق فى صدره منه أو لخلاف بينه وبين أحد المقامات السامية : وإنما تركه نتيجة لحادث سياسى داخلى أودى بالوزراء والوزارة جميعها . وهنا أرانى مسوقا إلى مناقشة الرأى الذى قال به العلامة ابن خلدون من أن العلماء هم أبعد البشر عن السياسة ومذاهبها. وهو رأى صائب وسديد فى جماعه ، ولكن علينا أن ندرك أن ابن خلدون قد عاش فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى – أي فى أواخر العصور الوسطى حين كان العلم كالدين له قداسته وحرمته وكان رجاله يعيشون غالباً فى بروج مشيدة بمنأى عن السياسة ومذاهبها :

أما فى الأزمنة الحديثة حين ظهر فى العالم أهم المخترعات التى رفعت من شأن الإنسانية إلى آفاق جديدة بعيدة المدى من العلم والمعرفة تلك هى المطبعة الحديثة ذات الأحرف المعدنية المتحركة التى أنجزها « جوتنبرج » الألمانى فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، فإنه بفضل هذا الاختراع استطاع الناس أن يقرأوا كثيراً وأن يكتبوا كثيراً وأن يتناقشوا ويجادلوا طويلا ، وأن يتبادلوا الآراء فى الصحف والرسائل والكتب فى يسر وشغف.

وعند ذلك خرجت السياسة من أبراجها وتلقاها الناس كما يتلقون خبزهم اليومى وشرابهم

وأداتهم ، والرأى عندى أنه لابأس بالسياسة يمارسها الناس ، ويحتدم جولها النقاش ، وتزكى فيهم روح الاجتهاد والتنافس البناء ، ولكن الخطر كل الخطر فى أن تتدخل السياسة فى طريق تقدم العلم والمعرفة ، وقد شكا فقيدنا من تدخل السياسة فى شئون التعليم فقال : أحمد الله على أن السياسة وظروفها لاتخيفنى ، وعلى أنها لم تستطع قط أن تمنعنى من قول الحق حين يجب أن يقال ، وفى ذلك الخير دائماً ، وقد يكون فيه الشر أحياناً ، ولكن الله عز وجل يحمد على الخير والشر جميعاً . وقد آن الوقت الذى يجب أن ترتفع فيه الوزارة فوق ظروف الحياة العارضة ومايكون فيها من مد السياسة وجزرها وانحرافها يوماً ذات اليمين ويوماً ذات الشمال : آن الوقت الذى يجب فيه أن تأخذ الدولة أمور التعليم بالجد وتنظر إليها على أنها فوق الأهواء السياسية وفوق شهوات الساسة » .

رضى الله عن طه حسين وأرضاه وأجزل له المثوبة والعطاء ، وبارك لنا فيما تركه وأسداه لمصر والعروبة كافة من فتوح جديدة وكشوف غير مسبوقة فى آفاق العلم واللغة والأدب عامة

« أرانى قد قصرت فى حق صحبتى
وقد عقدت هوج الخطوب لسانيا
لقد غاب عنا ذا العميد ولم نجد
له بين أعلام المجامع ثانيـــا
له الأثر الباقى وإن كان نائيـــا
فما زال بالروح الأمنية دانيــا (*)

● ● ● كلمة الدكتور محمد كامل حسين :

عضو المجمع

« طه حسين مفكرا »

سيداتى سادتى

جمعتنى بالدكتور طه حسين صداقة من نوع نادر بعدنا بها عن صخب الحياة وعن مشاكل الساعة حتى حين تكون ملحة ، وكنا نعكف على الهروب من الحياة المحمومة التى يحياها الناس حولنا وكأننا نريد بلقائنا أن نجد — على الأقل فيما يتعلق بى — السكينة والتأمل والإيحاء ، وإذا عثر أحدكم على مثل هذه الصداقة فليحرص عليها أشد الحرص ، لأن الإنسان إذا قربت حياته من غروبها فلن يجد شيئا يسعد به إلا هذا الود الصافى الذى يتبادله مع قلة من صفوة الأوفياء . . فإذا كان هذا من ألوان السعادة عند الشيوخ فأنا من أسعدهم ، عرفت أحمد لطفى السيد فوجدت الحكمة ورجاحة العقل وسداد الرأى ، ونوعا من السمو الخلقى كان يعرفه ويقدره آباؤنا وأجدادنا ، ولم يعد له فى العصر

الحاضر شأن كبير . وعرفت عبد الحميد بدوى فكان الذكاء الوهاج والعلم الواسع العميق ، ويكفيني أن رجلا مثل ظفر الله خان رئيس محكمة العدل الدولية أخبرني شخصياً أنه كان يعد عبد الحميد بدوى الأب الروحى له ، ثم عرفت طه حسين فوجدته جمع إلى فضائل صديقيه هذين قوة فى العزيمة لا تزيدها المقاومة إلا شدة ، وصلابة فى الرأى حين تتحول المقاومة إلى مناوأة ، حتى إذا صرح الشر وأصبحت المناوأة عداء سافراً وجدت له قوة خارقة .

كانت فى أعماله مثل المفكرين وكانت فى تفكيره صلابة العمليين ، فاستطاع أن ينجز أعمالا كنا نحسبها أمانى عزيزة بعيدة المنال فأصبحت بفضل جهوده حقائق واقعة .

وأظهر صفاته العقلية صفاء الفكر لا يحجبه كدر ولا اضطراب ، وصفاء الفكر عندنا نحن المشتغلين بالعلوم الطبيعية أكبر الصفات وأعظمها وأدعاها إلى النجاح ، وأذكر أنى كنت أقول لطلبتى فى كلية الطب «خير لكم أن تكون فكرتكم واضحة وإن تكن خطأ من أن تكون غامضة تحتمل الصواب» . وأذكر أن عالما باكستانيا اسمه عبد السلام هو الآن من أكبر علماء الذرة ، سئل عن نظرية بعينها فقال : لا أظنها صحيحة لأن الطبيعة تحل مشاكلها حلولا رشيقة . هذا ما يجب أن يصدق على الإنسانيات والآداب كما يصدق على العلوم . فقد مضى العهد الذى كان فيه الغموض دليلا على عمق الفكرة ، والغموض ليس دليلا على عمق الفكرة ، لأنه لا يلتوى على القارئ وحده ، وإنما يلتوى على المؤلف أيضا ، فيخرج من غموض إلى غموض ، ولا أحسب أن أحداً قرأ للدكتور طه حسين ثم سأل نفسه بعد ذلك ماذا يريد أن يقول . وليست المسألة مسألة نصاعة الأسلوب ، فهذا مستطاع ، ولكنها نصاعة الفكرة التى تجذب إليه الناس :

وكان تفكيره حاسما ، تجده حينما يحتدم الجدل فى أمر من الأمور ، ينصت ثم يدلى برأيه فاذا هو القول الفصل يصعب دحضه أو التعقيب عليه حتى من مخالفيه . وكان تفكيره نفاذاً تحيط به الصعاب من كل جهة وتعترضه أمور كثيرة متناقضة ، وآراء مضطربة فيستطيع أن ينفذ منها إلى نتائجها حتى إذا جاءت هذه النتائج وجدتها كما ظن كأن قد رأى وقد سمعا ، وخلا تفكيره من العيب الذى أود أن أسميه التفكير الهش أو التفكير المنفوش كالعهن ، على حد التعبير الإنجليزى ، وهو التفكير الذى تراه من بعيد فتحسبه شيئا عظيما حتى إذا جئته وضغطت عليه وجدته هزيلا ضعيفاً ، ولم تجد له صلابة ولا عزماً . هذه الصفات فى تفكيره جعلته شخصاً يختلف عن كثير غيره من المفكرين وأعتقد أن الدكتور طه يصح أن نقول عنه إنه اخترق حاجز الصوت فى المجال الفكرى فبلغ فيه آفاقاً أوسع ، وأصبح بينه وبين المفكر الوسط فرق لا نتبينه بسهولة ، مع أنه فرق واضح بين المفكر الأصيل والمفكر الوسط ، وإن ظن بعض الناس أن أعمالها متشابهة إلى حد بعيد ، ولكن أحد التفكيرين خصب والآخر مجدب :

حاولت أن أتبين المحور الذى دار عليه تفكير طه حسين وأعماله ، فإذا هو إباؤه أن يذعن للنظم المستقرة ، هذه أكبر صفاته. والنظم المستقرة هى النظم التى يحرص أهلها على إبقائها لما يتمتعون به فى ظلها من ميزات لا تؤهلهم كفايتهم ولا الجهد الذى يبذلونه أطلق الغربيون على هذه النظم كلمة «establish-ment» هذا النظام المستتب كان يكرهه طه حسين بطبيعته ، يرى فيه خمولا عقلياً ويرى أنه مخالف لطبيعة الأشياء ولطبيعته بصفة خاصة وكثير من الناس يحبون أن يتخلصوا من النظم المستتبة ، ويسمون أنفسهم المجددين ، والواقع أن كثيراً من هؤلاء المجددين ليسوا إلا محافظين على الجديد ، وليسوا مجددين بالمعنى الحق ، فتراهم إذا وصلوا إلى أولى خطوات التجديد قنعوا بها وسكنوا إليها . على أن التجديد يجب أن يكون حركة مستمرة ولا أرى فرقاً بين الذين يتهافتون على العلماء الأجانب ويتمسكون بهم وينقلون عنهم ، وبين من ينقل عن ابن قتيبه وأبى هلال ، فيقال هؤلاء متأخرون ، ومحافظون ، وأولئك مجددون ، والواقع أن عقليتهم واحدة ، وأنه لا فضل للذى همه النقل عن المؤلفين الأجانب المحدثين ، والذى ينقل عن القدماء . هؤلاء ليسوا مجددين ، وإنما هم محافظون على الجديد لجدته ، وليس لهم أن يعيبوا على آخرين أنهم يتمسكون بالقديم لقدمه ، أما طه حسين ، فكان مجدداً دائما ، والتجديد يجب أن يكون مستمرا ، وإلا فقد أهم خصائصه . وكثير من المحافظين يرون أن الاستقرار شئ لا بد منه لحياة الناس السوية ولحياة الأمم ، ولكن الاستقرار نوعان : نوع قديم ، الثبات فيه كثبات الأهرام ، ونوع جديد ، الثبات فيه كثبات الطائرة ، ثباتها فى حركتها فإذا وقفت سقطت ، وهذا هو التجديد الحقيقى الذى حرص عليه الدكتور طه حسين ، لأنه كان من طبيعته .

والذين يسمون أنفسهم مجددين وليس من طبعهم التجديد يجدون أنفسهم بعد قليل لا يستحقون هذا الاسم أبداً .

بدأ الدكتور طه حياته الفكرية فى أوائل هذا القرن حين كانت الحياة الفكرية فى مصر مضطربة حقاً كنا لا ندرى ما نفعل . كان منا المحافظون الذين يريدون أن يبقوا على القديم ولهم الحق فى ذلك . كانوا يريدون أن يحافظوا على قوميتنا وشخصيتنا وهذا شعور نبيل ، ولكن تبين لنا بعد قليل أن هذه طريق مغلقة ، ثم كان منا من أخذ المدنية الغربية عن أهلها اختصاراً للطريق ولكنهم تبينوا أنها لن يكون لها بذور فى نفوسهم ، فعادوا إلى اللغة العربية وإلى الثقافة العربية ، ولم يكونوا قد عرفوا قبل ذلك مداها وقوتها ، فلما عادوا إليها لم يستطيعوا استيعابها تماماً ، فكانوا سطحيين فى كلا الثقافتين وكان شأنهم والثقافة العربية شأن الفرسان الذين قيل فيهم : « لم يركبوا الخيل إلا بعد ما كبروا » ومن حسن حظ الدكتور طه حسين أنه أخذ الحضارة العربية أخذاً متينا ، أتقنها وأغرم بها ، وظل طول حياته مفكراً عربياً ، ثم خرج من هذا النطاق ولا أقول أنه خرج عن الثقافة العربية

ولا نخرج منها ولا نخرج عليها ، وإنما نخرج بها إلى آفاق أخرى كما كان يجب أن تخرج اولا السبات الذى أصابنا ، وهو السبات الشتوى الذى امتد عدة قرون ، والسبات الشتوى ظاهرة فى الكائنات حين تكون البيئة غير مواتية للحياة الطبيعية .

على كل حال تكونت حولنا أسوار كان يجب أن نخترقها قبل أن نصل إلى الآفاق لا أقول العربية وإنما الآفاق التى كان يجب أن نصل إليها لولا هذا السبات الطارئ .

فالدكتور طه امتد بتفكيره إلى الآفاق الجديدة ، وكان عليه أن يهدم بعض هذه الأسوار فكان أن فعل فعلته الكبرى التى هى كتاب الشعر الجاهلى ، وهو عندى نقطة تحول ، لا لما فيه من آراء قد تكون صوابا أو قد تكون خطأ .

كل نهضة فكرية فى العلوم أو الآداب يسبقها هذا الهجوم لا على الثقافة القديمة ولكن على الأسوار التى أقيمت حول هذه الثقافة فمنعتها أن تنمو نموها الطبيعى .

شهدت الدكتور طه حسين مع كثير من المفكرين الغربيين ولا أقول المستعربين ، فهؤلاء كانوا يحجون إليه جميعاً حين يحضرون إلى مصر ، ولكنى أتحدث عن المفكرين غير المستعربين وكان له منهم أصدقاء كثيرون منهم هريو (Periot) ، ودو هاميل (Duhamel) وكوكتو (Cocteau) وغيرهم ، وتوطدت صداقته باندرية جيد (Andr'Gide) ، وكنت أظن أن صداقتهما ترجع إلى حبهما للحقيقة السافرة مهما يكن من غضاضة أو مهما يكن فيها من خروج على العرف ، وكلاهما كان يحب الأسلوب الناصع السهل الذى يؤدى إلى غاياته بغير تعسف أو عناء .

كنت أرى الدكتور طه لا يحاول أن يبهر هؤلاء العلماء والمفكرين بما يقوله لهم عن ثقافتهم هم ، فذلك يكون « كمبضع التمر إلى هجر » وليس من المعقول أن يفخر عربى حين يلقى الأجانب بأنه يعرف ثقافتهم كما يعرفونها هذا ليس طبيعياً ، ولكن الدكتور طه كان يـ هم من حيث هو مفكر عربى أصيل استطاع أن يمتد بتفكيره إلى أن يوازى التفكير الغربى من غير أن يفنى فيه :
والدكتور طه — على كثرة ما علم من الثقافة الغربية — لم يدع تفكيره يفنى فيها أبدا ، ولو فنى فيها ما حفل به أحد من هؤلاء العلماء ، ولكنه ظـــل عربيا صميما يختار من الثقافة الغربية ما يوافق طبعه ، يرتوى منها كما تروى النباتات ، فتنبت على أحسن وجه ، ولم يقتبس من العلماء الغربيين آراءهم كما هى :

ولا يعجبنى أبدا بعد أن يبين لنا طه حسين طريق الجمع بين الثقافتين العربية والغربية أن أرى قوما منا ومن كبار مفكرينا من بهرتهم المذاهب الأدبية كالوجودية والرمزية ، فعكفوا على كتابات من هذا النوع أو ذاك .

وأذكر أن «لطفى السيد» قال لى إنه كتب إلى طه حسين — حين كان يدرس فى باريس — يحذره هذه المذاهب ويقول له : « احذر من

كل شيء آخره (ism) »، ولم يكن الدكتور طه فى حاجة إلى هذا التحذير، لأنه بطبيعته، يأبى أن يتقيد بمثل هذه القيود.

وكان يجب على الكتاب المصريين أن يأخذوا من الحضارة الغربية لا مادتها، ولكن أسلوبها. وأرجو أن يتعظوا بهذا المثل الذى ضربه طه حسين للجمع بين الثقافتين ويسيروا فى الطريق الصحيح.

عاهدتكم أن أتكلم عن تفكيره إلا أنى سأعرض لإحدى نواحى حياته، وهى التى تكلم عنها الدكتور مدكور، وهى الكفاح، ولا أزيد عليها كثيرا، وإنما أقول إنى قلت للدكتور طه يوما من الأيام: الناس منك فريقان، فريق يحبك جدا، وفريق لا يطيق أن يسمع اسمك، وإن أحد هؤلاء يرى أنك تعد الأذهان لثورة كالثورة الفرنسية، وأنك تعمل ما عمله (فولتير) (روسو) والانسيكلوبيديين؛ فدهش الدكتور طه لهذا، وقال إنى لا أغضب أن يوصف عملى بمثل هذا الوصف.

لم تكن هذه الدعوة إلى الحرية لترضى أولى الأمر، وكان الملك (فؤاد) له حنكة سياسية فأدرك أن مثل هذه الحرية وخاصة إذا كانت فى الجامعات تؤذى النظام المستتب الذى هو رأسه وعماده وعنوانه، فعزم على ألا يترك الدكتور طه حسين يقوم بهذه الدعوة. وذكر لى الدكتور (مايرهوف) أنه قال للملك فؤاد: إننى لا أتصور مجمعا للغة العربية ليس فيه طه حسين، ومع ذلك رفض الملك أن يجعل طه حسين من بين مؤسسى مجمعنا هذا.

ثم كانت محنة خروجه من الجامعة وانضمت الأمة كلها للدكتور طه حسين ولكن المسئولين انقسموا قسمين: فريق على رأسه لطفى السيد يدعو إلى حرية الفكر، وفريق له رأى عجيب جدا يسوءنى أن أردده هنا، كانوا يقولون ألا يباح للملك أن يغضب على مدرس نحو وصرف. إلى هذا الحد بلغ الجهل ببعض المسئولين الذين لم يقدروا ما فى هذه المحنة من أثر على الحياة الفكرية فى مصر.

ثم جاء الملك فاروق، ولم يرث عن أبيه الحنكة السياسية، ولكنه ورث عنه كره الدكتور طه حسين، كرها يكاد يكون (حساسية)، وأظهر ذلك فى مواقف عديدة وكنت أعلم من خبرة شخصية أن حظ الملك فاروق من الآداب الملكية غير موفور، ولكنى لم أكن أظن أن يعلن الملك ذلك فى صراحة غير لائقة.

ثم دارت الأيام، وأصبح طه حسين وزيرا للتعليم، ووجد فى ذلك فرصة لعمل الإصلاحات التى حدثكم عنها الأستاذ محمد رفعت، ولكن الملك قابله مقابلة جافة جدا عندما ذهب لحلف اليمين، فكان أحد زملائه يقول: لو قابلنى الملك هذه المقابلة لاستقلت فى اليوم التالى. وهذا يدل على أن هذا الزميل لم يعرف ولم يكن له أن يعرف حقيقة الأمر، لأن الدكتور طه فرح جدا بهذا اللقاء الجاف؛ لأنه أقنعه أن الملك هزم، وأنه أحس بالهزيمة.

ثم جاءت حفلات الجامعة المصرية ورفض الملك أن يعطى طه حسين (الباشوية)، وأؤكد لكم وأنا صادق فى هذا — أن الدكتور طه لم

يكن يحرص على هذا اللقب بالمرة ، ولكن رئيس الوزارة قال : إن رفض الملك إعطاء هذا اللقب للدكتور طه حسين يعدّ عدم ثقة بالوزارة، فخضع الملك فى المرة الثانية وأعطاه اللقب .

وقد عيب على الدكتور طه ، أنه أسرف فى مدح "فاروق"، والواقع أنه مدحه بعد أن أخذ منه عنوة كل ما يمكن أن يعطيه الملك إياه ولم يكن له شئ يرجوه بعد ذلك من الملك .

وتفسير ذلك عندى أنها «شنشنة» نعرفها من إخواننا أهل الصعيد ، وأرجو أن يغفروا لى ذلك، لأنى لا أقوله ذماً، وأهل الصعيد حين يتغلب ضعيفهم على قويهم، يحرص على أن يذهب إليه ويمدحه مدحا مسرفاً يدرك كل الناس أنه نوع من التشفى ،وأنه أخذ بثأره قولا بعد أن أخذ بثأره عملا، فلم يكن الدكتور طه فى مدحه المشرق للملك إلا صعيديا بأحسن معانى هذه الكلمة .

وفى ختام كلمتى أود أن أشير إلى أن من الناس أعماله جيدة ، فإذا نظرت إليها فى مجموعها وجدتها أقل من أجزائها ، فإذا نظرت إلى حياته كلها وجدتها شيئا لا يؤبه له ، كذلك الشعراء يعجبك البيت والبيتان فى القصيدة ، وتكون القصيدة مع ذلك ضعيفة ، فإذا نظرت إلى الديوان كله لم تجد شيئا يذكره .

أما الدكتور طه حسين فكان على العكس من ذلك تماما ، أعماله جيدة من غير شك ، ولكن مجموعة أعماله أضخم وأعظم من أجزائها ، حتى إذا نظرت إلى حياته كلها، وجدتها -حقاً- ملحمة رائعة ، أسطورية لا نظير لها .

●●● كلمة الأسرة للمهندس الأستاذ عبد المجيد حسين

شقيق الفقيد

السيد نائب الرئيس ،

سادتى أعضاء المجمع ،

سيداتى ، سادتى

ليس بالشرف القليل أن تتاح لى فرصة الوقوف بينكم لأتحدث إليكم .

ماذا أقول فى شكركم ؟ فأنتم تحتفلون بذكرى فقيد لكم عزيز عليكم ، كان بمجمعكم الموقر حفياً كما كان للغة التى تمثلونها نصيراً وفياً ، ولئن كانت صلة الأسرة بالفقيد صلة رحم وقرابة ونسب ،

فإن صلتكم به أكثر عمقا وأبقى أثراً ، إذ أنها صلة فكر وروح .

وإن لم يكن بد من أن تكون للأسرة كلمة فكلمتنا هي تحية إكبار وإجلال لهذا الوفاء الرائع ، الذي ضربتم له المثل الأعلى في حفلكم هذا الجامع الكريم ، خطباء وسامعين وافدين ومقيمين .

إن روح الفقيد لترفرف عليكم من عليائها لتهدي إليكم عالي الرضى والعرفان ، ولتلهمنا جميعا جميل الصبر والسلوان .

والسلام عليكم ورحمة الله

